الوجيز

في

علوم القرآن العزيز

أ.د. علي بن سليمان العبيد

دار التدمرية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.. *أما بعد:*

فيسرني أن أقدم بين يدي القارئ الكريم المعتني بالقرآن الكريم والدراسات المقدمة حوله عدداً من موضوعات علوم القرآن الكريم كنت قد تناولتها بالشرح والدرس على طلاب جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، وحاولت أن أضبطها وأحررها فيسّر الله ذلك في مدينة المصطفى ﷺ، ونالت بعض الموضوعات زيادة في الدرس والمراجعة كموضوع الوحي ونزول القرآن الكريم والأحرف السبعة، لأهميتها في إثبات النص القرآني ووصوله إلينا، ولما وجدت فيها من تعدد الأقوال، وكثرة الحديث عنها دون الوصول إلى نتيجة، وقد سميته:

«الوجيز في علوم القرآن العزيز»

وتناولت فيه الموضوعات التالية:

الموضوع الأول: مقدمة في أصول التفسير وعلوم القرآن.

الموضوع الثاني: الوحي.

الموضوع الثالث: نزول القرآن الكريم.

الموضوع الرابع: أول ما نزل وآخر ما نزل.

الموضوع الخامس: أسباب النزول.

الموضوع السادس: عموم اللفظ وخصوص السبب.

الموضوع السابع: المكي والمدني.

الموضوع الثامن: فضل القرآن الكريم وآداب تلاوته.

الموضوع التاسع: جمع القرآن الكريم وكتابته.

الموضوع العاشر: الرسم العثماني.

الموضوع الحادي عشر: ترتيب الآيات والسور.

الموضوع الثاني عشر: الأحرف السبعة.

الموضوع الثالث عشر: الناسخ والمنسوخ.

الموضوع الرابع عشر: المحكم والمتشابه.

الموضوع الخامس عشر: الموهم والمختلف.

الموضوع السادس عشر: الوجوه والنظائر.

الموضوع السابع عشر: أمثال القرآن.

الموضوع الثامن عشر: الجدل في القرآن.

الموضوع التاسع عشر: قصص القرآن.

الموضوع العشرون: أقسام القرآن.

الموضوع الحادي والعشرون: الاقتباس وما يجري مجراه.

الموضوع الثاني والعشرون: إعجاز القرآن.

الموضوع الثالث والعشرون: وجوه إعجاز القرآن الكريم.

الموضوع الرابع والعشرون: ترجمة القرآن.

الموضوع الخامس والعشرون: تفسير الكريم ونشأته.

والله تعالى أسأله التوفيق والسداد، والإخلاص في القول والعمل وهو حسبي ونعم الوكيل.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين،،،

أ.د/علي بن سليمان العبيد

الموضوع الأول

مقدمة في أصول التفسير وعلوم القرآن

١ ـ معنى أصول التفسير:

تتكون عبارة «أصول التفسير» من لفظتين هما:

١ ـ أصول. ٢ ـ التفسير.

ويتلخص معنى كل منهما بالآتي:

أصول: جمع أصل وهو ما يبنى عليه غيره كأساس المنزل، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾[١].

التفسير: في اللغة مصدر للفعل «فَسَّر» بمعنى أبان وكشف الغطاء وأزال الساتر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[٢].

وفي الاصطلاح: علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه[٣].

---

(١) سورة إبراهيم الآية (٢٤).
(٢) سورة الفرقان الآية (٣٣).
(٣) البرهان في علوم القرآن ١٣/١.

أما معنى مصطلح **أصول التفسير** بعد أن صار عَلَماً ولقباً لهذا الفن المخصوص فهو: «القواعد والأسس التي يقوم عليها علم التفسير، فيبين الطريقة المثلى في شرح كلام الله وتفسيره» ويشمل ما يتعلق بالمفسر من شروط وآداب وإتقان علوم، وما يتعلق بالتفسير من طرق ومصادر وقواعد ومناهج... ونحو ذلك[1].

٢ ـ معنى علوم القرآن:

تتكون عبارة «علوم القرآن» من لفظتين هما:

١ ـ علوم. ٢ ـ القرآن.

وقبل أن نعرف هذا المصطلح لا بد أن نتعرف على كل لفظة على انفراد.

معنى علوم:

العلوم جمع علم وهو **في اللغة** بمعنى الفهم والإدراك والمعرفة واليقين.

ويطلق **في الاصطلاح** على الفن المدون، وعلى جملة من المسائل والقواعد المضبوطة بجهة واحدة ضبطاً علميا، كعلم الكلام، وعلم النحو، وعلم الأرض، وعلم الكونيات...

معنى القرآن:

القرآن في اللغة:

اختلف العلماء في لفظ «القرآن» هل هو مشتق أو غير مشتق؟ على قولين:

الأول: أنه مشتق، واختلف هؤلاء في اشتقاقه:

١ ـ فقيل إنه مشتق من الفعل «قرأ» بمعنى تلا، فهو مرادف للقراءة كما

(١) تفسير القرآن أصوله وضوابطه ٢٦، ٢٧.

قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ﴿١٨﴾﴾[1] ثم نقل هذا المعنى المصدري فأصبح اسماً لكلام الله المعجز المنزل على نبيه محمد ﷺ وذلك من باب إطلاق المصدر على مفعوله. وعلى هذا فلفظ «قرآن» مهموز، وإذا تركت الهمزة فهو للتخفيف، وتنقل حركتها إلى الساكن قبلها.

٢ ـ وقيل إنه وصف على وزن «فُعْلان»، فهو مشتق من القَرْء بمعنى الجمع، ومنه قرأت الماء في الحوض إذا جمعته. ثم سمي به الكلام المنزل على نبيه محمد ﷺ، لأنه جمع السور والآيات فيه، أو لجمعه القصص والأوامر والنواهي، أو لجمعه ثمرات الكتب السابقة. وعلى هذا فلفظ «قرآن» مهموز[2].

٣ ـ وقيل: إنه مشتق من قرنت الشيء بالشيء إذا ضممته إليه. ثم جعل علما على اللفظ المنزل على رسول الله ﷺ. وسمي بذلك: لقران السور والآيات والحروف فيه بعضها ببعض[3].

٤ ـ وقيل: إنه مشتق من القرائن، لأن الآيات فيه يصدق بعضها بعضا ويشابه بعضها بعضا، وهي قرائن أي: أشباه ونظائر[4]. وعلى هذين القولين فلفظ «القرآن» غير مهموز، ونونه أصلية. بخلاف القولين السابقين لهما فنونه زائدة.

الثاني: وذهب إليه الشافعي وقال: إن لفظ «القرآن» المعرف بأل ليس مهموزاً ولا مشتقاً بل: وُضِع عَلَماً على الكلام المنزل على النبي ﷺ. فهو اسم للقرآن مثل التوراة والإنجيل[5].

---

(١) سورة القيامة الآية (١٧، ١٨).

(٢) روي هذا القول عن الزجاج، انظر البرهان في علوم القرآن ٢٧٨/١.

(٣) روي هذا القول عن الأشعري، انظر البرهان في علوم القرآن ٢٧٨/١.

(٤) روي هذا القول عن الفراء. البرهان في علوم القرآن (٢٧٨/١).

(٥) تاريخ بغداد ٦٢/٢ «ترجمة الإمام الشافعي».

القرآن في الاصطلاح:

يطلق القرآن في الاصطلاح على أنه:

«كلام الله[١]، المنزل على نبيه محمد ﷺ[٢]، المعجز بلفظه، المتعبد بتلاوته، المنقول بالتواتر، المكتوب في المصاحف من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس».

فقولنا «كلام الله» خرج به ما سواه من كلام البشر والجن والملائكة.

وقولنا «المنزل على نبيه محمد ﷺ» خرج به المنزل على غيره من الأنبياء كالتوراة والإنجيل والزبور والصحف.

وقولنا: «المعجز بلفظه» خرج به الحديث القدسي[٣] والنبوي[٤] فإن كلا منهما لم ينزل للإعجاز.

وقولنا: «المتعبد بتلاوته» خرج به الأحاديث القدسية فإنها ليست متعبداً بتلاوتها.

وقولنا: «المنقول بالتواتر» خرج به ما سوى القرآن المتواتر من منسوخ التلاوة مثل: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله»[٥] والقراءات الشاذة كقراءة ابن مسعود في قوله تعالى في كفارة الأيمان: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾[٦] بزيادة متتابعات.

---

(١) المقصود بكلام الله أي: لفظاً ومعنى، بخلاف الأشعرية والماتريدية إذ يقولون إن القرآن كلام الله أي معناه، ويقولون: بأن الكلام يعبر به عن المعنى القائم في النفس في بعض المواضع دون اللفظ.

(٢) أي بواسطة جبريل عليه السلام.

(٣) الحديث القدسي: هو حديث أضافه النبي ﷺ إلى الله تعالى، ومعناه من عند الله، ولفظه من عند الرسول ﷺ وقيل من عند الله كالقرآن.

(٤) الحديث النبوي: هو ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو وصف. ومعناه من عند الله، ولفظه من النبي ﷺ.

(٥) سبل السلام ١٢/٤ رقم الحديث ١٢٣٥.

(٦) سورة المائدة الآية (٨٩).

أما معنى علوم القرآن بعد أن صار عَلَماً لهذا الفن فيمكن تعريفه بتعريفين:

الأول: «كل المعارف والعلوم المتصلة بالقرآن الكريم والتي تبحث فيه من أي ناحية من نواحيه المتعددة من حيث نزوله، وترتيبه، وكتابته، وجمعه، وقراءاته، وإعجازه، وناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، وغريبه، وإعرابه، وأمثاله، إلى غير ذلك من العلوم الكثيرة التي توسع العلماء في بحثها».

والمقصود به: أن كل علم منها يدرس القرآن كله من زاوية اختصاصه آية آية دراسة تفصيلية.

الثاني: «علم يضم أبحاثاً كلية هامة، تتصل بالقرآن العظيم من نواحي شتى»(١).

والمقصود به: أنه علم يجمع ضوابط العلوم والأبحاث المتصلة بالقرآن الكريم، والتي تبحث فيه من أي ناحية من نواحيه من حيث: نزوله، وترتيبه، وجمعه، وكتابته، وتفسيره... وهو المقصود بعلوم القرآن عند إطلاقه.

٣ ـ الفرق بين علوم القرآن وأصول التفسير:

يتبين من التعريفين السابقين لهما أن بينهما عموماً وخصوصاً فعلوم القرآن: علم عام يدخل فيه أصول التفسير، بينما علم أصول التفسير: علم خاص ولا يدخل فيه علوم القرآن. وقد ضم بعض العلماء مباحث علم أصول التفسير ضمن علوم القرآن كالزركشي في البرهان والسيوطي في الإتقان، وهناك من العلماء من رأى جواز إطلاق أصول التفسير على علوم القرآن من باب إطلاق الجزء على الكل.

قال مناع القطان: «وقد يسمى هذا العلم ـ أي علوم القرآن ـ بأصول

---

(١) مقدمة تحقيق كتاب فنون الأفنان ٧١.

التفسير لأنه يتناول المباحث التي لا بد للمفسر من معرفتها للاستناد إليها في تفسير القرآن»[1] وقد يسمى هذا العلم بـــ: «أصول التفسير» وذلك لأنه يتناول المباحث التي لا بد للمفسر من معرفتها للاستناد إليها في تفسير القرآن الكريم.

٤ ـ فائدة علوم القرآن:

لدراسة علوم القرآن الكريم فوائد عديدة من أهمها:

١ ـ أنه يساعد على دراسة القرآن الكريم، وفهمه حق الفهم واستنباط الأحكام والآداب منه، فلا بد لمفسر كتاب الله ودارسه من معرفة: كيف نزل؟ ومتى نزل؟ وعلى أي حال كان ترتيب سوره وآياته؟ وبأي شيء كان إعجازه؟ وما هو ناسخه ومنسوخه، وأسباب نزوله... وغير ذلك. فهو للمفسر مفتاح له، فهو مثل «علوم الحديث» لمن أراد أن يدرس الحديث دراسة حقة.

٢ ـ أن الدارس لهذا العلم يتعرف على الشبهات التي أثارها أعداء الإسلام فيما شنوه على القرآن الكريم زوراً وبهتانا وكيف يرد عليها.

٣ ـ يتم عن طريقه معرفة طريقة المفسرين وأساليبهم في التفسير مع بيان مشاهيرهم، ومعرفة خصائص كل من المفسرين، وشروط التفسير... وغير ذلك من دقائق هذا العلم.

٥ ـ تاريخ علوم القرآن:

مر علوم القرآن الكريم بعدة مراحل حتى أصبح علماً قائماً بنفسه ويمكن إيجاز هذه المراحل بالآتي:

المرحلة الأولى: قبل عصر التدوين

كان القرآن الكريم ينزل على النبي ﷺ، ويُبلغ ما ينزل عليه لأصحابه

(١) مباحث في علوم القرآن ١٦.

على مُكْث، أي: مهل وتؤدة ليحسنوا أخذه، ويحفظوا لفظه، ويفهموا سره.

ثم شرح لهم الرسول ﷺ القرآن بقوله، وبعمله، وبتقريره، وبخلقه. أي: بسنته الجامعة لأقواله وأفعاله وتقريراته وصفاته، وذلك امتثالاً لأمر الله تعالى له ببيان القرآن بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]، وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾[2].

وكان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يحرصون غاية الحرص على حفظ ما ينزل من القرآن، كما كانوا يعرفون من معاني القرآن وأسراره الشيء الكثير، لكونهم عرباً خلصا، ولأنهم شاهدوا الوحي والتنزيل، وعلموا من الظروف والملابسات ما لم يعلمه غيرهم، وسمعوا من النبي ﷺ ما لم يسمعه غيرهم.

ومن يتتبع سير الصحابة رضوان الله عليهم يجد أن كل واحد منهم كان متبحراً وحجة في أحد علوم القرآن. فمثلاً:

عبدالله بن مسعود (ت ٣٢هـ) كان من أعلم الصحابة بأسباب النزول، والمكي والمدني، وقراءات القرآن، روى البخاري بسنده عنه أنه قال: «والله الذي لا إله غيره ما من آية من كتاب الله إلا وأعلم أين نزلت؟ وفيم نزلت؟ ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه المطايا لركبت إليه».

وأبي بن كعب (ت ٣٠هـ) كان عالماً بالقراءات.

وعبدالله بن عباس (ت ٦٨هـ) كان بحراً في التفسير عالماً بالتأويل.

قال فيه النبي ﷺ: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل».

وقال فيه عبدالله بن مسعود: «نعم ترجمان القرآن عبدالله بن عباس».

---

(١) سورة النحل الآية (٤٤).

(٢) سورة النساء الآية (١٠٥).

وقال هو: «لو أردت أن أملى وِقْر بعير على الفاتحة لفعلت»[١].

وكان أغلب الصحابة مع ما امتازوا به أميين، وأدوات الكتابة لم تكن ميسورة لديهم، والرسول ﷺ نهاهم أن يكتبوا عنه شيئاً غير القرآن، وقال لهم أول العهد بنزول القرآن فيما رواه مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه «لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه، وحدثوا عني ولا حرج، ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[٢]. فنهاهم عن الكتابة مخافة أن يلتبس القرآن بغيره، أو يختلط بالقرآن ما ليس منه ما دام الوحي نازلاً بالقرآن[٣].

ومن هنا لم يكتب علوم القرآن كما لم يكتب الحديث الشريف.

إذن: المعول عليه في عهد النبي ﷺ في علوم القرآن هو الرواية والتلقي عن الغير والمشافهة لا الخط والكتابة.

المرحلة الثانية: عهد التمهيد لتدوين علوم القرآن

لما جاءت خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقد اتسعت رقعة الإسلام، واختلط المسلمون بغيرهم من الأمم التي لا تعرف العربية، خيف على القرآن نفسه أن يختلف المسلمون فيه إن لم يجتمعوا على مصحف إمام، كما خيف أن تذوب خصائص العروبة من العرب من جراء هذا الفتح والتوسع.

لهذا أمر رضي الله عنه أن يُجمع القرآن في مصحف إمام وأن يُنسخ منه مصاحف يبعث بها إلى أقطار الإسلام، وأن يحرق ما عداها ولا يعتمد سواها.

---

(١) البرهان في علوم القرآن ٨/١.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٢٢٩٨/٤ في كتاب: الزهد والرقائق، باب: التثبت في الحديث.

(٣) ثم نسخ الأمر بعد ذلك حيث رخص رسول الله ﷺ لعبدالله بن عمرو بالكتابة وأمر بالكتابة لأبي شاه من أهل اليمن ـ وخلّف كتاباً عند علي بن أبي طالب.

وبهذا العمل وضع عثمان رضي الله عنه الأساس لما نسميه علم:

«رسم القرآن» أو «علم الرسم العثماني» وهو أحد علوم القرآن.

ثم جاء علي رضي الله عنه فأمر أبا الأسود الدؤلي (ت ٦٩هـ) أن يضع قواعد الشكل لحماية القرآن الكريم واللسان العربي من العجمة.

وقيل إن الذي وضع هذه القواعد نصر بن عاصم (ت ٨٩هـ). ويمكن أن يعتبر ذلك أساساً لعلم: «إعراب القرآن».

وقد اشتهر من الصحابة والتابعين وتابعيهم ممن مهدوا لهذا العلم بالرواية والتلقين لا بالكتابة والتدوين:

فمن الصحابة: الخلفاء الأربعة، وابن عباس، وابن مسعود، وزيد بن ثابت، وأبي بن كعب، وأبو موسى الأشعري، وعبدالله بن الزبير.

ومن التابعين: مجاهد، وعطاء بن يسار، وعكرمة، وقتادة، والحسن البصري، وسعيد بن جبير، وزيد بن أسلم.

ومن تابعي التابعين: مالك بن أنس، وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم، وأبو العالية الرياحي.

فهؤلاء هم الواضعون لما نسميه علم التفسير، وعلم أسباب النزول، وعلم المكي والمدني، وعلم الناسخ والمنسوخ، وعلم غريب القرآن.

المرحلة الثالثة: عهد التدوين

بعد أن جاء القرن الثاني الهجري، وبدأ التدوين جمع بعض العلماء ما روي من تفسير للقرآن الكريم عن النبي ﷺ، أو عن صحابته، أو عن التابعين، وممن اشتهر بجمع التفسير:

١ - مجاهد بن جبر (ت ١٠٤هـ).

٢ - الضحاك بن مزاحم (ت ١٠٥هـ) وقد نسب إليه تفسير كامل للقرآن.

٣ - عكرمة مولى ابن عباس (ت ١٠٧هـ).

٤ ـ الحسن البصري (ت ١١٠هـ).

٥ ـ عطاء بن أبي رباح (ت ١١٤هـ).

٦ ـ قتادة بن دعامة السدوسي (ت ١١٧هـ).

٧ ـ يزيد بن هارون السلمي (ت ١١٧هـ).

٨ ـ مقاتل بن سليمان البلخي (ت ١٥٠هـ) (وتفسيره مطبوع).

٩ ـ شعبة بن الحجاج (ت ١٦٠هـ).

١٠ ـ سفيان الثوري (ت ١٦١هـ).

١١ ـ وكيع بن الجراح (ت ١٩٧هـ).

١٢ ـ سفيان بن عيينة (ت ١٩٨هـ).

١٣ ـ يحيى بن سلام (ت ٢٠٠هـ) (وتفسيره مطبوع جزء منه).

١٤ ـ عبدالرزاق بن همام الصنعاني (ت ٢١١هـ)، (وتفسيره مطبوع).

ثم تلا هؤلاء ابن جري الطبري (ت ٣١٠هـ) فوضع تفسيره المشهور «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» الذي يعد من أجل التفاسير وأعظمها فقد عرض الأقوال وصنفها ووجه بينها، فهو إذن أول من عرض لتوجيه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض، كما عرض للإعراب والاستنباط.

وبإزاء التأليف في التفسير كان التأليف في علوم القرآن، وسار باتجاهين:

الأول: التأليف الموضوعي بأن أُفرد كل موضوع أو نوع منه في مؤلف مستقل

فممن ألف في ذلك:

١ ـ قتادة السدوسي (ت ١١٧هـ) له الناسخ والمنسوخ (مطبوع).

٢ ـ محمد بن مسلم بن شهاب الزهري (ت ١٢٤هـ) له الناسخ والمنسوخ.

٣ ـ مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠هـ) له الناسخ والمنسوخ، والأشباه والنظائر، ومتشابه القرآن، وتفسير الخمسمائة آية من القرآن الكريم.

٤ ـ يحيى بن سلام (ت ٢٠٠هـ) له التصاريف.

٥ ـ أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢١٠هـ) ألف: مجاز القرآن.

٦ ـ أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ) له: الناسخ والمنسوخ، وفضائل القرآن، وغريب القرآن، ومؤلف في القراءات.

٧ ـ علي بن المديني «شيخ البخاري» (ت ٢٣٤هـ) ألف: في أسباب النزول.

٨ ـ ابن قتيبة عبدالله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦هـ) ألف: تأويل مشكل القرآن (مطبوع)، وغريب القرآن (مطبوع).

٩ ـ محمد بن أيوب الضريس (ت ٢٩٤هـ) ألف فضائل القرآن وما أنزل من القرآن بمكة وما نزل بالمدينة.

١٠ ـ أبو بكر السجستاني (ت ٣٣٠هـ) ألف: غريب القرآن.

١١ ـ أبو جعفر النحاس (ت ٣٣٨هـ) ألف: الناسخ والمنسوخ (مطبوع).

١٢ ـ أبو بكر الباقلاني (ت ٤٠٣هـ) ألف: إعجاز القرآن.

١٣ ـ ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) ألف: التبيان في أقسام القرآن.

ثم توالت المؤلفات في كل علم من علومه.

الثاني: التأليف الموسوعي في علوم القرآن:

رأى بعض العلماء أن يجمعوا هذه الأنواع في كتاب مستقل فاستخلصوا من هذه العلوم علماً واحداً، فممن ألف في ذلك:

١ ـ أبو عبدالله الحارث بن أسد المحاسبي (ت ٢٤٣هـ) ألف: فهم القرآن، وهو مطبوع بتحقيق حسين القوتلي مع كتاب آخر للمحاسبي باسم: «العقل وفهم القرآن»، ومن الموضوعات التي بحثها: فضائل

القرآن، فقه القرآن، المحكم والمتشابه، ما لا يجوز النسخ فيه وما يجوز فيه، الناسخ والمنسوخ في الأحكام، في أساليب القرآن، التقديم والتأخير، الإضمار، الحروف الزائدة، المفصول والموصول.

٢ ـ محمد بن خلف بن المرزبان (ت ٣٠٩هـ) ألف: كتاب «الحاوي في علوم القرآن» قال عنه ابن النديم: «إنه يقع في سبع وعشرين جزءاً»[(١)]

٣ ـ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (ت ٣٢٤هـ) ألف: «المختزن في علوم القرآن».

٤ ـ محمد بن علي الأدفوي (ت ٣٨٨هـ) ألف: «الاستغناء في علوم القرآن» في عشرين مجلداً، وهو أقرب إلى تفسير القرآن، ولكن يجمع فيه ضروباً من علوم القرآن.

٥ ـ أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري (ت ٤٠٢هـ) ألف: التنبيه على فضل علوم القرآن وقد حقق ونشر في مجلة المورد العدد (٤) المجلد (١٧) عام ١٤٠٩هـ. وتحدث فيه عن: علم نزول القرآن وجهاته، وترتيب ما نزل بمكة ابتداء ووسطاً.

٦ ـ علي بن إبراهيم الحوفي (ت ٤٣٠هـ) ألف: «البرهان في علوم القرآن» ويقع في ثلاثين جزءاً[(٢)].

٧ ـ ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) ألف: «فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن» و «المجتبي في علوم القرآن».

٨ ـ أبو شامة المقدسي (ت ٦٦٥هـ) ألف: «المرشد الوجيز في علوم تتعلق بالقرآن العزيز».

٩ ـ بدر الدين الزركشي (ت ٧٩٤هـ) ألف: «البرهان في علوم القرآن».

---

(١) يوجد منه نسخة خطية في مكتبة البلدية بالاسكندرية عن مباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح ١٢٢.

(٢) الذي يظهر أنه في تفسير القرآن. وقد أشار حاجي خليفة إلى أن اسمه «البرهان في تفسير القرآن».

١٠ ـ جلال الدين البلقيني عبدالرحمن بن رسلان (ت ٨٢٤هـ) ألف: «مواقع العلوم من مواقع النجوم» وهو في علوم القرآن.

١١ ـ جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) له: «التحبير في علوم التفسير» و«الإتقان في علوم القرآن».

١٢ ـ ابن عقيلة المكي (ت ١١٥٠هـ) له: «الزيادة والإحسان في علوم القرآن».

وفي القرن الأخير أقبل كثير من العلماء على تصنيف الكتب في علوم القرآن.

ومن هذه الكتب:

١ ـ التبيان في علوم القرآن للشيخ طاهر الجزائري.

٢ ـ منهج الفرقان في علوم القرآن محمد علي سلامة.

٣ ـ مناهل العرفان في علوم القرآن لعبدالعظيم الزرقاني (ت ١٣٦٧هـ).

٤ ـ المدخل لدراسة القرآن الكريم لمحمد أبو شهبة.

٥ ـ مباحث في علوم القرآن لمناع القطان (ت ١٤٢٠هـ).

٦ ـ مباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح (ت ١٤٠٧هـ).

٧ ـ لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير لمحمد لطفي الصباغ.

٨ ـ التبيان في علوم القرآن لمحمد علي الصابوني.

ومن المؤلفات في أصول التفسير:

١ ـ مقدمة في أصول التفسير لشيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ).

٢ ـ التيسير في قواعد علم التفسير للكافيجي (ت ٨٧٩هـ).

٣ ـ الفوز الكبير في أصول التفسير لشاه أحمد ولي الله الدهلوي (ت ١١٧٦هـ).

٤ ـ أصول في التفسير للشيخ محمد بن صالح العثيمين (ت ١٤٢١هـ).

٦ ـ التعريف بأهم كتب علوم القرآن الكريم:

البرهان في علوم القرآن للزركشي

المؤلف:

هو بدر الدين محمد بن عبدالله بن بهادر الزركشي. ولد بالقاهرة سنة (٧٤٥هـ)، وهو تركي الأصل. انتظم في حلقات الدروس، وتفقه بمذهب الشافعي، وحفظ كتاب «المنهاج» في الفروع للإمام النووي، وصار يعرف بـــ: «المنهاجي» نسبة إلى هذا الكتاب.

أخذ عن جمال الدين الأسنوي رئيس الشافعية بمصر وعن سراج الدين البلقيني، كما أخذ عن الحافظ ابن كثير الحديث بدمشق، وعن الأذرعي الفقه والأصول بحلب.

برز في الفقه وأصوله، والتفسير وعلوم القرآن والأدب وغيرها من العلوم، وترك عدة مؤلفات في هذه الفنون من أهمها:

١ ـ إعلام الساجد بأحكام المساجد.

٢ ـ البحر المحيط في أصول الفقه. طبع بتحقيق أبو الوفا المراغي سنة (١٣٨٥هـ).

٣ ـ تفسير القرآن العظيم، وصل فيه إلى سورة مريم.

٤ ـ التنقيح لألفاظ الجامع الصحيح. طبع بمصر سنة (١٩٣٣م).

٥ ـ القواعد في الفروع.

٦ ـ المعتبر في تخريج أحاديث المنهاج والمختصر.

٧ ـ البرهان في علوم القرآن.

وفــاتــه:

توفي بمصر سنة (٧٩٤هـ) ودفن بالقرافة الصغرى.

الكتاب:

يعد كتاب «البرهان في علوم القرآن» من أهم الكتب المؤلفة في علوم القرآن. جمع فيه الزركشي عصارة أقوال المتقدمين من العلماء المحققين حول القرآن الكريم وقد ضم سبعة وأربعين نوعاً كل نوع يدور حول موضوع خاص من علوم القرآن ومباحثه.

ويبحث في كل نوع ـ غالباً ـ في الأمور التالية:

١ ـ التأريخ له.

٢ ـ أهم المؤلفات فيه.

٣ ـ العلماء الذين تدارسوه.

٤ ـ أهم مسائل هذا العلم وما يتفرع عنه، ويستشهد عليها بالقرآن والسنة وأقوال العلماء.

٥ ـ النقل عن العلماء الذين تحدثوا في هذا النوع فضم أقوال المفسرين والمحدثين إلى جانب الفقهاء والأصوليين والمتكلمين واللغويين.

وقد امتاز الكتاب: بحسن التبويب والترتيب، ووضوح المنهج، وغزارة المادة العلمية، مع البعد عن الحشو والتطويل. وقد عده السيوطي أصلاً من الأصول التي بنى عليها كتابه، واتبع طريقته، وسار في الدرب الذي رسمه، ونقل منه كثيراً من فصوله مرة بعزو ومرات بدون عزو عفا الله عنه.

وقد طبع هذا الكتاب في أربعة مجلدات بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي

المؤلف:

هو جلال الدين عبدالرحمن بن الكمال أبي بكر السيوطي ولد سنة (٨٤٩هـ) بالقاهرة ونشأ فيها، وحفظ القرآن وله دون ثمان سنين، وشرع

في الاشتغال بالعلم وعمره خمسة عشر عاما، وبالتدريس والإفتاء وعمره سبعة وعشرين عاما. وسافر إلى الحجاز والشام واليمن والهند والمغرب والتكرور. وفي نهاية عمره اعتزل الناس واشتغل بالتصنيف وترك ما يقرب من (٦٠٠) مصنف في مختلف الفنون ومن أهم كتبه في التفسير وعلوم القرآن:

١ ـ الإكليل في استنباط التنزيل.

٢ ـ التحبير في علم التفسير.

٣ ـ ترجمان القرآن.

٤ ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور.

٥ ـ تفسير الجلالين، جزء منه.

٦ ـ لباب النقول في أسباب النزول.

٧ ـ متشابه القرآن.

٨ ـ المذهب فيما وقع في القرآن من المعرب.

٩ ـ مفحمات الأقران في مبهمات القرآن.

١٠ ـ مجمع البحرين ومطلع البدرين، في التفسير.

١١ ـ ناسخ القرآن ومنسوخه، وغيرها.

وفـاتـه:

توفي السيوطي سنة (٩١١هـ) في القاهرة ودفن فيها.

الكتاب:

يعد كتاب الإتقان أحد الكتب المهمة في علوم القرآن الكريم ومرجعاً لا يستغني عنه أي باحث في هذا الفن وامتاز بحسن التبويب والتأليف، والاستيعاب لغالب علوم القرآن، وجمع فيه مؤلفه من الفوائد والمسائل ما لم يجتمع في كتاب، وضم فيه من الأقوال والمسائل المتفرقة في روايات

المحدثين، وأقوال العلماء، ومقدمات كتب المفسرين كالطبري، والزمخشري، والحوفي، وابن عطية، والقرطبي، كما نقل عن كتب القراءات، والبلاغة والنقد، وكثير من الكتب التي لم تصلنا إلى الآن.

وقد اشتمل كتاب الإتقان على ثمانين نوعاً من أنواع علوم القرآن ذكر أنها على سبيل الإدماج، ولو نوعت باعتبار ما أدمجه في ضمنها لأوفى عددها على الثلاثمائة.

وطريقته في تصنيفها:

١ ـ أن يذكر عنوان الموضوع.

٢ ـ أن يذكر أشهر من ألف فيه.

٣ ـ بيان فائدة معرفته.

٤ ـ أهميته في تفهم القرآن وتفسير معانيه.

٥ ـ بيان مسائل هذا النوع وما يشتمل عليه من فروع وذيول، ويستشهد على ذلك بالقرآن والحديث وأقوال العلماء، وينقل نصوصا من الكتب التي ألفت فيه أحيانا فصولاً كاملة أو مختصراً منها، وكثيراً ما يذيل هذه الأبواب برأيه.

ومما يؤخذ عليه إيراده لبعض الروايات الضعيفة والأحاديث التي لم تثبت صحتها.

طبع هذا الكتاب الطبعة الأولى في كلكتا سنة (١٢٧١هـ) ثم بمصر سنة (١٢٧٨هـ) ثم طبع بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، وأخيراً طبع محققاً في سبعة مجلدات بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

مناهل العرفان في علوم القرآن

المؤلف:

هو الشيخ محمد عبدالعظيم الزرقاني، من المحافظة الغربية من مصر.

درس بالمدارس الأزهرية، وتخرج في كلية أصول الدين، ونال العالمية «الماجستير» سنة (١٩٢٥م) وعمل بالتدريس في المعاهد الأزهرية ثم بالتدريس في كلية أصول الدين عام (١٩٣٩م).

له عدة مؤلفات منها: مناهل العرفان، والمنهل الحديث في علوم الحديث، وله عدة بحوث ومقالات كان ينشرها في المجلات.

وفـاتـه:

توفي المؤلف رحمه الله سنة (١٣٦٧هـ).

الكتاب:

تعرض المؤلف لأهم مباحث وأنواع علوم القرآن، وبلغ ما تعرض له سبعة عشر مبحثاً.

وطريقته في كتابه:

أنه جعل لكل مبحث مسائل منوعة تندرج تحته كما وضع لكثير من هذه المسائل والتفريعات عناوين خاصة تدل عليها، وأبرز ما يتعرض له المؤلف:

١ ـ بيان معنى العنوان.

٢ ـ فوائد معرفة أو دراسة هذا المبحث.

٣ ـ إبراز أسرار التشريع وحِكَمه، وبيان العلاقة بين الإسلام والعلم كلما دعا المقام إلى ذلك.

٤ ـ يبين خلاف العلماء في المسألة التي هو بصددها مع عرض أدلتهم ومناقشتها، ثم يذكر القول الراجح.

٥ ـ يسوق الشبه المتعلقة بموضوعه، ثم يحاول الإجابة عليها.

وقد صاغ المؤلف كتابه بعبارة أدبية جيدة، يتخللها أحيانا حِكَم رقيقة وأمثال بليغة.

أهم ما امتاز به الكتاب:

١ ـ جمع مؤلفه في المباحث التي تعرض لها الكثير من الفوائد والتحقيقات المستمدة من سائر التخصصات العلمية.

٢ ـ جمع بين التحقيق العلمي، والأسلوب العصري.

٣ ـ ربط بين الدين والمعارف الأخرى، بالإضافة إلى محاولة بيان أسرار التشريع وحِكَمه.

أهم الملحوظات عليه:

١ ـ اعتقاد المؤلف معتقد الأشاعرة وتقريره له كنفيه للعلو والاستواء، وتأويله لصفة الوجه واليد والعين والمجيء، ويعتبر آيات الصفات من المتشابه من جهة المعنى.

٢ ـ مجاراته لأصحاب التصوف في بعض عباراتهم ولحونهم.

٣ ـ إسراف المؤلف في ذكر الشبه وعرضها حتى زادت على المائة في الكتاب مع أن كثيراً منها ليست شبها بالمعنى المتبادر إلى الأذهان. فبعضها إما متهافت من أصله لا يستحق ذكره والإجابة عنه، أو أن أصلها حديث ضعيف أو موضوع، أو أن بعضها عبارة عن أدلة لبعض العلماء حول مسألة فقهية أو ما يشبه ذلك.

مباحث في علوم القرآن، لمناع القطان

المؤلف:

هو مناع خليل القطان ولد في شنشور بمصر سنة (١٩٢٥م)، حفظ القرآن وهو صغير ودرس في معاهد الأزهر ثم في كلية أصول الدين فيه، له عدة أنشطة في مجال الدعوة. أتى إلى المملكة العربية السعودية سنة (١٩٥٣م) فدرس بالمعاهد العلمية ثم في كلية الشريعة ثم أشرف على الدراسات العليا بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية وهو أحد أعضاء هيئة التدريس في كلية أصول الدين.

له عدة مؤلفات منها:

١ ـ تفسير آيات الأحكام.

٢ ـ مزايا الثقافة الإسلامية.

٣ ـ مباحث في علوم الحديث.

٤ ـ التشريع والفقه في الإسلام، وغيرها.

٥ ـ مباحث في علوم القرآن.

وفـاتـه:

توفي الشيخ مناع القطان بالرياض سنة (١٤٢٠هـ).

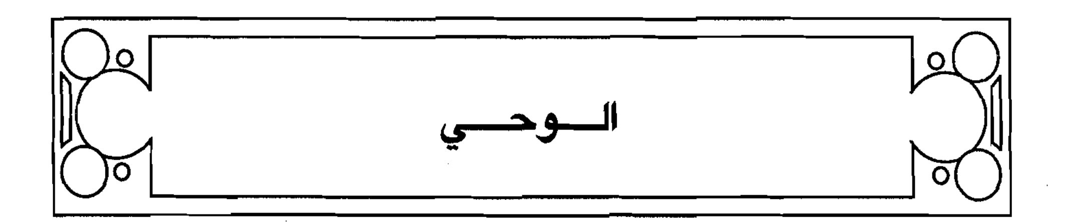
الكتاب:

يبحث الكتاب في علوم القرآن وأصول التفسير، قَسَّم المؤلف كتابه إلى تسعة وعشرين موضوعاً ثم تكلم في كل موضوع على حدة.

امتاز الكتاب بسهولة الأسلوب، ويسر البحث عن موضوعاته لحسن ترتيبه وتقسيمه إلى موضوعات عدة.



الموضوع الثاني



الوحي في اللغة:

الوحي: مصدر، يقال: وحيت إليه وأوحيت إليه إذا كلمته بما تخفيه عـــن غـــيـــره.

وأصل الوحي: الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه إليه بحيث يخفى

على غيره، فالوحي: الإشارة، والوحي: الكتاب والرسالة، وكل ما ألقيته إلى غيرك حتى علمه فهو وحي كيف كان[1].

ووحي الله إلى أنبيائه روعي فيه المعنيان الأصليان (الخفاء، والسرعة).

إطلاقات الوحي في القرآن:

ورد الوحي في القرآن الكريم بإطلاقات عدة فمنها:

١ ـ الإلهام الفطري للإنسان: كالوحي إلى أم موسى كما في قوله تعالى:

(١) انظر: تهذيب اللغة ٢٩٧/٥، ولسان العرب ٣٧٩/١٥، ٣٨٠ مادة «وحي».

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾[١].

٢ ـ الإلهام الغريزي للحيوان: كالوحي إلى النحل كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ﴾[٢].

٣ ـ الإشارة السريعة على سبيل الرمز والإيحاء: كإيحاء زكريا فيما حكاه القرآن عنه كما في قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾[٣] أي: أشار إليهم ولم يتكلم.

٤ ـ وسوسة الشيطان وتزيينه الشر في نفس الإنسان كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ﴾[٥].

٥ ـ إلقاء الله بما يريد إلقاءه للملائكة كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ﴾[٦].

٦ ـ إلقاء الله الوحي إلى أنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾[٧].

---

(١) سورة القصص الآية (٧).
(٢) سورة النحل الآيتان (٦٨، ٦٩).
(٣) سورة مريم الآية (١١).
(٤) سورة الأنعام الآية (١٢١).
(٥) سورة الأنعام الآية (١١٢).
(٦) سورة الأنفال الآية (١٢).
(٧) سورة النساء الآية (١٦٣).

٧ - الموحى به: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝﴾[1].

الـــوحـــي في الـــشـــرع:

له تعريفان:

الأول: «أنه إعلام الله تعالى لنبي من أنبيائه بحكم شرعي ونحوه بطريقة خفية سريعة» وهو تعريف للوحي بالمعنى المصدري فهو بمعنى الإيحاء[2].

الثاني: أنه «كلام الله تعالى المنزل على نبي من أنبيائه» وهو تعريف له بمعنى اسم المفعول أي: الموحى به.

ويلاحظ أن الوحي بالمعنى الشرعي لا يخرج عن نطاق المعنى اللغوي والفرق بينهما هو الفرق بين العام والخاص.

فالوحي بالمعنى اللغوي: عام يشمل كل إعلام في خفاء.

والوحي بالمعنى الشرعي: خاص لا يتناول إلا ما كان من الله لنبي من أنبيائه.

والوحي أمر غيبي لسنا مكلفين بمعرفة ما غاب عنا من ذلك فكما أن الجهل به لا يضر فالعلم به لا ينفع.

وسنأخذ منه ما ورد في شأنه من النصوص الشرعية.

أنـــواع الـــوحـــي:

١ - وحي الله إلى الملائكة:

لقد ورد في القرآن الكريم ما ينص على كلام الله لملائكته بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا

---

(١) سورة الأنعام الآية (٤)، وانظر: كشف السرائر في معنى الوجوه والنظائر ٢٢٥.

(٢) انظر: المدخل لدراسة القرآن ٨٤.

مَن يُفسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾[(١)].

وورد ما يدل على إيحائه لهم بقوله: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ﴿١٢﴾﴾[(٢)].

ففي ذلك دلالة على أن الله يكلم الملائكة دون واسطة بكلام يفهمونه.

أما كيف تلقى جبريل الوحي عن الله: فإن المعتقد الأسلم هو ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة من أن جبريل أخذ القرآن الكريم سماعاً من الله دون واسطة، ثم بلغه ـ بصدق وإتقان وضبط وأمانة ـ محمداً ﷺ.

ويدل عليه قوله تعالى: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾[(٣)].

يقول ابن تيمية: «فقوله: ﴿نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ بيان لنزول جبريل به من الله ﷻ، فإن روح القدس هنا هو جبريل.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾[(٤)] فيه إخبار الله بأنه أنزله، لكن ليس في هذه اللفظة بيان أن روح القدس نزل به، ولا أنه منزل منه»[(٥)].

ومن الأدلة أيضاً ما أخرجه ابن جرير وابن خزيمة وابن أبي حاتم والطبراني عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله تبارك وتعالى أن يوحي بأمره تكلم بالوحي، فإذا تكلم أخذت

---

(١) سورة البقرة الآية (٣٠).
(٢) سورة الأنفال الآية (١٢).
(٣) سورة النحل الآية (١٠٢).
(٤) سورة النحل الآية (١٠١).
(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١١٨/١٢، وانظر: ٢٢١/١٥.

السماواتُ منه رجفة ـ أو قال رعدة شديدة ـ من خوف الله تعالى، فإذا سمع بذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجدا فيكون أول من يرفعُ رأسَه جبريلُ عليه السلام فيكلمه الله من وحيه بما أراد، فيمضي به جبريل عليه السلام على الملائكة كلما مر بسماء يسأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل، فيقول عليه السلام: قال الحق وهو العلي الكبير، فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله تعالى من السماء والأرض»[١].

ففي هذا الحديث دلالة على أن كيفية الوحي تكلم من الله، وسماع من الملائكة.

وما يقال إنما نزل جبريل بالمعاني خاصة، وأنه ﷺ علم تلك المعاني وعبر عنها بلغة العرب، فنقول إن هذا ينطبق على السنة، لأنها وحي من الله أوحي إلى جبريل، ثم إلى محمد ﷺ بالمعنى فعبر عنه رسول الله ﷺ بعبارته، ولهذا جازت رواية السنة بالمعنى بما لا يحيل المعنى، أما القرآن فلا.

٢ ـ وحي الله إلى رسله:

أوحى الله ﷻ إلى رسله مباشرة دون واسطة جبريل أو غيره من الملائكة، وفي ذلك ثلاث حالات:

الأولى: الرؤيا الصالحة في المنام:

وذلك بأن يرى النبي ﷺ رؤيا في منامه فتتحقق بعدُ في اليقظة كما رآها في نومه تماماً.

ويدل على هذا ما رواه البخاري في باب بدء الوحي عن عائشة رضي الله عنها قالت: «أول ما بديء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في

(١) أخرجه ابن جرير في جامع البيان ٩١/٢٢، وابن خزيمة في كتاب التوحيد ٣٤٨/١، وابن أبي حاتم في تفسيره، وانظر: تفسير ابن كثير ٥١٦/٦.

النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاءُ، وكان يخلو بغار حراء...» إلى أن قالت:

«حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك، فقال: اقرأ...»[1] إلى آخر الحديث.

ولعل السر في هذا هو تهيئة النبي ﷺ لأعباء الرسالة، وإعداده لتلقي الوحي في اليقظة، يقول علقمة بن قيس ـ صاحب عبدالله بن مسعود: «إن أول ما يؤتى به الأنبياء: في المنام، حتى تهدأ قلوبهم، ثم ينزل الوحي بعد في اليقظة»[2].

ولا يعني ذلك عدم وقوع الوحي مناماً بعد البعثة، فقد رأى في منامه ﷺ أنه دخل هو وأصحابه مكة معتمرين محلقين رؤوسهم ومقصرين ثم تحققت هذه الرؤيا بعد في اليقظة قال تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾[3].

ومما يدل على أن الرؤيا الصالحة للأنبياء في المنام حق يجب اتباعه ما جاء في قصة إبراهيم من رؤيا ذبحه لولده إسماعيل ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾[4].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ١/٣ في كتاب: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي.
(٢) ذكره ابن حجر في فتح الباري ١/١٠ وقال: رواه أبو نعيم في الدلائل بإسناد حسن.
(٣) سورة الفتح الآية (٢٧).
(٤) سورة الصافات الآيات (١٠١ ـ ١١٢).

ولو لم تكن هذه الرؤيا وحياً يجب اتباعه لما أقدم إبراهيم عليه السلام على ذبح ولده لولا أن منّ الله عليه بالفداء[١].

ويعلم: أنه ليس في وحي القرآن شيء من هذا النوع، فالقرآن كله نزل يقظة.

ويدل على هذه الحالة القسم الأول من أقسام التكليم الإلهي في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٥١﴾[٢].

وورد في صحيح مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرِنا[٣] إذ أغفى إغفاءةً، ثم رفع رأسه متبسماً، فقلنا: ما أضحكَكَ يا رسول الله؟ قال: «أُنْزِلتْ عليَّ آنفاً سورةٌ» فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾[٤] ثم قال: «أتدرون ما الكوثر؟» فقلنا: اللهُ ورسوله أعلم. قال: «فإنه نهرٌ وعدنِيه ربي عز وجل عليه خيرٌ كثيرٌ. هو حوضٌ تردُ عليه أمَّتي يوم القيامة، آنيتهُ عددُ النجوم فيُخْتَلَجُ[٥] العبدُ منهم، فأقول: رب! إنه من أمتي فيقول: ما تدري ما أحدث بعدك»[٦].

---

(١) الرؤيا الصالحة ليست خاصة بالرسول فهي باقية للمؤمنين وإن لم تكن وحيا كما قال عليه السلام:
«لم يبق من النبوة إلا المبشرات، قالوا وما المبشرات؟ قال: الرؤيا الصالحة» أخرجه البخاري في صحيحه ٦٩/٨ في كتاب: التعبير، باب: المبشرات.

(٢) سورة الشورى الآية (٥١).

(٣) أي بيننا.

(٤) سورة الكوثر الآيات (١ - ٣).

(٥) أي: ينتزع ويقتطع، أو يذاد عنه ويمنع.

(٦) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه ٣٠٠/١ في كتاب: الصلاة، باب: حجة من قال البسملة آية من أول كل سورة سوى براءة.

وقد ادعى بعضهم أن هذه السورة نزلت مناماً للحديث السابق، والصحيح: أنها أنزلت يقظة، وما ورد في الحديث يوجه على:

- ❑ أن هذه الإغفاءة ليست إغفاءة نوم بل هي الحالة التي كانت تعتريه عند الوحي، حيث تتغير حالته، فيظن من لم يعلم منه ذلك أنه يتيقظ من نوم، ولهذا تسمى هذه الحالة «بُرْحَاء الوحي» أي: ثقله.

  والبرحاء: شدة الحمى.

- ❑ أو أنه رأى النهر نفسه الذي أخبره به ربه فقرأها عليهم وفسرها لهم، فذكره لأصحابه، ويؤيد هذا قوله «آنفاً» أي: قبل الوقت الذي ذكر لهم الحديث عنه، لأن هذه اللفظة تقال على ما قبل المتكلم.
- ❑ أو خطرت له السورة عند تيقظه من النوم فذكرها لمن كان عنده[(١)].

الثانية: الكلام الإلهي من وراء حجاب يقظة وبدون واسطة:

وهو أن يكلم الله نبيه بكلام يسمعه ويدرك معناه مع يقينه بأنه كلام الله وليس كلام أحد سواه، ومن ذلك ما حصل لموسى عليه السلام حيث كلمه الله بلا واسطة ولم يره موسى كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾[(٢)]، وقال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾[(٣)].

كما ثبت التكلم على الأصح لرسولنا ﷺ ليلة الإسراء والمعراج حيث قال: «فأوحى الله إليَّ ما أوحى. ففرض عليَّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة... الحديث»[(٤)].

---

(١) انظر: مباحث في علوم القرآن للقطان ٣٤، وبيان المعاني ١/٩٣-١٦٨، والإتقان ١/٨٨، ٨٩.

(٢) سورة الأعراف الآية (١٤٣).

(٣) سورة النساء الآية (١٦٤).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ١/١٤٥، ١٤٦ في كتاب: الإيمان، باب: الإسراء برسول الله ﷺ.

ويدل عليه القسم الثاني ﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾[1].

الثالثة: الإلهام الذي يقذفه الله في قلب نبيه مباشرة، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾[2]، وقال ﷺ: «إن روح القدس نفث في رُوعي أن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها، ألا فاتقوا الله وأجملوا في الطلب»[3].

٣ - وحي الملك إلى الرسول:

وحي الملك إلى الرسول هو في الأصل وحي الله إلى رسوله

ولكن بواسطة ملك الوحي، وكيفية الوحي بذلك يكون في الحالتين التاليتين:

الحالة الأولى:

إما أن يأتي ملك الوحي جبريل عليه السلام إلى الرسول وهو على صورته الملكية فيكلمه وهو يعي عنه ما يقول[4].

---

(١) سورة الشورى الآية (٥١).

(٢) سورة النساء الآية (١٦٣).

(٣) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب ١٨٥، وقال عنه ابن حجر: «وحديث إن روح القدس نفث في روعي، أخرجه ابن أبي الدنيا في القناعة وصححه الحاكم من طريق ابن مسعود» فتح الباري ٢٧/١.

(٤) وقد وقع ذلك لرسول الله ﷺ مرتين:

المرة الأولى: في الأرض بعد ما جاءه جبريل أول مرة فأوحى الله إليه صدر سورة اقرأ، ثم فتر الوحي فترة حتى ظهر له جبريل ورسول الله بالأبطح في صورته التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح وقد سد الأفق فاقترب منه وأوحى إليه عن الله ﷻ ما أمره به ودليلها: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم: ٥ - ١٠] وقوله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾ [التكوير: ٢٣].

=

وإما أن يأتيه مستتراً، لا يراه النبي ولا غيره، ولكن يسمع النبي صوتاً أشبه ما يكون بصوت الجرس في شدته وتتابعه، وقد يسمع الحاضرون حول وجه النبي ﷺ دوياً كدوي النحل، والنبي ـ دون غيره من الحاضرين ـ يعي ويفهم ما يسمع.

وهذا الصوت يثير عوامل الانتباه فيحصل الاستعداد وتتهيأ النفس لتلقي الوحي.

وهذه الحالة أشد حالات الوحي على النبي ﷺ، إذ يثقل جسمه حتى لتكاد الناقة التي يركبها تبرك، ويتصبب عرقه فإذا ما سرى عنه الملك وجد نفسه واعياً لكل ما سمع من الوحي فيبلغه كما سمعه، ويشير إلى هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾[1].

الحالة الثانية:

أن يأتيه جبريل ويتمثل له رجلاً يراه ويراه أصحابه ويكلمه كلاماً معتاداً لا يخرج عن كلام الناس فيما بينهم، والرسول ﷺ والصحابة يسمعون ذلك الكلام ويفهمونه، إلا أن الرسول يدرك أن المتحدث جبريل وقد وقع ذلك مراراً، ومن ذلك حديث عمر رضي الله عنه قال:

بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجلٌ شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه ـ أي على فخذي نفسه ـ، وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام.... ثم سأله عن الإيمان والإحسان وعن الساعة وأمارتها ويجيبه الرسول ﷺ.

= **المرة الثانية**: في السماء عند سدرة المنتهى ليلة المعراج ودليلها: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥﴾ [النجم: ١٣ ـ ١٥]، تفسير ابن كثير ٤/٢٤٧-٤٨٠.

(١) سورة المزمل الآية (٥).

قال عمر: ثم انطلق، فلبثتُ مليًّا ـ أي وقتا طويلاً ـ ثم قال لي:

«يا عمر! أتدري من السائل؟» قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»[١].

وهذه الحالة أهون الحالين على الرسول ﷺ.

الدليل على هاتين الحالتين:

ما رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ـ وهو أشده عليّ ـ فيفصم[٢] عني، وقد وعيت عنه ما قال. وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول» قالت عائشة: «ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصَّد عرقاً»[٣].

والقرآن الكريم لم ينزل منه شيء إلا عن طريق جبريل عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾[٤]، وقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾[٥].

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه ٣٧/١ في كتاب: الإيمان، باب: بيان الإيمان والإسلام.
(٢) الفصم: القطع من غير إبانه إذ كان الوحي ينقطع عن الرسول ليعود إليه، القصم: القطع مع الإبانة.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٢/١، ٣ في كتاب: بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي.
(٤) سورة الشعراء الآيات (١٩٢ ـ ١٩٥).
(٥) سورة النحل الآية (١٠٢).

الفرق بين الوحي والإلهام أو الكشف:

١ ـ أن الوحي: أخذٌ وتلق من ذات خارجية علوية آمرة قاهرة تتلقاه شخصية النبي مذعنة ضعيفة مأمورة.

أما الإلهام أو الكشف: فيدخل فيهما عنصر الحدس والتخمين وعمل الذهن غير الشعوري، ومنه الشعور بوجدان الجوع والعطش، والحزن والسرور.

٢ ـ أن الوحي: يُوقِع في القلب علما يقينياً اضطرارياً لا يقبل التغيير ولا التبديل.

أما الكشف أو الإلهام: فهو أمر يقع في النفس فتعرفه معرفة دون اليقين، وقد تتحمس له كاليقين، لكن كثيراً ما يظهر الخطأ فيه.

٣ ـ أن الوحي: يجب الأخذ به قطعاً.

أما الكشف أو الإلهام: فلا يجوز الأخذ به وإن تكرر صدقه إلا بعد عرضه على دلائل الشرع، لأن الوحي معصوم، أما الإلهام والكشف ونحوهما فليس شيء منها معصوم[١].

مـظـاهـر الـوحـي:

لقد وردت عدة أحاديث تبين آثار الوحي ومظاهره على الرسول ﷺ فمن هذه الآثار والمظاهر:

١ ـ أنه كثيراً ما كان يحدث له مشقة شديدة في التلقي من الملك ويدل على ذلك:

- قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾[٢] أي: شديداً.
- ما رواه البخاري في أول صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «أول

(١) علوم القرآن الكريم نور الدين عتر ٢١، ٢٢.

(٢) سورة المزمل الآية (٥).

ما بُديء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم... إلى أن قالت: حتى جاءه الحق وهو في غار حراء. فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقاريء. قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني. فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقاريء. فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني. فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقاريء. فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني. فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾﴾[1] فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة ـ وأخبرها الخبر ـ: لقد خشيت على نفسي...»[2].

- وروى البخاري أيضاً عن جابر بن عبدالله الأنصاري أنه قال ـ وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه ـ: «بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فرعبت منه، فرجعت فقلت: زملوني، زملوني! فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾﴾[3] فحمي الوحي وتتابع»[4].

- وروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال:

يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول» قالت عائشة: ولقد

---

(١) سورة العلق الآيات (١-٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٣/١ في كتاب: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي.

(٣) سورة المدثر الآيات (١-٥).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ٧٥/٦، ٧٦ في كتاب: التفسير، باب: سورة المدثر. ومعنى فحمي الوحي وتتابع: أي جاء كثيراً.

رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصَّد عرقا»[١].

❑ وروى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾[٢] قال: كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة، وكان مما يحرك شفتيه، فقال ابن عباس: فأنا أحركهما لك كما كان رسول الله ﷺ يحركهما...»[٣].

٢ ـ أنه ﷺ كان إذا نزل عليه الوحي سُمع عند وجهه دوي كدوي النحل، ومما يدل عليه:

❑ عن عبدالرحمن بن عَبْدٍ القارِّيّ قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحي يُسْمَعُ عند وجهه دوي كدوي النحل، فمكثنا ساعة فاستقبل القبلة ورفع يديه فقال: «اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا، ثم قال: لقد أُنزلت عليّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة» ثم قرأ علينا: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾﴾[٤].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٢/١، ٣ في كتاب: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي. والصلصلة: صوت وقوع الجرس.

(٢) سورة القيامة الآية (١٦).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٤/١ في كتاب: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي.

(٤) سورة المؤمنون الآيات (١ ـ ١٠)، والحديث أخرجه أحمد في مسنده ٣٤/١، والترمذي في سننه ٣٢٦/٥ في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة المؤمنون، والحاكم في المستدرك ٥٣٥/١.

٣ ـ أنه ﷺ كان إذا نزل عليه الوحي ثَقُل جسمه حتى يكاد يَرُضُّ فخذُه فخذَ الجالس.

❑ عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أملى عليه: ﴿**لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله**﴾ فجاءه ابن أم مكتوم وهو يُمِلُّها عليّ قال: يا رسول الله، والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت ـ وكان أعمى ـ فأنزل الله على رسوله ﷺ وفَخِذُه على فخذي، فثقلت عليَّ حتى خفتُ أن ترضَّ فخذي ثم سُرِّي عنه فأنزل الله: ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾[1].

٤ ـ أنه ﷺ إذا نزل عليه الوحي بركت به راحلته حتى يلتصق باطن عنقها بالأرض لقوة واكتمال بروكها.

❑ فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «وإنْ كان ليوحى إلى رسول الله ﷺ وهو على راحلته فتضرب بجرانها»[2] من ثقل ما يحوى إليه.

❑ وعن عروة بن الزبير أن النبي ﷺ كان إذا أوحي إليه وهو على ناقته وضَعَتْ جِرانها فما تستطيع أن تحرَّك حتى يُسّرَّى عنه»[3].

إن ظواهر الوحي كما تحدث عنها النبي ﷺ وكما عاينها أصحابه لأدلة قاطعة على ما يلي:

١ ـ أنها تنفي التوهم بأن الوحي شيء متكلف مصنوع.

٢ ـ أنها تدل على أن الوحي أمر يُسْتجمع له الفكر والروية.

٣ ـ أن الوحي إلى محمد ﷺ أمر سوي لا اعتلال معه.

٤ ـ أنه إلزامي لا اختيار له فيه.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ١٨٢/٥ في كتاب: التفسير، سورة النساء، باب: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله﴾، وأحمد في مسنده ١٨٤/٥.
(٢) أخرجه أحمد ١١٨/٦، والحاكم في المستدرك ٥٠٥/٢.
(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره ١٢٧/٢٩، والجران: باطن عنق الناقة.

٥ ـ أنه تلقين من الله العزيز الحكيم بقوة وقدرة وهيمنة وسيطرة، وحكمة ورحمة[١].

شــبــهــة في الــوحـــي:

زعم بعض الجاحدين للوحي أن القرآن من عند محمد، وأنه هو الذي ابتكر معانيه وصاغ أسلوبه، وأنه ليس وحياً يوحى.

ويجاب عليهم بما يلي:

أن النبي ﷺ لم ينسب ما جاء به وما تحدى به الناس إلى نفسه، وكان في استطاعته ذلك، ويكون ذلك كافياً لأن يستلم الزعامة ما دام العرب جميعا عجزوا عن معارضته.

وقد يقال إنه أراد بنسبته إلى الوحي الإلهي ليجعل لكلامه حرمة تفوق كلامه فيستجاب له بسرعة، فيقال له: إن النبي صدر عنه كلام نسبه لنفسه وهو الحديث النبوي ـ فلم ينقص ذلك من لزوم طاعته شيئاً، ولو كان الأمر على ما يتوهمون لجعل كل أقواله من كلام الله تعالى.

ثم إن ظاهرة الوحي لم تكن متكلفة ولا مصطنعة، ولو كانت كذلك لكانت طوع يمينه فيأتي بالقرآن متى أراد وكيف أراد.

ومن الأمثلة التي تدل على مبلغ صدق الرسول وأمانته في الوحي وأنه لم يكن ليأتي بشيء من القرآن من تلقاء نفسه ما يلي:

١ ـ أنه كانت تنزل بالنبي ﷺ نوازل يتطلب لها حلّا، وحاجته القصوى تلح عليه أن يتكلم بحيث لو كان الأمر إليه لوجد له مقالاً ومجالاً، ولكنه لا يجد في شأنها قرآنا يقرؤه على الناس، ومن ذلك ما حصل من المنافقين من اتهام زوجه عائشة رضي الله عنها بحديث الإفك، واتهامها يمس كرامته وشرفه، وأبطأ الوحي، وطال الانتظار والناس يخوضون

---

(١) وحي الله ١١٠، علوم القرآن ١٩ ـ ٢١.

في هذا الحديث المؤذي ومضى شهر بأكمله ولم يزد على أن قال لها في آخر الأمر:

«يا عائشة، أما إنه بلغني كذا وكذا، فإن كنت برئية فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله». وظل هكذا إلى أن نزل الوحي ببراءتها. فماذا كان يمنعه ـ لو أن أمر القرآن إليه ـ من أن يقول كلاماً يقطع به ألسنة المتخرصين ويحمي عرضه[1].

٢ ـ أنه في مرات عديدة كان يجيئه القول فيها على غير ما يحبه ويهواه فيخطئه في الرأي يراه، ويأذن له في الشيء لا يميل إليه ومن ذلـــــك: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾﴾[2]، ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾[3][4]. ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾[5][6].

---

(١) انظر النبأ العظيم ٢٢، ٢٤.

(٢) سورة التحريم الآية (١)، ففيها عتاب للنبي ﷺ إذ حرم جاريته «مارية» أم إبراهيم ترضية لأزواجه، وذلك أنه خلا بها في بيت إحدى نسائه فاطلعت عليه، فقالت: يا رسول الله في بيتي وعلى فراشي، فجعلها حراماً عليه ترضية لصاحبة البيت. وقيل: إن الذي حرمه على نفسه العسل.

(٣) سورة التوبة الآية (٤٣).

(٤) في هذه الآية عتاب للنبي ﷺ حيث أذن لمن طلب منه التخلف عن غزوة تبوك وكان من السياسة عدم الإذن لأحد حتى يتميز الصادق من الكاذب. قال مجاهد: «هؤلاء قوم قالوا: نستأذن في الجلوس فإن أُذن لنا جلسنا وإن لم يؤذن لنا جلسنا» تفسير القرطبي ١٥٥/٨.

(٥) سورة عبس الآيات (٥ ـ ١٠).

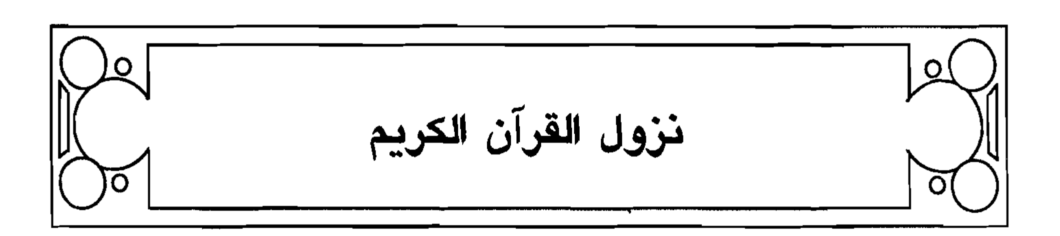
(٦) في هذه الآيات عتاب لطيف من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ حيث كان النبي ﷺ في مكة ومعه صناديد قريش يرغبهم في الإسلام، فجاء ابن أم مكتوم ينادي يا رسول الله أقرئني وعلمني مما علمك الله وكرر ذلك فانزعج لذلك رسول الله، فكره رسول الله أن يقطع حديثه مع القوم فعبس أي: تغير وجهه ـ وتولى ـ أي: أعرض عنه لا يجيبه، وما أن عاد النبي إلى بيته حتى نزلت هذه الآيات.

فلو كانت هذه التقريعات المؤلمة صادرة عن نفسه معبرة عن ندمه حين بدا له خلاف ما فرط فيه أكان يعلنها عن نفسه بهذا التهويل؟

ألم يكن له في السكوت عنها ستراً على نفسه واستبقاء لحرمة آرائه؟

❁ ❁ ❁

الموضوع الثالث



المراد بهذا المبحث معرفة تنزلات القرآن الكريم، وصفة نزوله من الله ﷻ، ثم من جبريل عليه السلام، وكيف تلقاه محمد ﷺ من جبريل عليه السلام.

وقبل الخوض في هذا الموضوع يجب العلم بأن القرآن الكريم كلام الله لفضاً ومعنى، ولا دخل لجبريل أو محمد عليهما السلام فيه سوى التبليغ عن الله ﷻ.

وسأتناوله من خلال المباحث التالية:

المبحث الأول: تنزلات القرآن الكريم:

اختلف العلماء في تنزلات القرآن الكريم على أقوال عدة

يمكن إجمالها في الأقوال التالية:

القول الأول:

أن للقرآن الكريم نزولاً واحداً على وجه التنجيم والتفريق، أخذه النبي ﷺ سماعاً من جبريل عليه السلام، وجبريل سماعاً من الله ﷻ، وابتدأ بالنزول ليلة القدر، وهي الليلة المباركة، من شهر رمضان.

وممن قال به: الشعبي[1]، وابن إسحاق[2]، والقاسمي[3]، وغيرهم.

واستدلوا بأدلة منها:

١ ـ عموم الأدلة في نزول القرآن الكريم مفرقاً، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾[4].

٢ ـ عموم الأدلة من القرآن الكريم على أنه منزل من الله تعالى كما في قوله تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾﴾[5]، وقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾[6] فـ: ﴿مِّن﴾ لابتداء الغاية، فنزول القرآن ابتداء من الله وليس من اللوح المحفوظ.

٣ ـ حديث النواس بن سمعان أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي، أخذت السماوات منه رجفة أو قال: رعدة شديدة خوف أمر الله، فإذا سمع أهل السماوات صُعِقوا وخروا لله سجداً، فيكون أول من يرفع رأسه جبرائيل فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمر جبرائيل على الملائكة كلما مر بسماء سأله ملائكتها، ماذا قال ربنا يا جبرائيل؟

فيقول جبرائيل: قال الحق وهو العلي الكبير، قال: فيقولون كلهم مثل ما قال جبرائيل، فينتهي جبرائيل بالوحي حيث أمره الله»[7].

---

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن ٢٢٩/١.

(٢) انظر: تفسير الرازي ٩١/٥.

(٣) انظر محاسن التأويل ٨٥/٣، وممن قال به من المعاصرين: محمد أبو شهبة في المدخل لدراسة القرآن ٥٢، ومحمد عبده في تفسير جزء عم ١٢٢، وصبحي الصالح في مباحث في علوم القرآن ٥١.

(٤) سورة الإسراء الآية (١٠٦).

(٥) سورة غافر الآيتان (١، ٢).

(٦) سورة النحل الآية (١٠٢).

(٧) أخرجه ابن جرير في جامع البيان ٩١/٢٢، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير ٥١٦/٦، وأورده السيوطي في الدر المنثور ٦٩٨/٦.

القول الثاني:

أن للقرآن نزولين:

١ ـ نزول جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا في ليلة القدر، وهي الليلة المباركة، في شهر رمضان.

٢ ـ نزول مفرقاً على الرسول ﷺ في ثلاث وعشرين سنة.

وممن قال به: ابن عباس، والزركشي، وابن حجر، والقرطبي، والسيوطي وغيرهم، وهو المشتهر في كتب علوم القرآن.

واستدلوا بأدلة منها:

١ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ①﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾[٣]، فهذه الآيات يدل ظاهرها على أن القرآن أنزل جملة واحدة في ليلة القدر توصف بأنها مباركة من شهر رمضان.

٢ ـ ما رواه الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال:

«أنزل القرآن جملة واحدة في ليلة القدر إلى السماء الدنيا، وكان بمواقع النجوم، وكان ينزله على رسول الله ﷺ بعضه في إثر بعض»[٤].

٣ ـ ما رواه أبو عبيد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

«أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة وقرأ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ⑩⑥﴾»[٥].

---

(١) سورة القدر الآية (١).

(٢) سورة الدخان الآية (٣).

(٣) سورة البقرة الآية (١٨٥).

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/٢٢٢، وقال عنه: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٥) سورة الإسراء الآية (١٠٦)، والأثر أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ٣٦٨، والحاكم في المستدرك ٢/٢٢٢، ٢/٣٦٨، وذكره ابن كثير في فضائل القرآن ٣٦.

٤ ـ ما رواه سعيد بن جبير قال: «نزل القرآن جملة واحدة في ليلة القدر في رمضان فجعل في بيت العزة، ثم أنزل على النبي ﷺ في عشرين سنة جواب كلام الناس»[١].

أقـــوال أخــرى:

وهنالك أقوال أخرى تعود إلى القول الثاني، بأن للقرآن نزولين:

الأول: جملة واحدة واختلفوا هل هو من الله أو من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا.

والثاني: مفرقاً نزل به جبريل عليه السلام على النبي ﷺ أخذاً من اللوح المحفوظ أو من السماء الدنيا على خلاف في ذلك.

وذكروا أن تعدد التنزلات تدل على:

١ ـ عظم شأن القرآن، ومن نزل عليه، ومن نزل إليهم.
٢ ـ تفضيل القرآن على غيره من الكتب السماوية بأن جمع له النزولين.
٣ ـ المبالغة في نفي الشك عنه حيث سجل في سجلات متعددة[٢].

الـتوجيـه بيـن الأقـــوال:

بعد التأمل في الأقوال السابقة ظهر لي أن القول الأول له وجهه واعتباره لما يأتي:

١ ـ أنه القول الذي تعضده الأدلة الصريحة من القرآن الكريم مثل:

❏ أنه كلام الله حقيقة سمعه جبريل من الله، كما سمع موسى عليه السلام الكلام من الله تعالى حقيقة، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾[٤].

---

(١) أخرجه ابن الضريس في فضائل القرآن ١٢٦، والحاكم في المستدرك ٢/٢٢٢، ٢٢٣.
(٢) انظر: الوحي في القرآن ٣٥.
(٣) سورة التوبة الآية (٦).
(٤) سورة النساء الآية (١٤٦).

- أن القرآن منزل من عند الله، كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾[3].

٢ - أنه القول الذي يسلم من المآخذ عليه، فالقرآن الكريم بألفاظه وترتيبه الذي بين أيدينا هو الذي نزل به جبريل عليه السلام على محمد ﷺ، وجبريل هو الذي أخذه سماعاً من الله ﷻ المتكلم به حقيقة.

قال البيهقي: «وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾ يريد به - والله أعلم - أنا أسمعناه الملك، وأفهمناه إياه، وأنزلناه بما سمع فيكون الملك متنقلاً من علو إلى سفل»[4].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فعلم أن القرآن العربي منزل من الله لا من الهواء، ولا من اللوح، ولا من جسم آخر، ولا من جبريل، ولا من محمد، ولا غيرهما، وإذا كان أهل الكتاب يعلمون ذلك فمن لم يقر بذلك من هذه الأمة كان أهل الكتاب المقرون بذلك خيراً منه من هذا الوجه» ثم قال:

«فإن كونه مكتوباً في اللوح المحفوظ، وفي صحف مطهرة بأيدي الملائكة لا ينافي أن يكون جبريل نزل به من الله، سواء كتبه الله قبل أن يرسل به جبريل أو بعد ذلك»[5].

أما الأقوال الأخرى فإنه يترتب عليها بأن جبريل أخذ القرآن من اللوح المحفوظ أو من السماء الدنيا، ويفهم من ذلك بأنه لم يسمعه من الله ﷻ، وأن القرآن نزل من مخلوق لا من الله، وكل هذا غير صحيح، حتى

---

(١) سورة الأنعام الآية (١١٤).
(٢) سورة فصلت الآيتان (١، ٢).
(٣) سورة السجدة الآيتان (١، ٢).
(٤) الأسماء والصفات ١/٣٦٢.
(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٢/١٢٦.

وإن قال بعض من مال إلى هذه الأقوال بأنه لا يلزم منها أن جبريل لم يسمع القرآن من الله وأن القرآن نزل من مخلوق، بل القائل بذلك تلزمه هذه النتيجة والله أعلم.

وقد أجاب عن هذه الأقوال ابن العربي حيث قال: «ومن جهلة المفسرين أنهم قالوا إن السفرة ألقته إلى جبريل في عشرين ليلة، وألقاه جبريل إلى محمد عليهما السلام في عشرين سنة وهذا باطل، ليس بين جبريل وبين الله واسطة ولا بين جبريل ومحمد صلى الله عليهما واسطة»[١].

كما رد سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ على جلال الدين السيوطي الذي ذكر جملة أقوال في كيفية إنزال القرآن الكريم من غير رد لها ولا إنكار قائلاً: «وهذه المقالة اغتر بها كثير من الجهلة وراجت عليهم، والسيوطي رحمه الله مع طول باعه، وسعة اطلاعه، وكثرة مؤلفاته، ليس ممن يعتمد عليه في مثل هذه الأصول العظيمة، وهذه المقالة مبنية على أصل فاسد، وهو القول بخلق القرآن، وهذه مقالة الجهمية والمعتزلة ومن نحا نحوهم، وهذه المقالة الخاطئة حقيقتها إنكار أن يكون الله متكلماً حقيقة... ثم قال: والقائلون بخلق القرآن منهم من يقول خلقه في اللوح المحفوظ وأخذ جبريل ذلك المخلوق من اللوح المحفوظ وجاء به إلى محمد ﷺ، ومنهم من يقول خلقه في جبريل، ومنهم من يقول خلقه في محمد ﷺ إلى غير ذلك من أقوالهم» وقال أيضاً: «فإن الذي عليه أهل السنة والجماعة قاطبة أن الله تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء، وإن جبريل عليه السلام سمع القرآن الكريم من الله تعالى وبلغه إلى محمد ﷺ»[٢].

وقال الشيخ عبدالقادر شيبة الحمد: «ومعنى إنزال القرآن فيه ـ أي في شهر رمضان ـ أن الله بدأ بإنزال القرآن على نبيه ﷺ في هذا الشهر المبارك، كما يقول القائل: جاء الشتاء، لأول يوم منه، أي: ابتدأ دخول الشتاء، لا أن الشتاء جاء كله في وقت حديثك عن دخوله. ولم يثبت خبر

(١) أحكام القرآن لابن العربي ١٩٦١/٤.

(٢) الجواب الواضح المستقيم في التحقيق في كيفية إنزال القرآن الكريم ٢، ٣.

صحيح مرفوع مُسْنَد إلى رسول الله ﷺ بأن القرآن نزل جملة واحدة إلى سماء الدنيا ثم نجّمه جبريل على رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة، وقد ألف مفتي الديار السعودية السابق الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله رسالة لبيان بطلان القول بأن القرآن نزل جملة إلى السماء الدنيا، وأن جبريل نجّمه على رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة، وبين رحمه الله أن هذا القول دسيسة اعتزالية لإنكار أن يكون الله تبارك وتعالى تكلم بالقرآن لأن المعتزلة عن الحق ينكرون إثبات صفة الكلام لله ﷻ، وإن تعجب فعجب لعدم تفطن كثير من العلماء لهذه الدسيسة الاعتزالية»[١].

وكون القرآن موجود في اللوح المحفوظ مكتوب فيه لا يمنع من أن يكون جبريل أخذ القرآن الكريم من الله سماعاً، فوجوده فيه ليس خاصاً به، فاللوح المحفوظ يشمل كل ما علمه الله تعالى وقدره، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فإن كونه مكتوباً في اللوح المحفوظ، وفي صحف مطهرة بأيدي الملائكة، لا ينافي أن يكون جبريل نزل به من الله، سواء كتبه الله قبل أن يرسل به جبريل أو بعد ذلك»[٢].

المبحث الثاني: صفة نزول القرآن الكريم:

لقد نزل القرآن الكريم من الله ﷻ على جبريل عليه السلام

ثم من جبريل على النبي ﷺ. ولهذا سوف يكون الحديث هنا عن نقطتين:

الأولى: نزول الملك به من الله ﷻ:

لقد جاء التصريح في القرآن الكريم بنزول القرآن الكريم من الله ﷻ بواسطة ملك الوحي جبريل عليه السلام، فالله هو المتكلم به الملقيه، وجبريل هو المستمع المتلقيه عنه دون واسطة، والأدلة في ذلك كثيرة منها:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ

(١) تهذيب التفسير وتجريد التأويل ١/٤٠٩، ٤١٠.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٢/١٢٦.

﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾[(١)]، ففيها دلالة صريحة على أن القرآن الكريم كلام الله، قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية: «أي القرآن تقرؤه عليه وتذكر له شيئاً من أمر الدين تقيم عليه به حجة الله»[(٢)].

٢ - قوله تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾[(٣)]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾[(٤)]، وقوله: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾[(٥)]، ففيها التصريح بأن القرآن متلقى من الله تعالى.

٣ - قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٠١ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝١٠٢﴾[(٦)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ فيه إخبار الله بأنه أنزله. وقوله: ﴿نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ بيان لنزول جبريل به من الله ﷻ، فإن روح القدس هنا هو جبريل»[(٧)]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٩٧﴾[(٨)]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾[(٩)]، وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠﴾[(١٠)]،

---

(١) سورة التوبة الآية (٦).
(٢) تفسير القرآن العظيم ١١٣/٤.
(٣) سورة هود الآية (١).
(٤) سورة النمل الآية (٦).
(٥) سورة المائدة الآية (٦٧).
(٦) سورة النحل الآيتان (١٠١، ١٠٢).
(٧) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٢٧/١٢، ٢٢٣/١٥.
(٨) سورة البقرة الآية (٩٧).
(٩) سورة فصلت الآيتان (٤١، ٤٢).
(١٠) سورة الحاقة الآية (٤٣).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[١].

٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾[٢]، وقوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾[٣]، وقوله: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[٤].

٥ ـ حديث النواس بن سمعان أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي، أخذت السماوات منه رجفة أو قال: رعدة شديدة خوف أمر الله، فإذا سمع أهل السماوات صُعِقوا وخروا لله سجداً، فيكون أول من يرفع رأسه جبرائيل فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمر جبرائيل على الملائكة كلما مر بسماء سأله ملائكتها، ماذا قال ربنا يا جبرائيل؟

فيقول جبرائيل: قال الحق وهو العلي الكبير، قال: فيقولون كلهم مثل ما قال جبرائيل، فينتهي جبرائيل بالوحي حيث أمره الله»[٥].

ففيه دلالة على أن كيفية الوحي تكلم من الله، وسماع من الملائكة، وتلقي من جبريل عليه السلام، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[٦]، قال ابن كثير: «أي يشهدون بصدق ما جاءك وأوحى إليك وأنزل عليك، مع شهادة الله له بذلك ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[٧].

وبمجموع هذه الأدلة نستخلص ما يلي:

١ ـ أن القرآن كلام الله.

---

(١) سورة النحل الآية (٤٤).

(٢) سورة الشورى الآية (٥٢).

(٣) سورة غافر الآية (١٥).

(٤) سورة البقرة الآية (٩٧).

(٥) أخرجه ابن جرير في جامع البيان ٩١/٢٢، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير ٥١٦/٦، وأورده السيوطي في الدر المنثور ٦٩٨/٦.

(٦) سورة النساء الآية (١٦٦).

(٧) تفسير القرآن العظيم ٤٧٦/٢.

٢ ـ أنه نزل من الله ﷻ مباشرة.

٣ ـ أن الواسطة في هذا النزول ملك الوحي: جبريل عليه السلام.

٤ ـ أن جبريل مجرد رسول محض.

٥ ـ أن نزوله على الرسول ﷺ كان على قلبه، فلم يكن مناماً ولا إلهاماً، ولا تكليماً بغير واسطة.

٦ ـ أن نزول جبريل بالقرآن كان بأمر الله وإذنه.

الثانية: نزول القرآن على النبي ﷺ:

ثبت في القرآن الكريم أن نزوله على النبي ﷺ كان على قلبه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾[2].

فالقرآن الكريم نزل به جبريل عليه السلام على النبي ﷺ، فتلاه عليه، ووعاه قلبه منه، ورسخ في عقله، وسمعته أذناه بدليل تحريك لسانه بعد الملك، قال الله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾[3].

فوائد في التعبير بـ ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾:

في الآيتين السابقتين قال الله تعالى: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾، وقد استنبط منها بعض المفسرين فوائد عدة، أذكر هنا بعضا منها، مما له علاقة بموضوعنا:

١ ـ أن النزول على القلب يحصل فيه الفهم والحفظ، أما النزول على السمع فقد يكون نزولاً بدون فهم[4].

٢ ـ أن تخصيص الإنزال على القلب للإشارة إلى كمال تعقله ﷺ وفهمه

---

(١) سورة البقرة الآية (٩٧).

(٢) سورة الشعراء الآيتان (١٩٣، ١٩٤).

(٣) سورة القيامة الآيات (١٦ ـ ١٩).

(٤) انظر: الكشاف ٤/٤١٥.

ذلك المنزل، وقد يكون أيضاً للإشارة إلى صلاح قلبه عليه الصلاة والسلام حيث كان مَنْزِلاً لكلامه تعالى، ليعلم منه حال سائر أجزائه ﷺ(١).

٣ ـ أن في نزول القرآن على قلب النبي ﷺ دلالة على أن القرآن محفوظ، وأن الرسول ﷺ متمكن منه، وثابت في وعيه، لأن القلب موضع التمييز ومركز الحواس الروحية، ومحل الإدراك والوعي، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾(٢)(٣).

٤ ـ أن في النزول على القلب إشارة إلى حفظ رسول الله ﷺ للقرآن بلفظه ومعناه، مع أن جبريل عليه السلام يقرؤه عليه مرة واحدة، ومع ذلك لا يضيع منه شيء ولا يختلط ترتيبه(٤).

٥ ـ أن التعبير بالكاف في ﴿قَلْبِكَ﴾ تأكيد على أن القرآن الكريم من الله ﷻ، فلو قال: على قلبي، لقيل هذه دعوى لم يبينها لنا ربك ولم يقلها.

٦ ـ أن التعبير بالكاف أيضاً فيه تثبيت قلب النبي ﷺ وطمأنة له من أن تزعزعه كثرة تشكيكات اليهود والكفار، ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾(٥)(٦).

٧ ـ أن التعبير بـ: ﴿عَلَىٰ﴾ فيه دلالة على أن القرآن مستعل على القلب، إذ القلب سامع له ومطيع، يمتثل ما أمر به ويجتنب ما نهى عنه(٧).

---

(١) انظر: روح المعاني ١٩/١٢٠، ١٢١.
(٢) سورة ق الآية (٣٧).
(٣) انظر: تفسير الفخر الرازي ٢٤/١٦٦، ١٦٧.
(٤) انظر: تهذيب التفسير وتجريد التأويل ١/٢٥٥.
(٥) سورة الفرقان الآية (٣٢).
(٦) انظر: تلقي النبي ﷺ ألفاظ القرآن الكريم ٨٨، ١٤٥.
(٧) انظر: البحر المحيط ١/٥١٣.

٨ ـ كما أن التعبير بـــ: ﴿عَلَىٰ﴾ يدل على أن الإنزال يكون من أعلى إلى أدنى، وبالتالي يَنْصَبُّ هذا المنزَّل ويرسخ ويستقر على مكان نزوله، فإن الشيء إذا صُب من أعلى إلى أسفل رسخ وثبت(١).

أدلة نزول القرآن الكريم مفرقاً:

لقد نزل القرن الكريم على نبينا محمد ﷺ مفرقاً في مدة استمرت منذ بعثته حتى وفاته قدرت بثلاث وعشرين سنة على القول المشهور، ثلاث عشرة سنة بمكة وعشر سنين بالمدينة، وهي المدة التي تفصل بين أول ما نزل وآخر ما نزل، وأدلة ذلك ما يلي:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾(٢)، أي وقرآنا أنزلناه مفرقاً لتقرأه على الناس على مهل ليتدبروه ويتفكروا في معانيه، ونزلناه شيئاً فشيئاً مفرقاً(٣).

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾(٤)، حيث ردَّ الله سبحانه وتعالى على الكفار الذين شككوا في كون القرآن صادر عن الله ﷻ بسبب نزوله مفرقاً، وأثبت أنه سبحانه أنزله على نبيه بحال تختلف عن سابقيه من الأنبياء الذين نزلت عليهم كتبهم جملة، وهذه الحال هي نزوله مفرقاً.

٣ ـ ورود أحاديث كثيرة تدل على أول ما نزل من القرآن، وعلى أن القرآن الكريم كان ينزل بحسب الحاجة والمناسبات والأسباب المختلفة، وكتب أسباب النزول مليئة بالأمثلة لذلك.

(١) انظر: حاشية الصاوي على الجلالين ٦٤/١ والتحرير والتنوير ١٨٩/١٩.
(٢) سورة الإسراء الآية (١٠٦).
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن ٤١٩.
(٤) سورة الفرقان الآية (٣٢).

حِكَم نزول القرآن الكريم مفرقاً:

من أبرز الحكم في نزول القرآن الكريم مفرقاً وورد فيه النص القرآني على ذلك ما يلي:

١ - تثبيت فؤاد النبي ﷺ:

وقد أشارت إلى هذه الحكمة الآية الكريمة في معرض الرد على المشركين حين اقترحوا أن ينزل القرآن جملة واحدة كما نزلت الكتب السماوية السابقة حيث قال ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾[1].

ففي تجدد نزول الوحي، وتكرر نزوله، وتوالي نزول الآيات: قوة لقلبه ﷺ، واستشعار لعناية الله برسوله، وتأييد له أمام تكذيب خصومه له ولأتباعه.

وفيه شحذ لهمته للمضي في طريق الدعوة مهما اعترضته المصاعب والشدائد.

وكان إذا اشتد الأذى عليه نزلت الآيات تسلية له وتخفيفاً عما يلقاه، إذ كان عليه السلام يحزن ويتحسر لعدم إيمان قومه وصدودهم عن دعوته كما قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾[2]، أي: فلعلك يا رسول الله قاتل نفسك هماً وحزنا على إثر رفض قومك للإيمان بك وبكتابك وما جئت به من الهدى، فلا تفعل واصبر لحكم ربك فإنه منجز وعده لك بالنصر على قومك المكذبين.

وقال ﷻ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾[3]، أي: قد نعلم إنه ليحزنك الكلام الذي يقولون لك وهو: تكذيبك واتهامك بالسحر والتقول على الله. وفي

---

(١) سورة الفرقان الآية (٣٢).
(٢) سورة الكهف الآية (٦).
(٣) سورة الأنعام الآية (٣٣).

الحقيقة إنهم لا يكذبونك لما يعلمون من صدقك ولكن الظالمين هذا شأنهم فهم يرمون الرجل بالكذب وهم يعلمون أنه صادق فإذا عرفت هذا فلا تحزن لقولهم.

فإذا اشتد الأذى عليه نزلت الآيات تسلية له وتخفيفا عما يلقاه وكانت التسلية بعدة أمور منها:

عن طريق قصص الأنبياء والمرسلين ليقتدي بهم في صبرهم وجهادهم كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[3].

كما قال ﷻ مبينا الحكمة من ذكر قصص الأنبياء: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾[4].

وعن طريق الوعد بالنصر والتأييد للنبي ﷺ كقوله تعالى: ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾[6].

وعن طريق إخبار الرسول باندحار أعدائه وانهزامهم كما قال: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾[7]، وقوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾[8].

---

(١) سورة الأنعام الآية (٣٤).
(٢) سورة الاحقاف الآية (٣٥).
(٣) سورة الطور الآية (٤٨).
(٤) سورة هود الآية (١٢٠).
(٥) سورة الفتح الآية (٣)
(٦) سورة الصافات الآيات (١٧١ ـ ١٧٣).
(٧) سورة القمر الآية (٤٥).
(٨) سورة آل عمران الآية (١٢).

إذن فتكرر نزول جبريل، وتجدد نزول الوحي فيه تسلية للنبي ﷺ وفيه الوعد بنصره وتأييده مما يقوي قلبه لمتابعة الدعوة والمضي في تبليغ الرسالة.

٢ - تيسير حفظه وفهمه:

من المعلوم أن العرب كانوا أميين كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾[1]، كما كان ﷺ كذلك ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾[2]، فاقتضت حكمة الله أن ينزل كتابه منجما ليسهل حفظه وفهمه على المسلمين، لأنهم كانوا يعتمدون على ذاكرتهم إذهم أميون وأدوات الكتابة غير ميسورة لكاتبيهم، فلو نزل جمله واحدة لعجزوا عن حفظه، وبالتالي عن تدبره وفهمه.

إن نزول القرآن مفرقاً أدعى إلى سهولة حفظه وفهمه وأيسر وأوفق بالفطرة البشرية.

وكان الصحابة رضوان الله تعالى عليهم كلما نزلت الآية أو الآيات حفظوها وتدبروا معانيها ووقفوا عند أحكامها.

قال أبو عبدالرحمن السلمي: «حدثنا الذين كانوا يقرؤننا القرآن كعثمان بن عفان وعبدالله بن مسعود وغيرهما: أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل. قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا»[3]. واستمر هذا منهجاً لمن أتى بعدهم.

فوائد نزول القرآن الكريم مفرقاً:

١ - التحدي والإعجاز:

يستفاد من نزول القرآن مفرقاً تحدي الكفار من أن يأتوا بمثله فلو نزل القرآن جملة واحدة لقالوا: شيء جاءنا مرة واحدة لا نستطيع أن

---

(١) سورة الجمعة الآية (٢).

(٢) سورة الأعراف الآية (١٥٧).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤١٠/٥.

نعارضه، ولو أنه جاءنا قطعاً قطعا لعارضناه، فقطع الله عليهم دابر المعذرة والتعلل، فأنزله مفرقا.

أيضاً إن نزوله منجما أعطاهم الفرصة لكي يعارضوا ما ينزل منه، فلما عجزوا دل ذلك على الإعجاز.

وأيضاً مع نزول القرآن مفرقا وفي أوقات متباعدة فقد بدت سوره ذات موضوعات متماسكة، ويسود السورة انسجاماً وائتلافا وكأنها أنزلت مرة واحدة، وقد يكون أول السورة قد نزل بعد آخرها، فلا تنافر بين آياته بل كله في غاية الفصاحة والإحكام.

٢ ـ التدرج في انتزاع العقائد الباطلة:

بعث النبي ﷺ إلى قوم يعبدون الأصنام ويشركون بالله غيره، ويسفكون الدماء، ويشربون الخمر، ويزنون، ويغتصبون الأموال، ويئدون البنات خشية العار، ويقتلون الأولاد خشية الفقر، ويظلمون النساء، ويتزوجون نساء الآباء، ويجمعون بين الأختين، ويتظالمون...

ومعلوم أن النفس يشق عليها ترك ما تعودته مرة واحدة، والإقلاع عنه بمجرد النهي عنه، فلو نزل القرآن جملة واحدة وطالبهم بالتخلي عما هم عليه لما استجاب إلى الرسول أحد، ولما وفق في أداء مهمته، لهذا كلما حدثت حادثة بينهم، نزل الحكم فيها مفرقاً شيئاً فشيئاً.

٣ ـ التدرج في تثبيت العقائد الصحيحة:

لقد تدرج نزول القرآن الكريم في بيان العقائد الصحيحة والأحكام التعبدية والعملية والآداب والأخلاق الفاضلة، فكان أول ما تناوله القرآن: أصول الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وجزاء وجنة ونار ويقيم على ذلك الحجج والبراهين، وكان يأمر بمحاسن الأخلاق وينهي عن الفحشاء والمنكر، ويبين قواعد الحلال والحلال.

يدل على ذلك ما أخرجه البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: «إنما نزل

من القرآن أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء «لا تشربوا الخمر» لقالوا: لا ندع الخمر أبدا. ولو نزل: «لا تزنوا» لقالوا: لا ندع الزنا أبدا»[1].

٤ - التدرج في التشريع:

وذلك أن بعض الأحكام الشرعية قد يكون من الضرورة إنزال أحكامها على سبيل التدرج، حتى يتقبل الناس الحكم الشرعي الأخير.

ومن أوضح الأمثلة في ذلك الآيات التي ذكر فيها الخمر:

فأول ما نزل فيها قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾[2].

ففي هذه الآية امتنان من الله بنعمته على عباده، وفيها لفتة إلى قبح وعدم استحسان السكر حيث قوبل بالرزق الموصوف بالحسن دون أن يصفه أو يمدحه، مما يشعر بمدح الرزق والثناء عليه وحده دون السكر.

ثم نزل قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾[3].

ففي هذه الآية تصريح بأن الخمر ضررها أكثر من نفعها.

ثم نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾[4].

وفي ذلك نهي عن شربها في الأوقات التي يستمر تأثيرها إلى وقت الصلاة.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ١٠١/٦ في كتاب: فضائل القرآن، باب: تأليف القرآن.

(٢) سورة النحل الآية (٦٧).

(٣) سورة البقرة الآية (٢١٩).

(٤) سورة النساء الآية (٤٣).

ثم نزل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾[(١)].

ففي هذه الآيات تحريم قطعي للخمر في كل الأوقات وبأي قدر وعلى أية صورة.

وهكذا تم تحريم الخمر بالتدرج فكان في ذلك أعظم حكمة جليلة سلكها الإسلام في معالجة الأمراض الاجتماعية.

٥ - الدلالة القاطعة على أن القرآن الكريم تنزيل من حكيم حميد:

إن نزول القرآن الكريم خلال ثلاث وعشرين سنة تنزل الآية أو الآيات على فترات من الزمن وفي مناسبات متعددة، فيقرؤه الإنسان ويجده محكم النسج دقيق السبك مترابط المعاني رصين الأسلوب، متناسق الآيات والسور مما يدل على أنه تنزيل من الحكيم الحميد.

ولو كان هذا القرآن من كلام البشر قيل في مناسبات متعددة ووقائع متتالية، وأحداث متعاقبة لوقع فيه التفكك والانفصام يقول تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾[(٢)].

٦ - تعميق الأثر في النفس والتذكر:

إن ربط الآية بالحادثة والواقعة أدى إلى أن يتذكر الناس جميعا هذه الآية، ويعمق أثرها في النفس البشرية لأن الآية عندما تعالج جانباً من حياة الناس عاشوه لحظة بلحظة أدعى إلى أن يتذكر ويبقى أثره في الناس[(٣)].

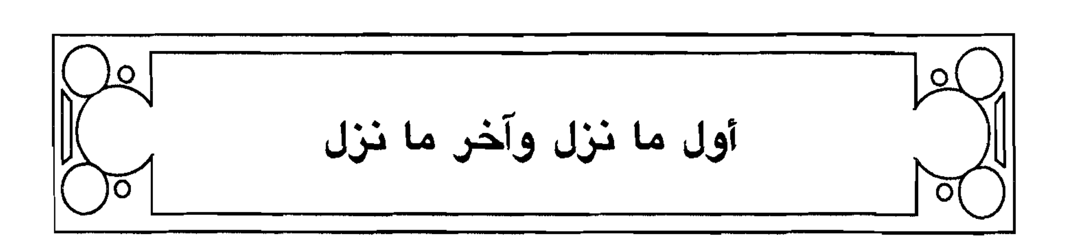


(١) سورة المائدة الآيتان (٩٠، ٩١).

(٢) سورة النساء الآية (٨٢).

(٣) انظر: مناهل العرفان ٥٣/١، ومباحث في علوم القرآن لمناع القطان ١٠٧، ونزول القرآن ٤٢، تنزل القرآن وحكمة كل تنزيل ٣٢.

الموضوع الرابع



أول ما نزل وآخر ما نزل

أولية النزول وآخريته تارة تكون على الإطلاق بالنسبة للقرآن كله، وهو المشهور عند الحديث عن هذا الموضوع.

وتارة تكون مقيدة:

إما بالنسبة لموضوع معين أي أول ما نزل في كل تشريع من تعاليم الإسلام وآخر ما نزل فيه كالأطعمة والأشربة والقتال...

وإما بالنسبة لمكان خاص مثل أول ما نزل بمكة وآخر ما نزل بها، وأول ما نزل بالمدينة وآخر ما نزل بها.

وإما بالنسبة لسورة ما، مثل أول ما نزل من سورة كذا وآخر مانزل منها.

الفائدة من معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل:

يمكن أن نجمل الفائدة بما يلي:

١ ـ معرفة الناسخ والمنسوخ كأن يوجد آيتان أو أكثر في موضوع واحد وحكم أحدهما يغاير الأخرى تغايراً لا يمكن معه الجمع فنعرف أن المتأخر منها ناسخ للمتقدم.

٢ ـ معرفة تاريخ التشريع الإسلامي كفرضية الصلاة كانت بمكة، والصوم في السنة الثانية بعد الهجرة، وفرضية الحج في السادسة، فإذا عرفنا ذلك أمكننا ترتيبها ترتيباً شرعياً.

٣ ـ معرفة التدرج في التشريع، وإدارك أسراره، فإن الآيات القرآنية عالجت النفس البشرية بالأساليب الحكيمة فتدرجت بهم الأحكام حتى أقلعوا عما هم عليه من أمراض وفساد في العقائد.

٤ ـ بيان العناية التي حضى بها القرآن الكريم، فقد وعي الصحابة هذا الكتاب آيةً آية فعرفوا متى نزلت؟ وأين نزلت؟[١].

أول ما نزل من القرآن مطلقاً:

اختلف العلماء في هذا على أقوال أربعة:

الأول:

إن أول ما نزل هو قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾[٢].

ويدل عليه ما رواه الشيخان وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها قالت: أول ما بديء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّب إليه الخلاءُ، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنَّث فيه (وهو التعبد) الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله (أي يرجع)، ويتزود لذلك (أي يأخذ معه زاده)، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق، وهو في غار حراء، فجاءه الملك، فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارىء[٣]. قال: فأخذني فغطَّني[٤] حتى بلغ مني الجَهْد ثم أرسلني. فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارىء.

---

(١) انظر: مناهل العرفان ٩٢/١، والمدخل لدراسة القرآن ١٠٩.
(٢) سورة العلق الآيات (١ ـ ٥).
(٣) أي: لست أعرف القراءة.
(٤) ضمني إلى صدره.

فأخذني فغطَّني الثانية حتى بلغ مني الجَهْد ثم أرسلني. فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارىء. فأخذني فغطَّني الثالثة ثم أرسلني. فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾﴾[1] فرجع بها رسول الله ﷺ يرجُفُ فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة ـ وأخبرها الخبر ـ لقد خشيت على نفسي، فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتحمل الكلَّ (الضعيف) وتكسب المعدوم وتَقْري الضيف...» الحديث[2].

الثاني:

إن أول ما نزل هو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾﴾[3].

ويدل عليه ما رواه الشيخان عن أبي سلمة بن عبدالرحمن بن عوف قال: سألت جابر بن عبدالله: أيُّ القرآن أنزل قبل؟ قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾﴾، قلت: أو ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾؟ قال: أحدثكم ما حدثنا به رسولَ الله ﷺ: قال رسول الله ﷺ: إني جاورت بحراء[4] فلما قضيت جواري نزلتُ فاستبطنت الوادي، فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وشمالي، ثم نظرت إلى السماء فإذا هو ـ يعني جبريل ـ فأخذتني رجفة، فأتيت خديجة فأمرتهم فدثروني فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾﴾[5].

الثالث:

إن أول ما نزل هو سورة الفاتحة. واستدل على ذلك بحديث أبي

---

(١) سورة العلق الآيات (١ ـ ٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٣/١ في كتاب بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي، ومسلم في صحيحه ١٣٩/١ في كتاب: الإيمان، باب: بدء الوحي.

(٣) سورة المدثر الآيات (١ ـ ٥).

(٤) أي أقمت فيه مدة متعبدا، وكان ذلك قبل النبوة وبعدها، وكان يجاور فيه في رمضان غالباً.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ٤/١ في كتاب: بدء الوحي، اب: كيف كان بدء الوحي، ومسلم في صحيحه ١٤٣/١ في كتاب: الإيمان، باب: بدء الوحي.

ميسرة عمرو بن شرحبيل أن رسول الله ﷺ قال لخديجة رضي الله عنها: «إذا خلوتُ وحدي سمعت نداء خلفي:

يا محمد يا محمد، فأنطلق هارباً في الأرض» فقال: «لا تفعل إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول، ثم ائتني، فأخبرني» فلما خلا ناداه يا محمد قل ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾[1][2].

الـرابـع:

إن أول ما نزل قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾، فقد روى الواحدي عن عكرمة والحسن قالا: «أول ما نزل من القرآن ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾ فهو أول ما نزل من القرآن بمكة وأول سورة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾[3].

القول الراجح:

القول الأول هو القول الراجح الذي تعضده الأدلة، وهو الذي عليه جمهور العلماء سلفاً وخلفاً.

وأجيب عن القول الثاني بعدة أجوبة:

١ ـ أن السؤال في حديث جابر كان عن نزول سورة كاملة فبين جابر أن سورة المدثر نزلت بكمالها قبل نزول تمام سورة اقرأ. فإن أول ما نزل منها صدرها.

---

(١) سورة الفاتحة الآيات (١ ـ ٧).

(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل ١٥٨/٢ في جماع أبواب المبعث باب: أول سورة نزلت من القرآن. وذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١ وعزاه إلى ابن أبي شيبة وأبي نعيم والواحدي والثعلبي.

(٣) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ٨.

٢ ـ أن الأولية في حديث جابر هي أول ما نزل في شأن الرسالة، لأن ما نزل من سورة «اقرأ» ثبتت به نبوة النبي ﷺ، وما نزل من سورة «المدثر» ثبتت به الرسالة في قوله: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾، ولهذا قال أهل العلم: إن النبي ﷺ نبيء بـ: ﴿اقْرَأْ﴾ وأرسل بـ: ﴿الْمُدَّثِّرُ﴾.

٣ ـ قوله في حديث أبي سلمة «فإذا هو» مما يفيد أنه سبق أن رآه[1].

٤ ـ أن ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ أول ما نزل بعد فترة انقطاع الوحي. أما ﴿اقْرَأْ﴾ فهي أول ما نزل على الإطلاق ويؤيد هذا ما في الصحيحين عن أبي سلمة عن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه: بينما أنا أمشي سمعت صوتا من السماء فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فرجعت، فقلت: زملوني فدثروني، فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١﴾. فهذا الحديث يدل على أنه جاءه الوحي قبل هذه المرة بحراء.

وحديث عائشة يدل على أن نزول ﴿اقْرَأْ﴾ كان في غار حراء وهو أول الوحي، ثم فتر بعد ذلك، وأخبر في حديث جابر أن الوحي تتابع بعد نزول ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١﴾[2].

٥ ـ قال ابن حبان في صحيحه: لا تضاد بين الحديثين، بل أول ما نزل ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ بغار حراء. فلما رجع إلى خديجة رضي الله عنها وصبت عليه الماء البارد، أنزل الله في بيت خديجة ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١﴾

---

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن ١/٢٩٤، ٢٩٥، والإتقان في علوم القرآن ١/٩٣، النوع السابع.

(٢) نزلت المدثر بعد فترة الوحي ـ وفتر ثلاث سنين أو ثلاثين شهراً على خلاف في ذلك ـ لم ينزل فيها شيء من القرآن على النبي ولم يتل على الناس غير السور الثلاث: صدر سورة العلق ثم القلم ثم المزمل.
وسبب فترة الوحي: لعله تحريك قوى الرسول إلى اشتياق الوحي، فيذهب عنه ما كان يجده من الرعب والخوف، انظر: بيان المعاني ١/١٠٢.

فظهر أنه لما نزل عليه ﴿اقْرَأْ﴾ رجع فتدثر، فأنزل عليه ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١﴾. اهـ.

أما القول الثالث:

فإن دليله حديث مرسل، قال ابن كثير: «هذا مرسل، وفيه غرابة وهو كون الفاتحة أول ما نزل»[1].

ويحمل أيضاً على أنها أول سورة نزلت كاملة، أو إنها من أوائل ما نزل[2].

أما القول الرابع:

فيجاب عنه بما قاله السيوطي: «وعندي أن هذا لا يُعَدُّ قولاً برأسه، فإنه من ضرورة السورة نزول البسملة معها، فهي أول آية نزلت على الإطلاق»[3] كما أن ما استدل به فهو حديث مرسل لا يناهض المرفوع.

آخر ما نزل من القرآن:

اختلف العلماء في آخر ما نزل من القرآن الكريم وتعددت أقوالهم نتيجة عدم وجود أحاديث مرفوعة إلى النبي ﷺ في هذا الموضوع. وإنما يوجد آثار مروية عن بعض الصحابة والتابعين استنتجوها مما شاهدوه من التنزيل، وملابسات الأحوال، وقد يسمع أحدهم ما لا يسمعه الآخر أو يره.

وأشهر هذه الأقوال ما يلي:

١ - إن آخر ما نزل من القرآن قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٢٨١﴾[4].

ودليله ما رواه النسائي من طريق عكرمة، وابن جرير من طريق

(١) البداية والنهاية ٩/٣، ١٠.
(٢) انظر: المدخل لدراسة القرآن ١٠٧.
(٣) الإتقان في علوم القرآن ٩٥/١، النوع السابع.
(٤) سورة البقرة الآية (٢٨١).

العوفي والضحاك وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «آخر شيء نزل من القرآن ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾»[١].

وأيضاً ما ذكره البغوي في تفسيره عند هذه الآية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «هذه آخر آية نزلت على رسول الله ﷺ فقال له جبريل: ضعها على رأس مائتين وثمانين من سورة البقرة. وعاش بعدها رسول الله ﷺ واحداً وعشرين يوماً. وقال ابن جريج: تسع ليال. وقال سعيد بن جبير: سبع ليال»[٢].

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: «آخر ما نزل من القرآن كله ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وعاش النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليال، ثم مات ليلة الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول»[٣].

٢ - إن آخر ما نزل آية الربا والمراد بها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾[٤].

ويدل على ذلك ما أخرجه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «آخر آية نزلت على النبي ﷺ آية الربا»[٥].

٣ - وقيل آخر ما نزل آية الدين وهو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾[٦].

ودليله ما أخرجه ابن جرير عن سعيد بن المسيِّب: «أنه بلغه أن أحدث القرآن عهداً بالعرش آية الدين»[٧].

---

(١) أخرجه النسائي في تفسيره ٢٩٠/١، حديث رقم ٧٧، وابن جرير الطبري في تفسيره ١١٤/٣، ١١٥.

(٢) معالم التنزيل للبغوي ٣٤٧/١.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٥٥٤/٢، وانظر: الإتقان في علوم القرآن ١٠٢/١، النوع الثامن.

(٤) سورة البقرة الآية (٢٧٨).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ١٦٤/٥ في كتاب: التفسير، باب: سورة البقرة قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

(٦) سورة البقرة الآية (٢٨٢).

(٧) أخرجه ابن جرير في جامع البيان ١١٥/٣.

٤ - وقيل إن آخر ما نزل قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾[(١)] وهي آية الكلالة.

ويدل عليه ما رواه البخاري ومسلم عن البراء بن عازب أنه قال: آخر آية نزلت ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾[(٢)].

٥ - وقيل آخر ما نزل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨)﴾[(٣)].

ويدل على عليه ما رواه الحاكم في المستدرك عن أبي بن كعب قال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)﴾[(٤)(٥)].

٦ - وقيل: آخر ما نزل سورة المائدة لما رواه أحمد والحاكم عن عائشة رضي الله عنها قالت: «آخر سورة نزلت المائدة فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه، وما وجدتم من حرام فحرموه»[(٦)].

٧ - وقيل: آخر ما نزل ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (٩٣)﴾[(٧)]. لما رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «هذه الآية ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ

---

(١) سورة النساء الآية (١٧٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ١٨٥/٥ في كتاب: التفسير، باب: سورة النساء قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾، ومسلم في صحيحه ١٢٣٦/٣ في كتاب: الفرائض، باب: آخر آية نزلت آية الكلالة، حديث رقم ١٦١٨.

(٣) سورة التوبة الآية (١٢٨).

(٤) سورة التوبة الآيتان (١٢٨، ١٢٩).

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣٣٨/٢.

(٦) أخرجه أحمد في المسند ١٨٨/٦، والحاكم في المستدرك ٣١١/٢.

(٧) سورة النساء الآية (٩٣).

وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ هي آخر ما نزل وما نسخها شيء»[١].

٨ - وقيل: إن آخر سورة نزلت ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾﴾[٢]. لما رواه مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «آخر سورة نزلت من القرآن جميعاً ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾﴾»[٣].

التوجيه بين الأقوال:

الأقوال الثلاثة الأولى هي أقوى ما ذكر في آخر ما نزل على الإطلاق، وأقوى هذه الثلاثة القول الأول الذي رجحه ابن حجر، ووجه ترجيحه ما يلي:

١ - لشهرته بين أئمة التفسير.

٢ - ولكون الآية تشير في ثناياها إلى التذكير باليوم الآخر والرجوع إلى الله ليوفى كل جزاء عمله وهو أنسب بالختام.

٣ - وأيضا الرواية عن البغوي حددت الوقت بين نزولها وبين وفاة النبي ﷺ، والأقوال الأخرى لم تظفر بالتحديد.

ويجاب عن القول الثاني:

إما بأنها آخر آية نزلت في شأن الربا، أو بأن المراد أنها من أواخر الآيات نزولاً، كما روى الإمام أحمد عن عمر قال: «من آخر ما نزل آية الربا» ولعل مراد ابن عباس في روايته هذا، فهذا التعبير له نظائر في اللغة العربية.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ١٨٢/٥ في كتاب: التفسير، باب: سورة النساء قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾.

(٢) سورة النصر الآيات (١ - ٣).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ٢٣١٨/٤ في كتاب: التفسير، حديث رقم ٣٠٢٤.

أو المراد بأن قول ابن عباس (آية الربا) أي: الآية التي ختمت بها آية الربا وهي ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١)﴾ فتكون رواية البخاري مؤيدة للقول الأول[1].

ويجاب عن القول الثالث:

بأن آية الدين آخر ما نزل في باب المعاملات فهي آخرية مقيدة لا مطلقة. وقد جمع السيوطي بين هذه الأقوال الثلاثة فذكر أنها نزلت دفعة واحدة كترتيبها في المصحف: آية الربا فآية ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾، فآية الدين لأنها في قصة واحدة، فأخبر كل راو عن بعض ما نزل بأنه آخِر، وذلك صحيح فلا تنافي بينها[2].

وفي هذا الجمع نظر لاختلاف موضوعات هذه الآيات فلا تكون في قصة واحدة، ولتعدد الروايات فيها[3].

أما القول الرابع:

فيجاب عنه بأن المراد بالآخرية هي آخر ما نزل بشأن المواريث.

أما القول الخامس:

فيجاب عنه بأن المراد آخر ما نزل من سورة براءة.

أما القول السادس:

فيجاب عنه بأن المراد آخر سورة نزلت في الحلال والحرام ولم ينسخ فيها شيء كما يشير إليه آخر الحديث.

أما القول السابع:

فيجاب عنه بأن المراد آخر ما نزل في حكم قتل المؤمن عمداً فهي آخرية مقيدة، ويؤيده قوله «وما نسخها شيء».

---

(١) انظر: فتح الباري ١٦٥/٨.

(٢) انظر: الإتقان في علوم القرآن ١٠٢/١، النوع الثامن.

(٣) انظر: المدخل لدراسة القرآن ١٢٠.

أما القول الثامن:

فيجاب عنه بأن المراد آخر ما نزل مشعراً بوفاة النبي ﷺ، كما فهم ابن عباس رضي الله عنهما منها ذلك.

أو أنها آخر سورة نزلت بتمامها في حجة الوداع فلا ينافي نزول آية أو آيات بعدها.

ويلاحظ أن كل هذه الأقوال ليس فيها شيء مرفوع إلى النبي ﷺ، وإنما هي آثار مروية عن بعض الصحابة والتابعين استنتجوها مما شاهدوه من نزول الوحي، وقد يسمع أحدهم ما لا يسمعه الآخر، ويرى مالا يرى الآخر، فيخبر كلا منهم عن آخر ما سمعه من الرسول ﷺ أو قال ذلك باعتبار آخر ما نزل في تشريع خاص، أو آخر سورة نزلت كاملة أو نحو ذلك. ومن هنا كثر الاختلاف وتعددت الأقوال في آخر ما نزل.

فــائــدة:

هناك خطأ مشهور عند بعض الناس وهو زعمهم أن قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1]، هي آخر ما نزل من القرآن باعتبار أنها تدل على إكمال الدين في ذلك اليوم المشهود وهو يوم عرفة في حجة الوداع ففهموا أن إكمال الدين لا يكون إلا بإكمال نزول القرآن.

والصحيح: أن هذا الزعم غير صحيح ولم يقل به أحد من العلماء، للآثار السابقة في آية الربا، وآية الكلالة، وآية ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا﴾ حيث نزلت بعد ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ بأكثر من شهرين إذ نزلت قبل وفاة النبي ﷺ بتسع ليال.

أما إكمال الدين في الآية فالمراد به أن الله أتم عليهم نعمته بتمكينهم من البلد الحرام، وإجلاء المشركين عنه، وحجهم وحدهم دون أن

(١) سورة المائدة الآية (٣).

يشاركهم في البيت الحرام أحد من المشركين كما كان في السابق. ولا ينافي ذلك نزول آيات بعدها في الحلال والحرام، والوعظ والتذكير.

أمثلة لأول وآخر ما نزل في موضوعات خاصة:

١ - أول ما نزل في الأطعمة قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾[1].

وآخر ما نزل فيها قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَـٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾[2].

٢ - أول ما نزل في الخمر قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾[3].

وآخر ما نزل فيه ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾[4].

٣ - أول ما نزل في القتال قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾[5].

---

(١) سورة الأنعام (مكية) الآية (١٤٥).

(٢) سورة المائدة (مدنية) الآية (٣).

(٣) سورة النحل (مكية) الآية (٦٧).

(٤) سورة المائدة (مدنية) الآيتان (٩٠، ٩١).

(٥) سورة الحج (مدنية) الآية (٣٩).

وآخر ما نزل فيه: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾[1].

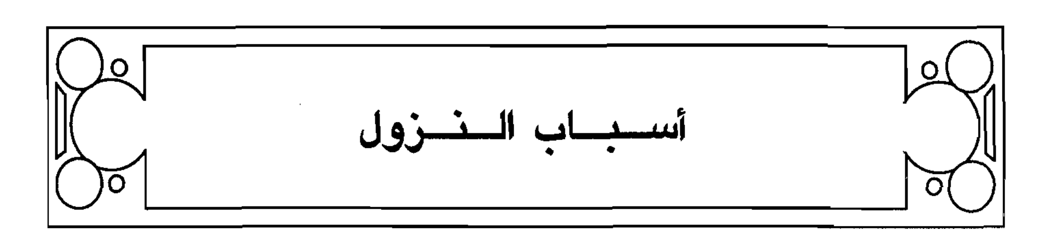
٤ - أول ما نزل في شأن القتل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾[2].

وآخر آية نزلت فيه ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾[3].

❀ ❀ ❀

(١) سورة التوبة (مدنية) الآية (٣٦).
(٢) سورة الإسراء (مكية) الآية (٣٣).
(٣) سورة النساء (مدنية) الآية (٩٣).

الموضوع الخامس



أسباب النزول

١ ـ صفة نزول السور والآيات:

نزل القرآن الكريم على الرسول محمد ﷺ في مدة ثلاث وعشرين سنة ـ على القول الراجح ـ فكان ينزل آيات مفرقات وهو الغالب، فقد صح نزول الآيات الخمس الأولى من سورة العلق، ثم نزل باقيها بعد نزول سورة المدثر، كما صح نزول العشر آيات في قصة الإفك جملة واحدة من سورة النور، وصح أيضاً نزول عشر آيات جملة من سورة المؤمنون، وصح نزول ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾[(١)] وحدها، وهي بعض آية فقد أخرج البخاري من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[(٢)] دعا رسول الله ﷺ زيداً فكتبها، فجاء ابن أم مكتوم فشكا ضرارته، فأنزل الله: ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾[(٣)].

وأيضاً قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ

(١) سورة النساء الآية (٩٥).
(٢) سورة النساء الآية (٩٥).
(٣) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه ١٨٢/٥ في كتاب: التفسير، باب: لا يستوي القاعدون من المؤمنين.

مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾[١] نزلت بعد نزول أول الآية وهي: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ﴾ وبعضه نزل سوراً كاملة مثل: سورة الفاتحة، والإخلاص، والكوثر، والمسد، والنصر، والمرسلات، والصف،... وغيرها[٢].

كما نزلت سورتا المعوذتين معاً بسبب سحر لبيد بن الأعصم اليهودي لرسول الله ﷺ، فأنزل الله ﷻ بشأنه المعوذتين فقرأهما وتعوذ بهما فانحل السحر[٣].

٢ ـ أقسام القرآن من حيث سبب النزول وعدمه:

ينقسم القرآن الكريم من حيث سبب النزول وعدمه إلى قسمين:

الأول: ابتدائي وهو ما نزل ابتداء بدون سبب وهو معظم الآيات القرآنية، كالآيات التي اشتملت على الأحكام والآداب، أو التي قصد منها ابتداء هداية الخلق وإرشادهم إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، ومن ذلك أيضا: قصص الأنبياء مع أممهم، ووصف بعض الوقائع الماضية، أو أنباء الغيب المستقبلية، فقد نزل أكثر ذلك ابتداء من غير سبب.

الثاني: سببي وهو ما تقدم نزوله سبب يقتضيه، والسبب إما سؤال وجه إلى النبي ﷺ فيجيب الله عنه، أو حادثة وقعت تحتاج إلى بيان وتحذير، أو فعل واقع يحتاج إلى معرفة حكمه. وهذا القسم هو المقصود من البحث في هذا الموضوع[٤].

ويدل على هذين القسمين ما أثر عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «أنزل الله القرآن إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، فكان الله إذا أراد أن

(١) سورة التوبة الآية (٢٨).

(٢) انظر: الإتقان في علوم القرآن ١/١٣٦ النوع الثالث عشر.

(٣) انظر: أسباب النزول للواحدي ٥١٥.

(٤) انظر: مناهل العرفان ١/١٠٧، والمدخل لدراسة القرآن ١٣٢.

يوحي منه شيئاً أوحاه، أو أن يحدث منه في الأرض شيئاً أحدثه»[١] فهذه الرواية تدل على نوعي التنزيل.

ومما يذكر في هذا الموضوع ما أثر عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «والله الذي لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت؟ ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيم أنزلت؟ ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه»[٢].

ولا يعني هذا أن لكل آية سببا بل المراد: إن كان لها سبب فهو يعلمه.

٣ ـ عناية العلماء بأسباب النزول:

اعتنى العلماء بالتأليف في موضوع «أسباب النزول» على وجه التفصيل، ومن هؤلاء:

١ ـ أبو الحسن علي بن المديني ـ شيخ البخاري ـ المتوفى سنة (٢٣٤هـ).

٢ ـ أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي المتوفى سنة (٤٦٨هـ)، وسمى كتابه «أسباب النزول»، وغلب عليه رواية الأسباب بأسانيدها، إلا أنه ذكر أشياء معلقة بدون إسناد. وهو مطبوع عدة طبعات.

٣ ـ أبو المظفر محمد بن أسعد الحليمي العراقي المتوفى سنة (٥٦٧هـ) وسمى كتابه «أسباب النزول» ولا يزال مخطوطا ويقع في (١٥٢) ورقة، ويوجد منه نسخة خطية في جامعة الإمام، وجامعة أم القرى. وهو يجمع بين أسباب النزول والتفسير والقصص.

٤ ـ إبراهيم بن عمر الجعبري المتوفى سنة (٧٣٢هـ) حيث اختصر أسباب النزول للواحدي.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/٢٢٢).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ١٠٢/٦، في كتاب: فضائل القرآن، باب: القراء من أصحاب النبي ﷺ.

٥ - الحافظ أحمد بن علي بن حجر المتوفى سنة (٨٥٢هـ)، وسمى كتابه «العجاب في بيان الأسباب» ولم يتمه مؤلفه، ويوجد منه إلى أوائل سورة النساء وتبلغ (٢٠١) ورقة، وتوجد في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة(١)، وقد طبع سنة ١٤١٨هـ بمجلدين بتحقيق عبدالحكيم الأنيس من أول القرآن إلى نهاية الآية (٧٨) من سورة النساء.

٦ - جلال الدين عبدالرحمن السيوطي المتوفى سنة (٩١١هـ)، وسمى كتابه «لباب النقول في أسباب النزول»، جّرده من الأسانيد إلا أنه يعزو كل حديث لمن أخرجه دون أن يبين الصحيح من غيره.

٧ - الشيخ عبدالفتاح القاضي، وسمى كتابه «أسباب النزول عن الصحابة والمفسرين» وهو مطبوع بمجلد واحد.

٨ - الشيخ مقبل الوادعي، وسمى كتابه «الصحيح المسند من أسباب النزول» وهو مطبوع.

٩ - ابن خليفة عليوي، وسماه «جامع النقول في أسباب النزول» وهو مطبوع.

١٠ - المحرر في أسباب النزول من خلال الكتب التسعة د. خالد المزيني.

٤ - معنى سبب النزول:

عرف العلماء سبب النزول بأنه: «ما نزلت الآية أو الآيات متحدثةً عنه، أو مبينة لحكمه أيام وقوعه»(٢).

والمعنى: أن تقع حادثة أو يُوجَّه إلى النبي ﷺ سؤالٌ فتنزل الآيات بتبيان ما يتصل بهذه الحادثة، أو بجواب هذا السؤال، فيقال بعد ذلك في هذه الآية: سبب نزولها كذا.

---

(١) حقق القسم الأول منه بما يقارب (٥٤) ورقة بالجامعة الإسلامية.

(٢) الإتقان في علوم القرآن ١١٦/١، ومناهل العرفان ١٠٦، ودراسات قرآنية ١٣٨-١٣٩.

وقولنا في التعريف «أيام وقوعه» قيد خرج به الآيات التي تنزل ابتداء من غير سبب، بينما هي تتحدث عن قصص الأنبياء وأحوال الأمم معهم.

أي: إن السبب لا يعتبر سبباً إلا إذا نزل القرآن الكريم عقب وقوعه مباشرة أو بعد فترة لحكمة من الحكم.

ومن هذا القيد خرج أيضا: الحوادث القديمة كقصة أصحاب الفيل الذين قدموا إلى مكة فإنها لا تعتبر سببا لنزول سورة الفيل لأن سبب النزول مقيد بوقوعه زمن الرسول ﷺ، فهذه القصة وغيرها من باب الإخبار عن الوقائع الماضية تذكرة وموعظة للمؤمنين.

وخرج أيضاً من هذا القيد: الأمور الغيبية المستقبلية كأحوال اليوم الآخر وما فيه من نعيم وعذاب.

فإن مثل هذه النصوص والأحداث لا تعتبر أسباب نزول.

ويمكن تعريفه بصياغة أخرى وهو: «كل قول أو فعل أو سؤال ـ ممن عاصروا التنزيل ـ نزل بشأنه قرآن».

٥ ـ أنواع أسباب النزول:

لسبب النزول ثلاثة أنواع:

الأول: أن تحدث حادثة فينزل القرآن بشأنها، كالغزوات، وقضايا الأحوال الشخصية: كالنكاح، والطلاق، والحدود... ومعظم أسباب النزول من هذا النوع.

الثاني: أن يقع فعل يحتاج إلى معرفة حكمه مثل قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١﴾[(١)].

الثالث: أن يُسْأل الرسول ﷺ فينزل القرآن ببيان الحكم فيه. والأسئلة

(١) سورة المجادلة الآية (١).

المرفوعة إلى النبي ﷺ لا تخلو إما أن تكون متصلة بأمر مضى نحو قوله سبحانه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾[1]. أم متصلة بحاضر نحو قوله سبحانه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾[2]. أم متصلة بمستقبل نحو قوله سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾[3].

٦ ـ طريق معرفة سبب النزول:

الطريقة الوحيدة لمعرفة سبب النزول هي النقل الصحيح عن صحابة رسول الله ﷺ ممن شاهدوا الوحي والتنزيل لأنه يستبعد أن يقولوا ذلك من تلقاء أنفسهم، بل هو محمول على سماعهم من النبي ﷺ أو مشاهدتهم للحادثة، أو بقرائن تشير إلى ذلك. ولذلك كثيراً ما يجزم بعض الصحابة بالسبب. ولا مجال للعقل أو الرأي أو الاجتهاد في معرفته إلا بالترجيح بين الروايات، أو الجمع بينها فيما ظاهره التعارض.

قال الواحدي في مقدمة كتابه «أسباب النزول»: «ولا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب، وبحثوا عن علمها وجدُّوا في الطلب»[4].

ومن هنا تشدد السلف في البحث عن أسباب النزول حتى قال الإمام محمد بن سيرين: «سألت عَبِيْدةَ عن آية من القرآن فقال: اتق الله وقل سداداً، ذهب الذين يعلمون فيم أنزل الله من القرآن»[5].

٧ ـ حكم قول الصحابي والتابعي في أسباب النزول:

اتفق علماء الحديث على اعتبار **قول الصحابي** في سبب النزول له

---

(١) سورة الكهف الآية (٨٣).

(٢) سورة الإسراء الآية (٨٥).

(٣) سورة النازعات الآية (٤٢)، وانظر مناهل العرفان ١/١٠٧-١٠٨.

(٤) أسباب النزول للواحدي ٣-٤.

(٥) الموافقات للشاطبي ٣/٤٢٢، والإتقان في علوم القرآن ١/١١٥ النوع التاسع.

حكم المرفوع[١]، لأنها غير خاضعة للاجتهاد، ولأن الصحابي عاين التنزيل وعاصره.

قال الحاكم في علوم الحديث: «إذا أخبر الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل عن آية من القرآن أنها نزلت في كذا فإنه حديث مسند له حكم المرفوع»[٢] أي: هو محمول على السماع والمشاهدة. وقد أخرج المحدثون أسباب النزول في كتبهم كالبخاري ومسلم وغيرهما.

أما قول التابعي فذهب السيوطي إلى قبول روايته بشروط أربعة هي:

١ ـ أن تكون عبارته نصاً صريحاً في السببية.

٢ ـ أن يكون الإسناد صحيحاً.

٣ ـ أن يكون التابعي من أئمة التفسير الذين أخذوا عن الصحابة كمجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير.

٤ ـ أن يعتضد برواية تابعي آخر[٣].

فإذا توافرت هذه الشروط قُبل قوله وصار له حكم الحديث المرسل. وينبغي الحذر والتثبت في أسباب النزول فلا نخلط بها ما ليس منها فقد يقع على لسانهم قولهم: «نزلت هذه الآية في كذا» أو «نزلت في الرجل يفعل كذا» ويكون المراد بيان موضوع الآية أو ما دلت عليه من الحكم، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[٤].

أخرج البخاري عن حذيفة في هذه الآية قال: «نزلت في النفقة»[٥].

قال الزركشي: «وقد عُرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا

---

(١) أي المنسوب إلى النبي ﷺ.
(٢) انظر الإتقان في علوم القرآن ١/١١٥ النوع التاسع.
(٣) انظر الإتقان في علوم القرآن ١/١١٧ النوع التاسع.
(٤) سورة البقرة الآية (١٩٥).
(٥) صحيح البخاري ٦/٥٧.

قال: نزلت هذه الآية في كذا» فإنه يريد بذلك أن هذه الآية تتضمن هذا الحكم، لا أن هذا كان السبب في نزولها... إلى أن قال: فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية، لا من جنس النقل لما وقع»[(١)].

٨ ـ مصادر أسباب النزول:

تتنوع المصادر التي يمكن أن تُستقى منها أسباب النزول إلى أربعة أنواع هي:

١ ـ كتب السنة المطهرة وأهمها: أ- صحيح البخاري للإمام البخاري (ت ٢٥٦هـ). ب- المستدرك على الصحيحين للحاكم أبي عبدالله النيسابوري (ت ٤٠٥هـ). ج- مسند الإمام أحمد بن حنبل.

٢ ـ كتب التفسير وأهمها: أ- تفسير ابن جرير الطبري. ب- تفسير ابن كثير. ج- تفسير القرطبي. د- الدر المنثور للسيوطي.

٣ ـ كتب أسباب النزول ـ سبق بيانها ـ.

٤ ـ كتب السير والتاريخ وأهمها: أ- السيرة النبوية لابن إسحاق. ب-تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري. ج- البداية والنهاية لابن كثير.

٩ ـ فوائد معرفة سبب النزول:

لمعرفة سبب النزول فوائد كثيرة من أهمها:

١ ـ أن معرفة سبب النزول يبين الحكمة الباعثة على تشريع حكم من الأحكام، فالوقوف على سبب النزول يظهر هذه الحكمة مما يكون أدعى لتفهمه وتقبله، ومثال ذلك: آيات تحريم الخمر فمن عرف سبب نزولها أدرك ضرورة تحريمها، فهي توقع العداوة والبغضاء بين الناس، وتصد عن الصلاة، وتذهب العقل والوقار، وتضر بالصحة وتفني الأموال في غير طائل.

---

(١) البرهان ١/٣١-٣٢.

وأيضاً قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾[1] فقد نزلت هذه الآية لما كانت المسلمات يخرجن بالليل إلى حاجاتهن وكان المنافقون يتعرضون لهن ويؤذوهن.

٢ ـ أن معرفة سبب النزول خير معين على فهم الآية، ودفع الإشكال عنها قال ابن دقيق العيد: «معرفة سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن»[2].

وقال الواحدي: «لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها»[3].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب»[4].

وفي القرآن آيات لا يتبين المقصود منها إلا إذا علمت الأسباب التي نزلت الآيات في شأنها. ومن أمثلة ذلك:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾[5] حيث أشكل على عروة بن الزبير رضي الله عنهما فرضية السعي بين الصفا والمروة، إذ فهم من ظاهرها أن الآية نزلت لبيان عدم فرضية السعي، فالآية تنفي الجناح، ونفي الجناح يفيد الإباحة لا الوجوب. فلو وقف رضي الله عنه على سبب نزولها لتبين له أنها لا تنافي وجوب السعي بين الصفا والمروة.

---

(١) سورة الأحزاب الآية (٥٩).
(٢) الإتقان في علوم القرآن ١٠٨/١ النوع التاسع.
(٣) أسباب النزول للواحدي ٨.
(٤) مقدمة في أصول التفسير ٤٧.
(٥) سورة البقرة الآية (١٥٨).

أخرج البخاري عن الزهري قال عروة سألتُ عائشةَ رضي الله عنها فقلتُ لها: أرأيتِ قولَ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ فوالله ما على أحد جناح أن لا يطوَّف بالصفا والمروة. قالت: بئس ما قلتَ يا ابن أختي إن هذه لو كانت كما أوَّلتهاَ عليه كانت: لا جناح عليه أن لا يتطوّف بهما، ولكنها أنزلت في الأنصار كانوا قبل أن يُسلموا يُهِلُّون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المُشَلَّل[1] فكان مَنْ أهلَّ لها يتحرَّج أن يطوف بالصفا والمروة في الجاهلية فلما أسلموا سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك. قالوا: يا رسول الله إنا كُنَّا نتحرج أن نطوف بين الصفا والمروة. فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾[2].

فيتضح من سبب نزول الآية هو نفي الحرج من أذهانهم من الطواف بينهما، ولو لم يعرف السبب لفهم أن السعي بين الصفا والمروة أمر غير واجب ولا يترتب عليه شيء، وهذا خلاف ما أقره النبي ﷺ.

مثال آخر: قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾[3] حيث لا يمكن معرفة معناها دون الاطلاع على سبب النزول.

أخرج البخاري ومسلم عن أبي إسحاق قال: سمعت البراء رضي الله عنه يقول: نزلت هذه الآية فينا،كانت الأنصار إذا حَجُّوا فجاؤا لم يدخلوا من قبل أبواب بيوتهم ولكن من ظهورها، فجاء رجل من الأنصار فدخل من قبل بيته، فكأنه عُيِّر بذلك فنزلت: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن

---

(١) يهلون: أي يحجون. مناة: صنم كان في الجاهلية يعبد على ساحل البحر، والطاغية: صفة لها إسلامية. المُشَلَّل: جبل يشرف على قُدَيد من ناحية البحر. وقديد اسم موضع قرب مكة. والمعنى: كان الأوس والخزرج والأزد وغسان يحجون مناة ويعظمونها. فإذا طافوا بالبيت وأفاضوا من عرفات وفرغوا من منى أتوا مناة فأهلوا لها. فمن أهلّ لها لم يطف بين الصفا والمروة.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه ١٦٩/٢ في كتاب الحج، باب وجوب الصفا والمروة باب (٧٩).

(٣) سورة البقرة الآية (١٨٩).

ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَاۚ﴾[١].

مثال آخر: قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾[٢] حيث حكي عن قدامة بن مظعون وعمرو بن معدي كرب أنهما كانا يقولان: الخمر مباحة ويحتجان بهذه الآية أخذاً من ظاهرها.

وقد خفي عنهما سبب نزولها فوقعا في هذا الرأي الشاذ[٣].

وسبب نزولها ما أخرجه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك وفيه:

فقال بعض القوم ـ أي حين حرمت الخمر ـ: قد قُتِل قوم وهي في بطونهم فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾[٤]. فدل سبب النزول على أن نفي الجناح كان قبل التحريم.

٣ ـ أن معرفة سبب النزول يعين على معرفة من نزلت فيه الآية وتعيين المبهم فيها، وفي ذلك إسناد الفضل لأهله، ونفي التهمة عن البريء.

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾﴾[٥] حيث أخرج البخاري عن يوسف بن مَاهَكٍ

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه ٢٠٥/٢ في كتاب العمرة، باب قوله تعالى: «وأتوا البيوت من أبوابها»، باب (١٨)، ومسلم في صحيحه ٢٣١٩/٤ في كتاب التفسير حديث رقم (٣٠٢٦). قال المفسرون: إن الأنصار وسائر العرب كانوا لا يدخلون بيوتهم إذا أحرموا، لأنهم يعتقدون أنه لا يجوز أن يحول بينه وبين السماء حائل، وكانوا يتسنمون ظهور بيوتهم، فلما جاء الإسلام أبطل هذه العادة.

(٢) سورة المائدة الآية (٩٣).

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٢٩٨/٦.

(٤) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه ١٠٢/٢ في كتاب: المظالم، باب: صب الخمر في الطريق.

(٥) سورة الأحقاف الآية (١٧).

قال: كان مروان على الحجاز استعمله معاوية بن أبي سفيان ﷺ فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه، فقال له عبدالرحمن بن أبي بكر شيئاً، فقال خذوه، فدخل بيت عائشة فلم يقدروا[١]، فقال مروان: إن هذا الذي أنزل الله فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي﴾ فقالت عائشة من وراء الحجاب ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن، إلا أن الله أنزل عذري[٢].

وفي رواية للنسائي أن عائشة قالت: «كذب والله، ما هو به، ولو شئتُ أن أسمي الذي أُنْزِلَتْ فيه لسَمَّيته»[٣].

مثال آخر: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾[٤]، قال ابن عباس وأنس وسعيد بن المسيب نزلت في صهيب بن سنان الرومي وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة منعه الناس أن يهاجر بماله وإن أحب أن يتجرد منه ويهاجر فعل.

فتخلص منهم وأعطاهم ماله، فأنزل الله فيه هذه الآية.

ويروى أن رسول الله ﷺ قال له: ربح البيع صهيب[٥].

٤ - معرفة سبب النزول يساعد على الحفظ والفهم، وتأكيد الحكم في ذهن من يسمع الآية، وذلك لأن ربط الأسباب بالمسببات، والأحكام بالحوادث، والحوادث بالأشخاص، والأزمنة والأمكنة، كل ذلك من دواعي حفظ الأشياء وتقررها في الذهن، وسهولة استذكارها عند تذكر ما يقارنها[٦].

---

(١) أي: فلم يقدروا أن يدخلوا بيت عائشة إعظاماً لها.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه ٤٢/٦، في كتاب: التفسير، باب: سورة الأحقاف باب (٤٦).

(٣) سنن النسائي ٤٥٨/٦، في كتاب: التفسير، باب (٣٢٩) قوله: (والذي قال لوالديه).

(٤) سورة البقرة الآية (٢٠٧).

(٥) تفسير ابن كثير ٢٤٧/١.

(٦) المدخل لدراسة القرآن ١٤٣.

١٠ ـ صيغ عبارات سبب النزول:

تعد عبارات النزول قرائن قوية في إرادة ومعرفة سبب النزول وقد قسمها العلماء المعاصرون إلى صيغتين:

الأولى: أن تكون صيغة سبب النزول نصاً صريحا في السببية ومثاله:

- أن يصرح الصحابي بلفظ السبب بأن يقول: سبب نزول هذه الآية كذا.
- أن يأتي بـ: «فاء» تعقيبية داخلة على مادة النزول بعد ذكر حادثة أو سؤال، كأن يقول: حدث كذا وكذا، أو سُئل رسول الله ﷺ عن كذا فأنزل الله تعلى هذه الآية أو فنزلت هذه الآية.
- أن يُسأل الرسول ﷺ فيُوحى إليه ويجيب بما نزل عليه، فتفهم السببية من المقام، ومثاله: ما أخرجه البخاري عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: بينا أنا أمشي مع النبي ﷺ في بعض حرث المدينة وهو يتوكأ على عسيب معه، فمررنا على نفر من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، وقال بعضهم لا تسألوه أن يجيء فيه بشيء تكرهونه، فقال بعضهم: لنَسْألنَّه، فقام إليه رجل منهم فقال: يا أبا القاسم ما الروح؟ فسكت عنه النبي ﷺ فعلمت أنه يوحى إليه فقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾[1].

الثانية: أن تكون صيغة سبب النزول محتملة للسببية ولبيان المعنى، ومثالها:

- أن يقول الراوي: نزلت هذه الآية في كذا فيذكر حكماً فقهيا لا اسماً أو حدثاً، ومنه ما أخرجه الواحدي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أنزلت: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[2] أن تصلي حيث توجهت بك راحلتك في التطوع[3].

---

(١) سورة الإسراء الآية (٨٥)، والحديث أخرجه البخاري في صحيحه ١٨٩/٨، في كتاب: التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ سورة النحل.

(٢) سورة البقرة الآية (١١٥).

(٣) الأثر أخرجه الواحدي في أسباب النزول ٣٨.

- وأيضاً أن يقول الراوي: أحسب هذه الآية نزلت في كذا، فإنه لا يقطع بالسبب.

فهذان المثالان صيغتان تحتملان السببية وغيرها[١].

وهذا التقسيم لا يعني بالضرورة تحقق السببية من عدمها، وإنما يعني التصريح بذكر النزول فقط، والأساليب المستعملة في التعبير عن النزول كثيرة منها: ونزلت، حتى أنزل الله، فلما أنزل الله، فيَّ نزلت، فينا نزلت، حتى نزل القرآن، فأنزل الله تصديق ذلك، ما أحسب هذه الآية أنزلت إلا في ذلك...

ومن الملاحظ أن الرواة قد يتصرفون في الألفاظ دون قصد فيبدلون مثلاً: تلا بأنزل، مع ما يلاحظ من توسع السلف رحمهم الله في استعمال التعبير بالنزول على ما تضمنته الآية بعمومها من صور وأمثلة أو لبيان حكم ونحوه، ولا يقصدون به السببية، ومع ذلك ذكر مادة «النزول» قرينة قوية في السببية ورافداً مهماً في اعتبار الرواية سبباً للنزول[٢].

١١ ـ تعدد الأسباب والنازل واحد:

المستعرض لأسباب النزول عند المفسرين والمؤلفين الذين خصوا أسباب النزول بالتأليف، يجد أحياناً عدة أسباب لنزول الآية الواحدة، وكل سبب منها يختلف عن الآخر، فما العمل في هذه الحالة؟

نقول: لا تخلو هذه الأسباب من أحد الحالات التالية:

الحالة الأولى: إذا تعددت الروايات، وكانت صيغها **غير صريحة** في السببية ـ أي محتملة ـ فلا منافاة بينها، إذ المراد: التفسير وبيان أن ذلك داخل في الآية ومستفاد منها، وليس المراد ذكر سبب النزول. إلا إن قامت قرينة على واحدة بأن المراد بها السببية.

---

(١) انظر: مناهل العرفان ١/١١٤، ١١٥.

(٢) انظر: المحرر في أسباب نزول القرآن ١١٤-١٢٢.

الحالة الثانية: إذا وردت روايتان أو أكثر، وكانت إحداهما **صريحة** والأخرى **غير صريحة. فالمعتمد**: الرواية الصريحة، والأخرى تحمل على دخولها في أحكام الآية أو بيان المعنى.

ومثال ذلك: ما أخرجه ابن جرير الطبري عن نافع قال: كان ابن عمر رضي الله عنهما إذا قرئ القرآن لم يتكلم. قال: فقرأتُ ذات يوم هذه الآية: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾[1] فقال: أتدري فيم نزلت هذه الآية؟ قلت: لا، قال: نزلت في إتيان النساء في أدبارهن[2].

فهذه الصيغة غير صريحة في السببية. وقد جاء التصريح بذكر سبب يخالفه، وهو ما أخرجه البخاري ومسلم قال جابر بن عبدالله رضي الله عنه: كانت اليهود تقول: إذا أتى الرجل امرأته من دبرها في قبلها كان الولد أحول. فنزلت: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾[3].

فهنا تترجح رواية جابر رضي الله عنه لكونها نصاً في ذلك، ورواية ابن عمر رضي الله عنهما تُحْمَل على بيان المعنى استنباطاً منه.

الحالة الثالثة: إذا تعددت الروايات، وكانت جميعها **نصاً** في السببية، وكان إسناد أحدها **صحيحاً** دون غيره. فالمعتمد: الرواية الصحيحة.

ومثاله: أخرج البخاري عن الأسود بن قيس قال: سمعت جندب بن

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٢٣).

(٢) الأثر أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره ٤/٤٠٤، وقال عنه أحمد شاكر: وهذا الإسناد صحيح جدا. وقد روى البخاري معناه عن نافع عن ابن عمر بثلاثة أسانيد، ولكنه كنى عن ذلك الفعل ولم يصرح بلفظه. صحيح البخاري كتاب التفسير باب (نساؤكم حرث لكم). صحيح البخاري ٥/١٦٠.

(٣) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه ٥/١٦٠، في كتاب: التفسير، باب: نساؤكم حرث لكم.
ومسلم في صحيحه ٢/١٠٥٨، حديث رقم (١٤٣٥). واللفظ له. كتاب النكاح، باب جواز جماع امرأته في قبلها، من قدامها ومن ورائها، من غير تعرض للدبر.

سفيان البجلي يقول: اشتكى النبي ﷺ فلم يقمْ ليلةً أو ليلتين، فأتته امرأةٌ فقالت: يا محمدُ ما أُرى شيطانَكَ إلا قد تركك، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ① وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ② مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ③﴾[1].

وأخرج الطبراني وابن أبي شيبة في مسنده وابن مردويه عن أم حفص بن ميسرة عن أمتها ـ وكانت خادم رسول الله ﷺ ـ إن جرواً دخل بيتَ النبي ﷺ، فدخل تحت السرير، فمات، فمكث النبي ﷺ أربعة أيام لا ينزل عليه الوحي، فقال: يا خولة ما حدث في بيت رسول الله ﷺ؟ جبريل لا يأتيني. فقلتُ: يا نبي الله ما أتى علينا يوم خير من اليوم، فأخذ بُرْدَهُ فلبسه وخرج، فقلت في نفسي: لو هيأتِ البيتَ وكنستِه، فأهويت بالمكنسة تحت السرير، فإذا بشيء ثقيل، فلم أزل حتى بدا لي الجروُ ميتا، فأخذته بيدي فألقيته خلف الدار، فجاء النبي ﷺ ترعد لحيته، وكان إذا نزل عليه أخذته الرعدة فقال: يا خولة دثريني فأنزل الله عليه: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ① وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ② مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ③ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ④ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ⑤﴾[2].

وذكر ابن حجر أن في إسناد الطبراني من لا يعرف، ثم قال:

«وقصة إبطاء جبريل بسبب كون الكلب تحت سريره مشهورة، لكن كونها سبب نزول هذه الآية غريب، بل شاذ مردود بما في الصحيح»[3].

إذن: فالراجح رواية البخاري، لضعف رواية الطبراني إذ في إسنادها من لا يعرف، والله أعلم.

---

(١) سورة الضحى الآيات (١، ٢، ٣)، ومعنى سجى: أي غطى بظلامه أو سكن. ما ودعك: ما تركك. وما قلى: وما أبغضك. والحديث أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزول الوحي وأول ما نزل. صحيح البخاري (حـ ٦ ص ٩٧). والمرأة هي: أم جميل بنت حرب امرأة أبي لهب، قالت ذلك شماتة. فتح الباري ٧/٣، ٥٤٥/٨.

(٢) سورة الضحى الآيات (١-٥)، والحديث أورده السيوطي في الدر المنثور ٥٤١/٨ وعزاه إلى ابن أبي شيبه في مسنده والطبراني وابن مردويه.

(٣) فتح الباري في كتاب التفسير، باب تفسير والضحى ٥٤٥/٨.

الحالة الرابعة: إذا تعددت الروايات، وكانت جمعيها **نصاً صريحاً** في السببية، وكان إسنادها جميعا **صحيحا**، حاولنا الجمع بين السببين بقدر الإمكان، فتكون الآية نزلت بعدهما، لتقارب الزمن بينهما، فنعمل إذاً بجميع الروايات دون رد لأحدها مع صحته، فالجمع أولى من الترجيح.

ومثال ذلك آيات اللعان: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾﴾[١].

حيث ورد في سبب نزولها الروايات التالية:

أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هلال بن أمية[٢] قذف امرأته عند النبي ﷺ بشَريكِ بن سحماء، فقال النبي ﷺ: البينةَ أو حدٌّ في ظهرك، فقال: يا رسول الله إذا رأى أحدُنا على امرأته رجلاً ينطلقُ يلتمسُ البينةَ؟ فجعل النبي ﷺ يقول: البينةَ وإلا حدٌّ في ظهرك، فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق فلَيُنْزِلَنَّ اللهُ ما يبرىء ظهري من الحد فنزل جبريل وأنزل عليه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾... فقرأ حتى بلغ ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فانصرف النبي ﷺ فأرسل إليها فجاء هلال فشهد... إلخ الحديث[٣].

وأخرج البخاري عن ابن شهاب أن سهل بن سعد الساعدي أخبره أن

---

(١) سورة النور الآيات (٦، ٧، ٨، ٩).

(٢) هلال بن أمية: أحد الثلاثة الذين خلفوا بأن أرجئوا في البت في قبول توبتهم وهم: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية. فهم تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك سنة (٩ هـ)، ولم يكن لهم عذر، ولهذا لم يتقدموا ليعتذروا خوفاً من الكذب، فآثروا جانب الصدق. أما من تخلف وله عذر فقد تقدم به وقُبل منه وتاب الله عليه.

(٣) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه ٤/٦، في كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة النور.

عويمراً العجلاني جاء إلى عاصم بن عدي الأنصاري فقال له: يا عاصم أرأيت رجلاً وجد مع امرأته رجلاً أيقتُلَهُ فتقتلونه أم كيف يفعل؟ سل يا عاصم عن ذلك. فسأل عاصمُ رسولَ الله ﷺ عن ذلك، فكره رسولُ الله ﷺ المسائلَ وعابها، حتى كَبُرَ على عاصم ما سمع من رسول الله ﷺ، فلما رجع عاصمٌ إلى أهله جاءه عويمر فقال: يا عاصم ماذا قال لك رسول الله ﷺ، فقال عاصم لعويمر لم تأتني بخير قد كره رسولُ الله ﷺ المسألة التي سألتُهُ عنها فقال عويمر والله لا أنتهي حتى أسألهُ عنها، فأقبل عويمر حتى جاء رسولَ الله ﷺ وسط الناس، فقال: يا رسول الله أرأيتَ رجلاً وجدَ مع امرأتِه رجلاً أيقتُلهُ فتقتلونه أم كيف يفعل؟

فقال رسول الله ﷺ قد أُنْزِل فيك وفي صاحبتك فاذهب فأتِ بها، قال سهل: فتلاعنا وأنا مع الناس عِنْد رسول الله ﷺ، فلما فرغا من تلاعنهما، قال عويمر: كذبتُ عليها يا رسول الله إنْ أمسكتُها، فطلقها ثلاثاً قبل أن يأمُرَه رسول الله ﷺ، قال ابن شهاب: فكانت سُنَّةَ المُتَلاعِنَيْن[1]. وقال سهل في رواية أخرى: إن النبي ﷺ قال:

ـ وكانت زوجة عويمر حاملاً ـ إن جاءت به أحمرَ قصيراً كأنه وَحَرَةٌ[2] فلا أراها إلا قد صَدَقَتْ وكذب عليها، وإن جاءت به أسْودَ أعْيَن[3] ذاألْيَتين فلا أُراه إلا قد صدق عليها. فجاءت به على المكروه من ذلك[4]. أي: صدق عويمر.

فهاتان روايتان صحيحتان في سبب نزول الآيات، فجمع بينهما بوقوع حادثة هلال أولاً، وصادف مجيء عويمر كذلك، فنزلت في شأنهما معاً

---

(١) أي: أن السنة بعد نزول آيات اللعان أن يُفرق بين المتلاعنين، والحديث أخرجه البخاري في صحيحه ١٧٨/٦، في كتاب: الطلاق، باب: يبدأ الرجل بالتلاعن.

(٢) الوَحَرة: دويبة تلزق بالأرض.

(٣) أعين: أي: واسع العين.

(٤) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه ١٧٩/٦، في كتاب: الطلاق، باب: التلاعن في المسجد، باب (٣٠).

بعد حادثتيهما، فلا مانع من تعدد الأسباب، وبهذا نسلم من ردِّ أي رواية منهما.

الحالة الخامسة: إذا كانت الروايتان **صحيحتين، صريحتين** في السببية، ولم يمكن الجمع بينهما. لجأنا إلى أحد أوجه الترجيح كأن يكون الراوي حاضراً للقصة، أو أن تكون إحداهما أصح وأوثق من الأخرى، إما لأنها مروية في الصحيحين، أو لأن رواتها أثبت ممن سواهم.. وغير ذلك، فتقدم الرواية الراجحة.

ومثاله: ما أخرجه البخاري عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: بينا أنا أمشي مع النبي ﷺ في خَرِب المدينة وهو يتوكأ على عسيب معه فمرَّ بنفر من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح.

وقال بعضهم: لا تسألوه لا يجيءُ فيه بشيء تكرهونه، فقال بعضهم لنسألنَّه، فقام رجل منهم، فقال: يا أبا القاسم ما الروح؟ فسكت، فقلت: إنه يوحى إليه فقمت فلما انجلى عنه فقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾[1].

وأخرج الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قالت قريش ليهود: أعطونا شيئاً نسألُ هذا الرجل، فقال: سلوه عن الروح، قال: فسألوه عن الروح، فأنزل الله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾.

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه[2].

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه ٤٠/١، في كتاب: العلم، باب قول الله تعالى: (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا)
والآية في سورة الإسراء الآية (٨٥).

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة بني إسرائيل حديث رقم (٣١٤٠)
سنن الترمذي ٣٠٤/٥. وهو غريب لكونه يعارض ما في الصحيحين مع صحته.

وقال عن إسناده ابن حجر: ورجاله رجال مسلم[١].

فالحديثان متعارضان، **فالأول**: صريح في أنها نزلت في المدينة بسبب سؤال اليهود إياه.

والثاني: يدل على أنها بمكة بسبب سؤال قريش إياه.

وتترجح الرواية الأولى لما يلي:

١ - أن ابن مسعود حضر القصة بخلاف ابن عباس.

٢ - أن رواية ابن مسعود رواها البخاري، وهي أصح مما أخرجه الترمذي وإن كان صحيحاً في ذاته[٢].

ولكن قد يشكل على هذا أن سورة الإسراء مكية وهو ما يوافق رواية الترمذي، ويجاب عنه: بأن كون السورة مكية لا يمنع من أن تكون آية منها أو أكثر نزلت بالمدينة. وما أخرجه البخاري يدل على أن الآية مدنية.

وأيضاً إن الترجيح أولى من حمل الآية على تعدد النزول وتكرره، ولو كان السؤال سبق طرحه لما انتظر النبي ﷺ الوحي بل يجيب بما نزل عليه أولاً.

وممن ذهب إلى ترجيحها السيوطي والزرقاني وصبحي الصالح ومناع القطان.

وذهب بعض العلماء إلى أنه يمكن الجمع بين الحديثين بتعدد النزول، وحمل سكوته في المرة الثانية على توقع مزيد بيان في ذلك، قال ابن حجر:

«ويمكن الجمع بأن يتعدد النزول بحمل سكوته في المرة الثانية على توقع مزيد بيان في ذلك، وإن ساغ هذا، وإلا فما في الصحيح أصح»[٣].

---

(١) فتح الباري ٨/٣٠٣.
(٢) انظر الإتقان ١/١٢٠ النوع التاسع.
(٣) فتح الباري ٨ ٣٠٣.

الحالة السادسة: إذا لم يمكن الجمع ـ لتباعد الزمن ـ ولم يمكن الترجيح بين الروايات بأن كانت كلها سواء في الصحة، ولم يوجد مرجح.

فإنه يحمل على تعدد النزول وتكرره فتكون الآية أو الآيات نزلت مرتين.

وهذا ما ذهب إليه بعض العلماء كالسخاوي والزركشي والسيوطي[(١)] وأنه لا مانع من ذلك.

ومثاله: ما أخرجه البيهقي عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ وقف على حمزة حين استشهد وقد مثل به فقال: لأمثلن بسبعين منهم مكانك، فنزل جبريل ـ والنبي ﷺ واقف ـ بخواتيم سورة النحل: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾[(٢)] إلى آخر السورة[(٣)].

وأخرج الترمذي والحاكم عن أبي بن كعب قال: لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون، ومن المهاجرين ستة، منهم: حمزة فمثلوا بهم فقالت الأنصار: لئن أصابنا منهم يوماً مثل هذا لنربين عليهم، فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله جل شأنه: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾...[(٤)].

فالرواية الأولى أفادت أنها نزلت عقب غزوة أحد في السنة الثالثة، والثانية أفادت أنها نزلت يوم الفتح في السنة الثامنة، وبينهما حوالي خمس

---

(١) انظر: جمال القراء ٣٤/١، والبرهان ٢٩/١، والإتقان ١٣١/١ النوع الحادي عشر.
(٢) سورة النحل الآيات (١٢٦، ١٢٧، ١٢٨).
(٣) أخرجه البيهقي في الدلائل ٢٨٨/٣.
(٤) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة النحل، حديث رقم (٣١٢٩)، سنن الترمذي ٢٩٩/٥ وقال عنه حديث حسن غريب. والحاكم في المستدرك ٣٥٩/٢. وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

سنوات، فيبعد نزول الآية عقيبهما للتباعد الزمني بينهما، فحينئذ يقال بتعدد نزول الآيات مرة في أحد ومرة يوم الفتح.

وذهب بعض العلماء إلى أنه لا داعي للقول بتعدد النزول لمجرد الجمع بين الروايات، فلو نظرنا إلى الرواية الأولى لوجدنا في سندها صالح بن بشير المري الذي ضعفه ابن معين، وقال عنه البخاري: منكر الحديث، وقال النسائي: متروك[١].

فعلى هذا تكون رواية الترمذي أصح منها.

١٢ ـ تكرر النزول:

الأصل في الآية أن تنزل مرة واحدة، إلا أن تَعَدُّدَ الروايات في أسباب نزول بعض الآيات والسور وتعارضها حَمَلَ بعض العلماء على القول بتعدد النزول وتكرره، واختلف العلماء في ذلك على قولين:

الأول: إن من القرآن ما تكرر نزوله وذهب إلى هذا: ابن الحصار، والسخاوي، والزركشي، والسيوطي، وابن عقيلة المكي، والزرقاني، ومحمد أبو شهبة[٢].

ومن أدلتهم:

١ ـ تعدد الروايات في أسباب النزول مع اعتقاد عدم إمكان الجمع بين الروايات أو الترجيح بينها.

٢ ـ أن في تكرر النزول فوائد عديدة منها: التذكرة والموعظة للناس، وتعظيم شأن المنَزَّل، وتذكيراً به عند حدوث سببه، وخوف نسيانه.

القول الثاني: أنه ليس هناك شيء من القرآن تكرر نزوله وممن قال

---

(١) انظر: الضعفاء الصغير للبخاري ١١٩، والضعفاء والمتروكين للنسائي ١٣٦، وميزان الاعتدال ٢/٢٨٩.

(٢) انظر: الفتاوى الكبرى لابن تيمية ١٣/٣٤٠، الإتقان ١/١٣١ النوع الحادي عشر، وروح المعاني ٣/٢٠٤.

به أبو الحسن القاضي العماد الكندي المتوفى سنة (٧٢٠هـ) في كتابه «الكفيل بمعاني التنزيل» والطاهر بن عاشور، وطاهر الجزائري، ومناع القطان... وغيرهم.

ومن أدلتهم:

١ ـ أن تكرار النزول خلاف الأصل. قال ابن حجر: «والأصل عدم تكرر النزول»[١].

٢ ـ أنه لا فائدة في التكرر فهو تحصيل حاصل.

٣ ـ أنه لو كان شيء من القرآن تكرر نزوله لتكرر وجوده في القرآن بمقدار تكرار النزول. فتوجد الفاتحة مرتين، كما تكررت بعض الآيات كقوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ وغيرها من الآيات فقد تكرر وجودها لتكرر نزولها[٢].

٤ ـ أنه يلزم منه أن يكون كل ما نزل بمكة نزل بالمدينة مرة أخرى، فإن جبريل كان يعارض الرسول ﷺ القرآن كل سنة، وهذا لا يقوله أحد.

٥ ـ أن ما قيل من تعارض بعض روايات نزول بعض السور والآيات بحيث لا يمكن الجمع بينها ولا الخروج من هذا التعارض إلا بالقول بتكرر النزول **لا يصح**، لأن هذا التعارض لا يثبت عند دراسة تلك الروايات سنداً ومتنا، وأنه إذا لم يمكن الجمع بينهما فيمكن الترجيح[٣].

وبهذا يتبين أنه ليس لتكرر نزول بعض السور والآيات وجود أصلاً في القرآن الكريم.

(١) فتح الباري ٥٠٨/٨. الإتقان ١٣١/١.
(٢) تفسير ابن عرفة ٩١/١.
(٣) نزول القرآن الكريم للدكتور محمد الشايع ٨٠ - ٨٦.

١٣ ـ تعدد المنزل والسبب واحد:

قد يتعدد ما ينزل من القرآن والسبب واحد ـ وهذا عكس ما تقدم ـ وهو واقع ولا إشكال فيه، فقد ينزل في الواقعة أو الحادثة الواحدة آيات عديدة في سور شتى تبياناً وإرشاداً للخلق، واقناعاً للسائل. وللزيادة في البيان.

ومثال ذلك: ما أخرجه البخاري من حديث زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ أملى عليه: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله﴾ فجاءه أبن أم مكتوم وهو يُمِلُّها عليَّ، قال يا رسول الله والله لو أستطيعُ الجهاد لجاهدتُ وكان أعمى، فأنزل الله على رسوله ﷺ ـ وفخذه على فخذي ـ فثقلتْ عليّ حتى خِفتُ أن ترضَّ فخذي، ثم سُرِّيَ عنه فأنزل الله: ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾[1].

وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب لرسول الله ﷺ، فكنت أكتب براءة، فإني لواضع القلم على أذني إذ أُمرنا بالقتال، فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه، إذ جاء أعمى، فقال:

كيف بي يا رسول الله وأنا أعمى؟ فنزلت: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[2]. قال نزلت في عائذ بن عمرو وفي غيره[3].

فهاتان الآيتان نزلتا على سبب واحد.

وأيضاً أخرج الحاكم عن أم سلمة رضي الله عنها[4] أنها قالت: يا رسول الله

---

(١) من الآية (٩٥) في سورة النساء، والحديث أخرجه البخاري في صحيحه ١٨٢/٥ في كتاب التفسير باب (لا يستوي القاعدون من المؤمنين..) باب (١٨).

(٢) سورة التوبة الآية (٩١).

(٣) الحديث أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ١٨٦١/٦.

(٤) أم سلمة: هي أسماء بنت يزيد الأنصارية من أخطب نساء العرب وفدت على رسول الله ﷺ في السنة الأولى للهجرة فبايعته وسمعت حديثه توفيت نحو سنة (٣٠). الأعلام ٣٠٦/١.

لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء فأنزل الله ﷻ: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ﴾[(١)].

وأخرج الحاكم أيضاً عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله يُذكر الرجال ولا يُذكر النساء فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾[(٢)].

وأخرج الحاكم أيضاً عن أم سلمة أيضاً رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله أيغزو الرجال ولا نغزو، ولا نقاتل فنستشهد، وإنما لنا نصف الميراث، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ﴾...[(٣)].

فهذه الآيات الثلاث نزلت على سبب واحد.

ولا يبعد هذا الاختلاف في صيغة السؤال، لجواز أن يكون سؤالها عاماً شاملاً لكل ما روي، ولكن الراوي اقتصر على السؤال دون بعض، أو تذكّر بعضه ونسي البعض[(٤)].



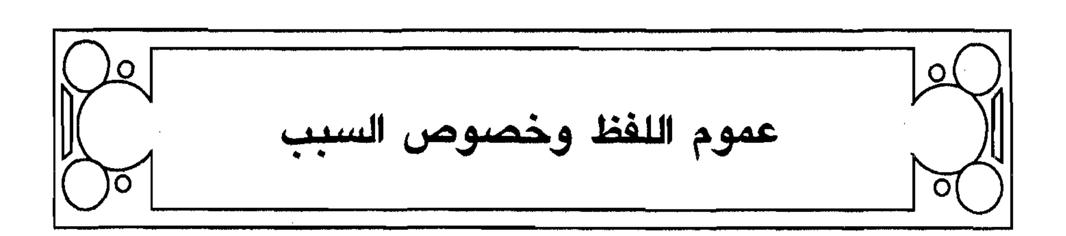
(١) سورة آل عمران من الآية (١٩٥)، والحديث أخرجه الحاكم في المستدرك ٣٠٠/٢، وقال عنه: صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه.

(٢) سورة الأحزاب الآية (٣٥)، والحديث أخرجه الحاكم في المستدرك ٤١٦/٢، وقال عنه على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٣) سورة النساء الآية من (٣٢)، والحديث أخرجه الحاكم في المستدرك ٣٠٦/٢، وقال عنه: صحيح الإسناد على شرط الشيخين إن كان سمع مجاهد من أم سلمة.

(٤) انظر: المدخل لدراسة القرآن ١٥٣.

الموضوع السادس



١ ـ المقصود منه:

يقصد بهذا الموضوع أن يكون لفظ الآية المنزلة عاماً، وسبب نزولها خاص، وهو من الموضوعات الأصولية، وذلك لأن الأصوليين ينظرون في حال الأدلة من حيث إفادتها للأحكام من عموم وخصوص وإطلاق وتقييد ونحو ذلك.

وله علاقة وثيقة بمبحث أسباب النزول ـ الذي هو من أنواع علوم القرآن ـ حيث يدرس فيه خصوص السبب ومن نزلت فيه الآية.

٢ ـ أحوال سبب النزول واللفظ النازل عليه:

لسبب النزول واللفظ النازل عليه أحوال ثلاثة هي:

الحالة الأولى:

أن يكون السؤال أو الحدث عاماً فيأتي الجواب عاماً. وهذا لا خلاف في عمومه.

ومثاله: ما أخرجه مسلم عن أنس ﵁ أن اليهود كانوا إذا حاضت

المرأةُ فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوهنَّ في البيوت[١]. فسأل أصحابُ النبي ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾[٢] فقال رسول الله ﷺ: «اصنعوا كلَّ شيء إلا النكاح...»[٣].

فهذه الحالة تدل على عموم الأحكام الواردة في الآيات وشمولها لجميع المكلفين... وأمثالها كثير في أسباب النزول.

الحالة الثانية:

أن يكون السؤال أو الحدث خاصاً فيأتي الجواب خاصاً، وهذا يكون خاصاً بمن نزلت فيه.

ومثاله: ما أخرجه البزار وغيره، وصححه ابن كثير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم كعب بن الأشرف مكة فقالت له قريش: أنت سيدهم ألا ترى إلى هذا الصابيء المنبتر من قومه؟ يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة وأهل السقاية. فقال: أنتم خير منه، قال فنزلت: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾[٤].

فهذا يفيد أن الشانئ هو شخص معين.

ولكن من المفسرين من قال إن هذا يعم جميع من اتصف بذلك ممن ذكر وغيرهم[٥].

---

(١) أي: لم يخالطوهن ولم يساكنوهن في بيت واحد.

(٢) سورة البقرة الآية (٢٢٢).

(٣) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه ٢٤٦/١، في كتاب: الحيض، باب: جواز غسل الحائض رأس زوجها حديث رقم (٣٠٢).

(٤) سورة الكوثر الآية (٣)، والحديث أورده ابن كثير وعزاه إلى البزار. تفسير ابن كثير ٥٠٤/٨. وقيل إن الآية نزلت في العاص بن وائل، وقيل في عقبة بن أبي معيط. ومعنى شانئك: أي إن مبغضك يا محمد، ومبغض ما جئت به من الهدى والحق، هو الأبتر الأقل الأذل المنقطع ذِكرُه الذي لا عَقِب له.

(٥) انظر: جامع البيان ٣٣٠/٣٠، وتفسير ابن كثير ٥٠٤/٨.

الحالة الثالثة:

أن يكون السؤال أو الحدث خاصاً، وتأتي الآية عامة وهذه حال أكثر أسباب النزول، وهو مدار الحديث في المبحث التالي.

٣ ـ أقوال العلماء في عموم اللفظ وخصوص السبب:

اختلف العلماء في سبب النزول إذا كان خاصاً والآية نزلت عامة على قولين مشهورين:

الأول: وقال به فريق من العلماء وهو أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ، فَيُخَصُّ الحكم بمن نزلت فيه الآيات، ولا يعم جميع المكلفين. وقالوا: إن اللفظ العام دليل على صورة السبب الخاص، أما غير صورة السبب أو الأحكام المشابهة للسبب فحكمها مستفاد بالقياس أو الاستدلال... ونحو ذلك.

ومما استدلوا به: أنه لو كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب لما كان لذكر السبب فائدة.

وأيضاً لأجل أن يتطابق السبب والمسبب بتطابق السؤال والجواب.

وممن ذهب إليه مالك في إحدى الروايتين عنه، وبه قال بعض الشافعية والمالكية والحنابلة، واختاره: أبو ثور، والمزني، والقفال الشاشي، وأبو بكر الدقاق من الشافعية. وزفر وأبو الفرج وابن نصر من المالكية(١).

الثاني: وهو قول جمهور العلماء، مالك في إحدى الروايتين عنه، وأبي حنيفة، والشافعي، وأحمد، وأكثر أصحابهم. واختاره الغزالي والفخر الرازي، والآمدي، والقاضي أبو يعلى، بل إن بعض العلماء بلغ من اختياره أن اقتصر على ذكره(٢) ويتلخص قولهم في: أن العبرة بعموم اللفظ

---

(١) انظر: السبب عند الأصوليين ٣/١٣٧.

(٢) انظر: السبب عن الأصوليين ٣/١٣١.

لا بخصوص السبب. فالحكم الذي يؤخذ من اللفظ العام يتعدى صورة السبب الخاص إلى نظائرها.

وأدلتهم تتلخص في الآتي:

١ - إن لفظ الشارع وحده هو الدليل وهو الحجة، وليس السبب، ولو عري عن السبب كان عاماً فهو عام بلفظه. ولهذا قد يعدل الشارع بالجواب عن السؤال المطلوب لحكمة يعلمها الله، وتنبيهاً للسائل أنه كان ينبغي له أن يهتم بما أجيب عنه لا بما سأل، كقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۗ﴾(١) فظاهر السبب السؤال عن الشيء الذي ينفق. والجواب كان بالجهات التي ينفق عليها. فالمقصود أن لفظ الشارع هو أساس الاستدلال.

٢ - إن الأصل في اللغة هو حمل الألفاظ على معانيها الأصلية المتبادرة منها، ما لم تقم قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي. واللفظ العام حقيقته والمتبادر منه: حمله على كل الأفراد التي يصدق عليها فتخصيصه بفرد يحتاج إلى قرينة مانعة من شموله لكل أفراده، ولا قرينة يعتد بها، لأن خصوص السبب لا يمنع شمول اللفظ له ولبقية أفراده.

٣ - أن الصحابة ومن بعدهم من المجتهدين أخذوا بعموم الآيات التي نزلت على أسباب خاصة من غير استخدام قياس أو دليل آخر. وهذا أمر شائع بينهم. ومن ذلك احتجاجهم بآية السرقة على قطع يد كل سارق مع نزولها في حادثة خاصة وهي سرقة المجن أو رداء صفوان. واحتجاجهم بآيات حد القذف على حد كل قاذف مع أنها نزلت بسبب الذين رموا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالإفك.

٤ - ورود أحاديث عن النبي ﷺ يصرح فيها بعموم اللفظ لا بخصوص

(١) سورة البقرة الآية (٢١٥).

السبب. ومن ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم - واللفظ له - عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسولَ الله إني عالجتُ امرأةً في أقصى المدينة، وإني أصبت منها ما دون أن أَمَسَّها[1]، وأنا هذا فاقضِ فيّ ما شئت. قال: فقال عمر: لقد سترك الله لو سترت نفسك، فلم يَرُدَّ عليه النبيُّ ﷺ شيئا، فانطلق الرجل، فأتبعه النبيُّ رجلاً دعاه، فتلا عليه قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾[2] فقال رجل: يا رسول الله هذا له خاصة؟ قال: لا، بل للناس كافة»[3] فهذا الحديث صريح بعموم الحكم مع خصوص السبب.

وأيضاً ما أخرجه البخاري ومسلم عن كعب بن عجرة رضي الله عنه قال: حُملت إلى رسول الله ﷺ والقمل يتناثر على وجهي فقال:

«ما كنتُ أُرى أن الجهد بلغ منك ما أَرى. أتجد شاةً؟ فقلت: لا. فنزلت هذه الآية: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ﴾[4]، قال: صم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع من طعام واحلق رأسك. قال: فنزلت فيّ خاصة وهي لكم عامة[5].

(١) دون أن أمسها: المراد بالمس الجماع، ومعناه: استمتعت بها بالقبلة والمعانقة وغيرهما إلا الجماع.
(٢) سورة هود الآية (١١٤).
(٣) الحديث أخرجه البخاري بنحوه في صحيحه ٢١٤/٥، في كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة هود باب (٦) قوله (وأقم الصلاة...)، ومسلم في كتاب: التوبة، باب قوله تعالى: (إن الحسنات يذهبن السيئات) صحيح مسلم ٢١١٦/٤.
(٤) سورة البقرة الآية (١٩٦).
(٥) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه ١٥٨/٥، في كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة البقرة، باب (٣٢) قوله: (فمن كان منكم مريضا...)، ومسلم في كتاب: الحج، باب: جواز حلق الرأس للمحرم حديث رقم (٨٥). صحيح مسلم ٨٦١/٢.

مثال عموم اللفظ وخصوص السبب وتطبيق القولين عليه:

آيات اللعان التي سبق ذكرها وهي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾﴾[1] فالجمهور قالوا: إن حادثة هلال بن أمية نزلت بسببها آيات اللعان، واللفظ النازل عام ـ بدليل «والذين» فهو اسم موصول من صيغ العموم ـ فهو شامل لمن نزلت فيه الآية ولغيره ممن هو على شاكلته بالنص القطعي.

وغير الجمهور قالوا: إن آيات اللعان سببها خاص بهلال بن أمية فلفظها يكون قاصراً عليه، أما من على شاكلته فلا يكون مستفاداً من لفظ الآية، إنما يستفاد بطريق القياس أو بالاجتهاد، فالعبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ.

وأيضاً: حادثة خولة بنت مالك بن ثعلبة التي ظاهر منها زوجها «أوس بن الصامت» كانت سببا لنزول آيات الظهار وهي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾﴾[2] حيث أخرج الحاكم عن عروة قال: قالت عائشة رضي الله عنها: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى عليَّ بعضه وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ وهي تقول: يا رسول الله أكل شبابي، ونثرت له بطني حتى إذا كَبُرَت سني، وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، قالت عائشة: فما برحت حتى نزل جبريل عليه السلام بهؤلاء الآيات: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾[3].

وفي رواية لأبي داود «قالت: فقال لي رسول الله ﷺ: «مُرِيه فليعتق رقبة» قالت: فقلت: يا رسول الله ما عنده ما يعتق قال: «فليصم شهرين متتابعين» قالت: فقلت: والله إنه لشيخ كبير ما له من صيام، قال: «فليطعم

---

(١) سورة النور الآية (٦).
(٢) سورة المجادلة الآية (٢).
(٣) الحديث أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/٤٨١، وابن جرير في تفسيره ٢٨/٥.

ستين مسكينا وسقاً من تمر» قالت: فقلت: يا رسول الله ما ذاك عنده قالت: فقال رسول الله ﷺ: «فإنا سنعينه بفرق من تمر» قالت: فقلت: والله يا رسول الله أنا سأعينه بفرق آخر قال: «قد أصبت وأحسنت فاذهبي فتصدقي به عنه، ثم استوصي بابن عمك خيرا» قالت: ففعلت[(١)].

فالجمهور قالوا: إن اللفظ النازل عام، لأنه اسم موصول وهو من صيغ العموم، ويدخل تحت هذا العموم خولة ومن كان على شاكلتها ممن يظاهر منهن.

وغير الجمهور قالوا: إن لفظ الآية يكون قاصراً على من نزلت بسببه فتكون خاصة بخولة.

٤ ـ ثمرة الخلاف بين القولين:

١ ـ أنه عند الجمهور يكون الحكم على أفراد غير السبب مدلول عليه بالنص النازل فيه، وذلك النص يكون قطعي الثبوت اتفاقاً. أما غير الجمهور: فالحكم عندهم على غير أفراد السبب ليس مدلولاً عليه بالنص بل بالقياس أو الاستدلال، وكلاهما غير قطعي.

٢ ـ أنه عند الجمهور يكون أفراد غير السبب يتناولها الحكم ما دام اللفظ قد تناولها. أما غير الجمهور فلا يسحبون الحكم إلا على ما استوفى شروط القياس دون سواه إن أخذوا فيه بالقياس[(٢)].

٥ ـ الراجح:

الراجح من هذين القولين هو قول الجمهور، وذلك لقوة أدلته، وموافقته عموم أحكام الشريعة.

ومما يؤيده أنه في مثال آيات الظهار وقعت لسلمة بن صخر واقعة

(١) الحديث أخرجه أبو داود في كتاب الطلاق، باب في الظهار حديث رقم (٢٢١٤)، سنن أبي داود ٦٧٤/١ والعرق: زنبيل يأخذ خمسة عشر صاعاً.
(٢) المدخل لدراسة القرآن ١٥٨.

مماثلة، فظاهر من امرأته حتى ينسلخ شهر رمضان، فلما سأل النبي ﷺ عن وضعه أجابه بما أنزل الله في أوس بن الصامت، ولم يكن حديث سلمة سبب نزول الآيات، ولكن حديث أوس كان سبب نزولها، مما يدل على أن العبرة بالعموم[١].

٦ ـ الحكمة من تعدية الحكم إلى غير من نزلت فيه الآية:

١ ـ أنه لو جعل الشارع هذا الجواب خاصاً بالسائل، أو الحادثة خاصة بمن وقعت منه، لاحتاج كل سائل إلى جواب مستقل يجيب عن سؤاله، وهذا متعذر، بل مخالف لمقتضى الحكمة في الجواب بما يفي الحاجة ويزيد.

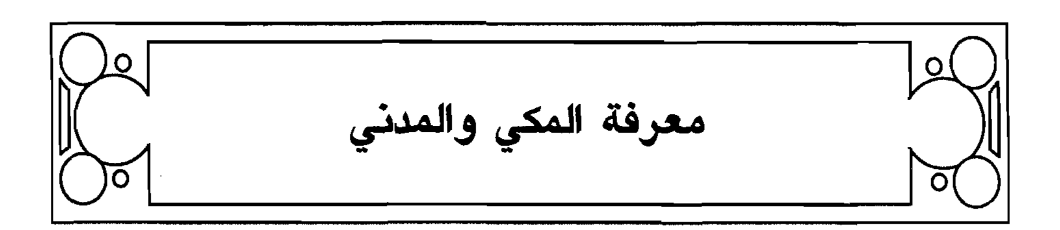
٢ ـ لو جعل جواب السؤال موجهاً إلى السائل أو إلى صاحب الحادثة، لكان في ذلك تشهير له وإحراج، فسلك القرآن جانب السلامة حتى لا يوقع أحداً من الناس في هذا الحرج.

٣ ـ أن الجواب يأتي عاماً حتى لا يتوهم أحد أن الحكم خاص بالسائل فقط دون غيره.



(١) انظر: تفسير ابن كثير ٨/٣٦، ٣٧.

الموضوع السابع



معرفة المكي والمدني

من المعلوم أن مدة بعثة النبي ﷺ امتدت إلى ثلاث وعشرين سنة تقريباً، مكث منها ثلاث عشرة سنة في مكة المكرمة قبل الهجرة، وعشر سنوات في المدينة المنورة بعد الهجرة، وفي خلال مدة بعثته عليه الصلاة والسلام نزل القرآن الكريم، فمنه ما نزل قبل الهجرة ومنه ما نزل بعد الهجرة وهو ما اصطلح عليه بالمكي والمدني.

تعريف المكي والمدني:

عرف العلماء علم المكي والمدني، أي: باعتباره عِلْماً من علوم القرآن بأنه: علم يبحث منازل القرآن المكي والمدني، وكل ما يتعلق بذلك من ملابسات الأحوال[1].

أما تعريف المكي والمدني كمصطلحين: فللعلماء في ذلك ثلاثة اصطلاحات:

الأول: اعتبار زمن النزول:

فالمكي: ما نزل قبل الهجرة وإن كان بغير مكة. كالذي نزل عليه في سفر الهجرة.

---

(١) انظر المكي والمدني في القرآن الكريم ١/٤١.

والمدني: ما نزل بعد الهجرة وإن كان بغير المدينة كسورة الفتح فإنها نزلت في الطريق بين الحديبية والمدينة عام الحديبية. وأيضا قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[١] حيث نزلت في حجة الوداع عشية يوم عرفة يوم الجمعة[٢].

الثاني: اعتبار مكان النزول:

فالمكي: ما نزل بمكة وما جاورها كمنى وعرفات والحديبية، لأن ما قارب الشيء يعطي حكمه.

والمدني: ما نزل بالمدينة وما جاورها كبدر وأحد وقباء وسَلْع[٣].

وعلى هذا القول يكون ما نزل في غير مكة والمدينة لا يسمى مكياً ولا مدنياً مثل ما نزل بتبوك وهو قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾[٤].

ويترتب عليه أيضاً أن ما نزل بمكة بعد الهجرة يكون مكياً.

الثالث: اعتبار المخاطب:

فالمكي: ما كان خطاباً لأهل مكة.

والمدني: ما كان خطاباً لأهل المدينة.

وينبني على هذا القول أن ما ورد في القرآن من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فهو مكي، وما فيه من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فهو مدني[٥].

يقول ميمون بن مهران: ما كان في القرآن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أو ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ فإنه مكي، وما كان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فإنه مدني.

---

(١) سورة المائدة الآية (٣).

(٢) انظر الإتقان في علوم القرآن ٣٧/١، النوع الأول.

(٣) انظر البرهان في علوم القرآن ١٨٧/١، والإتقان في علوم القرآن ٣٧/١، النوع الأول.

(٤) سورة التوبة الآية (٤٢).

(٥) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ٣٦٧.

ويَرِدُ عليه: بأن هذا الضابط غير مطرد في القرآن فقد ورد في سورة البقرة وهي مدنية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾[١] وسورة النساء مدنية وأولها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾[٢].

وأيضاً أكثر سور القرآن وآياته ليس فيها (يا أيها الناس) ولا (يا أيها الذين آمنوا).

والقرآن خطاب الله للخلق أجمعين، ويجوز أن يُخاطَبَ المؤمنون بصفتهم وباسمهم وجنسهم.

كما يجوز أن يؤمر غير المؤمنين بالعبادة كما يؤمر المؤمنون بالاستمرار عليها والازدياد منها.

والاصطلاح الأول وهو الترتيب الزماني أرجح الآراء لانضباطه وحصره، ولا يَرِدُ عليه ما ينقضه، وهو الذي عليه عموم المفسرين، قال ابن عطية:

«وكل ما نزل من القرآن بعد هجرة النبي ﷺ فهو مدني، سواء ما نزل بالمدينة، أو في سفر من الأسفار، أو بمكة، وإنما يرسم بالمكي ما نزل قبل الهجرة»[٣].

وقال ابن كثير: «فالمكي ما نزل قبل الهجرة، والمدني ما نزل بعد الهجرة سواء كان بالمدينة أو بغيرها من أي البلاد كان، حتى ولو كان بمكة أو عرفة»[٤].

نشأة علم المكي والمدني:

بدأت عناية العلماء بالمكي والمدني من عصر الصحابة رضوان الله

---

(١) سورة البقرة الآية (٢١).
(٢) سورة النساء الآية (١).
(٣) المحرر الوجيز ٥/٥.
(٤) فضائل القرآن لابن كثير ١١.

عليهم الذين حضروا نزول القرآن الكريم وعرفوا مناسباته وملابساته وأماكن نزوله، ومن ذلك ما ورد عن عبدالله بن مسعود ﷺ أنه قال: «والله الذي لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت، ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه»[1].

وأيضاً ما أخرجه البخاري عن طارق بن شهاب أن أناساً من اليهود قالوا: لو نزلت هذه الآية فينا لا تخذنا ذلك اليوم عيداً، فقال عمر: أيةُ آيةٍ؟ فقالوا: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾[2] فقال عمر: إني لأعلم أيَّ مكان أنزلت، أنزلت ورسولُ الله ﷺ واقف بعرفة»[3].

وفي عصر التابعين نجد أنهم اهتموا أيضاً بضبط المكي والمدني في السور والآيات، أخرج أبو نعيم عن أيوب قال: «سأل رجل عكرمة عن آية من القرآن، فقال: نزلت في سفح ذلك الجبل، وأشار إلى سَلْع»[4].

كما ورد عن عكرمة والحسن البصري أنهما قالا: «أنزل الله من القرآن بمكة اقرأ باسم ربك، ون، والمزمل.... ثم قالا: وما نزل بالمدينة ويل للمطففين، والبقرة، وآل عمران...»[5].

ثم جاء بعد هذه المرحلة مرحلة التأليف والتدوين.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه ١٠٢/٦، في كتاب: فضائل القرآن، باب: القراء من أصحاب النبي ﷺ.

(٢) سورة المائدة الآية (٣).

(٣) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه ١٢٧/٥، في كتاب: المغازي، باب: حجة الوداع، ومسلم في صحيحه ٢٣١٢/٤، حديث رقم (٣٠١٧)

(٤) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ٣٢٧/٣.

(٥) الأثر أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ١٤٣/٧، وقد جاء في الإتقان ٤٠/١)، النوع الأول.

أهم المؤلفات بالمكي والمدني:

إن من المباحث المتصلة بعلم المكي والمدني نزول القرآن الكريم وتنزلاته حيث يتحدثان عن منازل القرآن آية آية ضبطاً يحدد الزمان والمكان، ولهذا فالمؤلفات في نزول القرآن وتنزلاته داخلة في التأليف بالمكي والمدني.

وقد جاء التأليف فيه على منحيين:

المنحى الأول: التأليف فيه من خلال حصر الآيات والسور وبيان المكي منها والمدني وأهم المؤلفات فيه:

١ - نزول القرآن للضحاك بن مزاحم المتوفى سنة (١٠٤هـ).

٢ - نزول القرآن لعكرمة البربري المتوفى سنة (١٠٥هـ).

٣ - نزول القرآن للحسن بن أبي الحسن البصري المتوفى سنة (١١٠هـ).

٤ - تنزيل القرآن لمحمد بن مسلم بن شهاب الزهري المتوفى سنة (١٢٤هـ) وهي رسالة مختصرة في ترتيب السور المكية والمدنية، وقد طبعت في مجلة المجمع العلمي العراقي بتحقيق د. حاتم صالح الضامن.

٥ - فضائل القرآن وما أنزل من القرآن بمكة وما أنزل بالمدينة لأبي عبدالله محمد بن أيوب بن الضريس المتوفى سنة (٢٩٤هـ)، وقد حقق كتابه الدكتور/مسفر بن سعيد الغامدي وحصل به على درجة الماجستير، كما طبع بتحقيق/غزوة بدير.

٦ - بيان عدد سور القرآن وآياته وكلماته ومكيه ومدنيه، لابن عبدالكافي أبي القاسم عمر بن محمد المتوفى سنة (٤٠٠هـ) ولا زال مخطوطاً، وهو من الكتب التي اعتمدتها اللجنة التي أشرفت على طباعة مصحف المدينة النبوية.

٧ - التنزيل وترتيبه، لأبي القاسم الحسن بن محمد بن الحسن بن حبيب النيسابوري المتوفى سنة (٤٠٦هـ) وقد حققه محمد عبدالكريم الراضي ونشر في مجلة المورد.

٨ ـ المكي والمدني، لمكي بن أبي طالب القيسي المتوفى سنة (٤٣٧هـ).

٩ ـ المكي والمدني في القرآن، لعبدالعزيز بن أحمد العز الديريني المتوفى سنة (٦٩٤هـ) ولعل هذا الكتاب هو منظومته في التفسير باسم «التيسير في علم التفسير» وفي أبياتها حديث عن المكي والمدني.

١٠ ـ تقريب المأمول في ترتيب النزول، لبرهان الدين إبراهيم بن عمر الجعبري المتوفى سنة (٧٣٢هـ)، وهي منظومة في ترتيب نزول القرآن المكي والمدني.

المنحى الثاني: التأليف فيه بجعله باباً من أبواب علوم القرآن الكريم، ولا يكاد مؤلف في علوم القرآن الكريم إلا ويتحدث عنه. وهناك مؤلفات معاصرة تناولته بالدراسة والتحليل ومنها:

١ ـ أهم خصائص السور والآيات المكية ومقاصدها،للدكتور/ أحمد عباس البدوي.

٢ ـ خصائص السور المدنية ضوابطها ومقاصدها، للدكتور/عادل أبي العلا.

٣ ـ المكي والمدني في القرآن الكريم دراسة تأصيلية نقدية للسور والآيات من أول القرآن إلى نهاية سورة الإسراء، للدكتور/ عبدالرزاق حسين أحمد.

٤ ـ تحرير القول في السور والآيات المكية والمدنية من أول سورة الكهف إلى آخر سورة الناس،(رسالة دكتوراه) للدكتور/محمد بن عبدالعزيز الفالح.

الفائدة من دراسة علم المكي والمدني:

لدراسة علم المكي والمدني فوائد عديدة من أهمها:

١ ـ أنه يعرف به الناسخ والمنسوخ فيما لو وردت آيتان متعارضتان وإحداهما مكية والأخرى مدنية فإننا نحكم بنسخ الثانية للأولى لتأخرها عنها.

٢ - الاستعانة به في فهم الآية وتفسيرها، فمثلاً سورة الكافرون من قرأها ولم يعلم زمن نزولها، وهل هي مكية أو مدنية؟ ظن أن الجهاد غير مكلف به من قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ لكن إذا علم أن هذه السورة مكية وأنها نزلت حين قال بعض صناديد كفار قريش لرسول الله ﷺ: «تعال يا محمد نعبدْ إلهك يوما، وتعبد آلهتنا يوما» أدرك أن هذه السورة علاج للمرحلة التي كان فيها الرسول في مكة وليست دليلا على عدم مشروعية الجهاد كما نزلت بذلك الآيات الأخرى في المدينة.

٣ - يمكن الاستفادة من الآيات المكية والمدنية في معرفة أسلوب الدعوة إلى الله، فإن لكل مقام مقالاً، فالأسلوب والخطاب في الآيات المكية يختلف عنه في الآيات المدنية باختلاف الناس ومعتقداتهم وأحوال بيئتهم.

٤ - إمكان عن طريق معرفة المكي والمدني معرفة تاريخ الدعوة وسيرة الرسول ﷺ بدءً من العهد المكي من حيث نزول الوحي وانتهاء بالعهد المدني حتى آخر الآيات نزولا.

٥ - إن معرفة المكي والمدني من المباحث المهمة لمن أراد أن يفسر القرآن الكريم، قال الشافعي: «لا يحل لأحد أن يفتي في دين الله إلا رجلاً عارفاً بكتاب الله بناسخه ومنسوخه، وبمحكمه ومتشابهه، وتأويله وتنزيله، ومكيه ومدنيه، وما أريد به، وفيما أنزل، ثم بعد ذلك يكون بصيراً بحديث رسول الله ﷺ...»[١].

طريق معرفة المكي والمدني:

العمدة في معرفة المكي والمدني النقل الصحيح عن النبي ﷺ وهو قليل، أو عن الصحابة الذين كانوا يشاهدون أحوال الوحي والتنزيل،

---

(١) الفقيه والمتفقه ١٥٧/٢.

أو التابعين الآخذين عنهم. وقد اشتهر بمعرفة المكي والمدني من الصحابة رضوان الله عليهم عبدالله بن مسعود رضي الله عنه فقد روى البخاري[١] عنه أنه قال: «والله الذي لا إله غيره ما أُنزلتْ سورةٌ من كتاب الله إلا أنا أعلمُ أين أنزلت؟ ولا أُنزلتْ آيةٌ من كتاب الله إلا أنا أعلمُ فيم أُنْزلتْ؟ ولو أعلمُ أحداً أَعْلَمَ مني بكتاب الله تبلُغُهُ الإبل لركبتُ إليه».

وورد أيضاً عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه مثل ذلك.

وذكر السيوطي أن رجلاً سأل عكرمة رضي الله عنه عن آية من القرآن فقال: نزلت في سفح ذلك الجبل وأشار إلى سَلْع ـ وهو جبل قرب المدينة المنورة ـ.

ويمكن الاستفادة من الاجتهاد والاستنباط في معرفة ضوابط وخصائص المكي، وضوابط وخصائص المدني بعد معرفتهما عن طريق الروايات الصحيحة، كما يمكن الاستفادة منهما في معرفة المختلف فيه منهما.

ضوابط المكي والمدني:

تتبع العلماء السور المكية والمدنية، واستنبطوا منها ضوابط لكل منهما. فخرجوا بقواعد ومميزات مبنية على الغالب والكثير.

ضوابط المكي:

١ ـ كل سورة فيها سجدة فهي مكية سوى الحج عند من يقول إنها مدنية.

٢ ـ كل سورة فيها لفظ «كلا» فهي مكية. ولم ترد إلا في النصف الأخير من القرآن، وذكرت ثلاثاً وثلاثين مرة في خمس عشرة سورة.

٣ ـ كل سورة فيها لفظ ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ فهي مكية.

٤ ـ كل سورة فيها قصة آدم وإبليس فهي مكية سوى البقرة.

(١) صحيح البخاري ١٠٢/٦.

٥ - كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الغابرة فهي مكية سوى البقرة.

٦ - كل سورة فيها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فهي مكية وهذا في الغالب وإلا فقد وردت عدة سور فيها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾وهي مدنية مثل: سورة البقرة فيها آيتان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾[2]، والنساء ثلاث آيات (١، ١٧٠، ١٧٤)، والحج آية واحدة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ①﴾[3]، والحجرات آية واحدة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾[4].

٧ - كل سورة تفتتح بحروف الهجاء مثل: الم، الر، حم، قٓ، ن، ص،... فهي مكية سوى الزهراوين البقرة وآل عمران، واختلفوا في الرعد.

ضوابط المدني:

١ - كل سورة فيها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فهي مدنية.

٢ - كل سورة فيها ذكر الحدود والفرائض فهي مدنية.

٣ - كل سورة فيها ذكر المنافقين وأحوالهم فهي مدنية سوى سورة العنكبوت فإنها مكية إلا إحدى عشرة آية من صدرها فإنها مدنية وهي التي ذكر فيها المنافقون.

٤ - كل سورة فيها مجادلة أهل الكتاب فهي مدنية.

٥ - كل سورة فيها الإذن بالجهاد فهي مدنية سوى سورة الحج عند من يرى أنها مكية.

---

(١) سورة البقرة الآية (٢١).
(٢) سورة البقرة الآية (١٦٨).
(٣) سورة الحج الآية (١).
(٤) سورة الحجرات الآية (١٣).

خصائص المكي والمدني:

للمكي والمدني خصائص استنبطها العلماء من خلال تتبع السور المكية والسور المدنية.

خصائص القرآن المكي:

للمكي خصائص تميزه عن غيره وهذه الخصائص ترجع إلى المعنى، والموضوع، والخصائص البلاغية، فهي أدل وأدق وأشمل من الضوابط التي ترجع غالبها إلى اللفظ والشكل.

وأهم هذه الخصائص:

١ ـ عناية آيات السور المكية بالدعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده، واثبات الرسالة، والبعث، والجزاء، وذكر القيامة وهولها، والجنة، والنار، مع إثبات ذلك بالأدلة الكونية والبراهين العقلية.

٢ ـ تتحدث آي السور المكية عن مثالب المشركين البغيضة، وعاداتهم المنكرة من القتل بغير الحق، ووأد البنات، وأكل أموال اليتامى ظلماً...، إلى غير ذلك من الموبقات مع تحذيرهم منها.

٣ ـ وضعت الأسس العامة للتشريع، والفضائل الأخلاقية التي يقوم عليها كيان المجتمع، كالحث على الثبات في العقيدة، والأمر بالصلاة والصدقة والصدق، والعفاف، وبر الوالدين، وصلة الرحم، والعفو، والعدل، والإحسان، والتواصي بالحق والخير والصبر...

٤ ـ ذكر قصص الأنبياء والأمم السابقة زجراً لهم حتى يعتبروا بمصير المكذبين قبلهم، وتسليةً لرسول الله ﷺ حتى يصبر على أذاهم ويطمئن إلى الانتصار عليهم.

٥ ـ قصر الفواصل مع كثرتها وقوة ألفاظها، وإيجاز العبارة مما يجعلها تستولي على المشاعر، وتعقل الألسنة عن المعارضة، وتدع سامعها في حيرة ودهشة مما يسمع، كما قال الوليد بن المغيرة القرشي لما سمع القرآن: «والله لقد سمعت كلاماً ما هو بالشعر، ولا بالسحر،

ولا بالكهانة، وأن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وأن أعلاه لمثمر، وأن أسفله لمغدق، وما هو بقول بشر، وأنه ليعلو ولا يعلى». وكان القرشيون يتواصون فيما بينهم أن لا يستمعوا للقرآن وأن يضعوا أصابعهم في آذانهم، ويستغشوا ثيابهم حذراً أن ينفذ إلى قلوبهم فيؤمنوا به.

خصائص القرآن المدني:

١ ـ التحدث عن التشريعات التفصيلية والأحكام العملية في العبادات، والمعاملات، والحدود، ونظام الأسرة، والمواريث، وفضيلة الجهاد وأحكامه، والكفارات... وذلك لأن حياة المسلمين في المدينة بدأت في الاستقرار وأصبح للإسلام كيان ودولة وسلطان فهي بحاجة إلى تشريع يكفل لها ما تحتاج إليه في دينها ودنياها.

٢ ـ مخاطبة أهل الكتاب من اليهود والنصارى ودعوتهم إلى الإسلام وبيان تحريفهم لكتب الله، وتجنيهم على الحق، واختلافهم من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم.

٣ ـ بيان ضلال المنافقين والكشف عن سلوكهم وإظهار ما بهم من خبث وسوء في الطباع والجبن والهلع.

٤ ـ طول أكثر آياته وسوره في أسلوب يقرر الشريعة ويوضح أهدافها. وهذا يحتاج البسط والإطناب[1].

أنواع السور المكية والمدنية:

سور القرآن الكريم جاءت على أربعة أنواع من حيث مكيتها ومدنيتها:

١ ـ مكي خالص، كسورة اقرأ، والمدثر، والقيامة...

---

(١) انظر في الضوابط والخصائص: الإتقان في علوم القرآن ٦٨/١، ٦٩ النوع الأول، ودراسات في علوم القرآن د. فهد الرومي ١٢٨ ـ ١٣٣.

٢ - مدني خالص، كسورة البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة.

٣ - مكي وبعضه مدني، كسورة الأعراف فإنها مكية إلا قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾(١) خمس آيات أو ثمان، وسورة الإسراء إلا قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ﴾(٢).

٤ - مدني وبعضه مكي، كسورة الأنفال فإنها مدنية إلا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾(٣).

واعتماد العلماء في وصف السورة بكونها مكية أو مدنية إنما هو لما يغلب عليها، وعند بعضهم بحسب فاتحتها.

ومن المباحث التي لها علاقة بالمكي والمدني ويبحثها أهل هذا العلم:

الحضري والسفري، النهاري والليلي، الصيفي والشتائي، الفراشي والنومي، ما نزل مفرقا وما نزل جمعاً، ما نزل مشيعاً وما نزل مفرداً، ما نزل بمكة وحكمه مدني، وما نزل بالمدينة وحكمه مكي،... إلى غير ذلك من المباحث.

أقسام سور القرآن:

١ - الطوال: وهي سبع سور: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، واختلف في السابعة هل هي يونس، أو الأنفال وبراءة وسميت بذلك لأنها تعتبر أطول سور القرآن.

٢ - المئون: وهي التي تلي السبع الطوال إلى آخر سورة السجدة، ولعلها سميت بذلك لأن أغلب سورها تزيد على مائة آية أو تقاربها.

٣ - المثاني: وهي السور التي تلي المئين، من أول سورة الأحزاب إلى

---

(١) سورة الأعراف الآية (١٦٣).

(٢) سورة الإسراء الآية (٨٥).

(٣) سورة الأنفال الآية (٣٠).

أول سورة قٓ، أو أول سورة الحجرات، وسميت بذلك لأنها تثنى أكثر مما تثنى الطوال والمئون، أو لأنها كانت بعد المئين فهي لها ثوان، والمئون لها أوائل.

٤ ـ المفصل: هي التي تلي المثاني إلى آخر القرآن. واختلف في أوله: فقيل أول قٓ، وقيل أول الحجرات. وقد قسم العلماء المفصل إلى ثلاثة أقسام:

أ ـ الطوال: من أول المفصل إلى أول سورة (النبأ).

ب ـ الأوساط: من أول سورة (النبأ) إلى أول سورة (الضحى).

جـ ـ القصار: من أول سورة (الضحى) إلى آخر القرآن.

وسمي بالمفصل: لكثرة الفصول التي بين السور بالبسملة.

عدد السور المكية والمدنية:

أكثر العلماء على أن المدني عشرون سورة هي:

البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنفال، التوبة، النور، الأحزاب، محمد، الفتح، الحجرات، الحديد، المجادلة، الحشر، الممتحنة، الجمعة، المنافقون، الطلاق، التحريم، النصر.

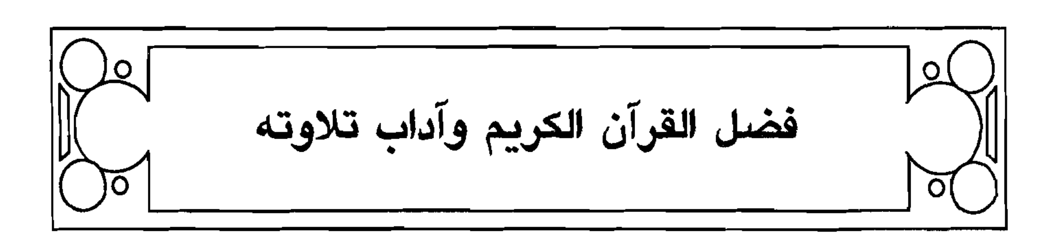
وأن المختلف فيه اثنتا عشرة سورة هي:

الفاتحة، الرعد، الرحمن، الصف، التغابن، التطفيف، القدر، البينة، الزلزلة، الإخلاص، الفلق، الناس.

وأن ما سوى ذلك وهو اثنتان وثمانون سورة فهو مكي.

❁ ❁ ❁

الموضوع الثامن



فضل القرآن الكريم وآداب تلاوته

هذا الموضوع يعتبر أحد موضوعات «فضائل القرآن الكريم»، ولهذا سأتناول فيه ما يتعلق بالفضل والفضائل بالقرآن الكريم.

معنى فضائل القرآن:

فضائل القرآن: يقصد بها ما ورد عن النبي ﷺ من فضل وثواب في تعلم القرآن وتعليمه وتلاوته والاستماع إليه، واتباعه وإعظام أهله.

والمصنفات في فضائل القرآن شملت ذلك بالإضافة إلى ما يتعلق بالنص القرآني ككتابته وحفظه ونقله وقراءاته وحروفه وعد آيه وعموم أحكامه.

وعلم «فضائل القرآن» هو أحد علوم القرآن الكريم الكثيرة التي تبحث فيه من جميع نواحيه.

أهم الكتب في فضائل القرآن:

لقد صنف العلماء في فضائل القرآن كتباً كثيرة من أهمها:

١ ـ منافع القرآن، للإمام الشافعي المتوفى سنة (٢٠٤هـ).

٢ ـ فضائل القرآن ومعالمه وآدابه، لأبي عبيدالقاسم بن سلام المتوفى سنة (٢٢٤هـ)، وهو مطبوع بتحقيق وهبي غاوجي، وطبعة أخرى بتحقيق مروان العطية وآخرين.

٣ ـ فضائل القرآن وما أنزل من القرآن بمكة وما أنزل بالمدينة، لمحمد بن أيوب بن الضريس المتوفى سنة (٢٩٥هـ)، وهو مطبوع بتحقيق د. مسفر بن سعيد الغامدي.

٤ ـ فضائل القرآن، لأبي بكر جعفر بن محمد الفريابي المتوفى سنة (٣٠١هـ).

٥ ـ فضائل القرآن، لأحمد بن شعيب النسائي المتوفى سنة (٣٠٣هـ)، وهو مطبوع بتحقيق د. فاروق حمادة.

٦ ـ فضائل القرآن، لابن أبي داود السجستاني المتوفى سنة (٣١٠هـ) صاحب كتاب المصاحف.

٧ ـ فضائل القرآن، لأبي العباس جعفر بن محمد المستغفري المتوفى سنة (٤٣٢هـ)، وهو مطبوع سنة (١٤٢٧هـ) بتحقيق د. أحمد بن فارس السلوم.

٨ ـ فضائل القرآن وتلاوته وخصائص تلاته وحملته، لأبي الفضل عبدالرحمن بن أحمد الرازي المتوفى سنة (٤٥٤هـ)، وهو مطبوع بتحقيق د. عامر حسن صبري.

٩ ـ فضائل القرآن، لأبي الفضائل أحمد بن محمد الرازي المتوفى سنة (٦٣١هـ).

١٠ ـ فضائل القرآن، لابن كثير المفسر المتوفى سنة (٧٧٤هـ)، وألفه تتميماً لكتابه التفسير ومنهم من جعله جزءاً منه.

١١ ـ فضائل القرآن، لابن حجر العسقلاني المتوفى سنة (٨٥٢هـ)، وهو مطبوع بمراجعة د. السيد الجميلي وهو مأخوذ من كتابه (فتح الباري).

وهذه الكتب هي التي خصت الفضائل بالتأليف، وإلا فكتب أئمة الحديث (الصحاح والسنن) فقد أفرد أصحابها الفضائل بأبواب وكتب مستقلة.

فضل القرآن على غيره من الكتب السماوية:

يفضل القرآن الكريم غيره من الكتب السماوية السابقة بعدة نواح أجملها في الآتي:

١ - من حيث إعجازه سواء اللغوي أو البياني أو التشريعي، وما ورد فيه من القصص والأخبار عن الماضي والحاضر والمستقبل.

٢ - أنه ناسخ لكل الكتب السماوية السابقة قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾[1].

٣ - أنه مهيمن على جميع الكتب السابقة قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[2].

٤ - اجتماع شرف الزمان والمكان للقرآن الكريم، فنزل في أكرم الشهور، قال الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾)[3]، وفي أفضل الأماكن مكة والمدينة أحب البلاد إلى الله، وفي الليلة المباركة قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ﴾[4] وهي ليلة القدر قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾[5].

٥ - تكفل الله بحفظه دون غيره من الكتب السماوية، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾[6].

فضل تلاوة القرآن الكريم:

تعبدالله ﷻ خلقه بتلاوة القرآن الكريم، ووعدهم بالأجر والمثوبة بمجرد تلاوته وترديد لفظه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ

---

(١) سورة آل عمران الآية (٨٥).
(٢) سورة المائدة الآية (٤٨).
(٣) سورة البقرة الآية (١٨٥).
(٤) سورة الدخان الآية (٣).
(٥) سورة القدر الآية (١).
(٦) سورة الحجر الآية (٩).

وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾(١).

ومما ورد في السنة في فضل تلاوته والثواب عليها:

حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران»(٢).

وحديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه»(٣).

وحديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار»(٤).

وحديث ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: الم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»(٥).

وحديث أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب، وطعمها طيب، ومثل المؤمن

---

(١) سورة فاطر الآيتان (٢٩، ٣٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٥٤٩/١، ٥٥٠، في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل الماهر بالقرآن، والسفرة: هم الملائكة الرسل، والماهر: الحاذق الكامل الحذق ولا تشق عليه القراءة، ويتتعتع فيه: الذي يتردد في تلاوته لضعف حفظه، فله أجران: أجر بالقراءة، وأجر بتعتعته.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ٥٥٣/١، في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل قراءة القرآن.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ١٠٨/٦، في كتاب: فضائل القرآن، باب: اغتباط صاحب القرآن، ومسلم في صحيحه ٥٥٨/١، في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه.

(٥) أخرجه الترمذي ١٧٥/٥ وقال عنه حديث حسن صحيح غريب.

الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر»(١).

فضل استماع القرآن:

ورد الوعد بفضل استماع القرآن والإنصات له مع تدبر وخشوع

فقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾(٢).

وفي حديث أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «من استمع إلى آية من كتاب الله تعالى كتب له حسنة مضاعفة، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة»(٣).

فضل الاجتماع لدرس القرآن وتعلمه وتعليمه:

من أجمع الأحاديث الواردة في فضل الاجتماع لتلاوة القرآن الكريم وتدارسه حديث أبي هريرة ﵁، وفيه «... وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»(٤).

فجمع هذا الحديث أربعة من أنواع ثواب الاجتماع لتلاوة القرآن ومدارسته(٥).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ١٠٧/٦ كتاب فضائل القرآن باب فضل القرآن على سائر الكلام، ومسلم في صحيحه ٥٤٩/١، في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضيلة حافظ القرآن.
(٢) سورة الأعراف الآية (٢٠٤).
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٣٤١/٢.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ٢٠٧٤/٤، في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر.
(٥) انظر: دراسات في علوم القرآن للرومي ٥٥ ـ ٥٧.

وفي فضل تعلمه وتعليمه حديث عثمان بن عفان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» وفي لفظ «إن أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه»[١].

فضل بعض القرآن على بعض:

وردت أحاديث صحيحة يفيد ظاهرها فضل بعض السور والآيات فهل يجوز أن يقال: إن في القرآن شيء أفضل من شيء؟ مع أن سوره وآياته كلها ذات فضل؟

اختلف أهل العلم في ذلك على قولين مشهورين:

القول الأول: إنه لا فضل لبعض القرآن على بعض، وذهب إليه طائفة من المتكلمين منهم: أبو الحسن الأشعري، وأبو بكر الباقلاني، وروي معناه عن الإمام مالك، فقد قال يحيى بن يحيى ـ صاحب مالك ـ: تفضيل بعض القرآن على بعض خطأ، وكذلك كره مالك أن تعاد سورة أو تردد سورة دون غيرها[٢]، وهو اختيار ابن جرير الطبري حيث قال: «غير جائز أن يكون من القرآن شيء خير من شيء، لأن جميعه كلام الله، ولا يجوز في صفات الله تعالى ذكره أن يقال بعضها أفضل من بعض وبعضها خير من بعض»[٣]، وبه قال أبو حاتم بن حبان[٤] والبغوي[٥] والثعلبي[٦].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ١٠٨/٦، في كتاب فضائل القرآن باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه.

(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن ٤٣٨/١، والإتقان في علوم القرآن ١٣٦/٤ النوع الثالث والسبعون.

(٣) جامع البيان ٤٨٠/١، ٤٨١.

(٤) انظر: صحيح ابن حبان ٥٢/٣.

(٥) انظر: معالم التنزيل ١٠٤/١.

(٦) انظر: الكشف والبيان ٢٥٦/١.

أدلة أصحاب القول الأول:

استدلوا بعدة أدلة منها:

١ - أن الجميع كلام الله ﷻ، وكلامه صفة له، والصفة لا تتفاضل.

٢ - أن القرآن نزل من عند الله، فكيف يتفاضل وأصله واحد. أما قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾[1] فالخيرية تعود إلى غير الآية مثل نفع العباد وثوابهم.

٣ - حتى لا يتوهم النقص في المفضل عليه.

أما الأحاديث الواردة بالتفضيل فقد أَوَّلُوا الفضل بالأجر، أي: إن أجر قراءتها أعظم من أجر قراءة غيرها، لا أنها هي في ذاتها أفضل مما سواها.

القول الثاني:

أن بعض القرآن أفضل من بعض، وذهب إليه جمهور الفقهاء والمحدثين منهم: إسحاق بن راهويه والحليمي والبيهقي وابن الحصّار والغزالي وابن العربي والقرطبي والعز بن عبدالسلام... وغيرهم.

أدلة أصحاب القول الثاني:

أولاً: الأدلة من القرآن:

١ - قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾[2] ومعناها: أن الله سبحانه وتعالى إذا نسخ آية أتى بخير منها أو بمثلها فدل على أن في آي القرآن منه ما هو متماثل في الخيرية، ومنه ما هو أكثر خيرية وفضلا.

٢ - قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾[3]

---

(١) سورة البقرة الآية (١٠٦).

(٢) سورة البقرة الآية (١٠٦).

(٣) سورة الزمر الآيات (١٧، ١٨).

على أن المراد بالقول هو القرآن، ورجح هذا المعنى الشيخ محمد الأمين الشنقيطي[١].

٣ - قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾[٢] ففيها دلالة على أن في القرآن الحسن والأحسن.

ثانياً: الأدلة من السنة:

وهي عموم الأدلة الدالة على تفضيل بعض الآيات والسور أو اختصاصها بمزيد أجر على قراءتها:

١ - حديث أبي سعيد بن المعلّى أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قال: (الحمد لله رب العالمين) هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»[٣].

٢ - حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ـــ وقرأ عليه أبي بن كعب أم القرآن ـــ: «والذي نَفسي بيده ما أُنْزِلت في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلُها، وإنها سبعٌ من المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيته»[٤]، ففيه دلالة على نفي أن يكون لها مثل.

٣ - حديث أبي بن كعب قال: قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا المنذر أتدري أيُّ آية من كتاب الله معك أعظم؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: يا أبا المنذر، أتدري أيُّ آية في كتاب الله معك أعظم؟ قال: قلت: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، قال: فضرب في صدري وقال: لِيَهْنِكَ العلمُ أبا المنذر»[٥].

---

(١) أضواء البيان (٧: ٤٧، ٤٨).

(٢) سورة الزمر الآية (٥٥).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٦/١٠٣، كتاب فضائل القرآن، باب فضل فاتحة الكتاب.

(٤) أخرجه الترمذي ٥/١٥٥، ١٥٦ وقال عنه حديث حسن صحيح.

(٥) لِيَهْنِكَ: ليكن العلم هنيئا لك، والحديث أخرجه مسلم في صحيحه ١/٥٥٦، في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل سورة الكهف وآية الكرسي.

٤ ـ حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «سيدة آي القرآن آية الكرسي»[١].

٥ ـ حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأهما في ليلة كفتاه»[٢].

٦ ـ حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من حفظ عشرَ آيات من أول سورة الكهف عُصم من الدجال» وفي رواية «من آخر الكهف»[٣].

٧ ـ حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ يرددها، فلما أصبح جاء إلى رسول الله ﷺ فذكر له ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن»[٤].

٨ ـ حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألم تر آياتٍ أُنزلت الليلة لم يُرَ مثلهن قط: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾»[٥].

الراجح:

الراجح هو القول الثاني لقوة أدلته، وما ذكره أصحاب القول الأول من أن صفات الله لا تتفاضل، فهذا لا دليل عليه، فالتفاضل بين الصفات يكون من وجهين:

الأول: أن بعضها أدخل في كمال الموصوف بها، فقد ورد عن

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/٢٦٠، وقال عنه: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ١/٥٥٤، في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة، ومعنى كفتاه قيل: من قيام الليل، وقيل: من الشيطان، وقيل: من الآفات والشر والمكروه، ويحتمل من الجميع.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ١/٥٥٥.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ٦/١٠٥، في كتاب فضائل القرآن، باب فضل (قل هو الله أحد).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه ١/٥٥٨.

النبي ﷺ بأن لله اسماً أعظم فقد جاء عن عبدالله بن بريدة الأسلمي عن أبيه قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو وهو يقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، قال: فقال: «والذي نفسي بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى»(١).

الثاني: أن الصفة الواحدة تتفاضل بأن يكون الأمر بمأمورٍ ما أكمل من الأمر بمأمور آخر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وكما أن أسماءه وصفاته متنوعة، فهي أيضاً متفاضلة، كما دل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع مع العقل، وإنما شبهة من منع تفاضلها، من جنس شبهة من منع تعددها، وذلك يرجع إلى نفي الصفات كما يقول الجهمية»(٢).

وقد غَلَّط من منع التفاضل بقوله: «إنما غَلط من قال بالأول، لأنه نظر إلى إحدى جهتي الكلام، وهي جهة المتكلِّم به، وأعرض عن الجهة الأخرى، وهي جهة المتكلَّم فيه، وكلاهما للكلام به تعلق يحصل به التفاضل والتماثل»(٣).

تنبيهات:

إذا قلنا بأن القول الراجح هو وجود التفاضل فيجب أن نعلم ما يلي:

١ ـ أن كلام الله ﷻ من حيث نسبته إليه لا يتفاضل، فكل القرآن كلامه على الحقيقة، ولكن قد يتفاضل في جوانب أخرى.

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي ٥/٥١٥، في كتاب الدعوات باب جامع الدعوات عن النبي ﷺ وقال عنه: حديث حسن غريب، وابن ماجه ٢/١٢٦٧، في كتاب الدعاء، باب اسم الله الأعظم.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٧/٢١٢.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٧/٢١٠.

٢ ـ أنه لا يجوز تنقص المفضل عليه، لأنه فاضل أصلاً.

٣ ـ أن إثبات الفضل في جانب لا يعني نفيه عن المفضل عليه في جوانب أخرى.

جوانب التفضيل:

اختلفت عبارات القائلين بالتفضيل من أي الأنواع يكون، وبالتتبع أمكن إجمالها في الآتي:

١ ـ أن يراد به عظم الأجر ومضاعفة الثواب.

٢ ـ الأثر الحسي والمعنوي على المسلم، كقراءة الفاتحة وآية الكرسي والإخلاص والمعوذتين فإن قارئها يتعجل بقراءتها الاحتراز مما يخشى.

٣ ـ ما تتضمنه ألفاظها من معان لا توجد في غيرها كآية الكرسي وآخر الحشر وسورة الإخلاص ففيها من الدلالات على وحدانية الله وعلى صفاته ما ليس في غيرها[1].

٤ ـ الفضل بقراءتها في صلاة معينة، كما ورد بفضل قراءة سورة الكافرون في ثانية الشفع، وأول ركعة من سنة الفجر، وسنة الطواف. وقراءة سورة الإخلاص في الوتر، وفي ثاني ركعة من سنة الفجر، والطواف. وهذا الاختلاف بالتفضيل أقرب إلى اختلاف التنوع لا التضاد.

الوضع في أحاديث الفضائل:

لقد ورد في فضائل القرآن الكريم وسوره وآياته أحاديث صحيحة فيها غنية وكفاية من أن يُشغل الناس بأحاديث مختلقة موضوعة، وفضائل القرآن

---

(١) انظر: شعب الإيمان للبيهقي ٢: ٥١٥، ٥١٦، والبرهان في علوم القرآن ١/٤٤٠، ٤٤١، والإتقان ١٣٨/٤ النوع الثالث والسبعون.

نالت الحظ الأوفر من الوضاعين الذين وضعوا أحاديث في فضائل القرآن سورة سورة، ومن أشهر هذه الأحاديث حديث أبي بن كعب الذي رُكِّب متنه وإسناده حتى يلقى القبول فهو حديث طويل وضعه نوح بن أبي مريم المعروف بـــ: نوح الجامع المتوفى سنة (١٧٣هـ) فعن أبي عمار المروزي قال: قيل لأبي عصمة نوح بن أبي مريم المرزوي: من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس في فضائل القرآن سورة سورة، وليس هذا عند أصحاب عكرمة؟ فقال: إني رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن، واشتغلوا بفقه أبي حنيفة ومغازي ابن إسحاق، فوضعت هذا الحديث حُسْبَةً[١].

وكذا الحديث الذي وضعه ميسرة بن عبدربه، فعن عبدالرحمن بن مهدي قال: قلت لميسرة بن عبدربه: من أين جئت بهذه الأحاديث، من قرأ كذا فله كذا؟ قال: وضعتها أرغب الناس فيه[٢].

ومن الغريب أن يذكر هذه الأحاديث بعض المفسرين في تفاسيرهم، مثل: الثعلبي في «الكشف والبيان» والواحدي في «الوسيط» وابن مردويه في «التفسير» والزمخشري في «الكشاف». كما ذكرها بعض أصحاب فضائل القرآن كابن أبي داود في «فضائل القرآن» والمستغفري في «فضائل القرآن» والهروي في «فضائل القرآن» وغيرهم دون أن يشيروا لوضعها وكذبها.

وأود أن أشير هنا إلى بعض الكتب التي تناولت الأحاديث الموضوعة في الفضائل بالكشف عنها وبيان عورها وهي كالآتي:

١ ـ العلل المتناهية في الأحاديث الواهية لابن الجوزي.

٢ ـ الموضوعات الكبرى لابن الجوزي.

٣ ـ تذكرة الموضوعات لمحمد بن طاهر المقدسي.

---

(١) المدخل إلى معرفة كتاب الإكليل للحاكم ٤٢، وانظره في الإتقان ١٣٤/٤ النوع الثاني والسبعون.

(٢) المجروحين من المحدثين لابن حبان ٦٤/١، ضعفاء العقيلي ٢٦٣/٤.

٤ ـ تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الشنيعة الموضوعة لابن عراق الكناني.

٥ ـ الآليء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة لجلال الدين السيوطي.

٦ ـ المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة للسخاوي.

٧ ـ الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة للشوكاني.

٨ ـ كشف الخفاء ومزيل الإلباس للعجلوني.

آداب تلاوة القرآن الكريم:

لقد اعتنى العلماء ببيان الآداب التي تَلْزَم قارىء القرآن التحلي بها، وقد أفردها جماعة بالتأليف، ومن هذه المصنفات:

١ ـ أخلاق حملة القرآن، لأبي بكر محمد بن الحسين الآجري، المتوفى سنة (٣٦٠هـ).

٢ ـ التذكار في أفضل الأذكار، لأبي عبدالله محمد بن أحمد القرطبي، المتوفى سنة (٦٧١هـ).

٣ ـ التبيان في آداب حملة القرآن، لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي، المتوفى سنة (٦٧٦هـ).

ويمكن إيجاز آداب التلاوة بالآتي:

١ ـ الطهارة، ويشمل ذلك:

❑ طهارة البدن: فالطهارة من الحدث الأكبر أجمع العلماء على أنه لا يجوز له مس المصحف أو القراءة للقرآن حتى يغتسل، أما الحدث الأصغر فاشترط الطهارة منه بعض العلماء، ولم يشترطها آخرون، ولكنهم أجمعوا على أن الأفضل هو الطهارة من الحدث الأصغر.

❑ طهارة المكان: فلا يجوز أن يقرأ القرآن بالأماكن النجسة حسية أو معنوية[١].

❑ طهارة اللباس، والتطيب عند التلاوة فهذان من الآداب المحمودة.

❑ طهارة الفم: بأن يستاك قبل البدء في القراءة.

٢ ـ أن يستوي قاعداً ـ في غير صلاة ـ تأدباً مع القرآن، ويستحب له استقبال القبلة.

٣ ـ أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم عند بداية القراءة لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨﴾[٢].

٤ ـ أن يقرأ البسملة بعد الاستعاذة في بداية كل سورة، وقد أجمع العلماء على مشروعيتها في كل سورة سوى براءة.

٥ ـ أن يقرأ على تؤده، وأن تكون قراءته ترتيلا، بأن يعطي الحروف حقها من المد والإدغام لقوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾[٣]، وعن ابن مسعود رضي الله عنه «أن رجلاً قال له: إنّي أقرأ المفصل في ركعة واحدة، فقال: أهذّاً كهذ الشعر[٤]؟ إن قوماً يقرؤن القرآن لا يجاوز تراقيهم[٥]، ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع»[٦].

٦ ـ أن يتدبر ما يقرأ، بأن يشغل قلبه في التفكير في معنى ما يقرأ قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾[٧]، حتى يتأثر بآيات

(١) الأماكن الحسية كالحمامات، والمعنوية كأماكن الخمر.
(٢) سورة النحل الآية (٩٨).
(٣) سورة المزمل الآية (٤).
(٤) الهذ: سرعة القراءة.
(٥) التراقي: هي الحلوق.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه ١١٢/٦، في كتاب: فضائل القرآن، باب: الترتيل في القراءة، ومسلم في صحيحه ٥٦٣/١، ٥٦٤، في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: ترتيل القراءة.
(٧) سورة ص الآية (٢٩).

القرآن وعداً ووعيداً، فإذا مّر بآية فيها وعد سأل الله من فضله، وإذا مّر بوعيد تعوذ بالله من عقابه، وإذا مّر بتسبيح سبح.

٧ ـ أن يحسن صوته بالقراءة، لحديث: «زينوا القرآن بأصواتكم»[١].

٨ ـ أن يجهر بالقراءة حيث يكون الجهر أفضل، أما إذا خشي الرياء، أو كان فيه أذى للناس فإن الإسرار أفضل، قال ﷺ: «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به»[٢].

القراءة في المصحف والقراءة على ظهر قلب:

اختلف العلماء في الأفضل منهما:

- ❏ قيل: إن القراءة من المصحف أفضل، لأن النظر فيه عبادة، فتجتمع فيه القراءة والنظر، أي تجتمع فيه فعل الجارحتين: اللسان والعين، وقال به الغزالي.
- ❏ وقيل: إن القراءة على ظهر قلب أفضل، لأن المقصود من القراءة التدبر، والنظر في المصحف عادة يخل بالتدبر، واختار هذا العز بن عبدالسلام.
- ❏ وقيل: إن الأمر يختلف باختلاف الأحوال: فإن كان القارىء من حفظه يحصل له من التدبر والتفكر وجمع القلب أكثر مما يحصل له من المصحف، فالقراءة من الحفظ أفضل.

وإن استوى خشوعه وتدبره في حالتي القراءة في المصحف وعن ظهر قلب فمن المصحف أفضل واختار هذا النووي[٣].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢٩٦/٤، والحاكم في المستدرك ٥٧١/١ ـ ٥٧٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ١٠٧/٦، في كتاب: فضائل القرآن، باب من لم يتغن بالقرآن، ومسلم في صحيحه ٥٤٥/١، في كتاب: صلاة المسافرين، باب: استحباب تحسين الصوت بالقرآن. والمعنى: أن يحسن صوته بقراءة القرآن، لا أن يحسن القرآن بصوته، وانظر: مباحث في علوم القرآن للقطان ١٩١.

(٣) البرهان ٤٦١/١، والتبيان ٥٥.

مدة ختم القرآن:

ينبغي للمسلم أن يحافظ على تلاوة القرآن الكريم ويكثر منها، وكان السلف ﷺ لهم عادات مختلفة في قدر ما يختمون فيه.

فروي عن بعضهم أنهم كانوا يختمون في كل شهرين ختمة، وعن بعضهم في كل شهر ختمة، وعن بعضهم في كل عشر ليال ختمة، وعن بعضهم في كل ثمان، وعن الأكثرين في كل سبع ليال، كعثمان، وابن مسعود، وزيد، وأبي بن كعب[١]، وروي عن بعضهم أقل من ذلك.

والظاهر أن الأمر يختلف باختلاف الأشخاص لاختلاف قدراتهم الذهنية وأحوالهم في النشاط والضعف والتدبر والغفلة.

وكره قوم قراءته في أقل من ثلاث وحملوا عليه حديث عبدالله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث»[٢].

وقال أبو الليث السمر قندي: ينبغي أن يختم القرآن في السنة مرتين إن لم يقدر على الزيادة.

وروي عن أبي حنيفة أنه قال: من قرأ القرآن في كل سنة مرتين فقد أدى للقرآن حقَّه، لأن النبي ﷺ عرضه على جبريل في السنة التي قبض فيها مرتين[٣].

---

(١) ويدل على ذلك ما رواه عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال لي رسول الله ﷺ اقرأ القرآن في شهر، قلت: إني أجد قوة، قال: اقرأه في عشر، قلت: إني أجد قوة، قال: اقرأه في سبع ولا تزد على ذلك» أخرجه البخاري في صحيحه ١١٤/٦، في كتاب: فضائل القرآن، باب: في كم يقرأ القرآن، ومسلم في صحيحه ٨١٤/٢، في كتاب: الصيام، باب: النهي عن صوم الدهر.

(٢) رواه أبو داوود في سننه ٤٤٢/١، في كتاب: الصلاة، باب: في كم يقرأ القرآن، حديث رقم ١٣٩٠، الترمذي في سننه ١٩٨/٥، في كتاب: القراءات، باب: في كم يختم القرآن، حديث رقم ٢٩٤٩، وقال حديث حسن صحيح.

(٣) انظر: البرهان ٤٧١/١.

حكم السجود عند قراءة آيات السجدة:

أجمع العلماء على الأمر بسجود التلاوة، واختلفوا في استحبابه أو إيجابه.

فقال جمهور العلماء: إنه مستحب وليس بواجب وبه قال عمر وابن عباس ومالك والشافعي وأحمد وغيرهم، واحتجوا بحديث عمر ﵁:

«قرأ يوم الجمعة على المنبر بسورة النحل حتى إذا جاء السجدة نزل فسجد وسجد الناس، حتى إذا كانت الجمعة القابلة قرأ بها حتى إذا جاء السجدة قال: يا أيها الناس إنما نمر بالسجود فمن سجد فقد أصاب، ومن لم يسجد فلا أثم عليه، ولم يسجد عمر»(١).

وثبت في الصحيحين عن زيد بن ثابت ﵁ أنه قرأ على النبي ﷺ والنجم فلم يسجد فيها»(٢).

وثبت في الصحيحين عن ابن عباس ﵄: «أن النبي ﷺ سجد بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والأنس»(٣).

وقال أبو حنيفة: إنه واجب واحتج بقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ۝٢١﴾(٤).

وأجيب عنه بأن المراد ذمهم على ترك السجود تكذيبا كما قال بعده: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ۝٢٢﴾(٥).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٣٤/٢، في أبواب سجود القرآن وسنتها، باب من رأى أن الله لم يوجب السجود.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٣٢/٢، في أبواب سجود القرآن، ومسلم في صحيحه ٤٠٦/١، في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: سجود التلاوة رقم ٥٧٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٣٢/٢ في أبواب سجود القرآن، باب: سجود المسلمين مع المشركين، ومسلم في صحيحه ٤٠٥/١ في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: سجود التلاوة رقم ٥٧٦.

(٤) سورة الانشقاق الآيتان (٢٠، ٢١).

(٥) سورة الانشقاق الآية (٢٢).

وعدد السجدات:

قيل أربع عشرة سجدة:

١- الأعراف ٢٠٦	٦- الحج ١٨	١١-فصلت ٣٧، ٣٨
٢- الرعد ١٥	٧- الحج ٧٧	١٢-النجم ٦٢
٣- النحل ٤٩	٨- الفرقان ٦٠	١٣-الانشقاق ٢١
٤- الإسراء ١٠٧، ١٠٨	٩-النمل ٢٤، ٢٥	١٤-العلق ١٩
٥- مريم ٥٨	١٠-السجدة ١٥	

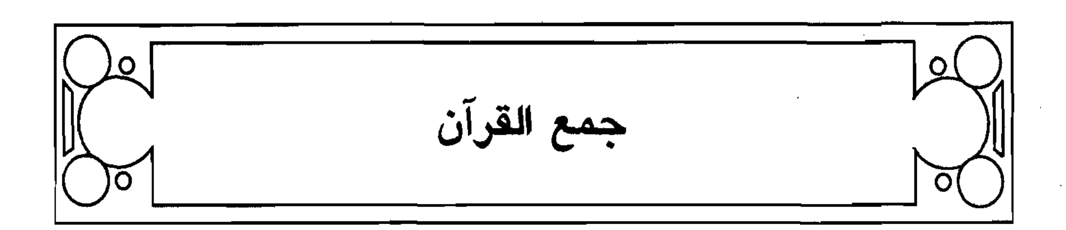
وقيل خمس عشرة سجدة بإضافة (سورة ص ٢٤) وهي تعتبر سجدة شكر عند الشافعي.

ويشترط لسجدة التلاوة ما يشترط للصلاة من: «طهارة، ونية، واستقبال قبلة» وصفته أن يكبر للسجود والرفع منه سواء كان في صلاة أو في غيرها[١].



(١) المغني ٣٥٩/٢.

الموضوع التاسع



جمع القرآن

معنى جمع القرآن:

ورد جمع القرآن على معنيين:

الأول: جمعه بمعنى حفظه في الصدور، ومنه: جُمّاع القرآن، أي: حفاظه، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾[1]، أي: جمعه في صدرك، وإثبات قراءته في لسانك[2].

الثاني: جمعه بمعنى كتابته سواء مفرق الآيات والسور، أو مرتب الآيات فقط وكل سورة في صحيفة على حدة، أو مرتب الآيات والسور في صحائف مجتمعة تضم السور جميعاً وقد رتب إحداها بعد الأخرى، ويدل عليه قول أبي بكر لزيد رضي الله عنهما: «فتتبع القرآن فاجمعه» ثم قول زيد: «فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال»[3].

فالمعنى الأول: الجمع في الصدور، والثاني: الجمع في السطور.

---

(١) سورة القيامة الآيات (١٦ ـ ١٩).

(٢) الكشاف ٦٦١/٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٩٨/٦ في كتاب: فضائل القرآن، باب: جمع القرآن.

وإذا نظرنا إلى أشهر أسماء القرآن الكريم، فإننا سنجد فيها اسمين يتصدرانها جميعا:

- اسم «القرآن».
- اسم «الكتاب».

فالاسم الأول إشارة إلى جمعه عن طريق المعنى الأول.

والاسم الثاني إشارة إلى جمعه عن طريق المعنى الثاني.

فروعي في تسميته «قرآناً» كونه متلواً بالألسن، كما روعي في تسميته «كتاباً» كونه مدوناً بالأقلام. فكلتا التسميتين من تسمية الشيء بالمعنى الواقع عليه، وفي تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين، لا في موضع واحد، أعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعا، أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى[(١)].

وقد مر جمع القرآن الكريم بمعنييه بمراحل ثلاث نوجزها في المباحث الثلاث الآتية:

المبحث الأول: جمع القرآن الكريم في عهد النبي ﷺ:

اشتمل الجمع في عهد النبوة على الأمرين معاً حفظه وكتابته:

الأول: جمع القرآن بمعنى حفظه في الصدور على عهد النبي ﷺ:

كان سيِّد الحفاظ وأولهم النبي ﷺ ينزل عليه القرآن مفرقاً فيقرؤه على الناس على مكث أي: تؤدة وتمهل، كي يحفظوا لفظه ويفقهوا معناه كما قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾[(٢)].

(١) انظر: النبأ العظيم ٧، ٩.

(٢) سورة الإسراء الآية (١٠٦).

وكان عليه السلام شديد العناية بحفظه وتلقفه، حتى بلغ من شدة عنايته به وحرصه عليه أنه كان يحرك به لسانه ويستعجل حفظه خشية أن تفلت منه كلمة أو يضيع منه حرف، وما زال كذلك حتى طمأنه ربه ووعده بقوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾[1][2].

وكان جبريل عليه السلام يعارضه بالقرآن في رمضان من كل عام مرة، حتى كان العام الذي توفي فيه الرسول ﷺ عارضه مرتين ـ فكان جبريل عليه السلام يقرأ والنبي يسمع حينا والنبي ﷺ يقرأ وجبريل يسمع[3] ـ.

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها عن فاطمة بنت النبي ﷺ قالت: «أسرّ إليّ النبي ﷺ أن جبريل يعارضني بالقرآن كل سنة، وإنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي»[4].

وأخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن....»[5].

وكان من حرصه الشديد على حفظ القرآن أنه يحيي الليل بتلاوة آيات القرآن في الصلاة، عبادةً وتلاوةً وتدبراً لمعانيه حتى تفطرت قدماه الشريفتان من كثرة القيام امتثالاً لأمر الله القائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ

---

(١) سورة القيامة الآيات (١٦ ـ ١٩).

(٢) انظر: صحيح البخاري ٧٦/٦ كتاب التفسير، تفسير سورة القيامة.

(٣) بمعنى أن جبريل لم يكتف بتبليغ الرسول قرآن ربه، بل كان جبريل يسمعه من النبي حتى يزداد ثبات قلب النبي ﷺ به، وليطمئن جبريل أكثر وأكثر من أن ما في قبله موافق تماما لما استقر عليه آخر الأمر.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ١٠١/٦ في كتاب: فضائل القرآن، باب: كان جبريل يَعْرض القرآن على النبي ﷺ.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ٨١/٤ في كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة.

ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٢﴾ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ﴿٤﴾﴾[1].

العوامل التي ساعدت رسول الله ﷺ على حفظ القرآن:

- ❑ ضمان الله لنبيه جمع القرآن في قلبه ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾[2].
- ❑ إيجاب الله على رسوله تبليغ هذا القرآن لأمته، فحيث وجب عليه التبليغ وجب عليه الحفظ.
- ❑ أمية الرسول ﷺ، ومن شأن الأمي أن يجعل من ذهنه حافظته، ومن عقله سجله.
- ❑ إملاؤه ﷺ على كتبة الوحي، فمن تلقى شيئاً وحفظه ثم أملاه كان ذلك أحفظ له من ذي قبل.
- ❑ تنجيم القرآن حيث ييسر حفظه ومعرفة حِكَمه وأحكامه.
- ❑ تعبده ﷺ بالقرآن في جميع صلواته، فرضا أم نفلا.
- ❑ مدارسة جبريل القرآن للرسول ﷺ.

وأما الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ فقد كانوا يتسابقون إلى تلاوة القرآن الكريم ومدارسته وحفظ لفظه، وكانوا يعلمونه أزواجهم وأولادهم في البيوت، حتى كان الذي يمر في بيوتهم في غسق الدجى يسمع فيه دوياً كدوي النحل بالقرآن، حتى كان النبي ﷺ يمر ببعض دور الأنصار فيقف على بعضهم يستمع القرآن في ظلام الليل.

أخرج البخاري عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال

---

(١) سورة المزمل الآيات (١ ـ ٤).

(٢) سورة القيامة الآيات (١٦ ـ ١٩).

له: لو رأيتني البارحة وأنا أستمع لقراءتك؟ لقد أُعْطيتَ مزماراً من مزامير[١] آل داوود»[٢].

وزاد أبو يعلى فقال أبو موسى: «أما إني يا رسول الله لو علمتُ لحبّرته لك تحبيرا»[٣] أي: زينته.

وأخرج البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إقرأ القرآن في كل شهر، قال عبدالله: قلت إني أجد قوة. قال: فاقرأه في عشرين ليلة، قال: قلت: إني أجد قوة، قال: فاقرأه في سبع ولا تزد على ذلك»[٤].

وأخرج البخاري عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «والله لقد أخذت من فِي رسول الله ﷺ بضعا وسبعين سورة»[٥].

فإذا عجز أحدهم عن تفريغ وقته لتحصيله مباشرة من فم الرسول ﷺ أناب عنه من يحصل عنه.

أخرج البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد ـ وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ

---

(١) قال النووي: المراد بالمزمار هنا الصوت الحسن، شبه حسن الصوت وحلاوة نغمته بصوت المزمار.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ١١٢/٦ في كتاب: فضائل القرآن، باب: حسن الصوت بالقراءة، ومسلم في صحيحه ٥٤٦/١ في كتاب: صلاة المسافرين، باب: استحباب تحسين الصوت بالقرآن.

(٣) أخرجه أبو يعلى في مسنده ١٢٦/٣ حديث رقم ١٢٢٨.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ١١٤/٦ في كتاب: فضائل القرآن، باب: في كم يقرأ القرآن، ومسلم في صحيحه ٨١٤/٢ في كتاب: الصيام، باب: النهي عن صوم يوم الدهر.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ١٠٢/٦ في كتاب: فضائل القرآن، باب: القراء من أصحاب النبي ﷺ.

ينزل يوماً وأنزل يوماً، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك»[١].

ولم يكن هم الصحابة من القراءة مجرد الحفظ من غير تدبر وفهم وإنما المراد الحفظ والفهم.

روي عن أبي عبدالرحمن السلمي قال: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان وعبدالله بن مسعود، وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا عن النبي ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل. قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم، والعمل جميعا»[٢].

وكانت النتيجة لكل هذا أن عدد الحفاظ من الصحابة كان كبيرا، ويكفي أن نعلم أنه قتل منهم يوم بئر معونة سبعون قارئاً، ويوم اليمامة سبعون قارئاً أيضا، غير أن الذين اشتهروا من الصحابة بحفظ القرآن:

الخلفاء الأربعة، وطلحة، وسعد، وحذيفة، وسالم بن معقل مولى أبي حذيفة، وابن مسعود، وابن عمر، وابن عباس، وعمرو بن العاص، وابن الزبير، ومعاوية، وعائشة، وحفصة، وأم سلمه.

كما حفظه من الأنصار:

أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو الدرداء، ومجمع بن جارية، ومسلمة بن مخلد، وأنس بن مالك... وكثيرون غيرهم[٣].

ويمكن القول: إن حفظهم بهذه الأعداد الكبيرة يمثل لوناً من ألوان التوثيق، إلى جانب أن بعضهم ربما قرأ أو عرض ما يحفظه على رسول الله ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٣١/١ في كتاب: العلم، باب: التناوب في العلم.
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان ٣٦/١.
(٣) ذكر هؤلاء أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه «القراءات» ثم قال: «وبعض ما ذكرنا أكثر في القراءة، وأعلى من بعض، وإنما خصصنا بالتسمية كل من وصف بالقراءة، وحُكي عنه منها شيء»، أنظر قوله في المرشد الوجيز ٤١، ٤٢، والنشر ٦/١.

أخرج البخاري من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ـ وقد جعله النبي واحداً من أربعةٍ أمر بأن يؤخذ عنهم القرآن ـ قال: قال لي النبي ﷺ: «اقرأ عليَّ» قلت: أقرأ عليك وعليك أنزل!

قال: فإني أحب أن أسمعه من غيري» فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾[1] قال: «أمسك» فإذا عيناه تذرفان»[2].

شبهة حول حفظ القرآن:

لقد ورد في صحيح البخاري ثلاث روايات تفيد في ظاهرها أن الحفاظ سبعة وهم:

عبدالله بن مسعود، وسالم بن معقل ـ مولى أبي حذيفة ـ، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو زيد بن السكن، وأبو الدرداء.

والـروايـات هــي:

- عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خذوا القرآن من أربعة: من عبدالله بن مسعود، وسالم، ومعاذ، وأبي بن كعب»[3].
- عن قتادة قال: سألت أنس بن مالك: مَنْ جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ؟ فقال: «أربعة، كلهم من الأنصار: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد» قلت: من أبو زيد؟ قال: «أحد عمومتي»[4].

---

(١) سورة النساء الآية (٤١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ١١٤/٦ في كتاب: فضائل القرآن، باب: البكاء عند قراءة القرآن.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ١٠٢/٦ في كتاب: فضائل القرآن، باب: القراء من أصحاب النبي ﷺ.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ١٠٣/٦ في كتاب: فضائل القرآن، باب: القراء من أصحاب النبي ﷺ، وأنظر فتح الباري ٩٦/٧، ٤٦/٩.

❑ عن ثابت البناني وثمامة عن أنس بن مالك قال: «مات النبي ﷺ ولم يَجْمع القرآن غير أربعةٍ: أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد»[1].

وقد حاول بعض المشككين أن يشككوا في تواتر القرآن وأنه لم يحفظه غير هؤلاء، وبالتالي فالقرآن غير متواتر وليس بمحفوظ.

الجواب عنها:

لقد أجاب العلماء عن هذه الأحاديث بالآتي:

❑ أن هذه الأحاديث لا تفيد الحصر، فلا يلزم منها أن يكون غيرهم لم يحفظه، فقد تواترت النصوص في كتب السير والسنن بحفظ الصحابة للقرآن وحرصهم الشديد على مدارسته واستظهاره، كما كان الرسول ﷺ يشجعهم على ذلك، ويختار لهم من يعلمهم إياه، فروي عن عبادة بن الصامت أنه قال: كان الرجل إذا هاجر دفعه النبي ﷺ إلى رجل منا يعلمه القرآن، وكان يُسمع لمسجد رسول الله ﷺ ضجة بتلاوة القرآن حتى أمرهم رسول الله ﷺ أن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا[2].

❑ أن هذا الحصر قد يحمل على أن هؤلاء هم:

❑ الذين جمعوا القرآن كله في صدورهم.

❑ وعرضوه على النبي ﷺ.

❑ واتصلت بنا أسانيدهم.

أما غيرهم من حفظة القرآن ـ وهم كثر ـ فلم يتوافر فيهم هذه الأمور كلها، لا سيما وأن الصحابة تفرقوا في الأمصار وحفظه بعضهم عن بعض.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ١٠٣/٦ في كتاب: فضائل القرآن، باب: القراء من أصحاب النبي ﷺ، وانظر: فتح الباري ٤٨/٩.

(٢) ذكره الزرقاني في مناهل العرفان ١٦٩/١.

ويدل على ذلك أن الذين قتلوا في بئر معونة[١] من الصحابة كان يقال لهم القراء سبعون رجلا، كما قتل يوم اليمامة سبعون من القراء.

- ذهب ابن حجر إلى أن هذا الحصر بالنسبة إلى الخزرج فقط دون الأوس، فلا ينافي أن الكثيرين غيرهم من المهاجرين قد حفظوه، وذلك لأن أنساً قال ذلك في معرض المفاخرة بين الأوس والخزرج، فقد أخرج الطبراني عن أنس قال: افتخر الحيان الأوس والخزرج، فقال الأوس: منا أربعة:

من اهتز له العرش، سعد بن معاذ[٢].

ومن عدلت شهادته شهادة رجلين، خزيمة بن ثابت.

ومن غسلته الملائكة، حنظلة بن عامر.

ومن حمته الدبر[٣]، عاصم بن أبي ثابت.

فقال الخزرج: منا أربعة جمعوا القرآن لم يجمعه غيرهم، فذكرهم»[٤]، ويكون معنى الحديث: ولم يجمعه غيرهم من الأوس، ولم يرد في الحديث نفي ذلك عن المهاجرين.

---

(١) بئر معونة: موضع في بلاد هذيل بين مكة وعسفان، وتعرف هذه الوقعة بـ «سرية القراء» وكانت مع بني رِعْل وذكوان. ووقعت بعد أحد مباشرة. روى البخاري عن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ أتاه: رِعْل وذَكوان وعُصَيَّة وبنو لِحْيان فزعموا أنهم قد أسلموا، واستمدوه على قومهم فأمدّهم النبيُّ ﷺ بسبعين من الأنصار. قال أنس: كنا نسميهم القراء يحطبون بالنهار ويصلون بالليل. فانطلقوا بهم حتى بلغوا بئر معونة غدروا بهم وقتلوهم. فقنت شهراً يدعو عليهم» صحيح البخاري ٥/٤٠. وفي رواية أخرى «فقال القوم والله ما إياكم أردنا إنما نحن مجتازون في حاجة للنبي ﷺ فقتلوهم فدعا النبي ﷺ عليهم شهراً في صلاة الغداة، وذلك بدء القنوت وما كنا نقنت» فتح الباري ٧/٢٩٧.

(٢) عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: اهتز العرش لموت سعد بن معاذ» فتح الباري ٧/٩٣، والمراد باهتزاز العرش: استبشاره وسروره بقدوم روحه.

(٣) جماعة النحل.

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٤/١٠ حديث رقم ٣٤٨٨، وانظر: فتح الباري ٧/٩٣.

- وقال بعض العلماء: إن المراد بالجمع الكتابة والحفظ.

فالمراد: أن هؤلاء جمعوه حفظاً وجمعوه كتابة معاً، والآخرين حفظوه فقط من غير كتابة.

- إن مراد أنس في الحديث الثاني والثالث الحصر الإضافي لا الحقيقي، حيث ذكر في الثاني: أبي بن كعب. وفي الثاني: أبو الدرداء ولا شك أنه صادق في كلتا الروايتين فليس بمعقول أن يكذب نفسه. وأيضاً فإنه لا يمكن الحصر الحقيقي إلا إذا كان أنس قد لقي كل الصحابة وسألهم واحداً واحدا حتى يتم له الاستقراء وهذا أمر مستبعد عادة.

- قال القرطبي: إنما خص أنس الأربعة بالذكر: لشدة تعلقه بهم دون غيرهم. أو لكونهم كانوا في ذهنه دون غيرهم.

- أن هؤلاء قُصدوا لإلقائه وتعليمه فاشتهروا به وخفي حال غيرهم عمن عرف حالهم فحصر ذلك فيهم بحسب علمه، وليس الأمر في نفس الأمر كذلك، أو يكون السبب في خفائهم أنهم خافوا غائلة الرياء والعجب.

- أن أحداً لم يفصح بأنه جمعه بمعنى أنه أكمل حفظه في عهد رسول الله ﷺ إلا أولئك بخلاف غيرهم فلم يفصح بذلك لأن أحداً منهم لم يكمله إلا عند وفاة الرسول ﷺ حين نزلت آخر آية منه. فلعل هذه الآية الأخيرة وما أشبهها ما حضرها إلا أولئك الأربعة ممن جمع جميع القرآن قبلها، وإن كان قد حضرها من لم يجمع غيرها الجمع البين[1].

- وعلى فرض التسليم الجدلي بحديث أنس وعدم تخريجه وتأويله فإنه لا يمنع أن يكون القرآن متواتراً، إذ ليس من شرط التواتر أن يحفظ كل فرد جميع القرآن بل إذا حفظ الكلُّ الكلَّ ولو على التوزيع كفى.

---

(١) انظر فتح الباري ٤٧/٩.

الثاني: جمع القرآن بمعنى كتابته في عهد رسول الله ﷺ:

لم يكتف النبي ﷺ بحفظ القرآن واقرائه لأصحابه وحفظهم له. بل جمع إلى ذلك كتابته وتقييده في السطور، فكان له كُتَّابٌ يكتبون الوحي من أجلاء الصحابة، من هؤلاء:

عثمان بن عفان، علي بن أبي طالب، معاوية بن أبي سفيان، أبي بن كعب، زيد بن ثابت، معاذ بن جبل،... وغيرهم[١]، فكان إذا نزل على النبي ﷺ شيء دعا من يكتب فيأمره بكتابة ما نزل عليه ويرشده إلى موضعه من السورة على حسب ما كان يرشده إليه أمين الوحي جبريل عليه السلام.

كما كان بعض الصحابة يكتبون ما ينزل من القرآن ابتداء من أنفسهم دون أن يأمرهم النبي ﷺ.

طريقة الكتابة:

كان كُتَّاب الوحي يكتبون القرآن فيما تيسر لهم في الرقاع - وهو الغالب -، والعسب، والأكتاف، واللخاف، والأقتاب[٢]... ونحوها، أما الورق فلم يكن مشتهراً عندهم.

روي عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه قال: «كنا على عهد رسول الله ﷺ نؤلف القرآن في الرقاع»[٣] أي: نجمعه في الرقاع.

---

(١) انظر: كُتَّاب الوحي ٦٥.

(٢) الرقاع: جمع رقعة، وقد تكون من جلد أو قماش أو ورق.
العسب: جمع عسيب، وهو جريد النخل، كانوا يكشطون الخوص ويكتبون في الطرف العريض.
الأكتاف: جمع كتف، وهو العظام العريضة من أكتاف الحيوان كالإبل، والبقر، والغنم، كانوا إذا جف كتبوا عليه.
اللِّخاف: جمع لَخْفة وهي الحجارة الرقيقة.
الأقتاب: جمع قتب، وهي الخشب الذي يوضع على ظهر البعير ليركب عليه.
الأديم: الجلد.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/٢٢٩.

مميزات كتابته في عهد النبي ﷺ:

- ❑ أن النبي ﷺ لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى إلا والقرآن كله كان مكتوباً.
- ❑ أنه كان مفرقاً فلم يكن مجتمعاً في مصحف واحد، ولا موجوداً

في مكان واحد، إذ كان مفرقاً لدى الصحابة، وكانوا يعرضون على الرسول ﷺ ما لديهم من القرآن حفظاً وكتابة.

- ❑ أنه لم يكن مرتب السور، لأنه كتب أولاً بأول على حسب نزوله، وترتيب القرآن ليس على حسب النزول بالإجماع.

أما الآيات: فقيل: إنها كانت مفرقة، وقيل: إنها مرتبة.

- ❑ عدم تجانس ما كانوا يكتبون فيه، حيث كتبوه في أشياء مختلفة كالعسب واللخاف، والرقاع وغيرهم.
- ❑ أنه كان خالياً من النقط والشكل، ليكون شاملاً للأحرف السبعة، حتى يتسنى تيسير قراءة القرآن لجميع أفراد الأمة.

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه إذا نزلت عليه آية

أمر من يكتب له الوحي أن يضعها في موضع كذا من سورة كذا.

السبب في كتابة القرآن في عهد النبي ﷺ:

- ❑ معاضده المكتوب للمحفوظ لتتوفر للقرآن كل عوامل الحفظ والبقاء، ولذا كان المعول عليه عند الجمع: الحفظ، والكتابة.
- ❑ تبليغ الوحي على الوجه الأكمل، لأن الاعتماد على حفظ الصحابة فحسب غير كاف، لأنهم عرضة للنسيان أو الموت، أما الكتابة

فباقية لا تزول.

السبب في عدم جمع القرآن في مصحف إمام:

- ❑ ما كان يترقبه النبي ﷺ من تتابع نزول الوحي، ونزول بعض آيات ناسخه لبعض أحكامه وألفاظه.

- ترتيب آيات القرآن وسوره لم يكن على حسب النزول فقد تنزل الآية أو السورة بعد آية أو سورة ويكون ترتيبها قبلها.

فلو جمع القرآن كله بين دفتي مصحف واحد لأدى هذا إلى التغيير والكشط والمحو كلما نزل شيء من الوحي.

وبهذا يفسر ما روي عن زيد بن ثابت أنه قال: «قبض النبي ﷺ ولم يكن القرآن جمع في شيء»[١]، أي: لم يكن جمع مرتب الآيات والسور في مصحف واحد.

- أن المدة بين نزول آخر ما نزل من القرآن وبين وفاته ﷺ قصيرة جداً، لا يمكن جمعه قبل تكامل النزول.

- أنه لم يوجد من دواعي الجمع في مصحف واحد مثل ما وجد في عهد أبي بكر، فقد كان المسلمون في عهد النبي ﷺ بخير، والقراء كثيرون، والفتنة مأمونة، بخلاف ما حصل في عهد أبي بكر من مقتل الحفاظ حتى خاف على ضياع القرآن.

المبحث الثاني: جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ:

لما تولى أبو بكر الصديق الخلافة بعد وفاة الرسول ﷺ كان أول عمل قام به محاربة أهل الردة بالقضاء على هذه الفتنة، وكانت موقعة اليمامة سنة ثنتي عشرة للهجرة تضم عدداً كبيراً من الصحابة القراء، فاستشهد في هذه الغزوة سبعون قارئاً[٢] من الصحابة، فهال ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ودخل على أبي بكر، وأشار عليه بجمع القرآن وكتابته في مصحف واحد خشية الضياع لأن القتل قد استحر ـ أي كثر ـ يوم اليمامة بالقراء ويخشى أن يستحرَّ بهم في المواطن الأخرى فيضيع القرآن وينسى، فتردد أبو بكر في أول الأمر، ولكن لم يزل به عمر حتى

---

(١) ذكره ابن حجر في فتح الباري ٩/٩ بسنده عن الديرعاقولى في فوائده.

(٢) أوصلهم ابن كثير إلى خمسمائة، وذكر ابن الأثير أنه قتل من المهاجرين والأنصار من المحدثين ٣٦٠، ومن خارج المدينة ٣٠٠.

شرح الله صدر أبي بكر لهذا الأمر، ثم أرسل إلى زيد بن ثابت وقص عليه قول عمر، فنفر زيد من ذلك كما نفر أبو بكر من قبل وتراجعا حتى طابت نفس زيد للكتابة. وبدأ في مهمته الشاقة بجمع القرآن الكريم في صحف.

فتكون دواعي الجمع في عهد أبي بكر:

- ❏ مقتل الكثير من القراء الحفاظ.
- ❏ استقرار الأمر بختام التنزيل بوفاة الرسول ﷺ.
- ❏ معرفة ترتيبه باكتمال نزوله، وأمن النسخ.

سبب تردد أبي بكر الصديق عن جمع القرآن:

يمكن تلخيص السبب في نقطتين:

- ❏ إن أبا بكر رضي الله عنه خشي أن يتساهل الناس في استظهار القرآن وحفظه غيبا، ويعتمدوا على وجوده في المصاحف فتضعف نفوسهم عن الحفظ.
- ❏ أنه رضي الله عنه خشي أن يكون بعمله هذا مبتدعاً شيئاً لا يحبه رسول الله، ولهذا قال لعمر: «كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله؟»[١].

لكنه لما رأى الأمرَ خطيراً، والفكرةَ وسيلة إلى حفظ كتاب الله والمحافظة عليه من الضياع، وأنها ليست من البدع المستحدثة عزم على جمع القرآن.

وإنما لم يكن من البدع المستحدثة، لأنه مستمد من القواعد التي وضعها الرسول ﷺ بتشريع كتابة القرآن، واتخاذ كتاب يكتبون له الوحي المنزل.

---

(١) من الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه ٦/٩٨ في كتاب: فضائل القرآن، باب: جمع القرآن.

سبب اختيار زيد بن ثابت لهذه المهمة:

تم تكليف زيد بن ثابت بجمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق ﷺ لعدة أمور هي:

- ❑ لمكانته في القراءة والكتابة.
- ❑ ولكونه كان يكتب الوحي، فيكون أكثر ممارسة له.
- ❑ لشهوده العرضة الأخيرة للقرآن، وأحد حفاظه.
- ❑ لكونه شاباً، فيكون أنشط لما يطلب منه.
- ❑ لكونه عاقلاً فيكون أوعى له.
- ❑ لكونه لا يتهم فتركن النفس إليه.

ويشير إلى هذه الأمور أبو بكر ﷺ حين كلفه بهذه المهمة إذ قال له: «إنك شاب، عاقل، لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه».

ومن شدة ورع زيد ﷺ أنه قال: «فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقلَ عليّ مما أمرني به».

طريقة زيد في جمع القرآن في عهد أبي بكر:

- ❑ لم يكتف زيد بن ثابت ﷺ بما حفظ في قبله، ولا بما كتب بيده، ولا بما سمع بأذنه، بل جعل يتتبع ويستقصي، فاعتمد في جمعه على مصدرين ـ زيادة على ما كان عنده ـ وهما:
- ❑ ما كان محفوظاً في صدور الرجال.
- ❑ ما كتب بين يدي رسول الله ﷺ.

فلا بد أن يتظافر الأمران: الحفظ، والكتابة.

وبلغ من شدة حرصه أنه كان لا يقبل شيئاً من المكتوب حتى يشهد شاهدان عدلان أنه كتب بين يدي الرسول ﷺ، يدل على ذلك ما رواه ابن

أبي داوود في المصاحف قال يحيى بن عبدالرحمن بن حاطب: «قدم عمر فقال: من كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئاً من القرآن فليأت به. وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعسب، وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شهيدان»[١].

وأخرج ابن أبي داوود من طريق هشام بن عروة عن أبيه أن أبا بكر قال لعمر ولزيد: اقعدا على باب المسجد، فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه»[٢].

- ❏ استيثاقه مما يكتبه غاية الاستيثاق، وأنه مما ثبت في العرضة الأخيرة، وأنه لم تنسخ تلاوته.

مميزات جمع القرآن في عهد أبي بكر:

- ❏ أنه جمع في مصحف واحد مرتب الآيات والسور.
- ❏ أنه اقتصر فيه على ما لم تنسخ تلاوته، وجرد من كل ما ليس بقرآن.
- ❏ أنه لم يقبل فيه إلا ما أجمع الجميع على أنه قرآن وتواترت روايته.
- ❏ شموله للأحرف السبعة التي نزل بها القرآن.

وهذه المميزات لم تتوفر في غير مصحف أو صحف أبي بكر فهي الأصلية الموثوق بها، وإلا فقد كانت محاولات فردية من بعض الصحابة حيث جمعوا صحفاً مكتوباً فيها القرآن، إلا أنها لم تحض بما حضيت به صحف أبي بكر، إذ كان بعضهم يكتب المنسوخ، وما ثبت برواية الآحاد، وبعض التفسيرات لبعض الآيات، وبعض الأدعية والمأثورات.

ومن هذه الصحف:

صحف أبي بن كعب، وابن مسعود، وأبو موسى الأشعري، والمقداد بن عمرو.

---

(١) كتاب «المصاحف» ١٠.

(٢) كتاب المصاحف ٦، وانظر: الإتقان ٢٠٥/١.

مكانة هذا الجمع:

ظفر هذا الجمع باتفاق الصحابة ـ ﭫ ـ على صحته ودقته، وأجمعوا على سلامته من الزيادة أو النقصان، وتلقوه بالقبول والعناية، حتى قال علي بن أبي طالب ـ ﭬ ـ: «أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر، فإنه أول من جمع ما بين اللوحين»[(١)].

تسميته بالمصحف:

تسمية القرآن بالمصحف أطلقت بعد أن أتم زيد جمع القرآن، فقد روى السيوطي عن ابن أشته في كتابه المصاحف أنهم ائتمروا ما يسمونه؟ فقال بعضهم: سموه السّفْر، وقال بعضهم: المصحف، فإن الحبشة يسمونه المصحف، فاجتمع رأيهم على أن يسموه المصحف، وكان أبو بكر أول من جمع كتاب الله، وسماه المصحف[(٢)].

معنى المصحف:

المصحف في الاصطلاح: مجموعة صحائف القرآن مرتبة الآيات والسور على الوجه الذي تلقته الأمة من النبي ﷺ.

الفرق بين المصحف والقرآن:

أن المصحف اسم لمجموع الصحائف المدوَّن فيها القرآن أما القرآن فهو الألفاظ ذاتها.

ويلاحظ أن المصحف يجمع على مصاحف، بينما القرآن لا يجمع لأنه مصدر.

خبر هذا المصحف:

بعد أن أتم زيد جمع القرآن في المصحف سلمه إلى أبي بكر الصديق ﭬ فحفظه عنده حتى توفي سنة (١٣هـ)، ثم صار بعده إلى أمير

---

(١) المصاحف لابن أبي داوود ص ١١.

(٢) انظر قوله في الإتقان ١/٢٠٥.

المؤمنين من بعده عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وضل عنده حتى توفي سنة (٢٣هـ) وبعد وفاته صار عند حفصة بنت عمر أم المؤمنين رضي الله عنها، لأن عمر رضي الله عنه جعل أمر الخلافة من بعده شورى، فبقي عندها إلى أن طلبه عثمان بن عفان رضي الله عنه لنسخه، ثم أعاده إليها، وبقي عندها حتى أرسل مروان بن الحكم[١] يسألها إياه فامتنعت، ولما توفيت أرسل مروان إلى أخيها عبدالله بن عمر رضي الله عنهما - ساعة رجعوا من جنازة حفصة - ليُرْسِلَنّ إليه بتلك الصحف، فأرسل بها إليه، فأمر بها مروان فشققت فقال مروان: «إنما فعلت هذا، لأن ما فيها قد كتب وحفظ بالمصحف فخشيت إن طال بالناس زمان أن يَرْتاب في شأن هذه الصحف مرتاب، أو يقول: إنه قد كان شيء منها لم يكتب»[٢].

المبحث الثالث: جمع القرآن في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه:

بعد أن اتسعت الفتوحات الإسلامية وتفرق القراء في الأمصار، وأخذ كل مصر القراءة عمن وفد إليهم من الصحابة، وكان كل صحابي يعلم بالحرف الذي تلقاه من الأحرف السبعة التي نزلت على رسول الله ﷺ.

فكان أهل الشام يقرؤن بقراءة أبي بن كعب رضي الله عنه.

وأهل العراق يقرؤن بقراءة عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

وغيرهم يقرؤون بقراءة أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

فكان بينهم اختلاف في حروف الأداء، ووجوه القراءات فكان إذا ضمهم مجمع أو موطن من مواطن الغزو عجب البعض من وجود هذا الاختلاف حتى كاد الأمر يصل إلى النزاع والشقاق بينهم وإنكار بعضهم على بعض، وخاصة من الذين لم يسمعوا من النبي ﷺ مباشرة القراءات القرآنية.

---

(١) مروان بن الحكم: قام بالشام بعد بيعة ابن الزبير بأشهر، فبايعه جماعة من أهل الشام سنة (٦٤هـ) ثم مات في رمضان سنة (٦٥هـ) فكانت ولايته تسعة أشهر وثمانية وعشرين يوماً، وتولى بعده ابنه عبدالملك بن مروان، تلقيح فهوم أهل الأثر لابن الجوزي ٨٥.

(٢) المرشد الوجيز ٥٢، تاريخ القرآن للأبياري ٨٨، ٨٩.

وفي سنة (٢٥هـ) اجتمع أهل الشام وأهل العراق لفتح «أرمينية، وأذربيجان»، وكان ممن شارك فيه حذيفة بن اليمان المتوفى سنة (٣٦هـ)، فرأى اختلافاً كثيراً بين المسلمين في وجوه القراءة، وسمع ما كان يحصل بينهم من تجريح وتأثيم بعضهم البعض، وأفزعه هذا الأمر وقال: «والله لأركبن إلى أمير المؤمنين»، وكان عثمان قد رأى نحو هذا في المدينة فقد كان المعلِّم يُعَلِّم بقراءة، والمعلم الآخر يعلم بقراءة، فجعل الصبيان يلتقون فينكر بعضهم قراءة الآخر، فبلغ ذلك عثمان رضي الله عنه فقام خطيباً وقال: «أنتم عندي تختلفون فيه فتلحنون، فمن نأى عني من الأمصار أشد فيه اختلافا وأشد لحنا، اجتمعوا يا أصحاب محمد، واكتبوا للناس إماما»[1].

ولما جاء حذيفة إلى عثمان رضي الله عنه وأخبره بما رأى تحقّق عند عثمان ما توقعه.

روى البخاري قصة هذا الجمع في الحديث الذي رواه أنس بن مالك رضي الله عنه حيث قال: «إن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان، وكان يغازي أهل الشام في فتح «أرمينية، وأذربيجان» مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى.

فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف نَنْسَخُها في المصاحف ثم نردُّها إليكِ فأرسلت بها حفصة إلى عثمان. فأمر: زيد بن ثابت، وعبدالله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام. فنسخوها في المصاحف وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: «إذا اختلفتم أنتم وزيدُ بن ثابتٍ في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم» ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق»[2].

(١) المصاحف لابن أبي داوود ص ٢١.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٦٦/٦ في كتاب: فضائل القرآن، باب: جمع القرآن.

فكرة الجمع:

لما سمع عثمان ﷺ ما سمع، وأخبره حذيفة بما رآه، جمع ﷺ أعلام الصحابة واستشارهم في علاج هذه الفتنة وذلك الاختلاف فأجمعوا أمرهم على ثلاثة أمور:

- ❑ أن تنسخ الصحف الأولى التي جمعها زيد بن ثابت في عهد أبي بكر الصديق في مصاحف متعددة.
- ❑ أن ترسل نسخة إلى كل مصر من الأمصار فتكون مرجعاً للناس عند الاختلاف، منه يَقْرؤن ويُقْرئون، وإليه يحتكمون.
- ❑ أن يحرق ما عدا هذه النسخ.

ثم شرع عثمان ﷺ بتنفيذ هذا القرار وكان ذلك في أواخر سنة (٢٤هـ) وأوائل سنة (٢٥هـ)[١] فعهد إلى أربعة من خيرة الصحابة وثقات الحفاظ وهم:

- ❑ زيد بن ثابت، وهو من الأنصار، ومن كتاب الوحي، وهو الذي قام بجمع القرآن في عهد أبي بكر، المتوفى سنة (٤٥هـ).
- ❑ عبدالله بن الزبير، المتوفى سنة (٧٣هـ).
- ❑ سعيد بن العاص، المتوفى سنة (٥٨هـ).
- ❑ عبدالرحمن بن الحارث بن هشام، المتوفى سنة (٤٣هـ).

وهؤلاء الثلاثة قرشيون، وكان نصيبهم كبيراً لأن القرآن نزل بلغة قريش.

الأمور التي اتبعوها في كتابة المصحف:

- ❑ اعتبار الصحف التي جمعها «زيد بن ثابت» في عهد أبي بكر ﷺ إحدى المصادر الأساسية في النسخ، حيث جعلت هي الأصل، ثم استعملت «اللجنة» كل ما أمكنها من وسائل التثبت والاستيثاق.
- ❑ جردت المصاحف مما ليس قرآنا كالشروح والتفاسير التي كان يثبتها بعض الصحابة على مصاحفهم.

---

(١) فتح الباري ٩/١٧.

- عدم كتابتهم لشيء إلا بعد عرضه على مشاهير الصحابة، وسؤالهم عن كيفية القراءة به، لا عن قرآنيته فإن ذلك عرف في جمع أبي بكر، لأنه رضي الله عنه أراد أن تكتب المصاحف في مجموعها على جميع القراءات التي قرأها الرسول ﷺ، ليقضي على الفتنة التي حدثت بين المسلمين، بسبب جهلهم هذه القراءات.

الصفة التي كتب عليها المصحف:

كتب القرآن في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه بشكل يجمع القراءات الثابتة التي نزل بها القرآن، مما ثبت من الأحرف السبعة في العرضة الأخيرة وإلغاء ما لم يثبت، على أن يكتب بدون تكرار للكلمات، واتفقوا على رسم الكلمات التي بها عدة أوجه بطريقة يجعلها محتملة لأن تقرأ بكل تلك الأوجه، وقد ساعد على ذلك عدم التشكيل، وعدم التنقيط في ذلك الوقت، وقد جاءت كتابتهم للكلمات التي بها أكثر من وجه على ثلاثة طرق:

الأول: الكلمات التي اشتملت على أكثر من قراءة، وخلوها من النقط والشكل يجعلها محتملة لما اشتملت عليه من قراءات ـ كتبوها برسم واحد في جميع المصاحف مثل:

- ﴿يَعْمَلُونَ﴾ بالياء والتاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾[1]، قرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم بالتاء، وقرأ الباقون بالياء[2].

- ﴿تَعْلَمُونَ﴾ بالياء والتاء في قوله تعالى: ﴿فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾[3] قرأ عاصم في رواية أبي بكر بالياء، وقرأ الباقون بالتاء[4].

---

(١) سورة هود الآية (١٢٣).
(٢) السبعة ص ٣٤٠.
(٣) سورة الأعراف الآية (٣٨).
(٤) السبعة ص ٢٨٠.

- ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ و ﴿فتثبتوا﴾ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾(١) قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ وقرأ حمزة والكسائي ﴿فتثبتوا﴾(٢).
- ﴿نُنشِزُهَا﴾ و ﴿ننشرها﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ﴾(٣)، قرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي ﴿نُنشِزُهَا﴾ وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ﴿ننشرها﴾(٤).
- و﴿ضَعۡفٖ﴾ و﴿ضُعْف﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ ٥٤﴾(٥) فقرأ عاصم وحمزة بفتح الضاد فيهن كلهن، وقرأ الباقون بضم الضاد فيهن كلهن(٦).

وروي عن حفص القراءة بالوجهين، لكن القراءة بالفتح هي روايته عن عاصم.

الثاني: أنهم غيروا في إملاء الخط بما يجعل طريقة الخط فيها سعة واحتمال كلما أمكن ذلك مثل:

- حذفهم للألف في بعض الكلمات التي فيها أكثر من قراءة وذلك لكي تحتمل الكلمة بصورة خطها قراءتها بالألف، لأن العرب تقدر الألف في النطق وإن لم تكتب في الخط، ومثال ذلك:

أ - ﴿مالك﴾ كتبوها ﴿مَٰلِكِ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾(٧)

---

(١) سورة الحجرات الآية (٦).
(٢) السبعة (٦٣٦).
(٣) سورة البقرة الآية (٢٥٩).
(٤) السبعة ١٨٩، ننشزها: أي: نرفع بعضها على بعض في التركيب للإحياء. ننشرها: من النشور وهو الإحياء.
(٥) سورة الروم الآية (٥٤).
(٦) السبعة ٥٠٨.
(٧) سورة الفاتحة الآية (٤).

لأن فيها قراءتين، فقرأ عاصم والكسائي ﴿مالك﴾ بألف أي: المختص بالملك، وقرأ الباقون ﴿مَلِكِ﴾ بمعنى السيد والرب.

ب - ﴿غيابات﴾ كتبوها ﴿غَيَٰبَتِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾[1]، قرأ نافع ﴿غيابات﴾ بالجمع أي: ألقوه فيما غاب عن النظر من الجب، وقرأ الباقون ﴿غيابت﴾ بإفراد لأن يوسف لم يلق إلا في غيابة واحدة.

جـ - ﴿رسالاتي﴾ كتبوها ﴿بِرِسَٰلَٰتِي﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾[2]، قرأ ابن كثير ونافع ﴿برسالتي﴾ الباقون ﴿برسالاتي﴾ بالجمع.

د - ﴿جمالات﴾ كتبوها ﴿جِمَٰلَتٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾[3] قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿جمالت﴾ جمع جمل، أي: الشرر المتطاير من النار كالقصر في عظمها وارتفاعها، وكالجمل في هيئتها ولونها، وقرأ الباقون ﴿جمالات﴾ جمع جمالة جمع الجمع.

❑ المواضع التي يجوز القراءة فيها بالسين والصاد كتبوها بالصاد، لأنه في لغة العرب يجوز قلب السين صاداً ولا يجوز العكس، ولو كتبت بالسين لامتنع قراءتها بالصاد، مثال ذلك:

أ - ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾[4] قرأ ابن كثير ﴿السراط﴾، وقرأ الباقون ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾.

ب - ﴿بِمُصَيْطِرٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾[5] قرأ ابن

---

(١) سورة يوسف الآية (١٠).
(٢) سورة الأعراف الآية (١٤٤).
(٣) سورة المرسلات الآيتان (٣٢، ٣٣).
(٤) سورة الفاتحة الآية (٦).
(٥) سورة الغاشية الآية (٢٢).

كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم ﴿بمسيطر﴾، وقرأ ابن عامر ﴿بمسيطر﴾ بالسين، وقرأ حمزة بين الصاد والزاي.

الثالث: الكلمات التي ورد فيها أكثر من قراءة، وتجريدها من النقط والشكل لا يجعلها محتملة لما ورد فيها من القراءات فلم يكتبوها برسم واحد في جميع المصاحف، بل كتبوها في بعض المصاحف برسم يدل على قراءة، وفي مصاحف أخرى برسم يدل على القراءة الأخرى مثل:

أ - قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾[1] كتب في مصحف أهل العراق ﴿وَوَصَّىٰ﴾ وفي مصحف أهل المدينة وأهل الشام ﴿وأوصى﴾ وهما قراءتان: قرأها بالألف نافع وابن عامر، وبدون الألف الباقون.

ب - قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[2] كتبت في مصحف أهل العراق ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾ وفي مصحف أهل المدينة والشام ﴿سارعوا﴾ وهما قراءتان: قرأها بغير واو نافع وابن عامر، والباقون بالواو.

جـ - قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[3] كتب في مصحف أهل العراق: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ وفي مصحف أهل المدينة والشام بغير ﴿هُوَ﴾ وهما قراءتان: قرأ نافع وابن عامر بدون ﴿هُوَ﴾ وقرأ الباقون بها[4].

المصاحف العثمانية والأحرف السبعة:

اختلف العلماء هل المصاحف العثمانية التي كتبت في عهد عثمان بن عفان ﷺ مشتملة على الأحرف السبعة أو لا؟ على ثلاثة أقوال موضع بيانها في موضوع «الأحرف السبعة».

(١) سورة البقرة الآية (١٣٢).
(٢) سورة آل عمران الآية (١٣٣).
(٣) سورة الحديد الآية (٢٤)
(٤) انظر: المقنع في رسم المصاحف للداني، وفي رحاب القرآن لمحيسن ١/١٥٣، ومعجم القراءات القرآنية ١/٤٥.

والـراجـح فـيـه:

أن المصاحف العثمانية تعتبر متضمنة القراءات القرآنية التي ثبتت في العرضة الأخيرة، وأنها لم تكن محتوية على جميع الأحرف السبعة التي أبيحت بها قراءة القرآن، لأن بعض أفراد الأحرف السبعة نسخت تلاوته في العرضة الأخيرة فلم يقرىء به رسول الله ﷺ بعدها فلا يعتبر بعد ذلك قرآنا، ولذا لم يكتب في المصاحف العثمانية.

عدد المصاحف العثمانية:

اختلف العلماء في عدد المصاحف التي أرسلها عثمان إلى الآفاق:

- ❑ قيل إنها سبع نسخ أرسلت إلى: مكة، والشام، والبصرة، والكوفة، واليمن، والبحرين، والمدينة[١].
- ❑ وقيل إنها خمس نسخ، قال السيوطي: وهو المشهور[٢] وأرسلت إلى الشام، والبصرة، والكوفة، ومكة، والمدينة.
- ❑ وقال أبو عمرو الداني «أكثر العلماء على أن عثمان لما كتب المصحف جعله على أربع نسخ»[٣] وهي الخمسة السابقة ما عدا مكة.

ولم يكتف عثمان ؓ بتوجيه هذه المصاحف إلى هذه البلاد، وإنما اختار حفاظاً يثق بهم فأرسلهم إلى تلك الأمصار ليُقْرِؤا أهل البلد المرسل إليهم مع ملاحظة أن تكون قراءته موافقة لخط المصحف:

- ❑ فأمر زيد بن ثابت أن يُقرىء بالمصحف المدني.
- ❑ وبعث عبدالله بن السائب المتوفى سنة (٧٠هـ)مع المصحف المكي.
- ❑ وبعث المغيرة بن شهاب المتوفى سنة (٩١هـ) مع المصحف الشامي.

---

(١) المصاحف ٤٣.

(٢) الإتقان ١/٦٠.

(٣) المقنع ٩.

- وبعث أبا عبدالرحمن السلمي المتوفى سنة (٧٢هـ) مع المصحف الكوفي.
- وبعث عامر بن قيس مع المصحف البصري.

ويقال لهذه المصاحف «الأئمة» وليست مكتوبة بخط عثمان، وإنما يقال لها المصاحف العثمانية نسبة إلى أمره وزمانه وأمارته.

خبر هذه المصاحف:

ذكر بعض المؤرخين القدامى رؤيتهم لبعض هذه المصاحف ومن هؤلاء: ابن جبير المتوفى سنة (٦١٤هـ) في رحلته حيث أشار إلى أنه زار جامع دمشق ورأى في الركن الشرقي من المقصورة الحديثة في المحراب خزانة كبيرة فيها مصحف من مصاحف عثمان وهو الذي أرسله إلى الشام(١)، كما رآه ابن بطوطة وأشار إلى ذلك في رحلته إلى الشام(٢).

كما رأى النسخة نفسها ابن كثير المتوفى سنة (٧٧٤هـ) حيث قال: «وأما المصاحف العثمانية الأئمة فأشهرها اليوم الذي في الشام بجامع دمشق ـ عند الركن، شرقي المقصورة المعمورة بذكر الله ـ وقد كان قديما في طبريَّه، ثم نقل منها إلى دمشق في حدود ثمان عشرة وخمسمائة (٥١٨هـ)، وقد رأيته كتاباً جليلاً عظيماً ضخماً بخط حسن مبين قوي بحبر محكم في رق أظنه من جلود الإبل والله أعلم»(٣).

واستمر هذا المصحف محفوظاً في الجامع الأموي إلى أوائل القرن الرابع عشر الهجري ثم فقد هذا المصحف: فبعضهم يرى أنه احترق عندما احترق الجامع الأموي يقول محمد كرد علي في حديثه عن الجامع الأموي: «حتى إذا كانت سنة (١٣١٠هـ) سرت النار إلى جذوع سقفه

---

(١) رحلة ابن جبير ٢١٧.
(٢) رحلة ابن بطوطة ٥٤/١.
(٣) فضائل القرآن لابن كثير ٤٩.

فالتهمتها في أقل من ثلاث ساعات، فدثر آخر ما بقي من آثاره ورياشه، وحرق فيه مصحف كبير بالخط الكوفي، كان جيء به من مسجد عتيق في بصرى، وكان الناس يقولون: إنه المصحف العثماني»[١].

وبعضهم يرى أنه نقل إلى انجلترا[٢].

ويوجد الآن مصاحف أثرية في مصر يقال إنها مصاحف عثمانية ـ في المسجد الحسيني، ودار الكتب المصرية ـ ولكن يستبعد ذلك لوجود زركشة وزينة ونقوش فاصلة بين السور، وعلامات لبيان أعشار القرآن، ولا شك أن المصاحف العثمانية كانت خالية من كل هذا ومن النقط والشكل[٣].

وعلى أي حال فإن فقد هذه المصاحف لا يقلل من ثقتنا بما تواتر واستفاض نقله من المصاحف ثقة عن ثقة وإماماً عن إمام وسواء وجدت هذه المصاحف أم لم توجد فإنا على يقين بسلامة القرآن الكريم من الزيادة أو النقصان[٤].

الفرق بين الجمع في العهود الثلاثة:

❑ أن المراد بجمع القرآن الكريم في عهد الرسول ﷺ كتابته وتدوينه.

وجمعه في عهد أبي بكر الصديق: جمعه في مصحف واحد.

وجمعه في عهد عثمان بن عفان: نسخة في مصاحف متعددة، بمعنى: أن أبا بكر جمع القرآن كتابة بعد أن كان مفرقاً.

أما عثمان فلم يجمعه من تفريق، وإنما نسخه من مصحف منسوخ مجموع في مكان واحد.

❑ أن سبب الجمع في عهد الرسول ﷺ: لمجرد كتابته وحفظه.

---

(١) خطط الشام لمحمد كرد علي ٥/٢٦٢.
(٢) مباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح ٨٨.
(٣) مناهل العرفان ١/٣٩٧.
(٤) انظر: مدخل إلى القرآن لدراز ٤٠.

وفي عهد أبي بكر خشية أن يذهب من القرآن شيء بذهاب حملته حين كثر القتل بالقراء.

وفي عهد عثمان لما كثر الاختلاف في وجوه القراءة فأراد حسم هذا الخلاف بجمعهم على مصحف واحد.

❑ ترتيب السور كتابة: ففي عهد النبي ﷺ لم تكن مرتبة كتابة، وفي عهد أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما فقد كانت مرتبة في جمعهما.

❑ تجريد الكتابة من المنسوخ تلاوة:

قدر مشترك في كل العهود الثلاثة:

ففي العهد النبوي: لئلا يلتبس الناسخ بالمنسوخ.

وفي عهد أبي بكر: فلأن نزول القرآن الكريم قد تم.

وفي عهد عثمان: فلأن المصاحف نسخت من مصحف أبي بكر التي كانت خالية من كل شيء سوى القرآن.

❑ كتابة القرآن في مكان واحد:

في عهد النبي ﷺ كان غير مجموع في موضع واحد.

وفي عهد أبي بكر وعثمان كتب في مكان واحد.

❑ تجريد الكتابة من النقط والشكل:

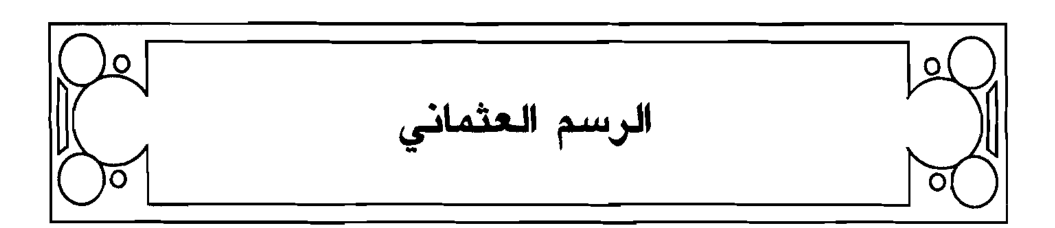
قدر مشترك في العهود الثلاثة، لعدم وجودها ذلك الوقت، وأفادت في كتابة القرآن الكريم بشكل يجمع القراءات المتعددة.

❑ ترتيب الآيات في سورها:

قدر مشترك في العهود الثلاثة إلا أنه في عهد النبي ﷺ لم يكن يربطها رابط واحد، لعدم تجانس الأشياء المكتوبة فيها.

❀ ❀ ❀

الموضوع العاشر



الرسم العثماني

١ ـ تعريفات:

الرسم:

أصله الأثر، والمراد أثر الكتابة في اللفظ، وهو تصوير الكلمة بحروف هجائها بتقدير الابتداء بها والوقوف عليها.

العثماني:

نسبة على عثمان بن عفان رضي الله عنه الذي جمع القرآن الكريم وأجمع عليه الصحابة.

الرسم العثماني:

هو الوضع الذي ارتضاه عثمان بن عفان رضي الله عنه في كتابة كلمات القرآن وحروفه(١).

علم الرسم العثماني:

علم تعرف به مخالفات خط المصاحف العثمانية لأصول الرسم القياسي، وأكثره موافق لقواعد الرسم القياسي إلا أنه خالفه في أشياء.

---

(١) رسم المصحف العثماني لعبدالفتاح شلبي ٩.

٢ ـ أنـواع الـرسـم:

ينقسم الرسم إلى قسمين:

الأول: الرسم القياسي أي الإملائي وهو تصوير اللفظ أو كتابة الكلمة بصورة لفظها بتقدير الابتداء بها والوقوف عليها، بمعنى: أن يُطابِق المكتوب المنطوق به في ذوات الحروف وعددها، إلا أسماء الحروف فإنه يجب الاقتصار في كتابتها على أول الكلمة نحو: ق، ن، ص، ج، وكان القياس أن تكتب هكذا: قاف... فكتبت مقتصراً على أوائلها فخالفت الكتابة فيها النطق.

الثاني: الرسم العثماني: ويقال له الرسم الاصطلاحي نسبة إلى اصطلاح الصحابة عليه(١).

٣ ـ عناية العلماء بالرسم العثماني:

عنى العلماء بالتأليف في الرسم العثماني سواء من المتقدمين أم من المتأخرين ومنهم:

- أبو حاتم السجستاني المتوفى سنة (٢٤٨هـ) في كتابه «رسم القرآن».
- أبو عمرو الداني المتوفى سنة (٤٤٤هـ) في كتابه: «المقنع في معرفة مرسوم مصاحف الأمصار» وهو مطبوع بتحقيق: محمد دهمان.
- أبو عبدالله الشريسي المعروف بالخراز، المتوفى سنة (٧١٨هـ) في كتابه «مورد الضمآن في رسم وضبط القرآن».
- أبو العباس أحمد بن محمد الأزدي المراكشي المعروف بـ: ابن البناء المتوفى سنة (٧٢١هـ) في كتابه: «عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل».
- علي محمد الضباع في كتابه: «سمير الطالبين في رسم وضبط الكتاب المبين» مطبوع.

---

(١) جامع البيان في معرفة رسم القرآن ٧، ٨.

- ❑ محمد خلف الحسيني، الذي شرح أرجوزة المتولي وسماه «مرشد الحيران إلى معرفة ما يجب اتباعه في رسم القرآن».
- ❑ غانم قدوري الحمد في كتابه «رسم المصحف: دراسة لغوية تاريخية».

٤ ـ الصفة التي كان عليها الرسم العثماني:

يمكن تلخيص الصفة التي كان عليها الرسم العثماني في عهد عثمان رضي الله عنه في نقطتين:

الأولى: أن له إملاءً خاصاً به لخصها بعض العلماء في ست قواعد:

- ❑ الحذف، مثل حذف الألف من: ياء النداء في: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ ومن: هاء التنبيه في ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾(١).
- ❑ الزيادة، أي إثبات حرف في كلمة لا يقرأ وصلاً ولا وقفاً، والأحرف التي تزاد: الألف والواو والياء، مثل زيادة الألف بعد آخر اسم مجموع مثل ﴿بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾(٢)، وزيادة الياء في نحو ﴿وَمِنْ ءَانَآىِٕ ٱلَّيْلِ﴾(٣)، ﴿وَإِيتَآىِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾(٤)، وزيادة الواو في نحو ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى﴾(٥).
- ❑ الهمزة، فلها وضع خاص في كتابتها(٦) حسب وضعها إما في أول الكلمة أو وسطها أو طرفها.

---

(١) سورة محمد الآية (٣٨).

(٢) الآية (٩٠) من سورة يونس ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

(٣) الآية (١٣٠) من سورة طه ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآىِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾.

(٤) الآية (٩٠) من سورة النحل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآىِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

(٥) سورة الأنبياء الآية (٣٧).

(٦) فالهمزة إذا كانت ساكنة تكتب بحرف حركة ما قبلها نحو: ائْذن في ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾ التوبة: (٤٩).

- ❑ البدل، مثل أن تكتب الألف واواً للتفخيم مثل: ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ و﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾ و﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾ و﴿ٱلرِّبَوٰاْ﴾ و﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ و﴿وَمَنَوٰةَ﴾ وإذا أضيفت كتبت على القواعد الهجائية ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ إلا ما استثني. وكتبت هاء التأنيث على خلاف الأصل «تاء» مثل: ﴿رَحْمَتَ﴾ و﴿نِعْمَتَ﴾ و﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ و﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾.

- ❑ الفصل والوصل، فبعض الألفاظ ترد تارة موصولة وتارة مفصولة مثل «أن» توصل بكلمة «لا» إذا وقعت بعدها، ويستثنى من ذلك عشرة مواضع و «من» توصل بكلمة «ما» إذا وقعت بعدها، ويستثنى «ألا»، ﴿أَن لَّا يَقُولُواْ﴾، ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، ووصل «مما» إلا في ﴿مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ [الروم: ٢٨]، و﴿مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ [المنافقون: ١٠].

الوصل: و «مِنْ» توصل بكلمة «مَنْ» مطلقاً.

الوصل: و «عن» توصل بكلمة «ما» إلا قوله تعالى: ﴿عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ﴾، وتوصل كلمات «نعما، ربما، كأنما، ويكأن» ونحوها.

الفصل: وتفصل «حيث ما» مطلقاً.

- ❑ ما فيه قراءتان فإن كان حذف الألف أو كتابة السين صاداً يجعلها محتملة للقراءة بالقراءتين كتبت في الأولى بدون ألف وبالثانية بالصاد نحو ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾، ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾.

أما القراءات المختلفة بزيادة لا يحتملها الرسم، فقد كانت تكتب في بعض المصاحف بوجه وبالأخرى بالوجه الآخر(١).

الثانية: أنه كان مجرداً عن الشكل الذي يوضح إعرابه، وعن النقط الذي يميز الحروف المعجمة من المهملة.

أما الأولى: فقد استمرت ولم يطرأ عليها تغيير أو تحوير وبقي هيكل حروف الكلمة على حالته الأولى.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ١٦٩/٤، (النوع السادس والسبعون)، حق التلاوة ١٤٩.

أما الثانية: فقد دخلها التطوير والتحسين فتم وضع النقط على الحروف وشكلت الكلمات، ووضعت فيه بعض العلامات المميزة، وكتبت عناوين في رأس كل سورة، ووضعت رموز فاصلة عند رؤوس الآيات، وقسم القرآن إلى أجزاء، والأجزاء إلى أحزاب، والأحزاب إلى أعشار، وأشير إلى ذلك برموز خاصة.

والناظر إلى الرسم العثماني يجد أنه ليس قائماً على قواعد مطردة، ولا أدل على ذلك من أن بعض الكلمات رسمت في موضع برسم خاص، وفي موضع آخر برسم مخالف.

مثال ذلك كلمة: ﴿لَدَا﴾ كتبت في سورة يوسف الآية (٢٥) ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ﴾ بألف وكتبت في سورة غافر الآية (١٨) ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ﴾ بالياء وعلل المفسرون ذلك بأن معنى الذي في يوسف «عند» والذي في غافر «في»[1].

وعلل النحويون ذلك بأن المرسوم بالألف على اللفظ، وبالياء لانقلاب الألف ياء.

٥ ـ حكم كتابة المصحف بالرسم العثماني:

اختلف العلماء في كتابة المصاحف على ثلاثة أقوال:

الأول: إنه يجب كتابة المصاحف بالرسم العثماني، وتحرم مخالفة مصحف عثمان في حرف، وذلك لأن الرسم العثماني للقرآن توقيفي، وممن قال بهذا الإمام مالك حيث سئل: «أرأيت من استكتب مصحفاً أترى أن يكون على ما استحدثه الناس من الهجاء اليوم؟ فقال: لا أرى ذلك، ولكن يكتب على الكَتْبَةِ[2] الأولى».

والإمام أحمد بن حنبل حيث قال: «تحرم مخالفة مصحف عثمان في واو أو ألف أو ياء أو غير ذلك».

---

(١) معجم القراءات القرآنية ٤١/١ عن المقنع.

(٢) أي الجمع الأول.

ومن ذهب إلى هذا القول أبو عمرو الداني، والسخاوي، والبيهقي وغيرهم، واستدلوا بما يلي:

- أن النبي ﷺ كان له كتاب يكتبون الوحي، وقد كتبوا القرآن بهذا الرسم وأقرهم النبي ﷺ على كتابتهم، ثم كتب القرآن في عهد أبي بكر ثم عثمان على هذه الهيئة المخصوصة.
- إجماع الصحابة رضوان الله عليهم على هذا الرسم فإن أبا بكر لم يحدث أي تغيير في أية كلمة من الكلمات، كما التزم الناسخون للمصاحف في عهد عثمان بالرسم نفسه.

الثاني: أنه يجوز كتابة المصحف بالرسم العثماني وبالإملاء المعهود، لأن الرسم العثماني اصطلاحي لا توقيفي، وممن ذهب إلى هذا أبو بكر الباقلاني المتوفى سنة (٤٠٣هـ) وابن خلدون المتوفى سنة (٨٠٨هـ) ويقولون بأن الكتابة ليست فرضا على أحد، ولم يؤخذ على كتاب الوحي رسماً بعينه دون غيره، وأن وجوب الالتزام بهذا الرسم لا يدرك إلا بالسمع والتوقيف ولا يوجد نصوص تدل على وجوب الالتزام برسم معين.

الثالث: أنه يجب كتابة المصحف للعامة بالرسم القياسي الإملائي ولا يجوز كتابته لهم بالرسم العثماني، وذلك لأن الرسم العثماني اصطلاحي لا توقيفي، ولئلا توقع هذه الكتابة في تغيير من الجهال فيحصل اللبس والخلط في القرآن.

ومن ذهب إلى هذا العز بن عبدالسلام، والزركشي، والمراغي، وغيرهم[١].

الفرق بين القول الثاني والثالث:

يجتمعان على أن القرآن لا بد أن يكتب بالرسم العثماني للخاصة

(١) مناهل العرفان ٣٧٩/١.

من المسلمين وينفردان بأن الثاني يرى أنه **يجوز** أن يكتب للعامة وفقاً للقواعد الإملائية، والثالث يرى أنه **يجب** أن يكتب للعامة وفقاً للقواعد الإملائية.

والظاهر: أن القول الراجح في هذا هو أنه يجب كتابة القرآن الكريم بالرسم العثماني المعهود في المصحف، ولا يجوز كتابة شيء من القرآن بالرسم الإملائي إلا في حالات الضرورة مثل:

- ❏ الآيات القرآنية التي يستشهد بها، أو تكتب في كتب التفسير.
- ❏ الألواح، أو الأوراق التي تعد للأطفال أثناء التعليم.

وذلك للآتي:

- ❏ أن القواعد الإملائية تكون دائماً عرضة للتغيير والتبديل في كل عصر وفي كل جيل، فلو أخضعنا رسم المصحف لذلك لأصبح القرآن عرضة للتغيير والتبديل في كل عصر بل إن قواعد الإملاء نفسها تختلف فيها وجهات النظر في العصر الواحد.
- ❏ أن حجتهم بكتابة القرآن بالرسم الإملائي يحصل فيه التيسير للدارسين، فهذا غير كاف للتغيير الذي يؤدي إلى التهاون في تحري الدقة بكتابة القرآن.
- ❏ أن العديد من القراءات القرآنية مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالرسم العثماني، فلو أننا اتبعنا في ذلك الرسم الإملائي لذهبت تلك القراءات مثال ذلك:

- ❃ المقطوع والموصول.
- ❃ رسم تاء التأنيث. فقراءة القراء العشرة مبنية على رسم هذين النوعين بالرسم العثماني.
- ❃ رسم الهمزة.

- ❑ أن العلماء اعتبروا الرسم العثماني شرطاً أساسياً من شروطٍ ثلاثة[1] في صحة القراءات وقبولها، فكل قراءة تخالف الرسم العثماني لا تعتبر مقبولة ولو تحقق فيها الشرطان الآخران.
- ❑ أن من يعتاد القراءة في المصحف يألف ذلك ويفهم الفوارق الإملائية بالإشارات الموضوعة على الكلمات.
- ❑ أن من يتبنى كتابة المصحف برسم آخر يخالف الرسم العثماني عاجز عن كتابة فواتح السور مثل: كهيعص، طسم، حم، عسق.

٦ ـ فوائد الرسم العثماني:

للرسم العثماني مزايا وفوائد عديدة منها:

- ❑ حفظ المصاحف الكريمة عن مخالفة المصحف الإمام.
- ❑ تمييز ما وافق خط المصحف من القراءات مع التواتر وموافقة اللغة فيقبل، وما خالف ذلك فيرد.
- ❑ حمل الناس على أن يتلقوا القرآن من صدور ثقات الرجال، ولا يتكلوا على هذا الرسم العثماني الذي جاء غير مطابق للنطق الصحيح في الجملة وفي هذا التلقي مزيتان:

الأولى: التوثق من ألفاظ القرآن وطريقة أدائه وحسن ترتيله وتجويده فإن ذلك

لا يمكن أن يعرف على وجه اليقين من المصحف، مهما تكن قاعدة رسمه واصطلاح كتابته، فقد يخفى على القارىء بعض أحكام تجويده كالقلقلة والإظهار والإخفاء والإدغام ونحو ذلك، ولهذا قرر العلماء أنه لا يجوز التعديل على المصاحف وحدها بل لا بد من التثبت في الأداء والقراءة عن حافظ ثقة.

---

(١) الشرطان الآخران هما: صحة السند، وموافقة القراءة للقواعد النحوية.

الثانية: اتصال السند برسول الله ﷺ، وتلك خاصية من خواص هذه الأمة الإسلامية امتازت بها على سائر الأمم.

❑ الدلالة على القراءات المتنوعة في الكلمة الواحدة:

* فالكلمة التي فيها قراءتان أو أكثر كتبت بصورة تحتمل هاتين القراءتين أو الأكثر.

* وإذا كان الحرف الواحد لا يحتمل ذلك بأن كانت صورة الحرف تختلف باختلاف القراءات جاء الرسم على الحرف الذي هو خلاف الأصل، ليعلم جواز القراءة به وبالحرف الذي هو الأصل.

* وإذا لم يكن في الكلمة إلا قراءة واحدة بحرف الأصل رسمت به.

❑ التنبيه على أصل الكلمة، وعلى بعض اللغات[1].

٧ ـ نقط الشكل والإعجام:

معنى نقط الشكل أو الإعراب:

الشكل: هو ما يدل على عوارض الحرف من حركة، أو سكون، أو شدٍّ، أو مدٍّ، أو غير ذلك، سواء كان ذلك في أول الكلمة أم وسطها أم آخرها.

ويكون بالنقط أو وضع علامة لتميز إعراب الكلمة.

معنى نقط الإعجام:

الإعجام: هو ما يدل على ذوات الحروف، وتمييز الحروف المتماثلة في الرسم بعضها عن بعض.

ويكون الإعجام بالنقط على الحرف ليتميز عن غيره.

(١) مناهل العرفان حـ ١ ص ٣٧٣، وجامع البيان في معرفة رسم القرآن ١٠.

وضع المصاحف العثمانية:

كانت المصاحف العثمانية خالية من نقط الشكل والإعجام.

وسبب خلوها من نقط الشكل:

- اعتماداً على ما كان عليه العرب من نطقهم للألفاظ مضبوطة مشكولة بحسب سليقتهم وفطرتهم العربية من غير لحن ولا غلط.
- ولأن المعوَّل عليه في القرآن هو التلقي والرواية، فلم يكن بهم حاجة إلى الشكل.

وسبب خلوها من نقط الإعجام:

- لأن الاعتماد لم يكن على القراءة في المصحف، بل كان على التلقي والسماع.
- ولتبقى صورة الكلمة الواحدة في الخط صالحة لكل ما صح وثبت من وجوه القراءات.

ولما اتسعت رقعة الإسلام، واختلط العرب بالعجم فسدت الفطرة العربية، ودخل اللحن في الكلام، وحدثت حوادث نبهت المسلمين إلى ضرورة القيام بحفظ القرآن بوضع قواعد لضبط قراءته قراءة صحيحة.

أول من وضع نقط الشكل:

اختلف فيمن ابتدأ بوضع النقط التي توضح شكل إعراب الكلمة وأشهر ما ورد في ذلك أنه أبا الأسود الدؤلي قاضي البصرة وأول من وضع مسائل النحو بإشارة علي رضي الله عنه وقد أسلم في حياة النبي ﷺ ولم يره توفي سنة (٦٩هـ) بالبصرة.

وسبب وضعه:

أن معاوية رضي الله عنه كتب إلى زياد بن أبيه[١] وكان واليه على البصرة

(١) زياد ابن أبيه: أحد القادة الفاتحين، ومن الدهاة، من أهل الطائف اختلف في اسم أبيه: فقيل: عبيد الثقفي، وقيل: أبو سفيان، ولدته أمه: سمية (جارية الحارث بن كلدة الثقفي) =

والكوفة - يطلب عبيدالله ابنه[١]، فلما قدم عليه كلمه فوجده يلحن، فرده إلى زياد، وكتب إليه كتاباً يلومه فيه، ويقول: أمِثْل عبيدالله يُضَيَّع؟، فبعث زياد إلى أبي الأسود فقال: يا أبا الأسود إن هذه الحمراء[٢] قد كثرت وأفسدت من ألسن العرب فلو وضعت شيئاً يُصْلِح الناسُ به كلامهم ويعربون به كتابَ الله تعالى، فأبى ذلك أبو الأسود الدؤلي وكره إجابة زياد إلى ما سأل، فوجه زياد رجلاً فقال له: اقعد في طريق أبي الأسود، فإذا مَرَّ بك فاقرأ شيئاً من القرآن، وتعمد اللحن فيه، ففعل ذلك فلما مر أبو الأسود رفع الرجل صوته فقال: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾[٣] بجر اللام في ورسوله فاستعظم ذلك أبو الأسود، وقال: عز وجه الله أن يبرأ من رسوله. ثم رجع من فوره إلى زياد فقال: يا هذا قد أجبتك إلى ما سألت. ورأيت أن أبدأ بإعراب القرآن، فابعث إليّ ثلاثين رجلاً فأحضرهم زياد، فاختار منهم أبو الأسود عشرة، ثم لم يزل يختار منهم حتى اختار رجلا من عبد القيس فقال: خذ المصحف وصبغاً يخالف لون المداد، فإذا فتحتُ شفتي فانقط واحدة فوق الحرف، وإذا ضممتُهما فاجعل النقطة أمام الحرف. وإذا كسرتهما فاجعل النقطة في أسفله، فإن أتبعتُ شيئاً من هذه الحركات غنة فانقط نقطتين. فابتدأ بالمصحف حتى أتى على آخره.

وقيل: إن أول من وضعه أبو الأسود الدؤلي بأمر عبدالملك بن مروان لا بأمر زياد، وذلك حين كثرت التصحيفات وانتشرت في العراق.

وقيل: إن أول من وضعه يحيى بن يعمر، ونصر بن عاصم الليثي والحسن البصري.

= في الطائف وتبناه عبيد الثقفي (مولى الحارث بن كلده). وتبين لمعاوية أنه أخوه من أبيه «أبي سفيان» فكتب إليه بذلك فقدم عليه وألحقه معاوية بنسبه سنة (٤٤هـ) وولاه البصرة والكوفة فلم يزل في ولايته إلى أن توفي سنة (٥٣هـ). الأعلام ٣/٥٣.

(١) عبيدالله بن زياد بن أبيه: وال، فاتح، من الشجعان، كان مع والده لما مات بالعراق، تولى خراسان سنة (٥٣هـ)، فنقله معاوية إلى البصرة أميراً عليها سنة (٥٥هـ) فقاتل الخوارج واشتد عليهم توفي سنة (٦٧هـ).

(٢) أي: الأعاجم.

(٣) سورة التوبة الآية (٣).

ولكن الذي اشتهر عنه ذلك أبو الأسود الدؤلي، أما الآخرين فربما كان لهم جهود في تحسين الرسم وتيسيره.

واستمر الأمر على هذه الطريقة مدة. ثم بدؤا يزيدون ويبتكرون ولما اضطروا إلى وضع النقط الذي هو الإعجام التبس ذلك بالشكل فجعلوا لكل منهما مداداً مخالفاً للون الآخر. ثم وضعوا للشكل علامات أخرى. وهي العلامات المعروفة اليوم، فجعلوا الفتحة ألفاً أفقية من فوق الحرف، والكسرة ألفاً من تحت الحرف، والضمة على هيئة رأس الواو، وبذلك صار القرآن مشكولاً، وهذا هو الذي أخرجه الخليل بن أحمد.

أول من وضع نقط الإعجام:

اختلف في أول من وضع نقط الإعجام، وأصح الأقوال أنه نصر بن عاصم المتوفى قبل سنة (١٠٠هـ) ويحيى بن يعمر المتوفى قبل سنة (٩٠هـ)[١] بأمر الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق في عهد أمير المؤمنين عبدالملك بن مروان.

سبب وضعه:

أنه لما كثرت الفتوحات الإسلامية، وكثر الداخلون في الإسلام من الأعاجم كثر تبعا لذلك التحريف والتصحيف في العرب وخيف على القرآن أن يمتد إليه بعض التحريف، لذا أمر عبدالملك بن مروان الحجاج بأن يعمل على أن لا يصل التحريف إلى حمى القرآن فاختار الحجاج لتلك المهمة: نصر بن عاصم، ويحيى بن يعمر وكانا من أبرز العلماء وقتئذ في فنون القراءات وتوجيهها وعلوم اللغة العربية وأسرارها، فوضعا ذلك النقط لتتميز الحروف المتشابهة عن بعضها، فوضعا ذلك النقط لتتميز الحروف المتشابهة عن بعضها فوضعا النقط من واحدة إلى ثلاث للحروف المتشابهة.

ويلاحظ أن نقط الشكل متقدم على نقط الإعجام لتقدم زمن زياد

---

(١) وهما تلميذان لأبي الأسود الدؤلي.

وأبي الأسود على زمن الحجاج ونصر بن عاصم ويحيى بن يعمر[١].

٨ ـ ما استحدث في كتابة المصاحف:

ما استحدث في كتابة المصاحف من التحزيب والتجزئة والتخميس والتعشير، وكتابة فواتح السور وخواتمها... ونحو ذلك فكل ذلك مما زيد لغرض التيسير على القارىء، ولكن ليس له من الأهمية ما للشكل والنقط.

٩ ـ تعريفات:

التجزئة: أي تجزئة القرآن إلى ثلاثين جزءاً.

التحزيب: تقسيم كل جزء إلى حزبين، فيكون في القرآن ستون حزباً وقسم الحزب إلى أربعة أرباع، أي إن الجزء ثمانية أرباع.

التخميس: كتابة لفظ خمس عند انقضاء خمس آيات من السورة.

التعشير: كتابة لفظ عشر عند انقضاء عشر آيات من السورة.

بمعنى أنه إذا انقضت خمس أخرى (بعد عشر) أعاد كتابة (خمس) فإذا انقضت خمس أخرى كتب (عشر) وهكذا حتى نهاية السورة.

ومنهم من يكتب رأس خاء «خـ» بدل كتابة خمس، ورأس عين «عـ» بدل كتابة عشر.

وفي بعض المصاحف تكتب «ع» إشارة للأماكن التي ندبوا للركوع عندها لمن أراد ختم القرآن في صلاة التراويح من رمضان.

كما وضعوا علامات للوقف:

فالوقف اللازم «م»، والممنوع «لا»، والجائز جوازاً مستوي الطرفين «ج»، والجائز مع كون الوصل أولى «صِلِى»، والجائز مع كون الوقف

(١) انظر المدخل لدراسة القرآن ٣٤٠، ٣٨٧، ٣٨٩، مباحث في علوم القرآن للقطان ١٤٦، جامع البيان في معرفة رسم القرآن ٣١، ٣٢.

أولى «قِلِى»، وتعانق الوقف بحيث إذا وقف على أحد الموضعين لا يصح الوقف على الآخر« ».

١٠- فـوائـــد:

- ❑ أول من وضع الأعشار هو المأمون العباسي وقيل: الحجاج بن يوسف الثقفي[1].
- ❑ كانت كتابة المصحف بالخط الكوفي حتى أواخر القرن الرابع الهجري.
- ❑ في أوائل القرن الخامس حل محله خط النسخ الجميل.
- ❑ طبع القرآن أول مرة في البندقية في حدود سنة (١٥٣٠م)، ولكن السلطات الكنسية أصدرت أمراً بإعدامه.
- ❑ ظهرت أول طبعة إسلامية للقرآن في «سانت بطرسبورغ» بروسيا سنة (١٧٨٧م).
- ❑ عنيت الاستانة بهذا الأمر ابتداء من سنة (١٨٧٧م).
- ❑ ظهر في القاهرة طبعة أنيقة جميلة دقيقة سنة (١٣٤٢هـ/١٩٢٣م)[2].

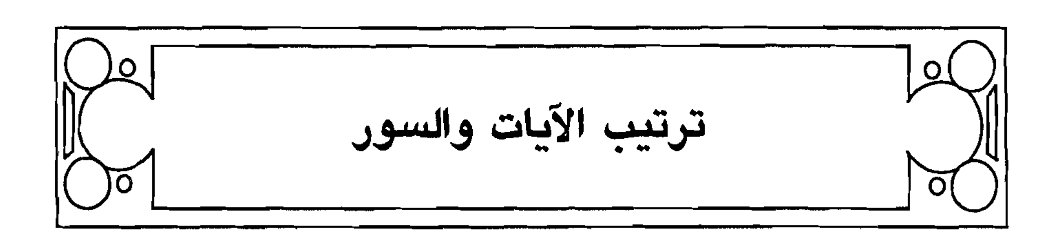


---

(١) تفسير ابن عطية ١/٥٦، تفسير القرطبي ١/٦٣.

(٢) مباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح ٩٨_١٠٠.

الموضوع الحادي عشر



ترتيب الآيات والسور

١ ـ معنى الآية:

الآية في اللغة:

وردت كلمة «الآية» في اللغة على عدة معان منها:

- المعجزة. ومنه قوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾[1]، أي: من معجزة واضحة.
- العلامة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[2]، أي: علامة ملكه. وتقول العرب: «خربت دار فلان وما بقي فيها آية» أي: علامة.
- الجماعة، تقول العرب: «خرج القوم بآيتهم»، أي: بجماعتهم.
- العبرة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾﴾[3]، أي: عبرة لمن بعدهم.

---

(١) سورة البقرة الآية (٢١١).

(٢) سورة البقرة الآية (٢٤٨).

(٣) سورة الشعراء الآية (٦٧).

- البرهان والدليل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[١]، أي: ومن دلائل وبراهين قدرته[٢].

الآية في القرآن:

يمكن تعريف الآية في القرآن بأنها:

«طائفة من القرآن، منقطعة عما قبلها وما بعدها لفظاً، لها مبدأ ومقطع، مندرجة في سورة».

فقولنا «طائفة من القرآن» دخل فيه كل جماعة من حروف القرآن ولو كانت كلمة واحدة مثل: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾﴾[٣].

وقولنا «منقطعة عما قبلها وما بعدها لفظا» أي منفردة بائنة من أختها من حيث اللفظ، ويخرج منه: أن الآية قد لا تنقطع عما قبلها أو ما بعدها من حيث المعنى.

وقولنا «لها مبدأ ومقطع» أي لها بداية ونهاية.

وقولنا «مندرجة في سورة» أي: داخلة ضمن السورة، ويخرج منه: السورة[٤].

٢ ـ طريقة معرفة بداية الآية ونهايتها:

للعلماء في معرفة بداية الآية ونهايتها قولان:

الأول: أنه لا سبيل إلى معرفة الآيات إلا بتوقيف من الشارع، لأنه

---

(١) سورة الروم الآية (٢٢).

(٢) انظر: البحر المحيط ١٢٨/٢، ولسان العرب مادة «أيا» ٦٢/١٤، وبصائر ذوي التمييز ٨٥/١، والصحاح مادة «أيا» ٢٢٧٦/٦.

(٣) سورة الرحمن الآية (٦٤).

(٤) انظر البرهان في علوم القرآن ٢٦٧/١، ومناهل العرفان ٣٣٩/١، والمدخل لدراسة القرآن ٣١٢.

ليس للقياس والرأي مجال فيها، بدليل أن بعض العلماء[١] عدوا بعض فواتح السور آيات دون بعضها فمثلا عدوا﴿الٓمٓصٓ ۝١﴾ آية ولم يعدوا ﴿الٓمٓر﴾ آية. وعدوا ﴿يسٓ ۝١﴾ آية ولم يعدوا ﴿طسٓ﴾ آية. وعدوا ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾ مطلع الشورى آيتين ولم يعدوا ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾ آيتين.

وأيضاً ورد عن الشارع أن بعض الكلمات عدت آيات مثل: ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ في سورة الرحمن، و﴿مُدْهَامَّتَانِ ۝٦٤﴾ آية.

وهناك أحاديث وردت بتحديد آيات بعض السور، فمثلاً أخرج البخاري عن أبي سعيد بن المعلى أن رسول الله ﷺ قال: «الحمد لله رب العالمين: هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»[٢].

وقد صح عنه أنه قال: «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه»[٣]، وغير ذلك من الأحاديث التي تدل على أن الرسول ﷺ بين الآيات من حيث بدايتها ونهايتها، ولولا ذلك لما عرفنا الآيتين في آخر البقرة.

الثاني: ومن العلماء من ذهب إلى أن معرفة الآيات منه ما هو سماعي توقيفي، ومنه ما هو قياسي، ومرجع ذلك إلى الفاصلة، وهي الكلمة التي تكون آخر الآية ولمعرفتها طريقان: توقيفي وقياسي: أما التوقيفي فما ثبت أن النبي ﷺ وقف عليه دائماً تحققنا أنه فاصلة ورأس آية[٤]، وما وصله دائماً تحققنا أنه ليس فاصلة. وما وقف عليه مرة ووصله

---

(١) وهم الكوفيون. فقد عدوا كل الفواتح في أوائل السور آيات إلا: (حم، عسق) عدوها آيتين و(طس، الر، ق، ن، ص) فلم يعدوها آيات بإفرادها.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ١٤٦/٥ في كتاب: التفسير، باب: ما جاء في الفاتحة.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ١٠٤/٦ في كتاب: فضائل القرآن، باب: فضل سورة البقرة.

(٤) الفاصلة: الكلام المنفصل مما بعده، وقد يكون رأس آية وقد لا يكون، وتقع الفاصلة عند نهاية المقطع الخطابي وسميت بذلك؛ لأن الكلام ينفصل عندها.

=

أخرى احتمل الوقف: أن يكون لتعريف الفاصلة، أو لتعريف الوقف التام، أو للاستراحة.

واحتمل الوصل: أن يكون غير فاصلةٍ، أو فاصلةً وَصَلَها لتقدُّم تعريفها.

وأما القياسي: فهو ما ألحق غير المنصوص عليه بالمنصوص عليه لأمر يقتضي ذلك، ولا محضور فيه لأنه لا يؤدي إلى زيادة القرآن ولا نقصانه، وإنما غايته تعيين الفصل أو الوصل[(١)].

والرأي الراجح: هو الأول. قال الزركشي: «قال بعضهم الصحيح أنها إنما تُعْلَم بتوقيف من الشارع لا مجال للقياس فيه كمعرفة السورة»[(٢)]، وقال الزمخشري: «علم الآيات توقيفي لا مجال للقياس فيه»[(٣)].

٣ ـ عدد آيات القرآن:

اتفق العلماء العادون على أن عدد آيات القرآن الكريم ستة آلاف ومائتا آية وكسر. إلا أنهم اختلفوا في هذا الكسر باختلاف العادين، والعدد منسوب إلى خمسة بلدان وهي: مكة، والمدينة، والكوفة، والبصرة، والشام:

- فعدد المكي (٦٢٢٠) وهو منسوب إلى عبدالله بن كثير المكي المتوفى سنة (١٢٠هـ) (أحد السبعة) وهو يروي ذلك عن مجاهد عن ابن عباس، عن أبي بن كعب.

= رأس الآية: نهاية الآية التي توضع بعدها علامة الفصل بين آية وآية.
الفرق بينهما: كل رأس آية فاصلة، وليس كل فاصلة رأس آية فالفاصلة: تعم النوعين، وتجمع الضربين.

(١) انظر: مناهل العرفان ١ ٣٤١.
(٢) البرهان ١ : ٢٦٧.
(٣) الكشاف ١ : ١٨.

- وعدد المدني على ضربين: عدد المدني الأول (٦٢١٧) وبه قال نافع المتوفى سنة (١٦٩هـ)، وعدد المدني الأخير (٦٢٣٦) عند شيبه[١]، (٦٢١٠) عند أبي جعفر أحد الثلاثة المكملين للعشرة.
- وعدد الكوفي (٦٢٣٦) وهو منسوب إلى: حمزة الزيات الكوفي المتوفى سنة (١٥٦هـ) وهو العد المثبت الآن في المصاحف.
- وعدد البصري (٦٢٠٥) وهو مروي عن عاصم الجحدري، وفي رواية عنه (٦٢٠٤).
- وعدد الشامي (٦٢٢٦) وهو مروي عن يحيى بن الحارث الذماري[٢].

هذه هي الأعداد المشهورة في ذلك، وأشهرها العدد الكوفي.

والظاهر أن كل واحد من أئمة القراءة كان يعتبر العدد المنسوب إلى بلده.

٤ ـ سبب الاختلاف في عدد الآيات:

سببه أن النبي ﷺ كان يقف على رؤوس الآي تعليماً لأصحابه أنها رؤوس آي، حتى إذا علموا ذلك وصل ﷺ الآية بما بعدها طلباً لتمام المعنى فيحسب السامع حينئذ أن ما وقف عليه النبي ﷺ ليس فاصلة، فيصلها بما بعدها فيعتبر الآيتين آية واحدة، والبعض الآخر يعتبرها آيتين.

والخلاف في ذلك يسير، بل لا أثر له إذ لا يترتب عليه زيادة في القرآن ولا نقص.

من أمثلة الاختلاف في عد الآيات:

- ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ عدها بعضهم[٣] الآية السادسة من الفاتحة وما بعدها السابعة، وعلى هذا لا تكون البسملة آية من هذه

---

(١) هو شيبه بن نصاح (ت ١٣٠هـ) وهو شيخ نافع، وأبو جعفر يزيد القعقاع (ت ١٢٨هـ) شيخ نافع أيضاً.

(٢) انظر: جمال القراء ١: ٢٣١، والتبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن ٢٠٧.

(٣) المدني والبصري والشامي.

السورة. ويقولون حتى تتناسب آيات هذه السورة بالمقدار. ولم يعدها بعضهم[١] أنها آية منفصلة بل تكون ضمن ما بعدها فهي جميعا الآية السابعة على أن تكون البسملة الآية الأولى من هذه السورة.

ويقولون إنها لا تشاكل فواصل الفاتحة.

أما البسملة:

- ❑ فقال مالك إنها ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها، قال ابن العربي: «ويكفيك أنها ليست بقرآن للاختلاف فيها، والقرآن لا يختلف فيه»[٢].
- ❑ وقال عبدالله بن المبارك إنها آية من كل سورة.
- ❑ وقال الشافعي إنها آية من الفاتحة، وتردد قوله في سائر السور.

ولا خلاف بينهم أنها جزء من آية في سورة النمل.

- ❑ ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ في آية الكرسي:

عده المدني الأخير والمكي والبصري آية لمشاكلته ما بعده وهو ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ ولانعقاد الإجماع على عد نظيره في أول آل عمران.

ولم يعده الباقون مراعاة لظاهر الأثر فإنه ورد تسميتها بآية الكرسي وذلك يشعر بكونها آية واحدة.

- ❑ ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾:

في (ص) عده الكوفي لانقطاع الكلام، ولم يعده الباقون لعدم المشاكلة والموازنة والمساواة[٣].

---

(١) وهم المكي والكوفي.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٢/١.

(٣) الآية ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾ انظر التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن ص ١٩٩.

٥ ـ ترتيب الآيات:

أجمع العلماء على أن ترتيب الآيات في سورها بتوقيف من النبي ﷺ عن جبريل عليه السلام عن الله ﷻ، وأنه لا مجال للرأي أو الاجتهاد فيه.

والأدلة على ذلك كثيرة منها:

١ ـ ورود أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ تفيد أن آيات السور كانت مرتبة ومعلومة مواضعها من السور في حياة الرسول ﷺ، ومن ذلك:

❑ ما رواه البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه»[1].

❑ ما رواه مسلم عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصم من الدجال» وفي رواية «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف»[2].

❑ ما أخرجه الإمام أحمد عن عثمان بن أبي العاص قال: كنت جالساً عند رسول الله ﷺ إذ شخص ببصره ثم صوبه ثم قال: «أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية في هذا الموضع من هذه السورة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾[3]»[4].

٢ ـ أنه ثبت بطريق التواتر أن النبي ﷺ كان يقرأ سوراً عديدة في الصلاة وغيرها على ترتيبها المعروف، وبمسمع من الصحابة الذين أخذوا

---

(١) أي: أجزأتا عنه من قيام الليل بالقرآن، وقيل: كفتاه كل سوء، وقيل: كفتاه شر الشيطان فتح الباري جـ ٩ ص ٥١، والحديث أخرجه البخاري في صحيحه ١٠٤/٦ في كتاب: فضائل القرآن، باب: فضل سورة البقرة.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٥٥٥/١ في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل سورة الكهف وآية الكرسي.

(٣) سورة النحل الآية (٩٠).

(٤) أخرجه أحمد في مسنده ٢١٨/٤.

عنه، ونُقِل ذلك عنهم، وما كان لهم أن يرتبوه ترتيبا سمعوا النبي ﷺ يقرأ على خلافه، ومما ورد في ذلك:

- ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، و﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾[١].

- ما رواه مسلم عن عمرة بنت عبدالرحمن عن أختٍ لعمرة قالت: «أخذت ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١﴾ من فِيِّ رسول الله ﷺ يوم الجمعة وهو يقرأ بها على المنبر في كل جمعة»[٢].

٣ ـ ما ورد من الآثار عن بعض الصحابة تفيد أن ترتيب الآيات توقيفي ومن ذلك:

- ما أخرجه البخاري عن عبدالله بن الزبير قال: -قلت لعثمان: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٤٠﴾[٣] قد نسختها الآية الأخرى[٤] فلِمَ تكتبها أوَ تَدَعُها؟[٥]. قال: يا ابن أخي لا أغير شيئاً منه من مكانه»[٦].

- ما ذكره البغوي عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾[٧] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «هذه آخر آية نزلت على رسول الله ﷺ،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٢١٤/١ في كتاب: الجمعة، باب: ما يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٥٩٥/٢ في كتاب: الجمعة، باب: تخفيف الصلاة والخطبة.

(٣) سورة البقرة الآية (٢٤٠).

(٤) يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ البقرة: (٢٣٤).

(٥) أي: لماذا تكتبها أوَ تتركها مكتوبة وأنت تعلم أنها منسوخة؟.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه ١٦٠/٥ في كتاب: التفسير، تفسير سورة البقرة.

(٧) سورة البقرة الآية (٢٨١).

فقال له جبريل عليه السلام: ضعها على رأس مائتين وثمانين من سورة البقرة»[١].

٤ ـ ما ورد ونقل إلينا عن علماء الأمة سلفِها وخلفِها من أن ترتيب الآيات في سورها إنما هو توقيفي لا مجال للاجتهاد فيه أو نقلوا الإجماع على ذلك.

يقول مالك بن أنس: «إنما ألف القرآن على ما كانوا يسمعون من النبي ﷺ»[٢].

وقال الباقلاني: «ترتيب الآيات أمر واجب، وحكم لازم فقد كان جبريل يقول: ضعوا آية كذا في موضع كذا»[٣].

وقال ابن تيمية: «وأما ترتيب آيات السور فهو منزل منصوص عليه فلم يكن لهم أن يقدموا آية على آية في الرسم»[٤].

٦ ـ معنى السورة:

السورة في اللغة:

بضم السين وبدون همز تطلق على عدة معان منها:

- المنزلة الرفيعة، ومن ذلك سمي سور المدينة لارتفاعه على غيره، ومنه قول النابغة:

ألم ترى أن الله أعطاك سورة ... ترى كلّ مَلْك دونها يتذبذب[٥]

أي: أعطاك منزلة رفيعة قصرت دونها منازل الملوك الآخرين.

---

(١) معالم التنزيل للبغوي ٢٦٦/١.
(٢) انظر قوله في الإتقان في علوم القرآن ٢١٥/١.
(٣) الانتصار لنقل القرآن ص ٧ (نسخة خطية)، ونكت الانتصار للباقلاني ٥٩.
(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٢٩٦/١٣.
(٥) انظر ديوانه ٧٨، وهو في مجاز القرآن ٤/١.

- الإحاطة، ومنه سور البلد أو المدينة وهو الحائط حولها.
- الجماعة، يقال لفلان سور من الإبل أي جماعة. وبفتح السين دون همز «سَوْرة» بمعنى السطوة والقوة ومنه سَوْرة الأسد. وبضم السين وهمز الواو فإنه مشتق من أسأر أي: أبقى وأفْضَل، من سؤر الكأس وهو ما يبقى فيه من الشراب، ومنه سؤر الهرة أي: بقيتها[(١)].

السورة في الــقــرآن:

يمكن تعريف السورة في القرآن بأنها: «طائفة من آيات القرآن، ذات فاتحة وخاتمة معلومة بتوقيف من النبي ﷺ»[(٢)].

٧ ـ طريق معرفة السورة:

معرفة سور القرآن الكريم توقيفي لا مجال للاجتهاد فيه.

٨ ـ عدد سور القرآن الكريم:

اتفق العلماء على أن عدد سور القرآن العظيم مائة وأربع عشرة سورة أولها الفاتحة وآخرها الناس وبعضهم قال إنها مائة وثلاث عشرة سورة بجعل الأنفال والتوبة سورة واحدة لعدم البسملة بينهما. ويرد عليهم بأن النبي ﷺ سمى كل واحدة منها باسم.

٩ ـ أقسام السور:

قسم العلماء سور القرآن الكريم إلى أربعة أقسام:

الأول: الطوال:

وهي سبع: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام،

---

(١) انظر: مجاز القرآن ١/٤، والصحاح ٢/٢٩٠، ولسان العرب مادة «سور» ٤/٣٨٦، وبصائر ذوي التمييز ١/٨٤.

(٢) انظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان ١/٢٨، والتيسير في قواعد علم التفسير ١٦٧.

والأعراف. واختلفوا في السابعة: فقيل «الأنفال والتوبة» معاً لعدم الفصل بينهما بالبسملة. وقيل: سورة يونس، وسميت بذلك لأنها تعتبر أطول سور القرآن.

الثاني: المئون:

وهي التي تلي السبع الطوال إلى آخر سورة السجدة، وسميت بذلك لأن كل سورة منها تزيد على مائة آية أو تقاربها.

الثالث: المثاني:

وهي السور التي تلي المئين من أول سورة الأحزاب إلى أول سورة «ق» أو أول سورة الحجرات، وسميت بذلك: لأنها تثنى وتكرر في الصلاة أكثر من الطوال والمئين.

الرابع: المفصل:

وهي التي تلي المثاني إلى آخر القرآن، وسمي بالمفصل لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة.

ثم المفصل قسمه العلماء إلى ثلاثة أقسام:

- ❏ الطوال: من أول المفصل إلى أول سورة «النبأ».
- ❏ الأوساط: من أول سورة النبأ إلى أول سورة «الضحى».
- ❏ القصار: من أول سورة الضحى إلى آخر القرآن.

١٠ ـ حكمة تقسيم القرآن لسور متنوعة طولاً وقصراً:

تلمّسَ العلماء في تفصيل القرآن الكريم إلى سور حِكَماً عديدة من أهمها:

- ❏ تحقيق كون السورة بمفردها معجزة، وآية من آيات الله، وإن بلغت في القصر ثلاث آيات، وأن الطول ليس شرطاً في الإعجاز والتحدي.

- تسهيل وتيسير حفظ القرآن الكريم، فتجزئة العمل باعث على إنهائه وإنجازه.
- أن الحافظ إذا حفظ سورة اعتقد أنه حفظ من كتاب الله حظا ونصيباً، فيعظم عنده ما حفظه ويغتبط به،ويحرص على معاهدته وتكرار تلاوته ويشير إلى ذلك ما قاله أنس بن مالك ﷺ: «كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جَدّ فينا»[1] أي: عظم.
- التدرج في تعليم الأطفال من السور القصار إلى السور الطوال تيسيراً من الله لعباده لحفظ كتابه.
- الدلالة على موضوع السورة وأهدافها، ولهذا نجد أن أغلب سور القرآن تحتوي على موضوع بارز ونمط مستقل:

فسورة النساء: يغلب عليها الحديث عن بعض الأحكام المتعلقة بالنساء.

وسورة التوبة: تتحدث عن المنافقين وكشف أسرارهم.

وسورة يوسف: تتحدث عن قصة يوسف عليه السلام.

وسورة المطففين: تتحدث عن تطفيف الكيل والميزان، وهكذا[2].

١١ ـ أسماء السور:

تنقسم سور القرآن من حيث تعدد الاسم وعدمه إلى ثلاثة أقسام:

الأول: ما له اسم واحد وهو أكثر سور القرآن وتبلغ أربعاً وسبعين سورة، ومنها: النساء، الأنعام، الأعراف، العصر، الهمزة، الفيل.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٣/١٢٠.

(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن ١/٢٦٥، والوسيط في تفسير القرآن المجيد ١/٥٨، والكشاف ١/٢٤٠، وتفسير الرازي ٢/١٢٨.

الثاني: ما له أكثر من اسم، وتبلغ أربعين سورة ومنها: الفاتحة، البقرة، براءة[١].

الثالث: أن تسمى عدة سور باسم واحد كتسمية البقرة وآل عمران بـ: «الزهراوين»، والفلق والناس بـ: «المعوذتين» والسور المبدوءة بـ: «حم» بـ: «الحواميم».

وكل سورة من سور القرآن الكريم لها اسم توقيفي عن النبي ﷺ، وقد يرد لبعضها أسماء أخرى رويت عن الصحابة أو التابعين كوصف لها وما تضمنته من معان.

١٢ ـ ترتيب سور القرآن:

اختلف العلماء في ترتيب سور القرآن الكريم على ثلاثة أقوال:

القول الأول:

إن ترتيب السور بتوقيف من النبي ﷺ فلم توضع سورة في موضعها من المصحف إلا بناء على أمر النبي ﷺ وتعليمه، أو على حسب ما فهمه الصحابة من تلاوته ﷺ، شأنه كترتيب الآيات سواء بسواء.

وممن ذهب إلى هذا:

أبو بكر الانباري، وأبو جعفر النحاس، والكرماني، وابن الحصار، والطيبي، وولي الدين الملوي، وابن عقيلة المكي.

وأدلتهم ما يلي:

- ما رواه الإمام أحمد وأبو داوود عن أوس بن حذيفة الثقفي قال: كنت في الوفد الذين أتوا النبي ﷺ أسلموا من ثقيف من بني

(١) الفاتحة: أم القرآن، فاتحة الكتاب، السبع المثاني، الحمد، الكنز، الشافية.
البقرة: سنام القرآن، فسطاط القرآن.
براءة: التوبة، الفاضحة.

مالك... ثم قال: قلنا: ما أمكثك عنا يا رسول الله؟ قال: طرأ علي حزبي من القرآن، فأردت أن لا أخرج حتى أقضيه. فسألْنا أصحاب رسول الله ﷺ حين أصبحنا، كيف تحزبون القرآن؟ قالوا: نحزبه ثلاث سور، وخمس سور، وسبع سور، وتسع سور، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل من (ق) حتى نختم»[(١)].

فإذا جمعت أعداد السور المذكورة هكذا:

(٣+٥+٧+٩+١١+١٣) كان المجموع (٤٨) فإذا عددنا ثمانياً وأربعين سورة كانت التي بعدهن سورة «ق» وهذا يدل على أن السور كانت مرتبة في عهد الرسول ﷺ.

- ما رواه البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال في بني إسرائيل، والكهف، ومريم إنهن من العتاق الأول وهن من تلادي»[(٢)] أراد بالعتاق الأول: السور التي نزلت أولاً بمكة، وتلادي: أي: من أول ما تعلمه من القرآن بمكة، فيلاحظ أنه ذكر هذه السور متتالية حسب ترتيبها في المصحف.

- ما رواه الإمام أحمد عن واثلة بن الأسقع أن النبي ﷺ قال: «أعطيت مكان التوراة السبع وأعطيت مكان الزبور المئين، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني، وفضلت بالمفصل»[(٣)].

ففي هذا الحديث إشارة من النبي ﷺ إلى ترتيب القرآن على النحو الذي أشار إليه وهو الترتيب الموجود الآن في المصحف.

- أخرج ابن أشته في كتاب المصاحف عن سليمان بن بلال قال:

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤/٩، ٣٤٣، وأبو داوود في سننه ٤٤٢/١ في كتابه: الصلاة، باب: تحزيب القرآن، وابن ماجه في سننه ٤٢٧/١ في كتاب: إقامة الصلاة في كم يستحب ختم القرآن.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٢٢٣/٥ في كتاب: التفسير، تفسير سورة بني إسرائيل.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١٠٧/٤، وأبو داوود الطيالسي في مسنده ١٣٦.

«سمعت ربيعة يُسْأل: لم قدمت البقرة وآل عمران وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة بمكة، وإنما نزلتا بالمدينة؟ فقال ربيعة:

قدمتا وألف القرآن على علم ممن ألفه، وقد اجتمعوا على العلم بذلك، فهذا مما ينتهى إليه ولا يسأل عنه»[1].

- أن الحواميم رتبت متتابعة، بينما المسبحات فصل بين سورها، كما فصل بين «طسم الشعراء» و«طسم القصص» بـــ «طس النمل» مع كونها أقصر منهما، فلو كان الترتيب اجتهاديا لما حصل التفريق بين المتماثلات من السور في الفواتح مع التناسب في الطول والقصر.
- لو كان ترتيب السور عن اجتهاد لظهرت العلة أو الحكمة التي بني عليها: فهو لم يرتب حسب النزول، ولا على حسب الطول والقصر، ولا على المكي والمدني، ولا على تجانس الموضوعات وقربها. فبقي أن يكون بتوقيف من النبي ﷺ.
- إجماع الصحابة على ترتيب المصحف الذي كتب في عهد عثمان رضي الله عنه، ولم يخالف في شأنه أو ترتيبه أحد حتى الذين كانت عندهم مصاحف مكتوبة على ترتيب آخر فلو لم يكن الأمر توقيفيا لحصل منهم خلاف وتمسكوا بها، ولم يسلموها لعثمان لحرقها. وهذا يدل على أن الأمر لا مجال للاجتهاد فيه.

القـول الثـانـي:

أن ترتيب السور كان باجتهاد من الصحابة رضوان الله عليهم ويروى هذا القول عن مالك بن أنس، وابن فارس، والباقلاني - في أحد قوليه - والقاضي عياض، وابن تيمية[2] وغيرهم وأدلتهم:

- أن مصاحف بعض الصحابة كانت مختلفة في ترتيبها عن مصحف عثمان رضي الله عنه.

---

(١) الأثر أورده القرطبي في الجامع ١/٦٠، والسيوطي في الإتقان ١/٢٢٠.

(٢) انظر: الإتقان في علوم القرآن ١/٢١٦، ونكت الانتصار ٨٢، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٣/٣٩٦.

فمصحف علي بن أبي طالب ﷺ كان مرتباً حسب النزول فأوله سورة العلق، ثم المدثر، ثم ن، ثم المزمل، ثم المسد، ثم التكوير... وهكذا إلى آخر السور المكية، ثم السور المدنية.

ومصحف عبدالله بن مسعود كان مبدوءاً بالبقرة، ثم النساء، ثم آل عمران، ثم الأعراف...

ومصحف أبي بن كعب كان مبدوءاً بالفاتحة، ثم البقرة، ثم النساء، ثم آل عمران، ثم الأنعام،... وقالوا: لو كان الترتيب توقيفيا لما اختلفت مصاحفهم في ترتيب السور[١].

- ما رواه مسلم عن حذيفة قال: صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى، فقلت يصلي بها في ركعة فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها... الحديث[٢].

ففيه دليل على أن النبي ﷺ قرأ سورة النساء قبل سورة آل عمران وهو ما يخالف ترتيبها المعهود.

القول الثالث:

أن ترتيب سور القرآن الكريم توقيفي إلا البعض منه فباجتهاد من الصحابة، واختلف في هذا البعض: فالبعض لم يحدده بل ذكر أنه قليل. والبعض الآخر يرى أن جميع السور قد رتبت ما عدا الانفال وبراءة، وذهب إلى هذا البيهقي ورجحه السيوطي.

وأدلة هذا القول تعود إلى أدلة القولين السابقين.

---

(١) انظر: فتح الباري ٣٨/٩، والفهرست لابن النديم ٣٩، وتاريخ القرآن للزنجاني ١٠٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٥٣٦/١ في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل.

القول الراجح:

من خلال عرض الأقوال وأدلة كل قول يظهر لي أن القول الراجح هو القول الأول فكما أن الآيات على هذا الترتيب توقيفي لا مجال للاجتهاد فيه، فكذلك تأليف السور على هذا الترتيب الذي نجده في المصاحف اليوم، لقوة أدلته، وسلامتها مما يضعفها أو يرد عليها من مناقشات.

مناقشة أدلة القولين الآخرين:

أولاً: أن استدلالهم باختلاف مصاحف الصحابة في ترتيبها لا حجة فيه على أن ترتيب السور اجتهادي وذلك للآتي:

- ❑ أن كتابة الصحابة لمصاحفهم كانت لهم خاصة، فجَمَعت إلى القرآن بعض التفسيرات والأدعية والمأثورات، لهذا لم يحاولوا أن يلزموا بها أحداً، ولم يدّعوا أن مخالفتها محرمة.
- ❑ إجماع أصحاب هذه المصاحف على المصحف الذي جمع في عهد عثمان وعلى ترتيبه، وتركوا مصاحفهم الفردية، ولو كان الأمر اجتهادياً لما فرطوا بمصاحفهم.
- ❑ أن جمع القرآن الكريم في عهد عثمان لم يعتمد فيه على هذه المصاحف في زيادة أو نقص، كما لم يعوّل عليها في الترتيب.
- ❑ لو كان أصحاب هذه المصاحف يرون أن ترتيب مصاحفهم بتوقيف لتمسكوا بها، ولما سلموها وعرضوها للحرق، فعدولهم عنها وعن ترتيبها دليل على أن الأمر ليس فيه مجال للاجتهاد.
- ❑ قد يحمل اختلافهم في الترتيب: إما على عدم علمهم بالتوقيف فلما استقر التوقيف في العرضة الأخيرة وبلغهم ذلك اتبعوا ترتيب المصاحف العثمانية.

وإما أنهم ظنوا أن الترتيب المعهود ليس بلازم فرتب كل واحد منهم مصحفه حسب اجتهاده.

ثانياً: استدلالهم بحديث حذيفة ﵁ يجاب عنه:

إما بأن قراءة النبي ﷺ كانت قبل التوقيف والترتيب، فكانت في ذلك الوقت سورة النساء مقدمة على سورة آل عمران. أو قصد ﷺ بيان جواز تقديم سورة على أخرى في التلاوة.

ومما يزيد في رجحان القول الأول:

- ❑ حرص الصحابة رضوان الله عليهم على القرآن الكريم، وعدم التصرف في أي أمر يتعلق به لم يكن أذن به الرسول ﷺ أو فعله.

فقد تحرّج أبو بكر ـ في أول الأمر ـ عندما عرض عليه عمر فكرة جمع القرآن في مصحف واحد، ومما قاله لعمر: «كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ».

كما تردد زيد حينما كلف بهذه المهمة، ومما قاله: «فو الله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان بأثقل عليّ مما كلفني من جمع القرآن»، وقال: «كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ»[(١)].

إذا كان هذا توجههم، فكيف يجرؤون على التصرف في ترتيب سور القرآن ولو رتبوه لوجد من يعترض عليه كأيّ أمر اجتهادي، ولمّا لم يوجد تبين أن ترتيبه أمر معلوم للجميع من عهد رسول الله ﷺ.

- ❑ أنه وفق هذا الترتيب كان النبي ﷺ يتلو القرآن في صلاته ووعظه وعند بيان حِكَمه وأحكامه، ووفق هذا الترتيب كان الصحابة يستظهرونه ويتدارسونه، فمُرَتِبَه هو الذي أنزله وتكفل بحفظه وهو أعلم به.

- ❑ أنه لم يكن من منهج جمع القرآن في عهد أبي بكر وعثمان ﵄ دراسة لأساليب القرآن، والمعاني التي قصد منها، ومناسبة السورة

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ١١٩/٨ في كتاب: الأحكام، باب: ما يستحب للكاتب أن يكون أمينا عاقلاً، وفي كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن ٩٨/٦.

لما قبلها وبعدها، والاعتبارات التي قام عليها سر الترتيب، مما يدل على أن الترتيب لا مجال للبحث والاجتهاد فيه.

١٣ ـ ترتيب الآيات والسور في التلاوة:

ترتيب الآيات في التلاوة:

اتفق العلماء على أنه لا يجوز تلاوة السورة من آخرها إلى أولها، ولم يثبت عن النبي ﷺ أنه قدم آية على آية في التلاوة، أو بدأ بالقراءة من آخر السورة إلى أولها.

وقد أثر عن عبدالله بن مسعود ﷺ أنه سئل عن رجل يقرأ القرآن منكوساً، قال: «ذاك منكوس القلب»[1]، وفسره أبو عبيد بأنه أن يبدأ من آخر القرآن من المعوذتين ثم يرتفع إلى البقرة كنحو ما يتعلم الصبيان في الكُتّاب، لأن السنة خلاف هذا.

وقال في معناه «يتأوله كثير من الناس أنه أن يبدأ الرجل من آخر السورة فيقرأها إلى أولها، قال: هذا شيء ما أحسب أحداً يطيقه، لا كان هذا في زمن عبدالله ولا أعرفه»[2].

ولعل ما يرد بكراهية تنكيس السور المراد به: أن يقرأ بسورة قبل السورة التي قبلها في ترتيب المصحف.

ترتيب السور في التلاوة:

ويقصد به: هل يقرأ بسور القرآن الكريم على حسب ترتيبها في المصحف، فيقرأ بالسورة ثم التي تليها، أو يجوز أن يخالف الترتيب فيقرأ بالسورة المتأخرة في الترتيب قبل المتقدمة عليها؟

---

(١) أخرجه عبدالرزاق في مصنفه ٣٢٣/٤، وذكره النووي في التبيان ٥٤ وقال: إسناده صحيح.
(٢) غريب الحديث لأبي عبيد ٢٢٠/٢.

وقد اتجه العلماء في ذلك اتجاهين:

الأول: منهم من قال بجواز تلاوة السورة المتأخرة في الترتيب على المتقدمة عليها كالإمام الشافعي، وابن بطال، والقاضي عياض... وغيرهم[١].

واستدلوا على ذلك بأدلة منها:

- ما رواه مسلم عن حذيفة قال: صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة، فقلت يركع عند المائة ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها... الحديث»[٢] فهنا قدم في التلاوة سورة النساء على سورة آل عمران مع أنها متأخرة عن سورة آل عمران في الترتيب في المصحف.

- ما ترجمه البخاري في صحيحه حيث قال: «باب الجمع بين السورتين في الركعة، والقراءة بالخواتيم، وبسورة قبل سورة، وبأول سورة، وقال فيه: «وقرأ الأحنف بـ «الكهف» في الأولى، وفي الثانية بـ «يوسف» أو «يونس» وذكر أنه صلى مع عمر الصبح بهما»[٣].

الثاني: ومن العلماء من اتجه إلى أفضلية تلاوة القرآن الكريم بحسب ترتيبه في المصحف كالإمام أحمد في رواية عنه، وأبي حنيفة والنووي، وابن كثير وغيرهم.

قال ابن كثير: «والأولى إذا قرأ أن يقرأ متوالياً، كما قرأ عليه السلام في صلاة الجمعة بـــ: سورة الجمعة والمنافقين، وتارة بـــ: (سبح) و(هل أتاك حديث الغاشية)، فإن فرق جاز»[٤].

---

(١) انظر: فتح الباري ٤٦/٩، وصحيح مسلم بشرح النووي ٦٢/٦.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٥٣٦/١.
(٣) صحيح البخاري ١٨٨/١ في كتاب الإمامة، وفتح الباري ٢١١/٢.
(٤) فضائل القرآن ٢١.

وقال النووي: «لأن ترتيب المصحف لحكمة فلا يتركها إلا فيما ورد الشرع فيه بالتفريق كصلاة الصبح يوم الجمعة بـــ: الم، وهل أتى، وصلاة العيد بـــ: ق، واقتربت، ونظائر ذلك فلو فرق السور أو عكس جاز وترك الأفضل»[١].

واستدلوا بما ثبت عن النبي ﷺ في أحاديث كثيرة من قراءته لسور متتالية في المصحف ومن ذلك:

- قراءته ﷺ بسورة الجمعة والمنافقون يوم الجمعة، في الحديث الذي أخرجه مسلم[٢].
- وأخرج مسلم عن النعمان بن بشير قال كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيدين وفي الجمعة بـــ: «سبح اسم ربك الأعلى»، «هل أتاك حديث الغاشية» قال: «وإذا اجتمع العيد والجمعة في يوم واحد يقرأ بهما أيضاً في الصلاتين»[٣].

التوجيه: عند النظر في القولين نجد أن أصحابهما اتفقوا على جوازقراءة سور القرآن الكريم مرتبة، السورة إثر السورة إلا أن أصحاب القول الثاني قالوا: إن تلاوة سورة متأخرة قبل سورة متقدمة عليها في الترتيب في المصحف خلاف الأولى، فالأفضل عندهم أن تقرأ سور القرآن الكريم حسب ترتيبها في المصحف سواء كان ذلك في الصلاة أو تلاوته خارجها.

والذي أراه أن القول الثاني هو الذي تميل إليه النفس للآتي:

- أن الأصل أن تكون القراءة على حسب ترتيب المصحف ويتمشى مع ما رجحناه من أن ترتيب السور توقيفي.

---

(١) المجموع للنووي ١٦٥/٢.

(٢) صحيح مسلم ٥٩٧/٢ في كتاب: الجمعة، باب: ما يقرأ في صلاة الجمعة.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ٥٩٨/٢ في كتاب: الجمعة، باب: ما يقرأ في صلاة الجمعة.

- إتباعاً للأدلة الواردة في قراءة سور معينة لصلوات مخصوصة مرتبة حسب ترتيب المصحف.

أما الأدلة التي استدل بها أصحاب القول الأول، فيحمل حديث حذيفة على أن قراءة النبي ﷺ كانت قبل العرضة الأخيرة التي أوقفه بها جبريل على الترتيب النهائي للمصحف[1]، أو على بيان الجواز وعدم وجوب الترتيب.

أما ما ترجمه البخاري وما ذكره عن الأحنف فيحمل أيضاً على بيان الجواز وعدم وجوب الترتيب على الدوام.

وأما قراءة سور حسب ترتيب المصحف ولكن بدون توال فهذا لا شيء فيه لأنه تابع لنفس ترتيب السور وقد ورد في ذلك أحاديث كثيرة منها:

- ما أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة بـــ: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ و﴿هل أتى على الإنسان﴾[2].
- ما أخرجه مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قرأ في ركعتي الفجر ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾[3].
- ما أخرجه الإمام أحمد والترمذي والنسائي عن عبدالرحمن بن أبزي عن أبيه عن النبي ﷺ أنه كان يقرأ في الوتر بـــ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾

---

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ٦/٦٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ١/٢١٤ في كتاب: الجمعة، باب: ما يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة، ومسلم في صحيحه ٢/٥٩٩ في كتاب: الجمعة، باب: ما يقرأ في يوم الجمعة.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ١/٥٠٢ في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب ركعتي سنة الفجر.

فإذا سلم قال: «سبحان الملك القدوس» ثلاثاً ورفع بها صوته»[١].

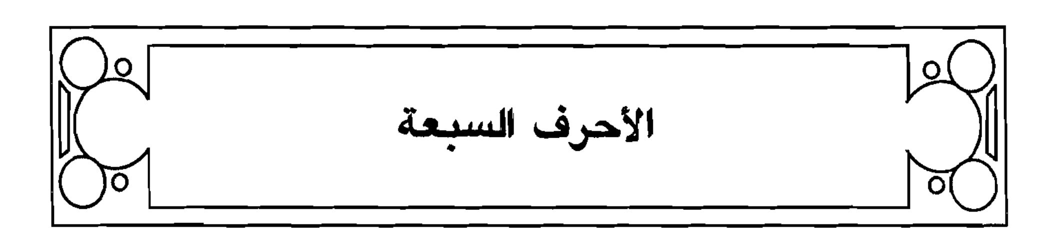
وينبغي أن يعلم أن الترتيب غير داخل في التعليم والتدريس يقول النووي: «وأما تعليم الصبيان من آخر المصحف إلى أوله فحسن، ليس هذا من هذا الباب، فإن ذلك متفاضلة في أيام متعددة مع ما فيه من تسهيل الحفظ عليهم»[٢].



(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤٠٦/٣، والترمذي في سننه ٣٢٦/٢ في كتاب: أبواب الوتر، باب: ما جاء فيما يقرأ به في الوتر، والنسائي في سننه ٤٤٨/١ في كتاب: الوتر، باب: القراءة في الوتر.

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن ٥٥.

الموضوع الثاني عشر



الأحرف السبعة

١ ـ معنى الأحرف:

الأحرف جمع حرف، والحرف هو طرف كل شيء وحَدُّه، وله عدة استعمالات منها:

- اللغة، كما يقال: حرف قريش، أي: لغتها.
- الوجه من وجوه قراءة القرآن، كما يقال: حرف ابن مسعود، وحرف نافع، أي: قراءتهما.
- الحرف من حروف الهجاء: أ، ب، ت،....
- الطرف والجانب، فحرف كل شيء طرفه وشفيره وحَدُّه.
- الشك، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٍۖ﴾[١]، قال الزجاج: أي: على شك[٢].

٢ ـ معنى السبعة:

السبعة أو السبع هو العدد الحسابي الذي يقع بين الستة والثمانية،

---

(١) سورة الحج الآية (١١).

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٤١٤/٣، وانظر لسان العرب مادة «حرف» ٤١/٩، ٤٢.

يقال: سبع نسوة، وسبعة رجال[١]، قال تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾[٢].

وقد يستعمل لفظ السبعة للمبالغة في كثرة الآحاد، كما يستعمل لفظة السبعين للمبالغة في العشرات، والسبعمائة للمبالغة في المئات[٣].

٣ ـ عناية العلماء بالأحرف السبعة:

اهتم العلماء بموضوع الأحرف السبعة وبخاصة من ألفوا في علوم القرآن الكريم، وقد أفرده بعض المتقدمين والمتأخرين بتآليف مستقلة ومن هذه الكتب:

- ❑ الإبانة عن معاني القراءات، لمكي بن أبي طالب القيسي المتوفى سنة (٤٣٧هـ).
- ❑ الأحرف السبعة للقرآن، لأبي عمرو الداني، المتوفى سنة (٤٤٤هـ) وهو مطبوع بتحقق د/ عبدالمهيمن طحان.
- ❑ المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، لشهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة المقدسي المتوفى سنة (٦٦٥هـ)، تحقيق: طيار آلتي قولاج.
- ❑ نزول القرآن على سبعة أحرف، لمناع القطان.
- ❑ حديث الأحرف السبعة، د/ عبدالعزيز القارىء.
- ❑ الأحرف السبعة ومنزلة القراءات منها، د/ حسن ضياء الدين عتر.

---

(١) انظر المفردات للراغب الأصفهاني ٢٢٢.
(٢) سورة الكهف الآية (٢٢).
(٣) انظر النشر في القراءات العشر ١/٢٥، ٢٦.

- الأحرف القرآنية السبعة، د/ عبدالرحمن المطرودي.

ومن الكتب التي تناولته بالبحث:

- كتب التفسير عموماً وخاصة جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لابن جرير الطبري في مقدمته، المتوفى سنة (٣١٠هـ).
- البرهان في علوم القرآن، لبدر الدين الزركشي المتوفى سنة (٧٩٤هـ).
- الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطي المتوفى سنة (٩١١هـ).

٤ ـ أدلة نزول القرآن الكريم على سبعة أحرف:

لقد تواترت نصوص السنة بأحاديث نزول القرآن الكريم على سبعة أحرف، وخرجها الأئمة في كتبهم، ولا يكاد يخلو منها مصنف في الحديث.

وقد روى ذلك من الصحابة رضوان الله عليهم ما يقرب من اثنين وعشرين صحابيا سواء أكان ذلك مباشرة عنه ﷺ أم بواسطة[1].

وتعتبر هذه الأحاديث من أقوى الأدلة على أن القراءات القرآنية كلها كلام الله تعالى، لا مدخل للبشر فيها، وكلها منزلة من عند الله على رسوله محمد ﷺ.

ومن هذه الأحاديث:

- ما رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أقرأني جبريلُ على حرفٍ فراجعتُهُ فلم أَزَلْ أستزيدُه ويزيدُني، حتى انتهى إلى سبعةِ أحرُفٍ»[2].

---

(١) انظر في رحاب القرآن ٢١١/١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ١٠٠/٦ في كتاب: فضائل القرآن، باب: أنزل القرآن على سبعة أحرف، ومسلم في صحيحه ٥٦١/١.

❑ وروى البخاري ومسلم والترمذي وابو داوود والنسائي وأحمد أن عمر بن الخطاب ﷺ قال: «سمعتُ هشام بن حكيم يقرأُ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ فاستمعتُ لقراءته، فإذا هو يقرأُ على حروف كثيرةٍ لم يُقرِئنيها رسولُ الله ﷺ فِكدْتُ أساوره في الصلاة[١]، فتصبَّرتُ حتى سلَّم، فَلَبَّبْتُهُ[٢] بردائه فقلت: مَنْ أقرأكَ هذه السورةَ التي سمعتُكَ تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسولُ الله ﷺ. فقلتُ: كذبت، فإنّ رسولَ الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأتَ، فانطلقتُ به أقودُهُ إلى رسول الله ﷺ، فقلت إني سمعتُ هذا يقرأُ بسورة الفرقان على حروف لم تُقْرِئنيها. فقال رسول الله ﷺ: أرْسِلْه. اقرأ يا هشام، فقرأ عليه القراءةَ التي سمعتُهُ يقرأُ فقال رسولُ الله ﷺ: كذلك أنزلت. ثم قال: اقرأ يا عمرُ، فقرأتُ القراءة التي أقرأني. فقال رسول الله ﷺ: كذلك أنزلت، إن هذا القرآنَ أنزل على سبعة أحرفٍ فاقرؤا ما تيسر منه»[٣].

❑ وروى مسلم وأبو داوود والنسائي عن أبي بن كعب ﷺ أن النبي ﷺ كان عند أَضَاةِ بني غفَار[٤] قال: فأتاه جبريلُ عليه السلام فقال: إن الله يأمرك أن تَقْرأَ أمَّتُك القرآن على حرف. فقال: «أسأل الله معافاتَهُ ومغفرتَهُ وإنّ أمتي لا تطيق ذلك» ثم أتاه الثانية. فقال: إن الله يأمُرُك أن تَقْرَأَ أمَّتُك القرآنَ على حرفين. فقال: «أسألُ الله معافاتَهُ ومغفرتهُ، وإن أمَّتي لا تطيق ذلك»، ثم جاءه الثالثة فقال: إن الله يأمرُك أن تَقْرَأَ أمَّتُك القرآن على ثلاثة أحرف. فقال: «أسألُ الله معافاتَهُ ومغفرتهُ، وإن أمتي لا تطيق ذلك».

---

(١) أي: أواثبه وأقاتله.

(٢) أي: جمعت ثيابه عند صدره ونحره.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٦/١٠٠ في كتاب: فضائل القرآن، باب: أنزل القرآن على سبعة أحرف، ومسلم في صحيحه ١/٥٦٠ في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: بيان أن القرآن على سبعة أحرف، والترمذي في سننه ٥/١٩٣ في كتاب: القراءات، باب: ما جاء أنزل القرآن على سبعة أحرف.

(٤) الاضاة الماء المستنقع كالغدير والسيل أو نحوه، وغفار: قبيلة، وموضع قريب من مكة.

ثم جاءه الرابعة فقال: «إن الله يأمُرُكَ أن تَقْرَأَ أمَّتُك القرآن على سبعة أحرف فأيُّما حرفٍ قرؤا عليه فقد أصابوا»[١].

والأحاديث في ذلك مستفيضة استقرأ معظمها ابن جرير الطبري في مقدمة تفسيره.

٥ ـ أشهر أقوال العلماء في المراد بالأحرف السبعة:

اختلف العلماء في بيان المراد بالأحرف السبعة اختلافاً كثيراً، فذكر ابن حبان أن العلماء اختلفوا فيها على خمسة وثلاثين قولاً[٢]، وبلغت عند السيوطي في كتابه «الإتقان» أربعين قولاً[٣]، ولكن عند البحث والتدقيق فيها نجد أن أكثرها متداخل وبعضها لا قيمة له من حيث الدليل والنظر.

ولعل كثرة هذه الأقوال يعود إلى أن النبي ﷺ لم يبين المراد منها بحكم أنها كانت معروفة لدى الصحابة رضوان الله عليهم فلم يحتاجوا إلى بيانها، لذا لم يسألوا عنها.

ويمكن أن أشير إلى أشهر هذه الأقوال بالآتي:

الأول: أن حقيقة العدد ليست مرادة، لأن لفظ السبعة يطلق في اللغة ويراد به الكثرة في الآحاد، كما يطلق لفظ السبعين ويراد الكثرة في العشرات، والسبعمائة في المئين، ولا يراد بها العدد المعين، وهو قول القاضي عياض، ومال إليه جمال الدين القاسمي في مقدمة تفسيره[٤]، ومصطفى صادق الرافعي في إعجاز القرآن، وكأن مراد هؤلاء أنه رخص

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٥٦٢/١، ٥٦٣ في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: بيان أن القرآن على سبعة أحرف، وأبو داوود في سننه ٤٦٦/١ في كتاب: الصلاة، باب: أنزل القرآن على سبعة أحرف، والنسائي في سننه ٣٢٦/١ في كتاب: افتتاح الصلاة، باب: جامع ما جاء في القرآن.

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن ٤٢/١، والإتقان ١٧٣/١.

(٣) انظر الإتقان في علوم القرآن ١٦٤/١ النوع السادس عشر.

(٤) محاسن التأويل ٢٨٧/١.

للصحابة أن يقرأ كل منهم بلغته دون تحديد، وأن يبدلوا اللفظ المنزل بمرادفه من ألسنتهم، كعليماً غفوراً رحيماً.

ويـرد عـلـيـه:

بأن النبي ﷺ أخبر بأن جبريل عليه السلام قال له: «إن الله يأمرك أن تُقْرىء أمتك القرآن على سبعة أحرف» فهذا صريح في أن ما لم يُقرىء به النبي ﷺ فليس من الأحرف السبعة المرخص بها.

ثم إن خلاف الصحابة الذي نقل إلينا لم يكن فيه أن أحداً منهم قرأ بشيء من عند نفسه وباجتهاده، بل كان كل واحد يقول: أقرأني رسول الله ﷺ.

الثاني: أن المراد سبعة أصناف من المعاني والأحكام هي: الأمر، والنهي، والوعد، والوعيد، والجدل، والقصص، والمثل. أو: الأمر، والنهي، والحلال، والحرام، والمحكم، والمتشابه، والأمثال.

واستدل أصحاب هذا القول بما أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «كان الكتاب الأول نزل من باب واحد وعلى حرف واحد، ونزل القرآن من سبعة أبواب وعلى سبعة أحرف: زجر، وأمر، وحلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال، فأحلوا حلاله وحرموا حرامه وافعلوا ما أمرتم به وانتهوا عما نهيتم عنه، واعتبروا بأمثاله، واعملوا بمحكمه، وآمنوا بمتشابهه، وقولوا آمنا به كل من عند ربنا»(١).

قال ابن عطية: «هذا القول ضعيف، لأن هذه لا تسمى أحرفاً، وأيضاً فالإجماع أن التوسعة لم تقع في تحريم حلال، ولا تحليل حرام، ولا في تغيير شيء من المعاني المذكورة»(٢).

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ١/٥٥٣.

(٢) المحرر الوجيز ١/٣٥، وانظر الجامع لأحكام القرآن ١/٤٦، والأحرف السبعة لحسن عتر ١٤٤.

وأيضاً: ما ثبت في الروايات بأن الأحرف وجوه يُقْرأ بها كقول النبي ﷺ «أقرأني جبريل» وقول عمر: فإن رسول الله أقرأنيها على غير ما قرأت».

وأما ما استدلوا به من حديث ابن مسعود فإن المقصود بالأحرف: المعاني السبعة التي اشتمل عليها القرآن دون تخيير فيها، وأنه يمكن الزيادة فيها والنقص حسب الإجمال والتفصيل، أما الأحرف السبعة فمحصورة في العدد سبعة على الحقيقة.

الثالث: أن المراد سبع لغات من لغات العرب الفصحى نزل عليها القرآن، فهي متفرقة فيه، وبعض هذه اللغات اسعد حظاً بالقرآن من بعض، فبعضه بلغة قريش، وبعضه بلغة هذيل، وبعضه بلغة هوازن، وبعضه بلغة اليمن... وغيرهم، وليس المقصود أنها لغات مختلفة في كلمة واحدة متفقة المعنى، بل إن اللغات السبع مفرقة فيه، وذهب إليه أبو عبيد القاسم بن سلام، وأحمد بن يحيى المعروف بـ: «ثعلب»، والأزهري، ونصره البيهقي في شعب الإيمان واختاره ابن عطية[١].

ويرد عليه بأن لغات ولهجات العرب الواردة بالقرآن أكثر من سبع لغات، وأيضا يدفع بتواتر القراءات التي تثبت عدة وجوه في تلاوة الكلمة الواحدة، كما أن الأحاديث الواردة تدل على أن معنى الأحرف هو في تعدد وجوه قراءة القرآن في الكلمة الواحدة، لا في تأليف أجزائه من عدة لغات، ثم إن الحكمة في نزول القرآن على سبعة أحرف لا تتأتى على هذا المعنى.

الرابع: أن المراد سبع لغات من لغات العرب تكون في الكلمة الواحدة في الحرف الواحد باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني كقول القائل: هلم، وأقبل، وتعال، وإليَّ، وقصدي، ونَحوْي، وقُرْبي، ونحو ذلك مما

---

(١) انظر: فضائل القرآن لأبي عبيد ٣٣٩، والبرهان ٣٠٩/١، وشعب الإيمان ٤٢١/٢، والمحرر الوجيز ٤١/١، والأحرف السبعة لعتر ١٧٠، وفي رحاب القرآن ٢٤٢.

تختلف فيه الألفاظ وتتفق فيه المعاني، وإن اختلفت بالبيان الألسن، وليس معنى هذا أن كل معنى من المعاني له سبعة ألفاظ مترادفة أو متقاربة، وإنما يستعمل القرآن الألفاظ المستعملة عند العرب وإن قَلَّت، لأن لغاتهم متداخلة ومشتركة في كثير من الألفاظ.

وذهب إليه ابن جرير الطبري، وسفيان بن عينيه، وابن عبدالبر، والطحاوي. وقد أشار ابن جرير الطبري إلى أن هذه اللغات لم تبق جميعها، بل إن عثمان ﷺ جمع المسلمين على حرف واحد ومصحف واحد وحرق ما عدا المصحف الذي جمعهم عليه[١].

ومن أبين ما استدلوا به حديث أبي بكرة الثقفي الذي أخرجه الطبري عن أبي بكرة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال جبريل: اقرؤا القرآن على حرف. فقال ميكائيل: استزده. فقال: على حرفين، حتى بلغ ستة أو سبعة أحرف، فقال: كلها شاف كاف ما لم يختم آية عذاب برحمة، أو آية رحمة بعذاب كقولك: هلم وتعال»[٢].

وكما جاء في حديث أبي بن كعب أنه كان يقرأ «كلما أضاء لهم مَشَوا فيه، مَرُّوا فيه، سَعَوا فيه».

وما جاء عن ابن مسعود أنه كان يقرأ: «للذين آمنوا انظرونا، أمهلونا، أخرونا»[٣].

واختلفوا في تحديد اللغات السبع[٤].

ويجاب عنه بما يلي:

- إنه من المعلوم أن الحكمة من نزول القرآن على سبعة أحرف التخفيف والتيسير ورفع المشقة عن الأمة في قراءة القرآن الكريم وهذا لا يتأتى

---

(١) جامع البيان ٢٨/١.
(٢) جامع البيان للطبري ٤٣/١ وهو في مسند الإمام أحمد ٥١/٥.
(٣) انظر: مناهل الفرقان ١٦٧/١، ١٦٨.
(٤) انظر: حديث الأحرف السبعة لعبدالعزيز قاريء ٥٩.

في تعدد الكلمات، فالعرب يكثر اختلافهم في اللهجات من إدغام وفك، وفتح وإمالة، وهمز وتخفيف، ومد وقصر فالمشقة هنا أعظم من المشقة في استعمال هلم، مكان، أقبل أو تعال.

- ❑ إن قولهم: أن عثمان اقتصر على حرف واحد واطّرح الأحرف الستة الباقية قول عجيب بل ضعيف، فإنه دعوى بنسخ بعض القرآن بإجماع الصحابة، إذ إن كل حرف من الأحرف المنزلة هو قرآن فكيف يحق لعثمان أو لأي أحد من الصحابة إلغاء شيء من القرآن بغير نص صريح من الشارع.
- ❑ إن الحكمة من رخصة الأحرف السبعة لا تزال قائمة بل هي أشد وضوحاً بعد دخول الناس من مختلف الألسنة والأجناس في الإسلام، فهل يشق على القرشي والهذلي وهما أبناء لغة واحدة ولا يشق على الأعاجم؟

الخامس: أن المراد بها الأنواع أو الوجوه التي يقع بها التغاير والاختلاف في الكلمات القرآنية ولا يخرج عنها، وذهب إليه ابن قتيبة، وأبو الفضل الرازي المقرىء، ومحمد بن الجزري المقرىء.

ثم اختلفوا في تعيينها وحصرها:

- ❑ فذهب ابن قتيبة إلى أنها سبعة أوجه هي:

١ ـ الاختلاف في إعراب الكلمة أو في حركة بنائها بما لا يزيلها عن صورتها في الكتاب ولا يُغَيِّر معناها. نحو: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾[1]، و﴿أَطْهَرَ﴾ هي قراءة ليست سبعية.

٢ ـ أن يكون الاختلاف في إعراب الكلمة وحركات بنائها بما يُغَيِّر معناها ولا يزيلها عن صورة الكتاب. نحو: ﴿رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾[2] و«ربُّنا بَاعَدَ بين أسفارنا» وهي قراءة شاذة.

---

(١) سورة هود الآية (٧٨).

(٢) سورة سبأ الآية (١٩).

٣ ـ أن يكون الاختلاف في حروف الكلمة دون إعرابها بما يُغَيِّر معناها ولا يزيل صورتها. نحو: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾[1] و﴿فرغ﴾ شاذة.

٤ ـ أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يُغَيِّر صورتها في الكتاب، ولا يغيِّر معناها. نحو: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾[2] و(زَقْيةً) شاذة، و﴿كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ﴾[3] و (كالصوف) شاذة.

٥ ـ أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يزيل صورتها ومعناها. نحو: ﴿وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ۝٢٩﴾[4] و (طَلَعْ) شاذة.

٦ ـ أن يكون الاختلاف بالتقديم والتأخير. نحو: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ﴾[5] و (وجاءت سكرة الحق بالموت) شاذة.

٧ ـ أن يكون الاختلاف بالزيادة والنقصان. نحو: ﴿وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾[6] وفي قراءة أخرى سبعية (وما عَملَتْ أيديهم)[7].

❏ وقال أبو الفضل الرازي هي:

١ ـ اختلاف أوزان الأسماء من الواحد والتثنية والجموع والتذكير والمبالغة... ونحوها.

٢ ـ اختلاف تصريف الأفعال وما تسند إليه، نحو: الماضي والمستقبل والأمر، وأن يسند إلى المذكر والمؤنث، والمتكلم والمخاطب، والفاعل والمفعول به.

---

(١) سورة سبأ الآية (٢٣).
(٢) سورة يس الآية (٢٩).
(٣) سورة القارعة الآية (٥).
(٤) سورة الواقعة الآية (٢٩).
(٥) سورة ق الآية (١٩).
(٦) سورة يس الآية (٣٥).
(٧) تأويل مشكل القرآن ص ٣٦، وانظر: حديث الأحرف السبعة لعبدالعزيز قاريء ٦٠.

٣ ـ وجوه الأعراب.

٤ ـ الزيادة والنقصان.

٥ ـ التقديم والتأخير.

٦ ـ القلب والإبدال في كلمة بأخرى، أو أحرف بأخر.

٧ ـ اختلاف اللغات[1].

❑ وذهب ابن الجزري إلى أن اختلافها يرجع إلى سبعة أوجه، ورأى أنها الأحرف السبعة المرادة بالحديث، وهي:

١ ـ الاختلاف في الحركات بلا تغيير في المعنى والصورة. نحو: «يَحْسِبُ» بفتح السين وكسرها.

٢ ـ الاختلاف في الحركات بتغير المعنى فقط. نحو: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾[2]، وقرأ ابن كثير بنصب آدم ورفع كلمات.

٣ ـ الاختلاف في الحروف بتغير المعنى لا الصورة. نحو: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾[3]، وقرأ حمزة والكسائي «تتلو» من التلاوة منهم لأعمالهم.

٤ ـ الاختلاف في الحروف بتغير الصورة لا المعنى. نحو: «الصراط» و«السراط». «بصطة» و«بسطة».

٥ ـ الاختلاف في الحروف بتغير الصورة والمعنى. نحو: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[4]، وقرىء «فَامْضُوا» وهي قراءة شاذة، «يَأْتَل» و «يتألَّ» وهي قراءة أبي جعفر (عشرية).

---

(١) انظر: قوله في الإتقان في علوم القرآن ١٦٦/١ النوع السادس عشر.

(٢) سورة البقرة الآية (٣٧).

(٣) سورة يونس الآية (٣٠).

(٤) سورة الجمعة الآية (٩).

٦ - الاختلاف في التقديم والتأخير. نحو: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾[(١)] مع (وجاءت سكرة الحق بالموت). و﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾[(٢)] مع (فَيُقْتَلُون ويَقْتِلُون) وهي قراءة حمزة والكسائي.

٧ - الاختلاف في الزيادة والنقصان. نحو: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾[(٣)] مع وأوصى[(٤)] وهي قراءة نافع وابن عامر.

واستند هؤلاء في أقوالهم بالاعتماد على استقراء الأوجه في الاختلاف بين القراءات وقالوا إنه يتفق مع اشتمال المصاحف العثمانية على الأحرف السبعة، كما أن الأخذ به لا يلزمه محذور. وقد رجح كثير من العلماء المتأخرين هذا القول كالزرقاني وعدنان زرزور وصبحي الصالح.

ويجاب عن هذا القول:

- ❑ بأنه يلزمهم حصر هذه الأنواع وتعيينها، وقد اختلفوا في ذلك، كما أنهم تكلفوا بمحاولتهم لحصرها لكي يوافقوا العدد المذكور في الأحرف.
- ❑ أن ابن قتيبة والجزري لم يذكرا اختلاف اللهجات مع أنه من أهمها بل إن معظم أوجه الاختلاف في أحرف القرآن من هذا النوع.
- ❑ وأيضا أن بعض وجوه التغاير والاختلاف التي ذكروها ورد بقراءات الآحاد، ولا خلاف في أن كل ما هو قرآن يجب أن يكون متواتراً.

الرأي الراجح:

أرى أن الرأي الراجح هو الجمع بين الأقوال: فأقول: إن المراد بالأحرف السبعة هي: «تعدد وجوه قراءة القرآن في الكلمة الواحدة، سواء

---

(١) سورة ق الآية (١٩).
(٢) سورة التوبة الآية (١١١).
(٣) سورة البقرة الآية (١٣٢).
(٤) النشر في القراءات العشر ٢٧/١، ٢٨.

في اللفظ فقط مع اتفاق المعنى، أم في اللفظ والمعنى ـ على أن توافق الرسم العثماني ـ ويمكن القراءة بأي منها، ـ فهي قرآن منزل ـ، وأقصى حد يمكن أن تبلغه هذه الوجوه سبعة أوجه أو أحرف في الكلمة الواحدة، ولا يلزم أن تبلغ الأوجه هذا الحد في كل موضع من القرآن».

مع العلم أن الأحرف القرآنية السبعة احتوت على لغات العرب الفصحى دون حصرها في سبع لغات أو ثمان أو عشر، بل نلحظ أن معظم لغات العرب الفصحى نجدها في أحرف القرآن، إلا أن معظم القرآن أنزل بلغة قريش.

ومن تلقى القراءات القرآنية وتتبعها يجد أن سائر القرآن على نوعين من حيث القراءة والرواية:

- ❑ مواضع الاتفاق: لم ترد إلا على وجه واحد وهو معظم القرآن الكريم.
- ❑ مواضع الاختلاف: حيث ورد فيها وجهان فأكثر إلى سبعة.

ولم يثبت أكثر من سبعة أوجه متواترة في موضع.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾[1].

- ❑ فقرأ نافع وأبو جعفر «يرتعِ» بالياء وكسر العين.
- ❑ وقرأ عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر «يَرتعْ» بالياء مع سكون العين.
- ❑ وقرأ أبو عمرو وابن عامر «نَرتعْ» بالنون وجزم العين.
- ❑ وقرأ البَزّي عن ابن كثير «نرتعِ» بالنون وكسر العين.
- ❑ وقرأ قنبل عن ابن كثير «نرتعِي» بالنون وكسر العين مع إثبات الياء.

---

(١) سورة يوسف الآية (١٢).

- وقرأ ابن محيصن «يُرْتِعْ»[١].

وأيضاً قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ﴾[٢].

- قرأ حمزة «عَبُد الطاغوت».
- قرأ ابن مسعود «عُبْد الطاغوت».
- قرأ أبي «وعبدوا الطاغوت».
- قرأ الحسن «عَبْدَ الطاغوت».
- قرأ الشنبوذي «عُبُدَ الطاغوت» جمع عبيد.
- قرأ عبدالله في رواية «وعُبِدت الطاغوت» مبنيا للمفعول.
- قرأ الباقون «عَبَدَ الطاغوت»[٣].

وقد أشار إلى هذا الرأي السيوطي في القول الثالث والرابع[٤] إلا أنه مَرَّ عليهما غير عابئي بهما، وكذا ابن حجر العسقلاني الذي يُعَدُّ كلامه من أمثل ما ذكر في بيان معنى الأحرف السبعة يقول: «بابُ أُنْزِل القرآن على سبعة أحرف: أي على سبعة أوجه يجوز أن يُقْرَأ بكل وجه منها، وليس المراد أنه كل كلمة ولا جملة منه تُقرأ على سبعة أوجه، بل المراد أن غاية ما انتهى إليه عدد القراءات في الكلمة الواحدة إلى سبعة»[٥] ثم قال: «فإن قيل: فإنا نجد بعض الكلمات يقرأ على أكثر من سبعة أوجه. فالجواب: إن غالب ذلك إما لا يثبت الزيادة، وإما أن يكون من قبيل الاختلاف في كيفية الأداء كما في المد والإمالة ونحوهما»[٦] كما ذكر هذا القول ورجحه د. عبدالعزيز قاريء[٧].

---

(١) انظر: الحجة لابن زنجله ٣٥٦، والإتحاف ١٤٢/٢.
(٢) سورة المائدة الآية (٦٠).
(٣) انظر: الحجة لابن زنجله ٢٣١، وإتحاف فضلاء البشر ٥٣٩/١.
(٤) انظر: الإتقان في علوم القرآن ١٦٥/١ (النوع السادس عشر).
(٥) فتح الباري ٢٠/٩.
(٦) انظر: المرجع السابق.
(٧) انظر: حديث الأحرف السبعة للقاريء ٨٨.

وقد أشار إلى أنه لا يلزم أن تنزل كل كلمة في القرآن على سبعة أحرف أبو عبيد (في فضائل القرآن) وابن قتيبه، وأبو الفضل الرازي، وابن الجزري (في النشر)، والبيهقي، وأبو حاتم السجستاني.

ويدل على هذا الرأي الراجح ما يلي:

- وصف النبي ﷺ والصحابة في الروايات السابقة لها بأنها وجوه قراءة، فمثلاً يقول ﷺ: «أقرأني جبريل على حرف»، ويقول حكاية عن جبريل عليه السلام: «إن الله يأمرك أن تَقْرَأ أمتك القرآن» وفي رواية «أن تُقْرِيء أمتك...» وقوله ﷺ بعد ذكر الأحرف: «فاقرأوا منها ما تيسر...» وقوله: «فبأي حرف قرأوا فقد أصابوا...» ويقول عمر: «سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان على حروف لم يقرئنيها رسول الله صلى الله علية وسلم». ويقول أبي بن كعب: «كنت في المسجد فدخل رجل يصلي فقرأ قراءة أنكرتها عليه، ثم دخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه».
- وأيضا قوله ﷺ في حديث أبي بن كعب: «فأيما حرف قرؤا فقد أصابوا» أي: أصابوا القرآن. فكل وجه من الأوجه المنزلة قرآن، وكلها كافٍ، ولا ترجيح بين شيء منها، إذ هي أبعاض القرآن، فهو متكون من مجموعها، ولذلك حرص عثمان رضي الله عانه عند كتابتها في المصاحف أن يثبتها جميعها برسم واحد حتى لا يتوهم أحد أن هناك ترجيحاً لبعضها على بعض[1].
- وأيضاً أن الرخصة والتيسير يتحققان بهذا المعنى، فأصل المشقة إنما هو في القراءة، فتعدد أوجهها، ثم تخير المكلف بينها، يختار منها ما يسهل على لسانه ويطابق لغته ولهجته أو يقاربها، هو عين التيسير الذي أراده الشارع الحكيم.
- استعمالهم الحرف في موضع القراءة فقالوا: اقرأ بحرف نافع، بحرف ابن كثير....

(١) انظر: حديث الأحرف السبعة للقاريء ٨٤.

٦ ـ هل المصاحف العثمانية التي كتبت في عهد عثمان مشتملة على الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن؟

للعلماء في ذلك ثلاثة أقوال:

الأول: أن المصاحف العثمانية ليس فيها سوى حرف واحد من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، وهو حرف قريش، وذهب إلى ذلك ابن التين، والحارث المحاسبي، وابن جرير الطبري، والطحاوي، وابن عبدالبر، ومناع القطان من المتأخرين، وحجتهم:

- أن عثمان أراد جمع الأمة على حرف واحد وترك ما سواه من الأحرف الستة الباقية وبذلك اندثرت[١].
- أن عثمان قال للرهط القرشيين: «إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم».
- إن القرآن أنزل في باديء الأمر على سبعة أحرف، وأبيح لكل قبيلة أن تقرأه بلغتها إلى أن تروض لسانها وتمرنه على لهجة قريش لهجة القرآن.
- أن الأحرف التي نزل عليها القرآن إنما أنزلت في ابتداء الأمر في صدر الإسلام للتيسير على الأمة، ورفع الحرج والمشقة عنها في قراءة كتاب ربها.

الثاني: أن المصاحف العثمانية مشتملة على جميع الأحرف السبعة، لأن الأمة لا يجوز لها أن تجمع على إضاعة شيء من الوحي أو إهماله، كما أن عثمان أراد إنقاذ الأمة من فشو اللحن والغلط فيه بجمع الناس على القراءات الثابتة عن رسول الله ﷺ وترك ما سواها كالتفسير ومنسوخ التلاوة ونحوهما، وذهب إليه جماعة من الفقهاء والقراء منهم الباقلاني[٢].

---

(١) انظر: جامع البيان ٢٨/١.

(٢) انظر: الأحرف السبعة لعتر ٢٧٤.

الثالث: أن المصاحف العثمانية تعتبر متضمنة القراءات القرآنية التي ثبتت في العرضة الأخيرة، وأنها لم تكن محتوية على جميع الأحرف السبعة التي أبيحت بها قراءة القرآن، لأن بعض أفراد الأحرف السبعة نسخت تلاوته في العرضة الأخيرة فلم يقرىء به رسول الله ﷺ، فلا يعتبر بعد ذلك قرآناً، ولذا لم يكتب في المصاحف العثمانية.

وذهب إليه جماهير العلماء من السلف والخلف كالمهدوي، ومكي بن أبي طالب، وأحمد بن يوسف الكواشي، وأبي الفضل الرازي، وابن حبان، وابن الجزري، وابن تيمية... وغيرهم.

يقول ابن الجزري: «إن المصاحف العثمانية لم تكن محتوية على جميع الأحرف السبعة التي أبيحت بها قراءة القرآن، لأن بعض أفراد الأحرف السبعة نسخت تلاوته في العرضة الأخيرة فلم يقرىء به رسول الله ﷺ بعدها فلا يعتبر ذلك قرآنا، ولذا لم يكتب في المصاحف العثمانية»[١] وقال: «وهذا القول هو الذي يظهر صوابه، لأن الأحاديث الصحيحة والآثار المشهورة المستفيضة تدل عليه وتشهد له»[٢]، وقال: «فكتب الصحابة المصاحف على لفظ لغة قريش والعرضة الأخيرة... وجردوا المصاحف عن النقط والشكل لتحتمل صورة ما بقي من الأحرف السبعة»[٣].

ويدل عليه:

- أن المصاحف العثمانية تم نسخها من الصحف التي جمعها زيد بن ثابت في عهد أبي بكر، وقد أجمع الصحابة على أن هذه الصحف قد سجل فيها: ما تواتر ثبوته عن النبي ﷺ من الأحرف السبعة، واستقر في العرضة الأخيرة، ولم تنسخ تلاوته، وبالتالي تكون المصاحف العثمانية مشتملة على الأحرف السبعة.

---

(١) النشر في القراءات العشر.

(٢) النشر في القراءات العشر ٣١/١، وانظر: الإبانة ٣٢، والمرشد الوجيز ١٤٤، ومجموع فتاوى ابن تيمية ٤٠١/١٣، والأحرف السبعة لعتر ٢٧٢.

(٣) منجد المقرئين لابن الجزري ٩٥.

❑ عدم ورود دليل صحيح أو ضعيف يفيد أن عثمان أمر كُتَّاب المصاحف أن يقتصروا في كتابتهم على حرف واحد ويلغوا الأحرف الستة الباقية.

❑ وجود اختلاف في الرسم بين المصاحف العثمانية مما يدل على أنها لم تكتب بحرف واحد.

❑ لو كان صحيحاً ما يقوله أصحاب القول الأول من أن عثمان أمر الكُتَّاب أن يقتصروا على لغة قريش ويتركوا ما سواها لكان القرآن خالياً من جميع اللغات إلا من لغة قريش وهذا باطل لأن في القرآن كلمات كثيرة من اللغات الأخرى غير لغة قريش.

فمثلاً كلمة ﴿ٱلْوَدْقَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ﴾[1] قال أبو عبيد: الودق: المطر بلغة جرهم. و﴿تبرنا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾[2]، قال أبو عبيد: تبرنا: أي أهلكنا بلغة سبأ.

و﴿ٱلْخُرْطُومِ﴾ في قوله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾[3]، قال ابو عبيد: الخرطوم: الأنف بلغة مذحج.

و﴿بَغْيًا﴾ في قوله تعالى: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا﴾[4]، قال أبو عبيد: بغيا: أي حسداً بلغة تميم[5].

❑ أن استدلالهم بقول عثمان غير صحيح فمراده بالاختلاف من حيث الرسم والكتابة لا من حيث الألفاظ والكلمات، ويدل عليه قوله، فاكتبوه فيكون معنى كلامه: إذا اختلفتم أنتم وزيد في رسم كلمة،

---

(١) سورة النور الآية (٤٣).
(٢) سورة الفرقان الآية (٣٩).
(٣) سورة القلم الآية (١٦).
(٤) سورة البقرة الآية (٩٠).
(٥) في رحاب القرآن ١٧٦/٢.

فاكتبوها بالرسم الذي يوافق لغة قريش ولهجتها. أما قوله: فإنما نزل بلسانهم فيحتمل: إما نزل بلسانهم في باديء الأمر ثم أراد الله التخفيف والتيسير على الأمة فأنزله بباقي الأحرف السبعة. أو أن معظمه نزل بلغة قريش ويكون ذلك من باب إطلاق الكل وإرادة البعض، وهذا جائز كما في قوله تعالى: ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾[1] فالمراد جعلوا أطراف أصابعهم[2].

٧ ـ حكمة نزول القرآن الكريم على سبعة أحرف:

تتلخص حكمة نزول القرآن الكريم على سبعة أحرف في أمور:

- ❏ التخفيف والتيسير على الأمة في قراءة القرآن الكريم فالكلمة عندما تكون منزلة على عدة أوجه يكون القارىء مخيراً في قراءة ما يسهل منها على لسانه وتَيَسّر على فهمه وذهنه.

يدل على ذلك حديث أبي بن كعب قال: «لقي رسولَ الله ﷺ جبريلُ فقال: يا جبريلُ: إني بُعثتُ إلى أمةٍ أميين، منهم العجوز والشيخ الكبير، والغلام والجارية، والرجل الذي لم يقرأ كتاباً قط. قال: يا محمد إن القرآن أنزل على سبعة أحرف»[3].

وقال جبريل عليه السلام للنبي ﷺ: «إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرف، قال: أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك».

- ❏ اختصاص القرآن الكريم بنزوله على سبعة أحرف، فالكتب السماوية السابقة نزلت على وجه واحد، ثم تكفل الله ﷻ بحفظه وسائر حروفه وقراءاته.

---

(١) سورة نوح الآية (٧).

(٢) في رحاب القرآن لمحمد سالم محيسن ١/١٦٠، دراسات حول القرآن بدران أبو العينين بدران ص ٧٦ ـ ٨٠.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه ٥/١٩٤ في كتاب: القراءات، باب: ما جاء أنزل القرآن على سبعة أحرف وقال عنه: حديث حسن صحيح.

ويدل على ذلك حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد على حرف واحد، ونزل القرآن من سبعة أبواب، على سبعة أحرف...»[1].

والسبب في ذلك أن الأنبياء عليهم السلام كانوا يبعثون إلى قومهم الخاصين بهم، والنبي ﷺ بعث إلى جميع الخلق: أحمرها وأسودها، عربيها وعجميها، بالإضافة إلى أن العرب الذين نزل القرآن بلغتهم، لغاتهم مختلفة وألسنتهم شتى، ويعسر على أحدهم الانتقال من لغته إلى غيرها أو من حرف إلى آخر.

- تنوع المعاني وزيادتها فإنها تشتمل على أضرب منها متغايرة متنوعة، فكلما أجريت الآية على وجه تبين لك ضرب من المعنى مغاير لما يحتويه الوجه الآخر، وقد عنى العلماء بهذا الجانب وسموه: «علم توجيه القراءات وتعليلها، وبيان وجوهها ومعانيها»، والقاعدة التفسيرية: «زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى» تدل على هذا، أي: إن الزيادة في بنية الكلمة يدل على زيادة في معناها، فالألفاظ أدلة على المعاني، فإذا زيد في الألفاظ وجب زيادة المعنى وسواء كانت الزيادة في حروف الكلمة،أم في وزنها،أم في تضعيفها.
- البرهان على أن القرآن وحي من الله ففي وجود هذه الأحرف الكثيرة والقراءات العديدة وكونها متسقة وبعضها يؤيد بعضاً من غير اختلاف مؤد إلى تضاد في المعاني والدلائل، أو تناف في الأحكام والأوامر - برهان على أن القرآن الكريم من لدن حكيم خبير ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[2].
- الدلالة على صيانة كتاب الله وحفظه من التبديل والتحريف مع كونه على هذه الأوجه الكثيرة.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/٢٨٩، ٢٩٠، وصححه ابن حبان في الإحسان ٣/٢٠ في كتاب: الرقائق، باب: ذكر الأخبار عن وصف البعض الآخر حديث ٧٤٥.
(٢) سورة النساء الآية (٨٢).

٨ ـ الفرق بين الأحرف السبعة والقراءات السبع:

قبل أن أبين هذا الأمر، لابد من توضيح ما يلي:

- ❑ أن الأحرف السبعة هي: الأحرف الواردة في أحاديث رسول الله ﷺ من أن القرآن الكريم أنزل على سبعة أحرف.
- ❑ أن القراءات السبع هي: قراءات القراء السبعة الذين اختارهم ابن مجاهد أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس التميمي البغدادي، المتوفى سنة (٣٢٤هـ)، وحين اختارهم اشترط على نفسه أن لا يروي إلا عمن اشتهر بالضبط، والأمانة، وطول العمر في ملازمة القراءة، واتفاق الآراء على الأخذ عنه والتلقي منه[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فإنه ـ أي ابن مجاهد ـ أحب أن يجمع المشهور من قراءات الحرمين، والعراقين،والشام، إذ هذه الأمصار الخمسة هي التي خرج منها علم النبوة من القرآن وتفسيره، والحديث والفقه من الأعمال الباطنة والظاهرة وسائر العلوم الدينية»[٢].

وهؤلاء هم:

- ❑ ابن عامر، عبدالله بن عامر الشامي، المتوفى سنة (١١٨هـ)، وراوياه: هشام وابن ذكوان.
- ❑ ابن كثير، عبدالله بن كثير المكي، المتوفى سنة (١٢٠هـ)، وراوياه: البزي وقنبل.
- ❑ عاصم بن أبي النجود الكوفي، المتوفى سنة (١٢٨هـ)، وراوياه: شعبة وحفص بن سليمان البزار.
- ❑ أبو عمرو بن العلاء البصري، المتوفى سنة (١٥٤هـ)، وراوياه: الدوري والسوسي.

---

(١) انظر: النشر في القراءات العشر ٩/١.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣٩٠/١٣.

- ❏ حمزة بن حبيب الزيات الكوفي، المتوفى سنة (١٥٦هـ)، وراوياه: خلف وخلاد.
- ❏ نافع بن عبدالرحمن المدني، المتوفى سنة (١٦٩هـ)، وراوياه: قالون وورش.
- ❏ الكسائي، علي بن حمزة الكوفي، المتوفى سنة (١٨٩هـ)، وراوياه: أبو الحارث وحفص الدوري.

وإن الاتفاق في العدد بين الأحرف السبعة والقراءات السبع ألبس الأمر على بعض الناس من أن الأحرف هي القراءات، والقراءات السبع هي الأحرف السبعة التي أنزل عليها القرآن، وظنوا أن الأمرين واحدٌ(١).

وأساس هذا الالتباس أو الوهم أن ابن مجاهد لما صنف القراءات أراد أن توافق عدة المصاحف التي أرسلها إلى الأمصار، فصادف ذلك موافقة عدد الأحرف، وقيل: إنه اختار من البلدان الإسلامية أشهر المقرئين بها وأضبطهم في القراءة فصادف أن ما اختارهم سبعة، وقيل: إنه رغب موافقة عدة القراءات التي اختارها عدد الأحرف المنزلة، على أنه لم يكن يظن أنهما شيء واحد.

وهذا القول أو الوهم لم يقل به أحد من العلماء، يقول أبو شامة عنه: «وقد ظن جماعة ممن لا خبرة له بأصول هذا العلم أن قراءة هؤلاء الأئمة السبعة هي التي عبر عنها النبي ﷺ بقوله: «أنزل القرآن على سبعة أحرف» فقراءة كل واحد من هؤلاء حرف من تلك الأحرف، ولقد أخطأ من نسب إلى ابن مجاهد أنه قال ذلك»(٢).

ويقول المهدوي: «لقد فعل مسبع هذه السبعة ما لا ينبغي له، وأشكل الأمر على العامة بإيهامه كل من قلَّ نظره أن هذه القراءات هي

(١) وممن روي عنه هذا القول الخليل بن أحمد، وهو ظاهر قول الشاطبي، انظر: الأحرف القرآنية السبعة ٢٢، ٢٣.
(٢) المرشد الوجيز ١٤٦.

المذكورة في الخبر، وليته إذ اقتصر نقص عن السبعة أو زاد ليزيل الشبهة»[١].

ويدل على بطلان هذه الدعوى:

- إن هذه الدعوى تؤدي إلى بطلان كل قراءة سوى السبع، في حين ذكر العلماء في كتبهم أكثر من سبعين قارئاً ممن هم أعلى رتبة وأجل قدراً من القراء السبعة، فكيف يمكن تجاهل قراءاتهم وهي موافقة خط المصحف بل أصح مما قرأ به السبعة، ومن أجل ذلك ترك أبو حاتم وغيره من المصنفين ذِكْر حمزة والكسائي وابن عامر، وزاد قرابة عشرين من الأئمة ممن فوق السبعة، وفعل نحو ذلك الطبري، وأبو عبيد القاسم بن سلام، وإسماعيل القاضي.
- أن كل واحد من هؤلاء السبعة قد روى عنه جماعة تتفاوت قراءاتهم، كما أن كل إمام من السبعة قد روى عن جماعة كثيرين، فلو أخذ بعين الاعتبار تفاوت الروايات عن الأئمة السبعة لبلغت الأحرف السبعة ـ حسب ظن العوام ـ من العدد مالا يحصى.
- أن هؤلاء القراء السبعة بشر كسائر البشر لم تخصهم الشريعة بشيء ما دون غيرهم من المسلمين فليسوا ذوي سلطان شرعي في تحديد الأحرف السبعة ولا في اختيارها بل هم في ذلك كسائر القراء.
- أن القراءات السبع اختيرت حسب شروط معينة لا على أن كلا منها حرف من الأحرف السبعة، ولا على أنها وحدها القراءات المتواترة، فالعشر أيضاً متواترة.

وخلاصة الموضوع:

- أن الأحرف السبعة المنزلة من الله تعالى هي مصدر القراءات المقطوع بصحتها، لا مصدر لها سواها.

---

(١) انظر: قوله في الإتقان في علوم القرآن ١/٢٧٤.

- ❑ أن القراءات المقطوع بصحتها من السبع أو العشر وغيرها: هي من الأحرف السبعة قطعا، ومالا يقطع بصحته لا يقطع بكونه من الأحرف السبعة.
- ❑ أن القراءات السبع ليست إلا بعض ما تواتر واشتهر من الأحرف، لأن الأحرف السبعة لما نقلها الصحابة إلى من بعدهم تداخلت في بعضها حتى غدا القارىء المتلقي عن عدد من الصحابة يقرأ بقليل من حرف هذا وبعض من حرف ذاك... فتعددت القراءات المتلقاة عنهم لكن جميعها لا يخرج عن الأحرف السبعة.

٩ ـ فـــائـــدة:

ليست كل قراءة من قراءات الأئمة السبعة تمثل حرفاً مما أنزل عليه القرآن، كما أن القارىء قد ينتخب قراءة من قراءاتهم، وليست قراءته قراءة أحدهم، وإن كانت لا تخرج عن قراءاتهم، فكذلك قراءة هؤلاء لا تخرج عن الأحرف السبعة، فالقراء أخذوا قراءاتهم بالاختيار مما رووه من قراءات التابعين، فنسبت إليهم بلفظ اختيارهم.

قال عبدالواحد بن أبي هاشم: «سأل رجل ابن مجاهد لم لا يختار الشيخ لنفسه حرفاً يحمل عنه؟ فقال: نحن أحوج إلى أن نعمل أنفسنا في حفظ ما مضى عليه أئمتنا، أحوج منا إلى اختيار حرف يقرأ به من بعدنا»[١].

١٠ ـ فـــائـــدة أخـــرى:

حكم خلط القراءات بعضها ببعض:

ذهب السخاوي في كتابه (جمال القراء) إلى خطأ خلط القراءات بعضها ببعض. وقال النووي في (التبيان): «إذا ابتدأ بقراءة أحد القراء فينبغي أن يستمر على القراءة ما دام الكلام مرتبطاً، فإذا انقضى ارتباطه فله

---

(١) معرفة القراء الكبار ٢٧١/١.

أن يقرأ بقراءة أحد من السبعة، والأولى: دوامه على الأولى في هذا المجلس»[١].

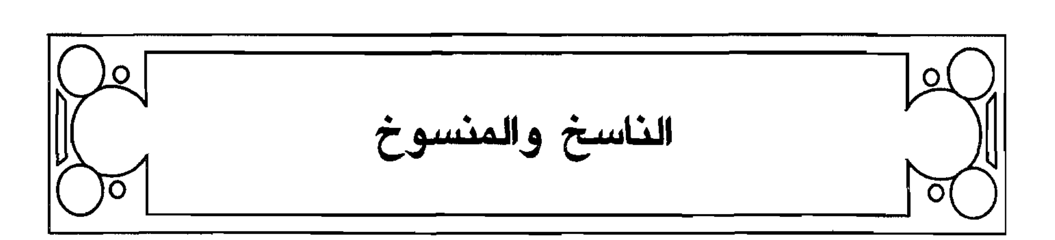
وذهب ابن الجزري إلى التفصيل قائلاً: «فإن كانت إحدى القراءتين مترتبة على الأخرى فالمنع من ذلك منع تحريم كمن يقرأ ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾[٢] بالرفع فيهما أو بالنصب، ونحو ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّآ﴾[٣] بالتشديد مع الرفع أو عكس ذلك. وأما ما لم يكن كذلك: فإنا نفرق فيه بين مقام الرواية وغيرها: فإن قرأ بذلك على سبيل الرواية فإنه لا يجوز أيضاً من حيث إنه كذب في الرواية، وتخليط على أهل الدراية.

وإن لم يكن على سبيل النقل والرواية بل على سبيل القراءة والتلاوة فإنه جائز صحيح مقبول لا منع منه ولا حضر، وإن كنا نعيبه على أئمة القراءات العارفين باختلاف الروايات من وجه تساوي العلماء بالعوام، لا من وجه أن ذلك مكروه أو حرام إذ كل ذلك من عند الله نزل به الروح الأمين، قال ابن مسعود: «ليس الخطأ أن يقرأ بعضه في بعض ولكن الخطأ أن يلحقوا به ما ليس منه»[٤].



(١) التبيان في آداب حملة القرآن ٥٣.
(٢) سورة البقرة الآية (٣٧).
(٣) سورة آل عمران الآية (٣٧).
(٤) النشر ١/١٨، ١٩.

الموضوع الثالث عشر



الناسخ والمنسوخ

يأتي علم الناسخ والمنسوخ في المرتبة الأولى بين علوم القرآن الكريم في الأهمية، إذ لا يجوز لأحد أن يفسر القرآن بل ولا يفتي إلا وهو يعرف الناسخ والمنسوخ في القرآن والسنة، إذ يتوقف على معرفة ذلك الحلال والحرام وكثير من الأحكام. فعن أبي عبدالرحمن السلمي قال: «إن علي بن أبي طالب رضي الله عنه مر بقاص يقص فقال: هل علمت الناسخ والمنسوخ؟ قال: لا، قال: هلكت وأهلكت»[1].

وقال الشافعي: «ولا ينبغي للمفتي أن يفتي أحداً إلا متى يجمع أن يكون عالماً علم الكتاب، وعلم ناسخه ومنسوخه، وخاصه وعامه...»[2].

١ ـ تعريف النسخ:

❑ النسخ في اللغة: يطلق على معنيين:

أحدهما: الرفع والإزالة، يقال: نسخت الشمسُ الظلَّ، ونسخت الريحُ الأثرَ: إذا أزالته، ومن استعمال القرآن الكريم لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ

---

(١) أخرجه أبو عبيد في الناسخ والمنسوخ ٤، الأثر رقم ١.

(٢) الأم للشافعي ١٥/١٢٩.

حَكِيمٌ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾[٢].

الثاني: نقل الشيء من موضع إلى موضع، ومنه تناسخ المواريث، لانتقال المال من وارث إلى وارث، ونسخ الكتاب إذا نقلت ما فيه إلى مكان آخر، ويقال: نسخه الله قرداً بمعنى مسخه، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٣] والمراد نقل الأعمال إلى الصحف.

النسخ في اصطلاح الأصوليين:

ذكر الأصوليون عدة تعريفات للنسخ، أجمعها ما ذكره ابن الحاجب وصححه واختاره كثير من العلماء وهو: **رفع الحكم الشرعي بخطاب شرعي متراخٍ عنه**[٤].

والمراد بقولهم: (رفع) أي: قطع العمل به، وخرج بهذا القيد ما ليس برفع كالتخصيص فإنه لا يرفع الحكم، وإنما يقصره على بعض أفراده[٥].

وبقولهم: (الحكم الشرعي) خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين، وخرج به رفع البراءة الأصلية، كإيجاب الصلاة والزكاة فإنه رافع للبراءة الأصلية لذمة الإنسان منها قبل ورود الشرع بها، ولا يقال لهذا: نسخ، لأنها حكم عقلي لا شرعي.

والمراد بقولهم: (بخطاب شرعي) الكتاب والسنة، وخرج بذلك رفع الحكم الشرعي بدليل عقلي، كسقوط التكليف عن الإنسان بموته أو جنونه، وكذلك خرج به رفع الحكم الشرعي بالإجماع أو القياس.

والمراد بقولهم: (متراخٍ عنه) أي: متأخر عنه، غير متصل به كقوله تعالى:

---

(١) سورة الحج الآية (٥٢).
(٢) سورة البقرة الآية (١٠٦).
(٣) سورة الجاثية الآية (٢٩).
(٤) انظر: مختصر المنتهى مع شرحه ١٨٥/٢، وممن اختاره: الشاطبي والشوكاني ومصطفى زيد.
(٥) مناهل العرفان للزرقاني ١٧٦/٢.

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾[1] فإن قوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ﴾ غير ناسخ لإباحة الأكل والشرب، وإنما هو بيان وتتمة للمعنى فلا يعتبر نسخاً[2].

فـ (الرفع) هو النسخ، و (الحكم الشرعي المرفوع) هو المنسوخ، و(الدليل الشرعي المتأخر) هو الناسخ.

وعلى هذا فالناسخ والمنسوخ في القرآن مأخوذ من المعنى اللغوي الأول وهو الرفع والإزالة.

النسخ في اصطلاح السلف والمتقدمين:

تكرر استعمال النسخ عند السلف قبل أن يتحدد مصطلح النسخ عند الأصوليين، ولهذا نجد في كلامهم معان مختلفة لتعبيرهم بالنسخ ومن ذلك:

- ❑ تخصيص العام.
- ❑ تقييد المطلق.
- ❑ تبيين المجمل.
- ❑ ترك العمل بالنص مؤقتاً لتغير الظرف، ومثاله: جميع الآيات الآمرة بالعقود والصفح والإعراض عن المشركين مع الآيات الآمرة بقتالهم.
- ❑ نقل حكم الإباحة الأصلية.

كما كانوا يطلقونه على النسخ بمعناه المعروف عند الأصوليين.

قال ابن تيمية: «إن لفظ النسخ مجمل، فالسلف كانوا يستعملونه فيما يظن دلالة الآية عليه من عموم وإطلاق أو غير ذلك»[3].

وقال ابن القيم: «ومراد عامة السلف بالناسخ والمنسوخ رفع الحكم

---

(١) سورة البقرة الآية (١٨٧).
(٢) انظر دراسات في علوم القرآن د. فهد الرومي ٤٠٤.
(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٢٧٢/١٣.

بجملته تارة، وهو اصطلاح المتأخرين، ورفع دلالة العام والمطلق والظاهر وغيرها، تارة إما بتخصيص أو تقييد، أو حمل مطلق على مقيد، وتفسيره وتبيينه، حتى إنهم يسمون الاستثناء والشرط والصفة نسخاً، لتضمن ذلك رفع دلالة الظاهر وبيان المراد، فالنسخ عندهم وفي لسانهم هو: بيان المراد بغير ذلك اللفظ، بل أمر خارج عنه، ومن تأمل كلامهم رأى من ذلك فيه ما لا يحصى، وزال عنه به إشكالات أوجبها حمل كلامهم على الاصطلاح الحادث المتأخر»[1].

وعلى هذا يمكن أن نقسم النسخ إلى قسمين:

الأول: نسخ كلي، وهو النسخ بالمعنى الأصولي (محل البحث).

الثاني: نسخ جزئي، وهو تخصيص العام، وتقييد المطلق، وتبيين المجمل وإيضاح المبهم، وعلى هذا فعند التحقيق فإن هذه الأنواع ليست من باب النسخ الذي استقر معناه عند أهل العلم. وإنما سمى العلماء ذلك نسخاً، لأن جميع ذلك مشترك في معنى واحد.

٢ ـ شروط النسخ:

يظهر من تعريف الأصوليين للنسخ أن شروطه أربعة:

- أن يكون الحكم المنسوخ شرعياً.
- أن يكون الحكم الناسخ خطاباً شرعياً متراخٍ عن الخطاب المنسوخ حكمه.
- أن لا يكون الخطاب المرفوع حكمه مقيداً بوقت معين، وإلا فالحكم ينتهي بانتهاء وقته، ولا يُعَدُّ هذا نسخاً.
- أن يكون بين الدليلين تعارض حقيقي بحيث لا يمكن الجمع بينهما أو إعمالهما معاً[2].

---

(١) إعلام الموقعين ١/٣٥.

(٢) مناهل العرفان للزرقاني، ٢/١٨٠، ومباحث في علوم القرآن لمناع القطان، ٢٣٨، ودراسات في علوم القرآن ٤٠٥.

٣ ـ الحكمة من النسخ:

للنسخ حكم كثيرة من أهمها:

- رحمة الله بالأمة ومراعاة مصالحها، فقد يكون الحكم الشرعي في حينٍ خيراً للأمة وغيره خيراً لها في حينٍ آخر، فاقتضت حكمة الله تقرير الحكم الشرعي الذي فيه مصلحتها في كل حين.
- تطور التشريع إلى مرتبة الكمال حسب تطور الدعوة وتطور حال الأمة حين نزول القرآن.
- إبتلاء المكلف واختباره بالامتثال وعدمه، حيث إن في تبدل الأحكام وتغيرها امتحاناً للقلوب ليميز الخبيث من الطيب.
- إرادة الخير للأمة والتيسير عليها، وذلك أن النسخ إن كان إلى أشق ففيه زيادة ثواب، فالأجر على قدر المشقة، وإن كان إلى أخف ففيه التيسير على الأمة مع ثبات الأجر[١].

٤ ـ أهم المؤلفات في الناسخ والمنسوخ:

- الناسخ والمنسوخ في كتاب الله تعالى: لقتادة بن دعامة السدوسي المتوفى سنة (١١٧هـ) طبع بتحقيق د. حاتم الضامن، وهو مجموعة من المرويات دونها همام بن يحي ما سمعه من شيخه قتادة.
- الناسخ والمنسوخ: لابن شهاب الزهري المتوفى سنة (١٢٤هـ) طبع بتحقيق د. حاتم الضامن.
- الناسخ والمنسوخ في القرآن العزيز: لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي المتوفى سنة (٢٢٤هـ) طبع بتحقيق د. محمد بن صالح المديفر.
- الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم: محمد بن أحمد بن حزم الظاهري المتوفى سنة (٣٢٠هـ).

(١) انظر مباحث في علوم القرآن لمناع القطان ٢٤٦، ومناهل العرفان للزرقاني ٢/١٩٤، ١٩٧.

- ❏ الناسخ والمنسوخ: لأبي جعفر النحاس المتوفى سنة (٣٣٨هـ) طبع بتحقيق سليمان بن إبراهيم اللاحم.
- ❏ الناسخ والمنسوخ من كتاب الله ﷻ: لهبة الله بن سلامة بن نصر المقرئ المتوفى سنة (٤١٠هـ) طبع بتحقيق زهير الشاويش ومحمد كنعان.
- ❏ الناسخ والمنسوخ: لأبي منصور عبدالقاهر البغدادي المتوفى سنة (٤٢٩هـ) طبع بتحقيق د. حلمي عبدالهادي.
- ❏ الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي المتوفى سنة (٤٣٧هـ).
- ❏ الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم: لأبي بكر بن العربي المتوفى سنة (٥٤٣هـ).
- ❏ نواسخ القرآن: لابن الجوزي المتوفى سنة (٥٩٧هـ) طبع بتحقيق محمد أشرف المليباري. وله أيضاً المصفى بأكف أهل الرسوخ من علم الناسخ والمنسوخ: طبع بتحقيق د. حاتم الضامن.
- ❏ النسخ في القرآن الكريم: د. مصطفى زيد، طبع في مجلدين، وهو من المؤلفات المعاصرة.

٥ ـ ثبوت النسخ:

ثبت النسخ في الكتاب والسنة للنصوص الشرعية الكثيرة الدالة على ذلك، كقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾[2]، وقوله سبحانه: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾[3]، وقوله

---

(١) سورة البقرة الآية (١٠٦).
(٢) سورة النحل الآية (١٠١).
(٣) سورة الرعد الآية (٣٩).

تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآىِٕ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾[1] وغير ذلك من الأدلة في الكتاب والسنة، وهذا عدا الروايات الثابتة من جهة النقل على أن النسخ وقع لبعض القرآن والأحكام المنزلة، كما تواتر عن الصحابة رضوان الله عليهم ذكر النسخ والقول به.

ولم يخالف في ثبوت النسخ أحد من أهل الإسلام، وما نسب لبعض المتأخرين فقد يكون خلافاً منهم في اللفظ لا في المعنى.

ومما ذكر في من جحد النسخ:

فمن المتقدمين:

- أبو مسلم الأصفهاني محمد بن بحر وهو من أئمة المعتزلة المتوفى سنة (٣٢٢هـ)، حيث قال بجواز النسخ عقلاً وامتناع وقوعه شرعاً، واحتج بقوله تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾[2]، على معنى أن أحكام القرآن لا تبطل أبداً ويحمل آيات النسخ على التخصيص.

ويُرَدُّ عليه بأن معنى الآية أن القرآن لا يأتيه خلل ولا نقص ولا تحريف ولا تبديل، ولا يمكن أن يطرق إليه شيء من ذلك، والنسخ ليس من الباطل بل هو من الحق، فالناسخ والمنسوخ كلاهما وحي من الله تعالى، ووحي الله كله حق لا باطل[3].

ومن المتأخرين:

- عبدالمتعال الجبري في كتابه «النسخ في الشريعة الإسلامية كما أفهمه»، وكتابه الآخر «لا نسخ في القرآن لماذا».

---

(١) سورة يونس الآية (١٥).

(٢) سورة فصلت الآية (٤٢).

(٣) انظر دراسات في علوم القرآن ٤٠٦.

- محمد الغزالي في كتابه «نظرات في القرآن».
- عبدالكريم الخطيب في كتابه «التفسير القرآني للقرآن».

أما الرافضة فقد غالوا في إثبات النسخ بل وأجازوا على الله البداء ـ الذي نَزَّه اليهود عنه الله تعالى ـ ووضعوا أحاديث نسبوها إلى علي رضي الله عنه كقوله: «لولا البداء لحدثتكم بما هو كائن إلى يوم القيامة».

وأما اليهود فقد ذهبوا إلى إنكار النسخ وزعموا أنه يستلزم البداء على الله، وهو الظهور بعد الخفاء، أو نشأة رأي جديد لم يكن، نتيجة تَجَدُّد علمٍ كان مجهولاً، وهذا محال على الله تعالى.

واستدلالهم هذا فاسد، لأن النسخ ليس لتجدد علم الله ـ تعالى وعز ـ وإنما لتجدد حاجة الأمة، وتغير أحوالهم وحاجتهم إلى حكم جديد في كل حالة من حالاتهم، فما يناسبهم في حال الضعف في مكة مثلاً قد لا يناسبهم في حال القوة في المدينة، وليس هذا من البداء في شيء[1].

٦ ـ ما يقع فيه النسخ:

النسخ لا يقع إلا في «الأوامر» و «النواهي» وتأتي صيغه على وجهين:

- أن يأتي بصيغة صريحة في الطلب، ومثاله في الناسخ قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[2]، ومثاله في المنسوخ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾[3].
- أن يأتي بصيغة الخبر ومعناه الطلب، ومثاله قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾[4].

---

(١) انظر دراسات في علوم القرآن ٤٠٥، ٤٠٦.
(٢) سورة البقرة الآية (١٤٤).
(٣) سورة المجادلة الآية (١٢).
(٤) سورة البقرة الآية (٢٣٤).

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾[2].

أما سائر نصوص الأخبار في الكتاب والسنة مما لم يقصد به الطلب فلا يقع فيه النسخ ومن ذلك:

- مسائل العقيدة المتعلقة بذات الله تعالى وصفاته وكتبه ورسله واليوم الآخر، لأن العقائد حقائق ثابتة لا تقبل التغيير أو التبديل فلا يدخلها النسخ، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾[4].

- وأصول العبادات والمعاملات فلا يقع النسخ في فرض الصلاة أو الصيام أو الحج أو البيع أو الشراء أو الزواج، لأن هذا وغيره من الأمور التي يشترك فيها الأنبياء كلهم قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾[7].

---

(١) سورة البقرة الآية (١٨٣).
(٢) سورة النور الآية (٣).
(٣) سورة البقرة الآية (٢٢).
(٤) سورة الأعراف الآية (١٥٨).
(٥) سورة الشورى الآية (١٣).
(٦) سورة البقرة الآية (١٨٣).
(٧) سورة المائدة الآية (٤٥).

- والأخلاق والآداب كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾[١]، ونحو ذلك.

- والإخبار عن الأمم الماضية وقصص الأنبياء وما جرى لهم مع أقوامهم والإخبار عما سيكون كأشراط الساعة واليوم الآخر فكل هذا لا يدخله النسخ.

٧ ـ طرق معرفة الناسخ والمنسوخ:

يرجع في النسخ إلى النقل الصريح عن رسول الله ﷺ أو عن الصحابة رضوان الله عليهم كأن يقول الصحابي: آية كذا نسخت كذا، ولا يُعتمد في النسخ قول عامة المفسرين، أو اجتهاد المجتهدين من غير نقل صحيح ولا معارضة بينة، فالمعتمد فيه النقل والتاريخ دون الرأي والاجتهاد[٢].

ويمكن لمعرفة الناسخ والمنسوخ ثلاثة طرق هي:

١ ـ أن يكون في أحد النصين ما يدل على تعيين المتأخر منهما، كنسخ الحكم في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾[٣] بقوله سبحانه: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾[٤]، وكقول الرسول ﷺ في حديث بريدة الأسلمي: «نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، ونهيتكم عن لحوم الأضاحي فوق

---

(١) سورة لقمان الآية (١٨).
(٢) الإتقان للسيوطي ٨١/٣.
(٣) سورة الأنفال الآية (٦٥).
(٤) سورة الأنفال الآية (٦٦).

ثلاثٍ، فأمسكوا ما بدا لكم، ونهيتكم عن النبيذ إلا في سقاء فاشربوا في الأسقية كلها، ولا تشربوا مسكراً»[1].

٢ ـ أن ينعقد إجماع من الأمة في أي عصر من العصور على أن هذا ناسخ وهذا منسوخ.

٣ ـ معرفة المتقدم من المتأخر في النزول، فالمتأخر ناسخ للمتقدم كما في نسخ القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة.

ولا يعتمد في معرفة الناسخ من المنسوخ على:

- ❑ الاجتهاد من غير سند.
- ❑ قول المفسر: هذا ناسخ وهذا منسوخ من غير دليل.
- ❑ التعارض بين الأدلة ظاهراً.
- ❑ تأخر إسلام أحد الراويين[2].

٨ ـ أنــواع الـنـســخ:

يقع النسخ في الأنواع الأربعة التالية:

الأول: نسخ القرآن بالقرآن:

أجمع القائلون بالنسخ على جوازه ووقوعه ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ﴾[3]

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ٢/٦٧٢ في كتاب: الجنائز، باب: استئذان النبي ﷺ ربه ﷻ في زيارة قبر أمه حديث رقم ٩٧٧.

(٢) انظر دراسات في علوم القرآن ٤٠٨ ـ ٤٠٩.

(٣) سورة البقرة الآية (٢٤٠)، قال السعدي عند هذه الآية: «اشتهر عند كثير من المفسرين أن هذه الآية الكريمة نسختها الآية التي قبلها وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البَقَرَة: ٢٣٤]، وأن الأمر كان على الزوجة أن تتربص حولاً كاملاً، ثم نسخ بأربعة أشهر وعشر. ويجيبون على تقدم الآية الناسخة أن ذلك تقدم في الوضع لا في النزول، لأن شرط الناسخ أن يتأخر عن المنسوخ. =

نسخ بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾[1].

وهو على ثلاثة أنواع:

١- نسخ التلاوة والحكم معاً:

وأجمع القائلون بالنسخ على وقوعه، ومثاله ما ورد في حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان فيما أنزل من القرآن: (عشر رضعات معلومات يُحَرِّمن)، ثم نُسِخْنَ بخمسٍ معلومات، فتوفي رسول الله ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن[2]. فجملة (عشر رضعات معلومات يحرمن) كانت من القرآن ثم نسخت تلاوتها وحكمها.

وحكى القاضي أبو بكر في «الانتصار» عن قوم: إنكار هذا القسم، لأن الأخبار فيه أخبار آحاد، ولا يجوز القطع على إنزال قرآن ونسخه بأخبار آحاد لا حجة فيها[3].

ويجاب عن ذلك أن التواتر شرط لإثبات لفظ قرآني، أما النسخ فيكفي لإثباته خبر الآحاد، والمقام هنا مقام إثبات نسخ آية لا إثباتها.

٢- نسخ الحكم مع بقاء التلاوة:

وهو أشهر الأنواع، وهو الذي ألفت فيه الكتب، وتفاوت المؤلفون في عدد الآيات المنسوخ حكمها مع بقاء تلاوتها بين مكثر جداً وبين منكر.

= وهذا القول لا دليل عليه. ومن تأمل الآيتين اتضح له أن القول الآخر في الآية هو الصواب، وأن الآية الأولى في وجوب التربص أربعة أشهر وعشرا على وجه التحتيم على المرأة. وأما في هذه الآية فإنها وصية لأهل الميت أن يبقوا زوجة ميتهم عندهم حولاً كاملاً، جبراً لخاطرها وبراً بميتهم، ولهذا قال: ﴿وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم﴾ [البَقَرَة: ٢٤٠] أي: وصية من الله لأهل الميت أن يستوصوا بزوجته ويمتعوها ولا يخرجوها». تفسير السعدي ٨٨.

(١) سورة البقرة الآية (٢٣٤).

(٢) رواه مسلم في صحيحه ١٠٧٥/٢ في كتاب: الرضاعة، باب: التحريم بخمس رضعات الحديث رقم ٣٥٩٨.

(٣) البرهان للزركشي ٣٩/٢، ٤٠.

والصحيح أن عددها يقارب العشرين، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾[1] فتلاوتها باقية في المصحف وحكمها منسوخ بقوله تعالى: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾[2].

ومن الأمثلة كذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلۡحَوۡلِ غَيۡرَ إِخۡرَاجٖۚ﴾[3] فتلاوتها باقية وحكمها نسخه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ﴾[4].

ومن الحِكَم في بقاء التلاوة ورفع الحكم:

أن الآية يتعبد بالعمل بها ويتعبد بتلاوتها، ورفع أحدهما لا يلزم منه رفع الآخر، فبقيت تلاوتها للتعبد بها، وأن النسخ غالباً يكون إلى الأخف فبقاء التلاوة تذكير بنعمة رفع المشقة.

ومن الحِكَم في نسخ الآية قبل العمل بحكمها كما هو في آية الصدقة عند النجوى: الثواب على مجرد الإيمان والقبول، وعلى نية الطاعة والتوجه إليها[5].

٣- نسخ التلاوة مع بقاء الحكم:

وأنكر هذا النوع بعض العلماء وأجازه آخرون، ومن أمثلته: حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه خطب على منبر رسول الله ﷺ فقال: «إن الله بعث محمداً ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل الله

(١) سورة المجادلة الآية (١٢).
(٢) سورة المجادلة الآية (١٣).
(٣) سورة البقرة الآية (٢٤٠).
(٤) سورة البقرة الآية (٢٣٤).
(٥) البرهان في علوم القرآن للزركشي ٢/٣٩.

آية الرجم، فقرأناها وعقلناها ووعيناها، فرجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده...»[١] الحديث، وفي حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة» فقال عمر: لما أنزلت هذه أتيت رسول الله ﷺ فقلت: أكتبنيها[٢].

وقد يقال: إن الآية والحكم المستفاد منها متلازمان، لأن الآية دليل على الحكم، فإذا نسخت تلاوة الآية دون حكمها وقع الناس في لبس.

ويجاب عن ذلك: بأن التلازم بين الآية وحكمها مشروط بانتفاء القرينة والدليل، أما إذا نصب الشارع دليلاً على نسخ التلاوة وبقاء الحكم كما في رجم المحصن فلا لبس ولا إشكال[٣].

الثاني: نسخ القرآن بالسنة:

وقد اختلف العلماء فيه على مذهبين:

الأول: عدم جواز نسخ القرآن بالسنة، وممن ذهب إليه سفيان الثوري، والشافعي، وأحمد في إحدى الروايتين عنه.

ومما استدلوا به قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾[٥]، والسنة ليست خيراً من القرآن ولا مثله.

الثاني: صحة نسخ القرآن بالسنة، وأجازه أبو حنيفة ومالك وأحمد في رواية، وقالوا: إن السنة وحي كما أن القرآن وحي، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ٨/٢٥، ٢٦ في كتاب: الحدود، باب رجم الحبلى من الزنا، ومسلم في صحيحه ٣/١٣١٧ في كتاب: الحدود، باب: رجم الثيب في الزنا حديث رقم ١٦٩١.
(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، ٥/١٨٣.
(٣) انظر مناهل العرفان للزرقاني، ٢/٢١٥، ودراسات في علوم القرآن ٤١٥ ـ ٤١٦.
(٤) سورة يونس الآية (١٥).
(٥) سورة البقرة الآية (١٠٦).

عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢] والنسخ نوع من البيان.

ومثاله: قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾[٣] فإن جلد المحصن منسوخ بالرجم كما جاء في السنة المتواترة.

❑ والظاهر أن هذا النوع جائز عقلاً ولم يقع في القرآن، وهذا المثال يقال عنه: إنه تخصيص وليس بنسخ[٤].

الثالث: نسخ السنة بالقرآن:

وجمهور العلماء على جوازه، ومثاله: التوجه إلى بيت المقدس في الصلاة كان ثابتاً بالسنة ونسخه قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾[٥]، وبيانه حديث ابن عباس ﷺ قال: «كان رسول الله ﷺ يصلي وهو بمكة نحو بيت المقدس والكعبة بين يديه، وبعدما هاجر إلى المدينة ستة عشر شهراً، ثم صرف إلى الكعبة»[٦].

وصيام عاشوراء ثبت بالسنة ونسخه قوله تعالى ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾[٧].

ومنعه الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ في رواية عنه، وذلك أن الشافعي لا يرى نسخ القرآن بالسنة ولا نسخ السنة بالقرآن. قال رحمه الله تعالى: «حيث وقع نسخ القرآن بالسنة، فمعها قرآن عاضد لها، وحيث وقع نسخ السنة بالقرآن فمعه سنة عاضدة له ليتبين توافق القرآن والسنة»[٨].

---

(١) سورة النجم الآيتان (٣، ٤).
(٢) سورة النحل الآية (٤٤).
(٣) سورة النور الآية (٢).
(٤) انظر النسخ في القرآن الكريم د. مصطفى زيد ٢/٨٣٨.
(٥) سورة البقرة الآية (١٤٤).
(٦) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١/ ٣٢٥.
(٧) سورة البقرة الآية (١٨٥).
(٨) الإتقان في علوم القرآن ٣/٦٨.

ووصف الزركشي من فهم من هذا النص مَنْعَ الشافعي لنسخ القرآن بالسنة بأنه لم يفهم مراده، وقال: «إنما مراد الشافعي أن الكتاب والسنة لا يوجدان مختلفين إلا ومع أحدهما مثله ناسخ له، وهذا تعظيم لقدر الوجهين وإبانة تعاضدهما وتوافقهما، وكل من تكلم على هذه المسألة لم يفهم مراده»[١].

الرابع: نسخ السنة بالسنة:

وقد أجاز جمهور العلماء نسخ المتواتر بالمتواتر، ونسخ الآحاد بالآحاد، ونسخ الآحاد بالمتواتر.

أما نسخ المتواتر بالآحاد فاختلفوا فيه والجمهور يمنعه ولا يجيزه. أما نسخ كل من الإجماع والقياس والنسخ بهما فالصحيح عدم جوازه[٢].

٩ ـ النسخ إلى بدل وإلى غير بدل:

كما يكون نسخ الحكم إلى بدل فقد يكون إلى غير بدل.

❑ النسخ إلى بدل: وله أحوال ثلاثة:

١- النسخ إلى بدل أخف، كآية الاعتداد بالحول نسختها آية الاعتداد بأربعة أشهر وعشرا.

٢- النسخ إلى بدل مماثل، كنسخ وجوب التوجه إلى بيت المقدس بالتوجه إلى المسجد الحرام.

٣- النسخ إلى بدل أثقل، كنسخ جواز قتال المشركين إلى الوجوب ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾[٣]، ونسخ وجوب صوم عاشوراء إلى وجوب صيام شهر رمضان، ونسخ حبس الزانية إلى الجلد للبكر والرجم للثيب.

---

(١) البرهان في علوم القرآن ٢/٣٢.
(٢) مباحث في علوم القرآن لمناع القطان ٢٤٤، ودراسات في علوم القرآن ٤١٠ ـ ٤١٣.
(٣) سورة البقرة الآية (٢١٦).

ولعل حكمة هذا النوع إرادة الخير بالأمة، وزيادة الأجر والثواب، لأن الأجر على قدر المشقة.

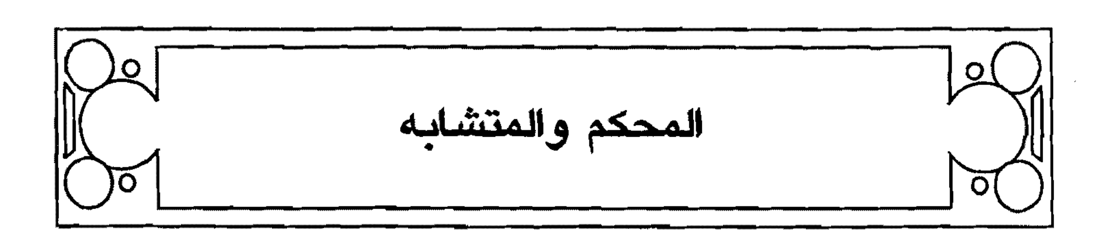
- ❑ النسخ إلى غير بدل: كنسخ الصدقة بين يدي نجوى الرسول ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾[1] فقد نسخت بالعفو عن ذلك إلى غير بدل في قوله تعالى: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[2].



(١) سورة المجادلة الآية (١٢).

(٢) سورة المجادلة الآية (١٣)، وانظر دراسات في علوم القرآن ٤١٦، ٤١٧.

الموضوع الرابع عشر



المحكم والمتشابه

١ ـ معنى المحكم:

المحكم في اللغة: مأخوذ من مادة "حكم" ويدور معناها على اثنين:

- المنع ومنه حكمة[1] الدابة، لأنها تمنعها. يقال: حَكَمْتُ الدابة وأَحْكَمْتُها أي: منعتها، وحَكَمْتُ السفيه وأَحْكَمْتُه إذا أخذت على يديه.

  والحُكْم: هو الفصل بين الشيئين.

  والحاكم: هو الذي يمنع الظلم ويفصل بين الخصمين.

  والحكمة: تمنع صاحبها من الجهل[2].

- الإتقان، يقال لمن يحكم دقائق الصناعات ويتقنها حكيم، وإحكام الشيء إتقانه، وإحكام الكلام: إتقانه بتمييز الصدق من الكذب في أخباره والرشد من الغي في أوامره، والمحكم: المتقن.

---

(١) الحكمة: الحديدة التي تكون في فم الفرس. أو ما أحاط بالحنك من اللجام لأنها تمنع الفرس عن الاضطراب.

(٢) الحكمة: هي القول المناسب، للشخص المناسب، في الوقت المناسب، بالمقدار المناسب، في الزمان والمكان المناسبين.

المحكم في الاصطلاح: ذكر العلماء له عدة تعريفات متقاربة المعنى أكتفي بذكر واحد منها وهو: «ما ظهر معناه، واستقل بنفسه»، قال القرطبي: هو ما عرف تأويله، وفهم معناه وتفسيره[1] ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾[3].

٢ ـ معنى المتشابه:

المتشابه في اللغة: من الشبه وهو التماثل بين الشيئين.

والشبيه: المثيل، يقال: تشابها واشتبها: أي أشبه كل منهما الآخر حتى التبسا ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾[4] أي: تماثل علينا فاختلط علينا لا نميز بين المطلوبة منا ذبحها وبين غيرها. والمشتبهات من الأمور: المشكلات، واشتبه الأمران إذا أشكلا[5] كما قال ﷺ: "إن الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس"[6].

المتشابه في الاصطلاح: هو المقابل للمحكم، وقد تنوعت معانيه، ولعل أفضلها المعاني التالية:

- ما لم يتضح معناه، إما لاشتراك أو إجمال أو غير ذلك.
- ما لا يستقل بنفسه إلا برده إلى غيره.
- ما أشكل تفسيره لمشابهته بغيره.
- ما لا ينبئ ظاهره عن مراده.

---

(١) تفسير القرطبي ٤/٩.
(٢) سورة البقرة الآية: ٢٧٥.
(٣) سورة الإخلاص الآيتان: ٣، ٤.
(٤) سورة البقرة: الآية (٧٠)، وانظر الرد على الملحدين لمحمد بن المستنير.
(٥) معجم مقاييس اللغة ٣/٢٤٣ مادة "شبه".
(٦) أخرجه مسلم في صحيحه ٣/١٢١٩ في كتاب: المساقاة، باب: أخذ الحلال وترك الشبهات.

فهذه التعريفات الأربعة تدور حول معنى واحد، وهو أن المتشابه لا يفي بالمعنى على وجه يستقل به[1].

٣ ـ أشهر المؤلفات في المحكم والمتشابه:

- الرد على الملحدين في متشابه القرآن لقطرب محمد بن المستنير المتوفى سنة ٢٠٦هـ.
- تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦هـ.
- البرهان في توجيه متشابه القرآن للكرماني المتوفى سنة ٥٠٥هـ.
- ملاك التأويل لأحمد بن الزبير الغرناطي المتوفى سنة ٧٠٨هـ.
- دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب للشنقيطي المتوفى سنة ١٣٩٣هـ.

٤ ـ أنواع القرآن باعتبار الإحكام والتشابه:

يتنوع القرآن الكريم باعتبار الإحكام والتشابه إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الإحكام العام:

حيث وصف الله ﷻ القرآن الكريم بأنه كله محكم، قال الله تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾[2]. وقال ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١﴾[3] وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾[4].

ومعنى هذا الإحكام: أي أنه كله في غاية الإحكام، وقوة الاتساق، وأنه بالغ الجودة في ألفاظه ومعانيه، فهو في غاية الفصاحة والبلاغة،

---

(١) قواعد التفسير ٢/٦٦٠.
(٢) سورة هود الآية(١).
(٣) سورة يونس الآية (١).
(٤) سورة الزخرف الآية (٤).

أخباره كلها حق وصدق لا تناقض فيها ولا اختلاف، وأحكامه كلها عدل وحكمة ليس فيها جور ولا تعارض.

النوع الثاني: التشابه العام:

حيث وصف الله ﷻ القرآن الكريم بأنه كله متشابه، قال الله ﷻ: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾(١).

ومعنى هذا التشابه: أي أنه يشبه بعضه بعضا في الكمال والجودة، ويصدق بعضه بعضا في المعنى ويماثله ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾(٢).

النوع الثالث: الإحكام الخاص ببعضه، والتشابه الخاص ببعضه:

يدل عليه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ۝٧﴾(٣). وفي معناهما وقع الاختلاف بين العلماء.

ويتلخص هذا الاختلاف في الآتي:

- قال بعضهم: **المحكمات** من آي القرآن: المعمول بهن، وهن "الناسخات" **.والمتشابهات**: المتروك العمل بهن، وهن "المنسوخات". وبهذا قال ابن عباس وابن مسعود وقتادة والضحاك.
- وقال بعضهم: **المحكمات**: ما بينه الله من الحلال والحرام، والمتشابهات: ما أشبه بعضه بعضا في المعاني، وإن اختلفت ألفاظه وبه قال مجاهد.

---

(١) سورة الزمر الآية (٢٣).

(٢) سورة النساء الآية (٨٢).

(٣) سورة آل عمران الآية (٧).

- وقال بعضهم: **المحكمات**: ما لا يحتمل من التأويل غير وجه واحد، **والمتشابهات**: ما احتمل من التأويل أوجها، وبه قال محمد بن جعفر بن الزبير.

- وقال بعضهم: **المحكمات**: ما فصله الله في القرآن من قصص الماضين ما لم يتكرر. **والمتشابهات**: ما اشتبهت الألفاظ به من قصصهم عند التكرير في السور، فقصة باتفاق الألفاظ واختلاف المعاني، وقصة باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني، وقال بنحوه ابن زيد.

- وقال آخرون: **المحكمات**: ما عرف العلماء تأويله، وفهموا معناه وتفسيره. **والمتشابهات**: ما لم يكن لأحد إلى معرفته سبيل مما استأثر الله بعلمه دون خلقه كوقت قيام الساعة، ووقت طلوع الشمس من مغربها... ونحو ذلك وبنحوه قال جابر بن عبدالله، والشعبي والثوري ورجحه ابن جرير الطبري[1] وهو مشهور عند من يجعل الوقف في هذه الآية عند لفظ الجلالة.

وبالنظر في هذه الأقوال نجد أنها ترجع في النهاية إلى أن:

المحكم: هو الذي يدل على معناه بوضوح، فيكون معنى الآية واضحاً جلياً لا خفاء فيه، ومن أمثلته.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾[3].

---

(١) جامع البيان ٣/١٧٢، ١٧٥.
(٢) سورة الحجرات الآية (١٣).
(٣) سورة البقرة الآية (٢١).

وقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾[١] وقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾[٢].

والمتشابه: هو الذي يكون معنى الآية مشتبهاً خفياً، بحيث تخفى دلالته فيوقع فهمه في إشكال، ولكن الراسخين في العلم يفهمون ذلك فيؤمنون بأن ما جاء في كتاب الله فهو حق وليس فيه اختلاف ولا تناقض لأنه من عند الله ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[٣]. وما جاء مشتبهاً ردوه إلى المحكم ليكون الجميع محكماً.

ويدل على هذا التوجيه: أن سياق الآية يؤيده لأنه تعالى جعل المحكم مقابلاً للمتشابه فينبغي أن يفسر بما يقابله[٤].

ومثاله أن يتوهم واهم من قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[٥] إن لله يدين مماثلتين لأيدي المخلوقين. أما الراسخ في العلم فيقول إن لله يدين تليقان بجلاله وعظمته لا تماثلان أيدي المخلوقين كما أنه له ذاتا لا تماثل ذوات المخلوقين لأن الله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[٦].

وأيضاً قوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[٧].

وقوله في موضع آخر ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[٨] حيث قد يتوهم أن

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٧٥).
(٢) سورة المائدة الآية (٣).
(٣) سورة النساء الآية (٨٢).
(٤) ذكر هذا التوجيه الطيبي في الإتقان ٣/٩ (النوع الثالث والأربعون)، وابن عثيمين في أصول في التفسير ٣٩.
(٥) سورة المائدة الآية (٦٤).
(٦) سورة الشورى الآية (١١).
(٧) سورة النساء الآية (٧٩).
(٨) سورة النساء الآية (٧٨).

الآيتين بينهما تناقض ولكن الراسخ في العلم يقول: إن الحسنة والسيئة كلتاهما بتقدير الله ﷻ، ولكن: الحسنة سببها التفضل من الله على عباده. أما السيئة: فسببها فعل العبد كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ۝٣٠﴾[1] فإضافة السيئة إلى العبد من إضافة الشيء إلى سببه، لا من إضافته إلى مُقَدِّره.

أما إضافة الحسنة والسيئة إلى الله تعالى فمن باب إضافة الشيء إلى مُقَدِّره. وبهذا يزول ما يوهم الاختلاف بين الآيتين لانفكاك الجهة.

وأيضاً قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ۝٩٤﴾[2] حيث قد يفهم منها أن النبي ﷺ كان شاكا فيما أنزل إليه، وأن الامتراء واقع من الرسول ﷺ ولكن الراسخ في العلم يقول: إنه لا يلزم من هذا التعبير أن يكون الشك جائزاً على الرسول ﷺ أو واقعاً منه كما أن النهي عن الشيء قد يوجه إلى من لم يقع منه والغرض من ذلك: التنديد بمن وقع منهم والتحذير من مناهجهم[3].

هل يمكن تفسير المتشابه في القرآن؟:

اختلف العلماء في إمكان معرفة المتشابه في القرآن الكريم على قولين، ومنشأ هذا الاختلاف: اختلافهم في إعراب الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾:

- ❑ فذهب بعضهم: إلى أن الواو واو العطف: و﴿ٱلرَّٰسِخُونَ﴾: معطوف على لفظ الجلالة "الله" و "يقولون" حال، ولذلك فالوقف على قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ وبهذا يكون المعنى: إن الذي يعلم تأويله هو الله وكذلك الراسخون في العلم يعلمون تأويله. وذهب إلى هذا القول: مجاهد، واختاره ابن قتيبة حيث قال "ولسنا ممن يزعم:

---

(١) سورة الشورى الآية (٣٠).
(٢) سورة يونس الآية (٩٤).
(٣) انظر: أصول في التفسير للشيخ محمد العثيمين ٣٩،٤٠.

أن المتشابه في القرآن لا يعلمه الراسخون في العلم، وهذا غلط من متأوليه على اللغة والمعنى، ولم ينزل الله شيئاً من القرآن إلا لينفع به عباده، ويدلَّ به على معنى أراده"[1]. وكذلك النووي حيث قال: «إن الراسخين يعلمونه، لأنه يبعد أن يخاطب الله عباده بما لا سبيل لأحد من الخلق إلى معرفته»[2].

❑ وذهب جمهور العلماء إلى أن الواو للاستئناف، و﴿ٱلرَّٰسِخُونَ﴾ مبتدأ مرفوع وعلامة رفعه الواو لأنه جمع مذكر سالم و "يقولون" فعل مضارع في محل رفع خبر. وعلى هذا يكون الوقف على لفظ الجلالة في ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾. فيكون المعنى: إن الذي يعلم تأويله هو الله وحده ولا يشاركه فيه أحد والراسخون في العلم يؤمنون بمحكمه وبمتشابهه.

وذهب إلى هذا القول طائفة من الصحابة منهم أبي بن كعب وابن مسعود وابن عباس وعائشة رضوان الله عليهم،ومن التابعين: الحسن والضحاك ومن الفقهاء مالك، ومن القراء: نافع والكسائي ويعقوب وغير هؤلاء ويستدل عليه بما رواه الحاكم في مستدركه عن ابن عباس رضي الله عنه أنه كان يقرأ: «وما يعلم تأويله إلا الله ويقول الراسخون في العلم آمنا به»[3].

وبما دلت عليه الآية من ذم متبعي المتشابه ووصفهم بالزيغ وابتغاء الفتنة.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ

(١) تأويل مشكل القرآن ٩٨.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ٢١٨/١٦، في كتاب: العلم، باب: النهي عن اتباع متشابه القرآن.

(٣) أخرج قراءته الحاكم في المستدرك ٢٨٩/٢، والطبري في تفسيره ١٨٢/٣، وأوردها السيوطي في الدر المنثور ١٥٠/٢ وذكر أنه أخرجها عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن الانباري.

وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾[1] قالت: قال رسول الله ﷺ: «فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم»[2].

التوجيه بين القولين:

عند إمعان النظر في القولين نجد أنهما متقاربان، وأن الخلاف بينهما ناتج عن الخلاف في حقيقة المتشابه وفي حقيقة التأويل فهو خلاف فرعي.

فعلى الخلاف في حقيقة المتشابه:

الذين يقولون بأن الراسخين في العلم يعلمون المتشابه فإنهم لم يدخلوا فيه قضايا الغيب مثل: قيام الساعة، وخروج الدجال، أما الذين قالوا لا يعلم المتشابه إلا الله فإنهم أدخلوا في المتشابه قضايا علم الغيب ونحوها مما استأثر الله بعلمها.

وعلى الخلاف في حقيقة التأويل: حيث ورد التأويل في القرآن على معنيين:

أحدهما: التأويل بمعنى حقيقة الشيء وما يؤول أمره إليه ومنه قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾[3] أي: حقيقة ما أُخْبِروا به من أمر المعاد . . . فتأويل ما أخبر الله به عن اليوم الآخر هو نفسه ما يكون في اليوم الآخر وعلى هذا المعنى جاء قول عائشة رضي الله عنها: "كان رسول الله ﷺ يقول في ركوعه وسجوده: "سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي" يتأول القرآن"[4] تعني قوله تعالى ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾﴾.

الثاني: التأويل بمعنى التفسير والبيان عن الشيء، فهو الكلام الذي

---

(١) سورة آل عمران الآية: ٧.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه ١٦٦/٥ تفسير سورة آل عمران.

(٣) سورة الأعراف الآية (٥٣).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ١/ ١٩٩ في كتاب: الآذان، باب: التسبيح والدعاء في السجود، وفي ٦/ ٩٣ تفسير سورة النصر.

يفسر به اللفظ حتى يفهم معناه. ومن ذلك قول ابن جرير "القول في تأويل قوله تعالى" وهذا معنى أن السنة هي تأويل القرآن.

فالذين قالوا بأن الراسخين في العلم يعلمون المتشابه، فإنهم عنوا بالتأويل المعنى الثاني وهو التفسير وعلى هذا إذا ذكر أن مجاهد يعلم المتشابه، فالمراد به أنه يعرف تفسيره.

والذين قالوا لا يعلم المتشابه إلا الله، فإنهم عنوا بالتأويل المعنى الأول، أي: الحقيقة التي يؤول إليها الكلام، فحقيقة ذات الله وكنهها، وكيفية أسمائه وصفاته، وحقيقة المعاد لا يعلمها إلا الله.

وبهذا يتبين أنه لا منافاة بين المذهبين في النهاية، وإنما الأمر يرجع إلى الاختلاف في المتشابه ومعنى التأويل[1].

فالله ﷻ نفى العلم بتأويل المتشابه، ولم ينف العلم بمعناه وتفسيره، وهذا هو فصل الخطاب بين المتنازعين في هذه المسألة.

أنواع التشابه في القرآن:

التشابه الواقع في القرآن نوعان:

الأول: المتشابه الحقيقي وهو ما لا يمكن أن يعلمه البشر على حقيقته وإن عرف معناه، كحقائق صفات الله ﷻ، فإننا وإن كنا نعلم معاني هذه الصفات لكننا لا ندرك حقائقها وكيفيتها، لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾[2].

وقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾[3].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ١٢/٢، ومجموع الفتاوى ١٣/٢٧٥-٢٨٤، ومباحث في علوم القرآن لمناع القطان ٢٢٤،٢٢٣.

(٢) سورة طه الآية (١١٠).

(٣) سورة الأنعام الآية (١٠٣).

وفي القرآن ألفاظ متشابهه تشبه معانيها ما نعلمه في الدنيا ولكن الحقيقة ليست كالحقيقة: فأسماء الله وصفاته وإن كان بينها وبين أسماء العباد وصفاتهم تشابها في اللفظ والمعنى الكلي إلا أن حقيقة الخالق وصفاته ليست كحقيقة المخلوق وصفاته والعلماء المحققون يفهمون معانيها ويميزون بينها، وأما نفس الحقيقة فهي من التأويل الذي لا يعلمه إلا الله، ولهذا لما سئل مالك وغيره من السلف عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ قالوا: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة" وكذلك قال ربيعة ابن عبدالرحمن شيخ مالك قبله: "الاستواء معلوم، والكيف مجهول، ومن الله البيان، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا الإيمان"[١].

وهذا النوع لا يسأل عن استكشافه لتعذر الوصول إليه.

والواجب على العبد إزاءه الإيمان به، وترك العلم بكيفيته وكنهه إلى الله ﷻ، وعدم الخوض في ابتغاء تأويله. فهو مفهوم من جهة المعنى ولغة التخاطب وهو من هذه الجهة محكم وواضح. لكنه متشابه من جهة حقيقته وكيفيته.

الثاني: المتشابه الإضافي أو النسبي وسمي بذلك لأنه متشابه بالنسبة إلى الناظر لا إلى الأمر في نفسه وهو ما يكون مشتبهاً على بعض الناس دون بعض فيكون معلوماً للراسخين في العلم بالتدبر في معناه، ورده إلى المحكمات من النصوص، ويعلمه غيرهم بالرجوع إليهم وسؤالهم عنه.

وهذا النوع يسأل عن استكشافه وبيانه لإمكان الوصول إليه إذ لا يوجد في القرآن شيء لا يتبين معناه لأحد من الناس، قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ۝١٣٨﴾[٢]. وقال: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾[٣].

---

(١) رواه اللالكائي في شرح السُّنَّة ٣/٣٩٨، والبيهقي في الأسماء والصفات ٤٠٨، ٤٠٩، وانظر مباحث في علوم القرآن للقطان ٢٢٤.

(٢) سورة آل عمران الآية (١٣٨).

(٣) سورة النحل الآية (٨٩).

وقال: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾[(١)]. وأسباب هذا الاشتباه إما لأنها تعود إلى تقصير الناظر في النظر والبحث، أو لاتباعه للهوى وابتغائه الفتنة. والراسخون في العلم يعرفون كيف يخرجون الآيات المتشابهة من هذا النوع إلى معنى يتلاءم مع الآيات الأخرى، فيبقى القرآن كله محكماً لا اشتباه فيه[(٢)].

وسمي بذلك: لأنه يرجع إلى الناظر لا إلى الأمر في نفسه وهذا الاشتباه له أسباب:

- ❑ تقصير الناظر في البحث والنظر.
- ❑ اتباعه للهوى وابتغاؤه للفتنه.

الحكمة في تنوع القرآن إلى محكم ومتشابه:

لقد أشار القرآن الكريم إلى بعض الحِكَم والأسرار في ورود المحكم والمتشابه في الآية الكريمة ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ﴾[(٣)].

فأنزل الله المتشابه في القرآن وأوجب الإيمان به:

- ❑ ليتحقق الابتلاء والامتحان، مع عظم الثواب للمؤمن به.
- ❑ ومراعاة لتفاوت الأفهام وتمايز القرائح.

فلو كان القرآن كله محكماً وظاهراً للناس كلهم لفاتت الحكمة من الاختبار به تصديقاً وعملاً، ولانتفى التفاوت في الجهد، ولتساوى الناس في الجزاء.

ولو كان كله متشابهاً لفات كونه بيانا وهدى للناس ولما أمكن العمل به.

---

(١) سورة القيامة الآيتان (١٨، ١٩).
(٢) أصول في التفسير ٤١، ٤٢.
(٣) سورة آل عمران الآية (٧).

ولكن الله ﷻ بحكمته ورحمته بالأمة جعل منه آيات محكمات يرجع إليهن عند التشابه، وأخر متشابهات امتحاناً للعباد، ليتبين صادق الإيمان ممن في قلبه زيغ. فإن صادق الإيمان يعلم أن القرآن كله من عند الله، وما كان من عند الله فهو حق، ولا يمكن أن يكون فيه باطل أو تناقض، لقوله تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾[1]. وقوله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[2].

وأما من في قلبه زيغ فيتخذ من المتشابه سبيلا إلى تحريف المحكم واتباع الهوى في التشكيك في الأخبار والاستكبار عن الأحكام، ولهذا نجد أن كثيراً من المعتزلة والشيعة وعموم المنحرفين في العقائد يحتجون ـ لانحرافهم ـ بهذه الآيات المتشابهة فيؤولونها تأويلات تؤول بهم إلى إنكار النص[3].

قال ابن قتيبة "ولو كان القرآن كله ظاهراً مكشوفاً حتى يستوي في معرفته العالم والجاهل، لبطل التفاضل بين الناس، وسقطت المحنة، وماتت الخواطر، ومع الحاجة تقع الفكرة والحيلة، ومع الكفاية يقع العجز والبلادة"[4].

وجود المتشابه في الشرع:

الثابت أن وجود المتشابه في الشرع قليل لا كثير وذلك لأمور منها:

- ❑ النص الصريح في آية آل عمران فقوله في المحكمات (هن أم الكتاب) يدل على أنها معظم القرآن وعامته وأصله.
- ❑ أن المتشابه لو كان أكثر من المحكم لكان أكثر الشرع لا تعلم له حقيقة ـ عند من يقول بالتشابه الحقيقي ـ أو لكان أكثره مشكلا عند

---

(١) سورة فصلت الآية (٤٢).
(٢) سورة النساء الآية (٨٢).
(٣) انظر: أصول في التفسير ٤٢، واختلاف المفسرين أسبابه وآثاره ١٦٠.
(٤) تأويل مشكل القرآن ٨٦.

من يقول بالتشابه الإضافي. وقد ثبت أن القرآن هدى ونور وبيان وشفاء، وأنه أحكمت آياته ثم فصلت.

- الاستقراء: فإن المجتهد إذا نظر في أدلة الشريعة جرت له على قانون النظر واتسقت أحكامها، وانتظمت أطرافها على وجه واحد. ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾[1].

هل الأسماء والصفات ونصوص المعاد من المتشابه؟

الأمر يختلف باختلاف معنى المتشابه:

فمن فسر المتشابه **بالتشابه النسبي** والذي يزول برده إلى أهل العلم كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾[2] وأنها مفهومة من جهة المعنى ولغة التخاطب، فإنه لا يجوز إطلاق المتشابه عليها. والقول بأنها من المتشابه هو مذهب التفويض، وينسب زوراً وبهتانا إلى السلف الصالح الذين لم يدع أحد منهم أن في شيء من نصوص الصفات والمعاد أنها من المتشابه الذي لا يعلم معناه أحد من الخلق.

أما من فسر المتشابه **بالتشابه الحقيقي** مريداً معرفة حقائقها وكيفياتها التي عليها فهذا قد يسوغ إطلاق المتشابه عليها لأن ذلك العلم مما اختص الله به.

وتوضيح ذلك:

أننا نعلم معنى الاسم ومعنى الصفة، فنعلم معنى: سميع، وبصير، وعليم، ومعنى: السمع، والبصر، والعلم، ولا يقتضي علمنا بذلك أن تكون مثل ما في الشاهد من سمع المخلوق وبصره وعلمه، بل بينها من التباين والاختلاف ما لا يقدر أحد من الخلق قدره.

---

(١) سورة الزمر الآية (٢٣)، وانظر: قواعد الاستدلال على مسائل الاعتقاد ١٣٥.

(٢) سورة النساء الآية (٨٣).

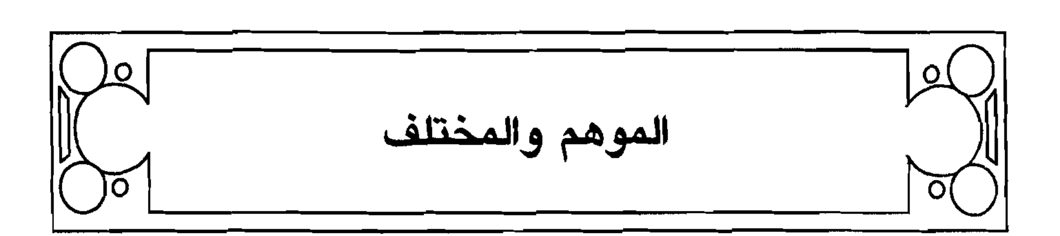
فالقدر المشترك بين الصفتين - ويكون في اللفظ والحرف والرسم والمعنى العام الكلي- هو الذي يجعلنا نفهم معنى الخطاب.

والقدر المميز هو الذي اختص الله بعلمه، وهو المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله. لكن لا ينبغي إطلاق لفظ المتشابه على صفات الله تعالى لأجل هذا الإجمال، ولهذا لم يؤثر عن السلف إطلاقه على الصفات[1].



(١) قواعد الاستدلال على مسائل الاعتقاد ١٣٦.

الموضوع الخامس عشر



الموهم والمختلف

يقصد بالموهم والمختلف: موهم الاختلاف، أو ما يوهم الاختلاف بين الآيات وهو ليس كذلك في حقيقة الأمر، وهو من المباحث المهمة في فهم الآيات مع وجود الاختلاف بين المفسرين وغيرهم في فهمها.

١ ـ تعريف الموهم والمختلف:

المختلف: هو التعارض بين آيات القرآن الكريم[1].

وموهم المختلف: هو ما يوهم التعارض بين آيات القرآن الكريم، ومما أثر في ذلك عن ابن عباس ﵄ أنه جاءه رجل، فقال له: «أرأيت أشياء تختلف عليّ من القرآن، فقال ابن عباس: ما هو؟ أشكّ في القرآن؟ قال: ليس بشك ولكن اختلاف، قال: هات ما اختلف عليك من ذلك»[2] ثم شرع السائل في ذكر آيات توهم أنها متعارضة ويجيب عنها ابن عباس ﵄.

والتعارض: أن تتقابل آيتان بحيث يمنع مدلول إحداهما مدلول الأخرى[3].

(١) البرهان في علوم القرآن ٢/٤٥.
(٢) أخرجه عبدالرزاق في تفسيره ١/١٦٠.
(٣) أصول في التفسير لابن عثيمين ٤٥.

والمشكل: هو الذي أشكل معناه فلم يتبين حتى بُيِّن[1]، أو هو: اسم لما يشتبه المراد منه بدخوله في أشكاله على وجه لا يعرف المراد إلا بدليل يتميز به من بين سائر الأشكال[2].

وبعبارة أخرى: هو التباس معاني الآيات واشتباهها على كثير من المفسرين فلا يعرف معناها إلا بالطلب والتأمل.

٢ ـ أهم المؤلفات في الموهم والمختلف:

- ❑ تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة المتوفى سنة (٢٧٦هـ) ويغلب على كتابه ما أشكل من المعاني، وعقد باباً سماه: باب التناقض والاختلاف.
- ❑ الفوائد في مشكل القرآن، للعز بن عبدالسلام الملقب بـــــ: سلطان العلماء، المتوفى سنة ٦٦٠هـ.
- ❑ تفسير آيات أشكلت، لشيخ الإسلام ابن تيمية المتوفى سنة (٧٢٨هـ).
- ❑ دفع إيهام الاضطراب، لمحمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، المتوفى سنة ١٣٩٣هـ.

وقد جاءت الكتابة عنه في بعض كتب علوم القرآن مثل:

- ❑ البرهان في علوم القرآن للزركشي، حيث تناوله في النوع الخامس والثلاثين باسم: «معرفة موهم المختلف».
- ❑ الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، حيث تناوله في النوع الثامن والأربعين باسم: «مشكله وموهم الاختلاف والتناقض».
- ❑ الزيادة والإحسان في علوم القرآن لابن عقيلة المكي، حيث تناوله في النوع الخامس بعد المائة باسم: «علم ما أوهم التناقض والتعارض وليس بمتناقض ولا بمتعارض».

---

(١) الزيادة والإحسان ١٩٦/٥.

(٢) أصول السرخسي ١٦٨/١.

٣ ـ عناية ابن عباس رضي الله عنهما في المختلف والمشكل:

يعد ابن عباس رضي الله عنهما من أشهر الصحابة رضوان الله عليهم في بيان المشكل والمختلف ويبرز ذلك في عدة جوانب:

- ❑ إجاباته على أسئلة نافع بن الأزرق ـ أحد الخوارج المتوفى سنة ٦٥هـ ـ عن غريب القرآن[١]..

- ❑ «غريب القرآن» لابن عباس رضي الله عنهما من رواية علي بن أبي طلحة والضحاك وعطاء بن أبي رباح.

- ❑ إجاباته للرجل الذي سأله عن أشياء اختلفت عليه وقد وردت هذه الرواية في صحيح البخاري عن سعيد بن جبير قال: قال رجل لابن عباس: إني أجد في القرآن أشياء تختلف عليّ[٢]، قال: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾[٣] ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾[٤]. ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾[٥]، ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[٦] فقد كتموا في هذه الآية.

وقال: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾[٧] فذكر خلق السماء قبل خلق الأرض، ثم قال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ

---

(١) طبعت عدة طبعات منها ما طبع في كتاب «شواهد القرآن» لأبي تراب الظاهري وقد جمعها السيوطي في الإتقان ٢/٦٧ ـ ١٠٥ (النوع السادس والثلاثون).
(٢) قال ابن حجر: أي تشكل وتضطرب، فتح الباري ٨/٤٢٨.
(٣) سورة المؤمنون الآية (١٠١).
(٤) سورة الصافات الآية (٢٧).
(٥) سورة النساء الآية (٤٢).
(٦) سورة الأنعام الآية (٢٣).
(٧) سورة النازعات الآيات (٢٧ ـ ٣٠).

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ⑪﴾[1]، فذكر في هذه خلق الأرض قبل السماء.

وقال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[2]، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[3]، ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[4]، فكأنه كان، ثم مضى.

فقال: ﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ في النفخة الأولى، ثم ينفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون، ثم في النفخة الآخرة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون.

وأما قوله ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم، وقال المشركون تعالوا نقول: لم نكن مشركين، فختم على أفواههم فتنطق أيديهم فعند ذلك عرف أنهم لا يكتمون حديثا، وعنده ﴿يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

وخلق الأرض في يومين، ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء، فسواهن في يومين آخرين، ثم دحا الأرض، ودحوها أن أخرج منها الماء والمرعى وخلق الجبال والجمال والآكام وما بينهما في يومين آخرين فذلك قوله: ﴿دَحَاهَا﴾، وقوله خلق الأرض في يومين وما فيها من شيء في أربعة أيام، وخُلِقَتَ السماوات في يومين.

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ سمى نفسه ذلك وذلك قوله أي: لم يزل كذلك، فإن الله لم يُرِد شيئاً إلا أصاب به الذي أراد.

فلا يختلف عليك القرآن فإن كلا من عند الله»[5].

---

(١) سورة فصلت الآيات (٩ ـ ١١).
(٢) سورة النساء الآية (٩٦).
(٣) سورة النساء الآية (١٦٥).
(٤) سورة النساء الآية (١٣٤).
(٥) صحيح البخاري ٣٥/٦ تفسير سورة فصلت.

٤ ـ هل يوجد في القرآن اختلاف؟:

لا شك أن كلام الله ﷻ منزه عن الاختلاف كما قال ﷻ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾[1] ولكن ينبغي أن يعرف ما يلي:

- ❑ أن الاختلاف المقصود في الآية هو نفي الاختلاف عن ذات القرآن وأصل الآيات، وليس المقصود نفي اختلاف الناس فيه.
- ❑ أنه قد يقع للمبتدئ ما يوهم اختلافاً وليس كذلك فاحتيج إلى إزالته.
- ❑ أن الاختلاف الذي يقع هو اللفظ المشترك بين عدة معان.

فعلى هذا الوجه لا مانع من وجود الاختلاف في القرآن الكريم.

٥ ـ الحكمة من وجود المختلف في القرآن الكريم:

لوجود المختلف في القرآن الكريم حِكَم عديدة استخرجها العلماء، ولعل من أهمها:

- ❑ أنه لو كان القرآن الكريم كله ظاهراً يستوي في معرفته العالم والجاهل لانتفى التفاضل بين الناس وسقطت المحنة والابتلاء، ولما ظهر التفاضل بين الخلق وتميز العالم عن غيره.
- ❑ إظهار إعجاز القرآن لأن البحث في المختلف يظهر بلاغة القرآن وإحكامه واتساق معانيه وروعة ألفاظه.
- ❑ البحث في المختلف يوجب بذل مزيد من الجهد والمشقة، وتحصيل العلوم الشرعية وأدلتها واستعمالها في دفعه.
- ❑ إعمال العقل والفكر والنظر في الأدلة لدفع المختلف[2].

---

(١) سورة النساء الآية (٨٢).

(٢) انظر مناهل العرفان ٥٣٩.

٦ ـ الأسباب الموهمة للاختلاف:

لعل أبرز الأسباب التي تجعل القارىء يتوهم أن هناك اختلافاً بين الآيات هو القارىء نفسه للقرآن الكريم وذلك بحسب علمه ومعرفته في حل الخلاف والإشكال الواقع فيها، ولهذا فإن المتدبر للقرآن الكريم العارف لمعانيه وأحكامه قادر على دفع ما يظن أنه اختلاف، ويمكن إجمال الأسباب التي تتعلق بالمفهوم للآيات بالآتي:

- ❑ اختلاف المعنى الذي تتحدث عنه الآيات، فيتوهم القارىء اتحاد موضوعهما بينما عند التحقيق يظهر أن لكل آية معناها ودلالاتها الخاصة بها.

ومثال ذلك: قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾[1] مع قوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾[2] فالأولى تفهم إمكان العدل، والثانية تنفيه، وقد أجاب عن ذلك الزركشي بقوله:

أن المراد بالعدل في الأولى: العدل بين الأزواج في توفية حقوقهن، وهذا ممكن الوقوع وعدمه.

والمراد به في الثانية: الميل القلبي، فالإنسان لا يملك ميل قلبه إلى بعض زوجاته دون بعض، وقد كان ﷺ يقسم بين نسائه ثم يقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تؤاخذني بما لا أملك»[3].

- ❑ وقوع المخبر به على أحوال وأطوار مختلفة:

ويقصد به أن يرد عدد من الآيات تتحدث عن شيء واحد ولكن ألفاظها ومعانيها مختلفة.

ومثال ذلك: قوله تعالى في خلق آدم ﴿خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾[4]، ومرة

---

(١) سورة النساء الآية (٣).

(٢) سورة النساء الآية (١٢٩).

(٣) البرهان في علوم القرآن ٥٨/٢، والحديث أخرجه أبو داوود في سننه ٦٤٨/١، في كتاب: النكاح، باب: في القسم بين النساء رقم ٢١٣٤.

(٤) سورة آل عمران الآية (٥٩).

ثانية ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾[(١)]، ومرة ثالثة ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦﴾[(٢)]، ومرة رابعة ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤﴾[(٣)].

والجواب عن ذلك: أنه ذكر أطوار ذلك التراب فذكر طوره الأول وهو التراب، ثم صار طينا لازباً، ثم خُمِّر فصار حمأً مسنونا، ثم يبس فصار صلصالاً كالفخار[(٤)].

❑ اختلاف جهتي الفعل:

أي أن تأتي آية تبين الفعل وفاعله، ثم تأتي آية أخرى تذكر الفعل نفسه وتثبت فاعلاً آخر له.

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[(٥)]، فهنا نسب التوفي إلى الله ﷻ.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝١١﴾[(٦)]، فهنا نسب التوفي إلى ملك الموت، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ۝٦١﴾[(٧)]، وهنا نسب التوفي إلى رسل الله وهم الملائكة.

والجواب عن ذلك: أن إسناد التوفي إلى الله ﷻ: لأن ملك الموت لا يقدر أن يقبض روح أحد إلا بإذن الله تعالى ومشيئته. وإسناده إلى ملك الموت: لأنه هو المأمور بقبض الأرواح.

---

(١) سورة الصافات الآية (١١).
(٢) سورة الحجر الآية (٢٦).
(٣) سورة الرحمن الآية (١٤).
(٤) انظر دفع إيهام الاضطراب ١٧١.
(٥) سورة الزمر الآية (٤٢).
(٦) سورة السجدة الآية (١١).
(٧) سورة الأنعام الآية (٦١).

وإسناده إلى الملائكة: لأن ملك الموت له أعوان من الملائكة تحت رياسته يفعلون بأمره، وينزعون الروح إلى الحلقوم فيأخذها ملك الموت[١].

❑ اختلاف الموضع والمكان للآيات:

كأن تأتي آيات تدل على معنى مشترك بينهما ولكن في إحدى الآيات يختلف موضعها ومكانها من موضع ومكان الآية أو الآيات الأخرى.

ومثال ذلك: قوله تعالى: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾[٣]، فإنهما تدلان على أنه لا يسأل بعضهم بعضا. وقال الله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾[٤] فهنا أثبت سؤال بعضهم بعضا.

والجواب عن ذلك: أن ذلك محمول على اختلاف المواقف يوم القيامة، فالإثبات باعتبار بعضها، والنفي باعتبار بعضٍ آخر[٥].

❑ احتمال الإحكام أو النسخ للآية:

يظهر أحيانا بعض الاختلاف في بيان الآيات، نتيجة اختلاف المفسرين بين القول بنسخ المتأخرة في النزول للمتقدمة، وبين إحكامهما والجمع بينهما.

ومن أمثلة ذلك: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾﴾[٦] مع قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا

---

(١) انظر دفع إيهام الاضطراب ٢٣٦.
(٢) سورة المؤمنون الآية (١٠١).
(٣) سورة المعارج الآية (١٠).
(٤) سورة الطور الآية (٢٥).
(٥) فتح القدير ٦٧٩/٣.
(٦) سورة البقرة الآية (٢٤٠).

فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾[1]

حيث ظهر الاختلاف بين المفسرين، فجمهورهم ذهب إلى أن الآية المتقدمة في الوضع ناسخة للمتأخرة، وأن تقدم الآية في السورة هو تقدم في الوضع لا في النزول.

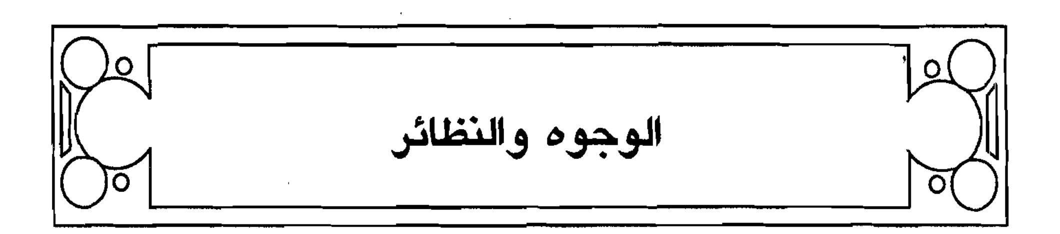
وذهب آخرون إلى إحكام الآيتين بالجمع بينهما وأنه لا نسخ فيهما، فتكون الآية الأولى في وجوب التربص أربعة أشهر وعشرا على وجه التحتيم على المرأة، والآية الثانية وصية لأهل الميت أن يبقوا زوجة ميتهم عندهم حولاً كاملاً، جبراً لخاطرها، وبراً بميتهم، ولهذا قال ﴿وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم﴾ أي وصية من الله لأهل الميت أن يستوصوا بزوجته ويمتعوها ولا يخرجوها. فإن رغبت أقامت في وصيتها، وإن أحبت الخروج فلا حرج عليها ولهذا قال: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ﴾[2].



(١) سورة البقرة الآية (٢٣٤).

(٢) انظر تفسير السعدي ٩٨.

الموضوع السادس عشر



أهمية علم الوجوه والنظائر:

علم الوجوه والنظائر هو أحد العلوم التي تبحث في معاني ألفاظ القرآن الكريم وتعددها، وهذه المعاني إما أن تكون في اللفظة الواحدة، أو معنى واحد لألفاظ متماثلة، بمعنى: أنه دراسة لألفاظ تكرر ورودها في القرآن الكريم ولها معان مختلفة وهو ما يسمى بـ: «الوجوه» وقد تجتمع بعض هذه الألفاظ على معنى واحد وهو ما يسمى بـ: «النظائر».

مثال ذلك:

لفظة «اللباس» وردت في آيات متعددة على أربعة وجوه:

الوجه الأول: الخلط، ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤٢﴾[1]، ونظيره قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ﴾[3].

---

(١) سورة البقرة الآية (٤٢).
(٢) سورة الأنعام الآية (٨٢).
(٣) سورة آل عمران الآية (٧١).

الوجه الثاني: السكن، ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[1]، ونظيره: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠﴾[2].

الوجه الثالث: لبس الثياب، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ﴾[3]، ونظيره قوله تعالى: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾[4].

الوجه الرابع: العمل الصالح، ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾[5].

فهذه اللفظة لها أربعة وجوه وهو ما يسمى بـ «الوجوه»، وكل وجه له عدة أمثلة، وهذه الأمثلة تسمى «النظائر».

معنى الوجوه والنظائر:

الوجوه: في اللغة: يأتي لعدة معان:

١ ـ الدلالة على معنى واحد ومنه: هذا وجه الرأي.

٢ ـ الدلالة على التشابه فيُرَدُّ بعضها إلى بعض.

٣ ـ الدلالة على التعدد في المعنى، وهو المقصود في بحث «الوجوه والنظائر».

وفي الاصطلاح: اللفظ المشترك الذي يستعمل في عدة معان، وهو تعريف الزركشي والسيوطي[6]، وبعبارة أخرى أن الوجوه هي: الألفاظ المتماثلة في اللفظ المختلفة في المعنى.

النظائر: في اللغة: جمع نظير وهو المماثل والشبيه.

وفي الاصطلاح: الألفاظ المتماثلة في اللفظ المتفقة في المعنى،

---

(١) سورة البقرة الآية (١٨٧).
(٢) سورة النبأ الآية (١٠).
(٣) سورة الأعراف الآية (٢٦).
(٤) سورة الدخان الآية ٥٣).
(٥) سورة الأعراف الآية (٢٦).
(٦) البرهان في علوم القرآن (١: ١٠٢)، والإتقان (٢: ١٤٤).

ويستعمل المفسرون عادة عبارة «ونظيرها» للدلالة على كون اللفظ ورد بنفس المعنى في آية أخرى.

وذهب ابن الجوزي إلى أن الوجوه في المعاني، والنظائر في الألفاظ[١].

ويتلخص من هذا أن في الوجوه معنى التعدد والاختلاف، وفي النظائر معنى التشابه والاتفاق.

معنى الكليات والأفراد:

يقصد بالكليات: الألفاظ أو الأساليب الواردة في القرآن على معنى مطرد.

أما الأفراد فيقصد بها: الألفاظ أو الأساليب التي أتت في القرآن بمعنى مفرد غير المعنى الذي تستعمل فيه عادة[٢].

ومثال ذلك: ما قاله ابن فارس في كتابه «الأفراد»: «كل ما في القرآن من ذكر «البروج» فإنها الكواكب، كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١﴾[٣]، إلا التي في سورة النساء: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[٤] فإنها القصور الطوال، المرتفعة في السماء الحصينة»[٥]. فإن المعنى الأول عام في كل القرآن (فهو الكليات)، والمعنى الذي في سورة النساء فرد خاص بهذا الموضع (فهو الأفراد).

ومن العلماء الذين اهتموا بهذا الموضوع ابن فارس في كتابه «الأفراد» والراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ) في كتابه «المفردات في غريب القرآن» حيث جمع ذلك محققه صفوان داودي في خاتمته.

---

(١) نزهة الأعين النواضر (١ : ٢).

(٢) انظر: تفسير القرآن الكريم أصوله وضوابطه (١٢٠).

(٣) سورة البروج الآية (١).

(٤) سورة النساء الآية (٧٨).

(٥) البرهان في علوم القرآن (١ : ١٠٥).

وأبو البقاء الكفوي (ت ١٠٩٤هـ) في كتابه «الكليات».

وابن عاشور في مقدمة تفسيره «التحرير والتنوير» وأفرد لذلك بحثا سماه «عادات القرآن».

وبريك بن سعيد القرني في كتابه «كليات الألفاظ في التفسير».

وبين الوجوه والنظائر والكليات والأفراد علاقة كبرى فكل منهما يبحث في الألفاظ ومعانيها ومدى الاشتراك بينها.

الفرق بين تفسير المفردات وتفسير الوجوه والنظائر:

يعنى بتفسير المفردات أو غريب القرآن: الإتيان باللفظ الوارد في القرآن فيذكر معناه على طريقة أصحاب المعاجم مستعينا باللغة أو ما فسره المفسرون (دون أن يذكر الوجوه). مع ذكر الآيات التي ورد بها اللفظ في مورد الآية.

أما تفسير الوجوه والنظائر فهو: البحث في ألفاظ القرآن وبيان ما ورد في أكثر من آية وكانت دلالته على معناه في واحد منها غير معناه في الآية الأخرى[١].

نشأة علم الوجوه والنظائر:

اعتنى الصحابة رضوان الله عليهم في تفسير القرآن الكريم وبيان معانيه وحُكي عن بعضهم أن للقرآن وجوها متعددة سواء في تفسير الآية الواحدة أو اللفظة الواحدة، ومن ذلك ما روي عن علي بن أبي طالب أنه قال لابن عباس رضي الله عنهما حين أرسله إلى الخوارج: «اذهب إليهم فخاصمهم ولا تحاجهم في القرآن فإنه ذو وجوه، ولكن خاصمهم بالسنة» فقال له: «يا أمير المؤمنين فأنا أعلم بكتاب الله منهم، في بيوتنا نزل، قال: صدقت، ولكن القرآن حمال ذو وجوه، تقول ويقولون، ولكن خاصمهم

(١) الوجوه والنظائر في القرآن الكريم د. سليمان القرعاوي (١٤).

بالسنة فإنهم لن يجدوا عنها محيصا، فخرج إليهم فخاصمهم بالسنة، فلم تبق بأيديهم حجة»[١] وقال أبو الدرداء: «لا تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوها كثيرة»[٢].

وقد نقل عن الصحابة والتابعين ومن أتى بعدهم من العلماء في تفسير الآية الواحدة معان متعددة، ومن ذلك:

١ - ما نقل عن أبي العالية قوله: «كل آية في القرآن يذكر فيها حفظ الفروج فهو من الزنى إلا قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾[٣] فالمراد أن لا يراها أحد»[٤].

٢ - ما نقل عن سعيد بن جبير قال: «العفو في القرآن على ثلاثة أنحاء: نحوٌ تجاوز عن الذنب، ونحوٌ في القصد في النفقة: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾[٥]، ونحوٌ في الإحسان فيما بين الناس: ﴿إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾[٦][٧].

أهم المؤلفات في الوجوه والنظائر:

وبعد تلك النشأة كان لهذه المعاني والألفاظ اهتمام خاص من العلماء والباحثين سواء من علماء اللغة أو التفسير أو الحديث فأفردوا لهذا العلم مصنفات عديدة سنتناول بعضها بالذكر على النحو التالي:

١ - الأشباه والنظائر في القرآن الكريم، لمقاتل بن سليمان البلخي نشأ بمدينة بلخ ثم تحول إلى مرو ثم إلى البصرة فبغداد التي أصبح فيها

---

(١) الأثر ذكره السيوطي في الإتقان (٢: ١٤٥).
(٢) أخرجه عبدالرزاق في المصنف (١١: ٢٥٥).
(٣) سورة النور الآية (٣١).
(٤) الإتقان (٢: ١٣٧).
(٥) سورة البقرة الآية (٢١٩).
(٦) سورة البقرة الآية (٢٣٧).
(٧) الإتقان (٢: ١٦٤).

علما مشهوراً، اشتهر بتفسير كتاب الله، وكثر الكلام حول توثيقه، من مؤلفاته: تفسير مقاتل بن سليمان، تفسير الخمسمائة آية من القرآن، الناسخ والمنسوخ، متشابه القرآن، الأشباه والنظائر في القرآن الكريم. توفي سنة (١٥٠هـ). وكتابه الأشباه اشتمل على (١٨٥) كلمة، لم ترتب حسب ترتيب معين وهو مطبوع بمجلد واحد بتحقيق د/ عبدالله شحاته سنة (١٣٩٥هـ).

٢ ـ الوجوه والنظائر لهارون بن موسى البصري الأعور، كان يهودياً فأسلم وحسن إسلامه وحفظ القرآن وضبط النحو، له اهتمام بالقراءات والتفسير والحديث، توفي نحو سنة (١٧٠هـ)، وكتابه الوجوه والنظائر مطبوع بمجلد واحد.

٣ ـ التصاريف، وهو: تفسير القرآن مما اشتبهت أسماؤه وتصرفت معانيه، لأبي زكريا يحيى بن سلام المولود بالكوفة، قدم إلى مصر ثم إلى إفريقية وسكن القيروان، وذهب إلى المدينة والتقى الإمام مالك، له: تفسير ابن سلام، والتصاريف، توفي سنة (٢٠٠هـ). وكتابه مطبوع بتحقيق د/ هند شلبي ويتلخص في تجميع للآيات المتحدة في مادة معينة، ثم توزيع لتلك الآيات على وجوه تلك المادة[١].

٤ ـ ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد، لمحمد بن يزيد المبِرِّد، ولد بالبصرة، كان عالما فاضلاً عليماً بنحو البصريين، له من المؤلفات: معاني القرآن، وهذا الكتاب، والمقتضب والكامل وغيرها، توفي سنة (٢٨٦هـ). وكتابه عبارة عن رسالة نشرها الأستاذ الميمني سنة (١٣٥٠هـ) وهي أقرب إلى متعلقات الوجوه والنظائر العربية.

٥ ـ الأفراد، لأحمد بن فارس الرازي القزويني اللغوي المشهور،ولد

---

(١) انظر: مقدمة التصاريف.

بهمذان بقزوين، من مؤلفاته: المجمل، وفقه اللغة، مقاييس اللغة، جامع التأويل في تفسير القرآن، الأفراد، توفي سنة (٣٩٠هـ). وكتابه غير موجود وقد نقل جملة منه الزركشي في البرهان، وتابعه في ذلك السيوطي في الإتقان.

٦ ـ الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، لأبي عبدالله الحسين بن محمد الدامغاني، والكتاب حققه ورتبه وأكمله عبدالعزيز سيد الأهل وسماه «قاموس القرآن» أو «إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم» طبع عام (١٩٨٥م).

٧ ـ الأشباه والنظائر في الألفاظ القرآنية التي ترادفت مبانيها وتنوعت معانيها وقد عزاه محققه إلى عبدالملك بن محمد الثعالبي المتوفى سنة (٤٢٩هـ) وهو مطبوع بمجلد واحد بتحقيق محمد المصري.

٨ ـ نزهة الأعين النواضر في علم الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، لأبي الفرج عبدالرحمن بن علي المعروف بابن الجوزي، ولد في بغداد، اشتغل بعلوم التفسير والحديث والفقه، واشتهر بالوعظ حتى أصبح إمام بغداد وواعظها الأول، من مؤلفاته: زاد المسير في علم التفسير، ناسخ القرآن ومنسوخه، فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن، الموضوعات في الأحاديث المرفوعات، صفة الصفوة، توفي سنة (٥٩٧هـ). وكتابه مطبوع بمجلدين بتحقيق السيدة مهر النساء، وقد اختصره في كتاب آخر سماه «منتخب قرة العيون النواضر في الوجوه والنظائر» وطبع بتحقيق محمد السيد الصفطاوي وفؤاد عبدالمنعم أحمد.

٩ ـ كشف السرائر في معنى الوجوه والأشباه والنظائر، لمحمد بن العماد المولود بمصر، له: مختصر لتفسير البيضاوي، ومختصر المنهاج للنووي في الفقه الشافعي. توفي سنة (٨٨٧هـ). وكتابه مطبوع بمجلد واحد بتحقيق فؤاد عبدالمنعم أحمد.

١٠ ـ الوجوه والنظائر في القرآن الكريم دراسة وموازنة للدكتور سليمان بن

صالح القرعاوي الأستاذ بجامعة الملك فيصل، ويعتبر من الدراسات الحديثة في هذا الموضوع.

أمثلة تطبيقية على الوجوه والنظائر:

❑ **الآخرة**: ورد لفظ (الآخرة) في القرآن على خمسة وجوه:

الوجه الأول: الآخرة تعني القيامة.

فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾[1]، ونظيره: قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾[2].

الوجه الثاني: الآخرة يعني الجنة خاصة.

فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾[3]، ونظيره: قوله تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾[4]، وقوله: ﴿وَٱلْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ﴾[5]، وقوله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾[6]، وقوله: ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾[7].

الوجه الثالث: الآخرة يعني جهنم خاصة.

فذلك قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾[8].

---

(١) سورة المؤمنون الآية (٧٤).
(٢) سورة الليل الآية (١٣).
(٣) سورة البقرة الآية (١٠٢).
(٤) سورة البقرة الآية (٢٠٠).
(٥) سورة الزخرف الآية (٣٥).
(٦) سورة القصص الآية (٨٣).
(٧) سورة الشورى الآية (٢٠).
(٨) سورة الزمر الآية (٩).

الوجه الرابع: الآخرة يعني القبر.

فذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾(١).

الوجه الخامس: الآخرة يعني الأخيرة.

فذلك قوله تعالى: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾(٢)، **ونظيره**: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾(٣)(٤).

❑ **المحصنات**: ورد لفظ (المحصنات) في القرآن على ثلاثة وجوه:

الوجه الأول: المحصنات: يعني الحرائر.

فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾(٥)، ونظيره: قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾(٦)، وقوله تعالى: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾(٧).

الوجه الثاني: محصنات: يعني عفائف.

فذلك قوله تعالى: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾(٨)، **ونظيره**: قوله تعالى: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾(٩)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾(١٠)، وقوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾(١١).

---

(١) سورة إبراهيم الآية (٢٧).
(٢) سورة ص الآية (٧).
(٣) سورة الإسراء الآية (٧).
(٤) انظر: الأشباه والنظائر لمقاتل بن سليمان (٣٠٢).
(٥) سورة النساء الآية (٢٤).
(٦) سورة النساء الآية (٢٥).
(٧) سورة النساء الآية (٢٥).
(٨) سورة النساء الآية (٢٥).
(٩) سورة المائدة الآية (٥).
(١٠) سورة النور الآية (٢٣).
(١١) سورة التحريم الآية (١٢).

الوجه الثالث: المحصنات: يعني المسلمات.

فذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ﴾[1]، **ونظيره**: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾[2][3].

❑ **الدعاء**: ورد لفظ (الدعاء) في القرآن على ستة وجوه:

الوجه الأول: دعاء: يعني قول.

فذلك قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥﴾[4]، ونظيره: قوله تعالى: ﴿فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾[6]

الوجه الثاني: دعاء: يعني عبادة.

فذلك قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾[7]، **ونظيره**: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾[8]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾[9]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾[10]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾[11]، وقوله تعالى: ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡ﴾[12].

---

(١) سورة النساء الآية (٢٥).

(٢) سورة النور الآية (٤).

(٣) انظر: الأشباه والنظائر في القرآن الكريم (١٤٦).

(٤) سورة الأعراف الآية (٥).

(٥) سورة الأنبياء الآية (١٥).

(٦) سورة يونس الآية (١٠).

(٧) سورة الأنعام الآية (٧١).

(٨) سورة يونس الآية (١٠٦).

(٩) سورة الشعراء الآية (٢١٣).

(١٠) سورة القصص الآية (٨٨).

(١١) سورة الفرقان الآية (٦٨).

(١٢) سورة الفرقان الآية (٧٧).

الوجه الثالث: دعاء: يعني نداء.

فذلك قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠﴾[١]، **ونظيره**: قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾[٥].

الوجه الرابع: الدعاء: يعني الاستغاثة.

فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[٦]، **ونظيره**: قوله تعالى: ﴿وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[٧]، وقوله تعالى: ﴿وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾[٩].

الوجه الخامس: الدعاء: يعني السؤال (استفهام).

فذلك قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ﴾[١٠]، **ونظيره**: قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾[١١]، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟﴾[١٢].

الوجه السادس: دعاء: يعني سؤال في طلبه.

فذلك قوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ

---

(١) سورة القمر الآية (١٠).
(٢) سورة القمر الآية (٦).
(٣) سورة الإسراء الآية (٥٢).
(٤) سورة الروم الآية (٥٢).
(٥) سورة فاطر الآية (١٤).
(٦) سورة البقرة الآية (٢٣).
(٧) سورة يونس الآية (٣٨).
(٨) سورة هود الآية (١٣).
(٩) سورة غافر الآية (٢٦).
(١٠) سورة البقرة الآية (٦٨).
(١١) سورة البقرة الآية (٦٩).
(١٢) سورة الكهف الآية (٥٢).

عَنَّا ٱلرِّجْزَ﴾[١]، **ونظيره**: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾[٤][٥].

❑ **الصراط**: ورد لفظ (الصراط) في القرآن على وجهين:

الوجه الأول: الصراط: يعني الطريق.

فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾[٦]، **ونظيره**: قوله تعالى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾[٧].

الوجه الثاني: الصراط: يعني الدين.

فذلك قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾[٨]، **ونظيره**: قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾[٩]، وقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾[١٠][١١].

❑ **الفتح**: ورد لفظ (الفتح) في القرآن على أربعة وجوه:

الوجه الأول: الفتح: يعني القضاء.

فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾[١٢]، **ونظيره**: قوله

---

(١) سورة الأعراف الآية (١٣٤).
(٢) سورة الزخرف الآية (٤٩).
(٣) سورة غافر الآية (٦٠).
(٤) سورة غافر الآية (٤٩).
(٥) انظر: الأشباه والنظائر (٢٨٥).
(٦) سورة الأعراف الآية (٨٦).
(٧) سورة الصافات الآية (٢٣).
(٨) سورة الفاتحة الآية (٦).
(٩) سورة الأنعام الآية (١٥٣).
(١٠) سورة الأنعام الآية (١٢٦).
(١١) انظر: الأشباه والنظائر في القرآن الكريم (٢٨٩).
(١٢) سورة الفتح الآية (١).

تعالى: ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ﴾[٣].

الوجه الثاني: الفتح: يعني الإرسال.

فذلك قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾[٤]، ونظيره: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾[٥]، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[٦].

الوجه الثالث: الفتح بعينه.

فذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾[٧].

الوجه الرابع: الفتح: يعني النصر.

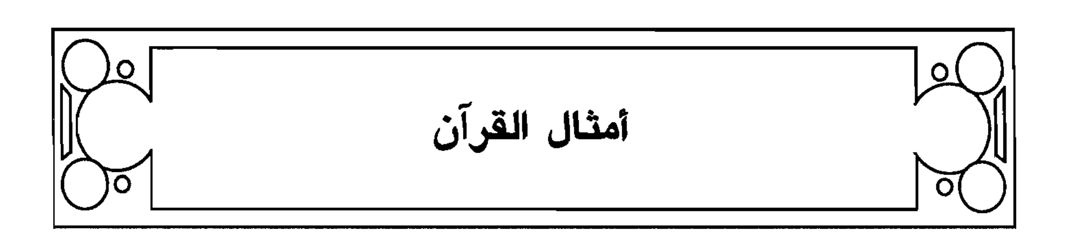
فذلك قوله تعالى: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ﴾[٨]، ونظيره: قوله تعالى: ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾[٩][١٠].

❀ ❀ ❀

---

(١) سورة سبأ الآية (٢٦).
(٢) سورة الأعراف الآية (٨٩).
(٣) سورة السجدة الآيات (٢٨، ٢٩).
(٤) سورة فاطر الآية (٢).
(٥) سورة الأنبياء الآية (٩٦).
(٦) سورة المؤمنون الآية (٧٧).
(٧) سورة الزمر الآية (٧٣).
(٨) سورة المائدة الآية (٥٢).
(٩) سورة الصف الآية (١٣).
(١٠) انظر: الأشباه والنظائر في القرآن الكريم (٢٠٤).

الموضوع السابع عشر



أمثال القرآن

من أساليب القرآن في ضروب بيانه وإظهار حقائقه ومعانيه الخفية التي قررها ليهتدي بها من هداه الله إلى فوزه وبغيته في الدنيا والآخرة: ضرب الأمثال للناس، وإبراز المعقول في صورة المحسوس، وعرض الغائب في معرض الحاضر، وقياس النظير على النظير، وبذلك يسلك القرآن سبيله إلى الإقناع بالحكمة والموعظة الحسنة.

معنى الأمثال في اللغة:

الأمثال جمع مثل والمثل في اللغة: بمعنى الشبيه والنظير، والمَثَلُ، والمِثْل، والمثيل كالشبه والشبيه لفظاً ومعنى.

قال المبرد: المَثَل مأخوذ من المثال، وهو قول سائر يُشَبّه به حال الثاني بالأول، والأصل فيه التشبيه، فقولهم: مَثَلَ بين يديه: إذا انتصب، معناه أشبه الصورة المنتصبة[١].

وقال الراغب: «والمثل عبارة عن قول في شيء يشبه قولاً في شيء آخر، بينهما مشابهة، ليبين أحدهما الآخر ويصوّره»[٢].

(١) انظر مجمع الأمثال للميداني (١/٥، ٦).

(٢) المفردات، مادة «مثل» (٦٠٠).

استعمالات المثل في اللغة:

وللمثل استعمالات عدة منها:

١ - المثل السائر وهو عبارة عن القول المحكي السائر يقصد به تشبيه حال الذي حكي فيه بحال الذي قيل لأجله. أي: يُشْبِه مَضْرِبَه مَوْرِدَه[١] .**ومن أمثلته**: «الصيف ضيعت اللبن» فهذا قيل في أول الأمر لامرأة تزوجت شيخاً كبيراً ذا مال، فكرهته وطلبت الطلاق، فطلقها فتزوجت شاباً فقيراً، ثم أصابتها سنة وحاجة، فأرسلت إلى الشيخ الأول تطلب لبناً وذلك في شتاء قارس، فقال للرسول: قل لها: الصيف ضيعت اللبن. فلما قال لها الرسول ذلك، وضعت يدها على زوجها الشاب فقالت: مُذْقُ هذا خير[٢]. فهو يقال في كل أمر مماثل حيث يطلب الشيء بعد التسبب في ضياعه. ومثل: «رب رمية من غير رام» يضرب للمخطئ يصيب أحيانا ومعناه: رب إصابة هدف حصلت من رام شأنه أن يخطئ. وتبقى صيغة المثل لا تتغير في كل استعمالاته، فيخاطب به المفرد والمثنى والجمع، والمذكر والمؤنث، بصيغته التي ورد عليها .**والفرق بينه وبين الحكمة**: أن الكلمة إذا شاعت وانتشرت وكثر دورانها على الألسنة تكون مثلاً. أما إذا كانت الكلمة صائبة وصادرة عن تجربة، ولم تدر على الألسنة فتسمى: حكمة.

٢ - أنه يطلق على الحال والقصة والوصف والشيء العجيب. وقد ورد في القرآن الكثير من الآيات التي تدل على هذا المعنى ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾[٣] أي: حالهم العجيبة الشأن كحال الذي استوقد نارا. وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[٤]

---

(١) المضرب: المعنى الظاهر من المثل. المورد: المعنى الخفي والمقصود من إيراد المثل.

(٢) أي لبنه المخلوط على جماله وشبابه خير من الشيخ ولبنه.

(٣) سورة البقرة الآية (١٧).

(٤) سورة النحل الآية (٦٠).

أي: الوصف الذي له شأن من العظمة والجلالة. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾[١] أي: صفتهم وشأنهم المتعجب منه. وقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾[٢] أي: حالها وقصتها وصفتها.

٣ ـ التشبيه الذي وجه الشبه فيه عقلي، ويحتاج إلى ضرب من التأول، ومثاله: تشبيه الحجة بالشمس وتشبيه ألفاظ الكلام بالماء في السلاسة، وبالنسيم في الرقة، وبالعسل في الحلاوة.

٤ ـ الاستعارة التي وجه الشبه فيها عقلي، ولم يكن من المحسوس والغرائز والطباع. ومثاله: ضرب النور مثلا للقرآن، والحياة بالعلم[٣].

معنى الأمثال في القرآن:

إذا وردت الأمثال مضافة إلى القرآن في كتب علوم القرآن، فإنهم يقصدون بها: الآيات المشتملة على تمثيل حال أمر بحال أمر آخر، سواء وردت بطريق التشبيه الصريح[٤]، أم بطريق التشبيه الضمني[٥]، أم سماه مثلاً ولكن ليس فيه تشبيه صريح ولا ضمني، أم وردت بمعنى الشيء العجيب صفة أو حالا أو قصة[٦].

وقد عرف ابن القيم المثل في القرآن بأنه: «تشبيه الشيء بشيء في

---

(١) سورة الفتح الآية (٢٩).

(٢) سورة محمد الآية (١٥).

(٣) انظر: الأمثال في القرآن الكريم للعبدلي (١٥ ـ ١٩).

(٤) ومثاله قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ يونس: (٢٤).

(٥) ومثاله قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ الحجرات: (١٢).

(٦) ومثال ما لم يشتمل على استعارة ولا تشبيه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج: ٧٣] فهنا سماه الله مثلا وليس فيه استعارة ولا تشبيه.

حكمه، وتقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسين من الآخر، واعتبار أحدهما بالآخر»[١]. أو بعبارة أخرى: إنه إبراز المعنى في صورة رائعة موجزة لها وقعها في النفس، سواء كانت تشبيهاً أو قولاً مرسلا[٢].

وعلى هذا أمثال القرآن لا يستقيم حملها على أصل المعنى اللغوي الذي هو الشبيه والنظير. ولا يستقيم حملها على تلك الأمثال الدارجة، إذ ليست أمثال القرآن أقوالاً استعملت وأريد من ذلك معنى خفي على وجه تشبيه مضربها بموردها.

ولا يستقيم حملها على معنى الأمثال عند علماء البيان، فمن أمثال القرآن ما ليس باستعارة ولم يفش استعماله.

أهمية الأمثال:

لقد ذكر الله ﷻ في كتابه العزيز أنه يضرب الأمثال:

فقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٣]، وقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾[٤]، وقال: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾[٥]، وقال رسول الله ﷺ فيما رواه أبو هريرة وأخرجه البيهقي: «إن القرآن نزل على خمسة أوجه: حلالٍ وحرامٍ، ومحكم ومتشابه، وأمثال، فاعملوا بالحلال، واجتنبوا الحرام، واتبعوا المحكم، وآمنوا بالمتشابه، واعتبروا بالأمثال»[٦].

---

(١) أعلام الموقعين (١/١٥٠)، والأمثال في القرآن له(١٧٣، ١٧٤).
(٢) مباحث في علوم القرآن للقطان (٢٩٢).
(٣) سورة الحشر الآية (٢١).
(٤) سورة العنكبوت الآية (٤٣).
(٥) سورة الزمر الآية (٢٧).
(٦) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٤٢٧/٢، في باب: تعظيم القرآن، فضل في قراءة القرآن بالتفخيم.

وقد عده الشافعي مما يجب على المجتهد معرفته من علوم القرآن.

وقال الماوردي: «مَنْ أعظم عِلْم القرآن عَلِم أمثاله، والناس في غفلة عنه لاشتغالهم بالأمثال وإغفالهم الممثلات، والمثل بلا ممثَّل كالفرس بلا لجام، والناقة بلا زمام»[1].

اهتمام العلماء بذكر الأمثال في القرآن:

اهتم العلماء بالأمثال في القرآن حتى باتت تشكل علماً خاصاً أفردوا له المؤلفات لبيانه وحصر الأمثال الواردة في القرآن بأنواعها.

ومن الكتب التي ألفت فيه:

- الأمثال من الكتاب والسنة، لأبي عبدالله محمد بن علي الحكيم الترمذي المتوفى سنة (٣٢٠هـ)، وهو مطبوع بتحقيق علي البيجاوي سنة (١٣٩٥هـ).
- أمثال القرآن، لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي المتوفى سنة (٤٥٠هـ).
- أمثال القرآن، لابن قيم الجوزية المتوفى سنة (٧٥١هـ)، وهو مطبوع وأصله في أعلام الموقعين (حـ ١ من ص ١٥٠ إلى ١٩٠).

ومن الكتب الحديثة:

- الأمثال في القرآن، محمود بن الشريف، مطبوع.
- الأمثال القرآنية، عبدالرحمن حسن حبنكه الميداني، مطبوع.
- الأمثال في القرآن الكريم، الشريف منصور بن عويد العبدلي، مطبوع.

وأيضاً يوجد فصول مستقلة للأمثال في كتب علوم القرآن كالبرهان للزركشي، والإتقان للسيوطي.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٤٤/٤، النوع السادس والستون.

وكما اهتموا بأمثال القرآن اهتموا أيضاً بالأمثال النبوية، فقد عقد لها أبو عيسى الترمذي باباً في جامعه، وقال عنه ابن العربي: «لم أر من أهل الحديث من صنف فأفرد للأمثال باباً غيره»[1]. وأيضا كتاب «أمثال الحديث» للدكتور عبدالمجيد محمود، وهو أجمع كتاب ألف في أمثال الحديث، وهو مطبوع.

أنواع الأمثال في القرآن:

الأمثال في القرآن ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الأمثال المُصرَّحه:

وهي ما صُرِّح فيها بلفظ المثل، أو ما يدل على التشبيه، وهي كثيرة في القرآن.

* ومن أمثلة ما صرح فيه بلفظ المثل ما يأتي:

- قوله تعالى في حق المنافقين: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾[2].

فهذا مثل ضربه الله ليبين حال المنافقين، وحضُّهم من الوحي الذي أنزله من السماء متضمناً لحياة القلوب واستنارتها[3] فجعلهم بمنزلة من استوقد ناراً للإضاءة والنفع حيث دخلوا في الإسلام وانتفعوا به مادياً، ولكن لم يكن له أثر في قلوبهم، فذهب الله بما في النار من الإضاءة، وأبقى ما فيها من الإحراق، وتركهم في ظلمات لا يبصرون.

فهذا حال من أبصر ثم عمي، وعرف ثم أنكر، ودخل في الإسلام ثم فارقه بقلبه. ولهذا قال: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي إلى الحق.

---

(١) انظر قوله في مباحث في علوم القرآن ٢٩١.
(٢) سورة البقرة الآيات (١٧ -١٨).
(٣) إشارة إلى المثل الناري لما في النار من مادة النور.

- قوله تعالى في حق المنافقين[١] أيضاً: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾[٢]، هنا مَثَّل المنافقين وشبههم بحال من أصابه مطر من السماء فيه ظلمة ورعد وبرق، فخارت قواه، ووضع أصبعيه في أذنيه وغمض عينيه خوفاً من صاعقة تصيبه، لأن القرآن بزواجره وأوامره ونواهيه نزل عليهم نزول الصواعق[٣].

- وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾[٤]، فهنا شبه اليهود وقد حملوا التوراة وقرؤها وحفظوا ما فيها ثم لم يعملوا بما جاء فيها، بحال حمار يحمل أسفاراً من الكتب النافعة وهو جاهل بمضمونها.

ووجه الشبه: شقاء كل من عنده منافع عظيمة، لكن لا يحصل على شيء منها. وغرض التشبيه: ذم اليهود بتلك الحال وتقبيح أمرهم.

فهذه الأمثلة الثلاثة صرح فيها بالتشبيه وذكر أداته: وهي «مثل» و«الكاف».

* ومن أمثلة التشبيه الضمني قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾[٥]، فهنا مَثَّل الله الغيبة بأكل الميتة، لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه، كذلك الحي لا يعلم بغيبة من اغتابه.

وفيه وجه آخر وهو: أنه شبه تمزيق العرض بتمزيق لحمه. فهذا التشبيه والتمثيل خلا من أدوات التشبيه، واكتفى بالاستعارة التي هي تشبيه ضمني.

---

(١) إشارة إلى المثل المائي، لما في الماء من مادة الحياة.
(٢) سورة البقرة الآية (١٩).
(٣) انظر مباحث في علوم القرآن للقطان ٢٩٣.
(٤) سورة الجمعة الآية (٥).
(٥) سورة الحجرات الآية (١٢).

* ومن أمثلة المثل الذي خلا من التشبيه بنوعيه: التصريحي، والضمني قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾[1]، فهنا تمثيل حيث مَثَّل الكفار في عبادتهم لغير الله، كمثل الأصنام التي لا تستطيع أن تخلق ذبابة واحدة. قال الزمخشري: وسميت مثلاً تشبيهاً لها ببعض الأمثال[2]. لكنه لا تشبيه فيه تصريح ولا ضمني.

النوع الثاني: الأمثال الكامنة[3]:

وهي الأمثال التي لم يصرح فيها بلفظ التمثيل أو لم تدل على التشبيه تصريحا أو ضمنياً، ولكنها تدل على معان رائعة في إيجاز، ويدل مضمونها على معنى يشبه مثلاً من أمثال العرب. وتعتمد على طريقة التخريج.

وممن عرف بذلك الحسين بن الفضل حيث سئل فقيل له: إنك تُخَرِّج أمثال العرب والعجم من القرآن فهل تجد في كتاب الله «خير الأمور أوسطها» قال: نعم، في أربعة مواضع:

الأول: في قوله تعالى: ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾[4].

الثاني: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾[5].

الثالث: قوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾[6].

---

(١) سورة الحج الآيتين (٧٣، ٧٤).
(٢) الكشاف ٢١١/٤.
(٣) معنى الكامن: هو الذي لا ذكر للمثل فيه وحكمه حكم الأمثال.
(٤) سورة البقرة الآية (٦٨)، والفرض: المسنة.
(٥) سورة الفرقان الآية (٦٧).
(٦) سورة الإسراء الآية (١١٠).

والرابع: قوله سبحانه للنبي ﷺ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾(١).

وسئل أيضاً فهل يوجد في كتاب الله «ليس الخبر كالمعاينة»؟ قال: نعم، في قصة إبراهيم عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾(٢).

وسئل أيضاً فهل يوجد في كتاب الله تعالى «كما تدين تدان»؟ قال: نعم، في قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾(٣).

وسئل أيضاً فهل يوجد في كتاب الله ﷻ «لا تلد الحية إلا حُوَيّه» وفي رواية: «حية»؟ قال: نعم، قوله تعالى: ﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾(٤).

والحقيقة: أن في الأمثال الكامنة نوعاً من التكلف، ومن الصعب إطلاق المثل عليها، وبالإمكان أن تكون أمثالاً بمعانيها لا بألفاظها فالقرآن لم يشتمل على أمثال العرب جميعا، وإنما فيه كثير من المعاني الغريبة الحسنة التي تشبه الأمثال في غرابتها، كتمثيل الحق بالنور، والباطل بالظلام.

النوع الثالث: الأمثال المرسلة:

وهي جمل أرسلت إرسالاً من غير تصريح بلفظ التشبيه، وقد اكتسبت صفة المَثَلية بعد نزول القرآن، وشيوعها في المسلمين، ولم تكن أمثالاً وقت نزوله. وضربوا لهذا النوع نصوصاً عديدة منها:

❑ قوله تعالى: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾(٥).

---

(١) سورة الإسراء الآية (٢٩)، وانظر الأمثال الكامنة في القرآن (٢٦).
(٢) سورة البقرة الآية (٢٦٠)، وانظر الأمثال الكامنة في القرآن (٢٨).
(٣) سورة النساء الآية (١٢٣)، وانظر الأمثال الكامنة في القرآن (٣٠).
(٤) سورة نوح الآية (٢٧)، وانظر الأمثال الكامنة في القرآن (٣٦).
(٥) سورة يوسف الآية (٥١).

- ❏ قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨﴾[1].
- ❏ قوله تعالى: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾[2].
- ❏ قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨﴾[3].
- ❏ قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠﴾[4].
- ❏ قوله تعالى: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾[5]
- ❏ قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[6].
- ❏ قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[7].
- ❏ قوله تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ۝٦١﴾[8].

حكم استعمال الأمثال المرسلة:

اختلف العلماء فيما يسمى بإرسال المثل هل يستعمل استعمال الأمثال؟ فذهب بعض أهل العلم إلى عدم جوازه لأن فيه خروجاً عن أدب القرآن.

قال الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾[9]: «جرت عادة الناس أن يتمثلوا بهذه الآية عند المتاركة، وذلك غير جائز، لأنه تعالى ما أنزل القرآن ليُتمثل به، بل يتدبر فيه، ثم يعمل بموجبه»[10].

---

(١) سورة النجم الآية (٥٨).
(٢) سورة يوسف الآية (٤١).
(٣) سورة المدثر الآية (٣٨).
(٤) سورة الرحمن الآية (٦٠).
(٥) سورة الحج الآية (٧٣).
(٦) سورة البقرة الآية (٢٨٦).
(٧) سورة الروم الآية (٤١).
(٨) سورة الصافات الآية (٦١).
(٩) سورة الكافرون الآية (٦).
(١٠) تفسير الفخر الرازي ١٤٨/٣٢.

وذهب بعض العلماء إلى إنه لا حرج فيه بشرط أن يتمثل الرجل بالقرآن في مقام الجد، كأن يأسف أسفاً شديداً لنزول كارثة، قد تقطعت أسباب كشفها عن الناس فيقول: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨﴾[1] أو يحاوره صاحب مذهب فاسد يحاول جره إلى الباطل فيقول: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾.

أما أن يتمثل به في مقام الهزل والمزاح فهذا لا يجوز[2]، كأن يقول لمن يأتيه على غير موعد: ﴿جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَـٰمُوسَىٰ﴾[3]. أو كمن يقول لمريد الدخول البيت: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[4].. وهكذا. فلا يناظر القرآن إلا القرآن، وليس للقرآن شبيه بالقول أو الفعل.

فوائد ذكر وضرب الأمثال في القرآن:

للأمثال في القرآن فوائد كثيرة من أهمها:

- أنها تبرز المعقول في صورة المحسوس الذي يلمسه الناس فيتقبله العقل، لأن المعاني العقلية أو المعقولة لا تستقر في الذهن إلا إذا صيغت في صورة حسية قريبة الفهم. ومثاله: ما ضربه الله ﷻ لحال المنفق رياء فهو كمن وضع تراباً على حجر أملس مُعرّض للأمطار فالنتيجة ذهاب التراب بالوابل. حيث قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝٢٦٤﴾[5].

---

(١) سورة النجم الآية (٥٨).

(٢) انظر بلاغة القرآن (٣٢، ٣٣).

(٣) سورة طه الآية (٤٠).

(٤) سورة طه الآية (١٢).

(٥) سورة البقرة الآية (٢٦٤). الصفوان: الحجر الأملس. الوابل: المطر الشديد. صلداً: لا شيء عليه.

وأيضاً قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾(١) فحملهم التوراة أمر معنوي، والمراد به: القيام بما فيها والعمل به.

- أنها تكشف عن الحقائق وتعرض الغائب في معرض الحاضر ومثاله قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾(٢)

فهذا مثل ضربه الله تعالى للذي يأكل الربا، فشبهه بالمجنون ذي الحركات المضطربة، لأن المرض والطمع والرغبة في الجمع استفزته حتى صار شبيها في حركته بالمجنون. فعلامتهم يوم القيامة التخبط والاضطراب.

- الترغيب في الممثل، حيث يكون الممثل به مما ترغب فيه النفوس.

كما ضرب الله مثلاً لحال المنفق في سبيل الله حيث يعود عليه الإنفاق بخير كثير، فقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَـٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾(٣).

ولا شك أن هذا الأجر من الحسنة إلى السبعمائة إلى الأضعاف المضاعفة، كاف في دفع الإنسان إلى الإنكباب على فعل الخيرات.

- التنفير عن الممثل حيث يكون الممثل به مما تكرهه النفوس كقوله تعالى في النهي عن الغيبة: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ﴾(٤) حيث مثل الغيبة بأكل لحم الميتة، والغرض منه: التنفير عن الغيبة.

- مدح الممثل. كقوله تعالى في الصحابة: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ

---

(١) سورة الجمعة الآية (٥).

(٢) سورة البقرة الآية (٢٧٥).

(٣) سورة البقرة الآية (٢٦١).

(٤) سورة الحجرات الآية (١٢).

فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾[1] فشبه الصحابة بالزرع الذي ينمو ويتعاظم بسرعة عجيبة، حيث كانوا في أول الأمر قليلين، ثم أخذوا في النمو حتى استحكم أمرهم.

❏ ويضرب المثل حيث يكون للممثل به صفة يستقبحها الناس كما ضرب الله مثلاً لحال من آتاه الله كتابه، فتنكب الطرق عن العمل به فقال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾[2].

حيث ضرب الله هذا المثل للذين كذبوا بآيات الله، بعد أن آتاهم الله إياها، إخلاداً إلى الحياة الدنيا والاستمتاع بها، بحال الكلب الذي يلهث باستمرار، إن تحمل عليه أو تتركه يلهث. فهذا حال طلاب الدنيا يكدحون كدحاً لتحقيق مطالبهم فيها ويلهثون في طلبها، ثم لا يبلغون ما يريدون.

❏ أن الأمثال أوقع في النفس، وأبلغ في الوعظ، وأقوى في الزجر، وأقوم في الإقناع. وقد أكثر الله تعالى الأمثال في القرآن للتذكرة والعبرة. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾[3].

وقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[4]. وقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾[5].

---

(١) سورة الفتح الآية (٢٩). الشطأ: فراخه وفروعه. فآزره: فقواه. فاستغلظ: صار غليظا. فاستوى على سوقه: أي فقام الزرع واستقام على أصوله.
(٢) سورة الأعراف الآيتان (١٧٥، ١٧٦). لهث الكلب: أخرج لسانه من العطش أو التعب.
(٣) سورة الزمر الآية (٢٧).
(٤) سورة الحشر الآية (٢١).
(٥) سورة العنكبوت الآية (٤٣).

كما أن الرسول ﷺ ضربها في حديثه، وتعتبر من جوامع كلمه ﷺ فمما روي عنه:

«ليس الشديد بالصرعة».

«لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين».

«دع ما يريبك إلى ما لا يريبك».

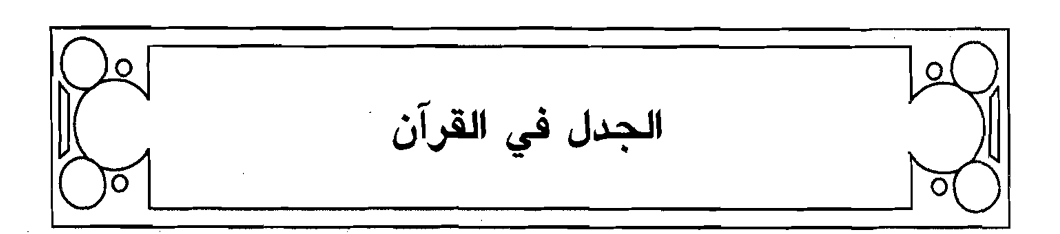
«كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته».

كما استعان بالأمثال الداعون إلى الله والخطباء والمربون فهي من وسائل الإيضاح والتشويق، ووسائل التربية في المدح أو الذم، والترغيب أو الترهيب[١].



(١) انظر في هذا المبحث: مباحث في علوم القرآن للقطان (٢٩٠ ـ ٢٩٩).

الموضوع: الثامن عشر



الجدل في القرآن

معنى الجدل:

الجدل في اللغة:

هو اللّدد في الخصومة والقدرة عليها، وامتداد الخصومة ومراجعة الكلام.

وأصله من: جدلت الحبل، أي: أحكمت فتله، فكأن المتجادلين يفتل كل واحد الآخر عن رأيه(١).

الجدل في الاصطلاح:

هو المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة في البيان والكلام لإلزام الخصم بإبطال مدعاه، وإثبات دعوى المتكلم(٢).

الجدل القرآني:

هو براهينه وأدلته التي اشتمل عليها وساقها لهداية الكافرين، وإلزام المعاندين في جميع ما هدف إليه من المقاصد والأهداف التي يريد تحقيقها وترسيخها في أذهان الناس في جميع أصول الشريعة وفروعها.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة ٤٣٣/١، ولسان العرب ١٠٣/١١، مادة «جدل».

(٢) انظر: مناهج الجدل في القرآن ٢٠.

لذا فإن كل محاورة فكرية وردت في القرآن الكريم داخلة في جدل القرآن، فهي وأن لم تكن بلفظ الجدل فهي بمعناه اللغوي[١].

والجدل ظاهرة إنسانية، وقد خلق الله الإنسان ناطقاً مفكراً تتوارد عليه أفكار ومعلومات يجد نفسه مدفوعاً بطبيعته إلى حب إظهارها والإفصاح عنها، وقد تشتد وتبرز في كثير من المواقف كظروف الحِجَاج والنقاش وتبادل الأفكار.

والجدال لا يخلو منه إنسان عنده بيان، لأنه يعبر عما يختلج في نفسه من بيان ورأي، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾[٢]، أي: خصومة ومنازعة.

عناية العلماء في التأليف بالجدل:

لقد اعتنى العلماء بالتأليف في الجدل في القرآن الكريم وأفردوه في كتب مستقلة ومن أهم ذلك:

- ❑ استخراج الجدال من القرآن، للإمام ناصح الدين عبدالرحمن بن نجم المعروف بـ: ابن الحنبلي، المتوفى سنة (٦٣٤هـ)، طبع بتحقيق الدكتور/زاهر الألمعي.
- ❑ نشوة الجذل في علم الجدل، لأبي الربيع سليمان عبدالقوي الطوفي، المتوفى سنة (٧١٦هـ)، (مطبوع).
- ❑ تاريخ الجدل في القرآن، لمحمد أبو زهرة، طبع بمجلد واحد.
- ❑ مناهج الجدل في القرآن، للدكتور/زاهر الألمعي، طبع بمجلد واحد.
- ❑ أصول الجدل وآداب المحاجة في القرآن الكريم، لمحمد علي نوح قوجيل.

---

(١) انظر: مناهج الجدل في القرآن ٢١.

(٢) سورة الكهف الآية (٥٤).

حكم الجدل:

إذا تتبعنا نصوص الكتاب والسنة وجدنا أن نصوصاً تأمر بالجدل وأخرى تنهى عنه، لذا يمكن أن نقول أن الجدل ينقسم إلى قسمين:

الأول: الجدل الممدوح:

وهو كل جدل أيد الحق، أو أفضى إليه بنية خالصة وطريق صحيح، قال الله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(١)، ففي هذه الآية دعوة صريحة إلى الجدال وبيان طرقه وآدابه.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(٢)، فأمر الله ﷻ في هذه الآية بمجادلة أهل الكتاب بالرفق واللين والإنصاف.

ولم يكن الرسول ﷺ يمانع من الجدل إذا كان لطلب الحق والاسترشاد، وتقرير القضايا المتعلق بأمور الدين والدنيا.

الثاني: الجدل المذموم:

وهو كل جدل ظاهر الباطل أو أفضى إليه، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾(٣)، ففي هذه الآية نص على ذم الجدال بالباطل، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾(٤)، وقوله تعالى: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾(٥) فالمقصود من الجدال هنا هو الجدال لنصرة الباطل بالشغب والتمويه بعد ظهور الحق(٦).

---

(١) سورة النحل الآية (١٢٥).
(٢) سورة العنكبوت الآية (٤٦).
(٣) سورة الكهف الآية (٥٦).
(٤) سورة الحج الآية (٣).
(٥) سورة غافر الآية (٥).
(٦) انظر: مناهج الجدل في القرآن ٤٤ ـ ٥٨.

قال الشوكاني عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[1] «أي ما يخاصم في دفع آيات الله وتكذيبها إلا الذين كفروا، والمراد الجدال بالباطل، والقصد إلى دحض الحق كما في قوله تعالى: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾».

فأما الجدال لاستيضاح الحق ورفع اللبس والبحث عن الراجح والمرجوح وعن المحكم والمتشابه، ودفع ما يتعلق به المبطلون، فهو من أعظم ما يتقرب به المتقربون، وبذلك أخذ الله الميثاق على الذين أوتوا الكتاب فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾[2]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلْكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾[3]، وقال: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[4].

ويظهر من هذا أن الجدال المذموم قسمان:

- جدال بغير علم كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.
- جدال لنصرة الباطل بالشغب والتمويه بعد ظهور الحق

كما قال تعالى: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾».

قواعد وآداب الحوار والجدال:

من أبرز الآداب المستنبطة من القرآن الكريم للحوار والجدال ما يلي:

- طلب الحق والبعد عن التعصب وتجنب التخطئة المباشرة للآخر، كما في قول الله تعالى حين أمر نبيه أن يقول للمشركين: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[5].

---

(١) سورة غافر الآية (٤).

(٢) سور آل عمران الآية (١٨٧).

(٣) سورة البقرة الآية (١٥٩).

(٤) سورة العنكبوت الآية (٤٦)، وانظر: فتح القدير ٤/٤٨١.

(٥) سورة سبأ الآية (٢٤).

- المجادلة بالحسنى والقول اللين والبعد عن الطعن والسب والاستهزاء كما في قوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[3].
- اعتبار الدليل الصحيح والإقرار به وترك المكابرة، كما في قول الله تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾﴾[5].

طريقة القرآن في الاستدلال:

لقد سلك القرآن الكريم في مخاطبته أساليب شتى وتفنن في ضروب الهداية وطرق الإقناع، لاختلاف مشارب الناس وتباين مقاصدهم، وتناول كثيراً من الأدلة والبراهين التي حاجّ بها خصومه في صورة واضحة جلية يفهمها العامة والخاصة، وأبطل كل شبهة فاسدة، ونقضها بالمعارضة والمنع في أسلوب واضح النتائج سليم التركيب لا يحتاج إلى إعمال عقل أو كثرة بحث. ولم يسلك القرآن في الجدل طريقة المتكلمين الاصطلاحية في المقدمات والنتائج التي يعتمدون عليها، من الاستدلال بالكلي على الجزئي في قياس الشمول، أو الاستدلال بأحد الجزأين على الآخر في قياس التمثيل، أو الاستدلال بالجزئي على الكلي في قياس الاستقراء. والسبب في ذلك يعود إلى أمور ثلاثة:

- لأن القرآن جاء بلسان العرب، وخاطبهم بما يعرفون.

---

(١) سورة النحل الآية (١٢٥).
(٢) سورة طه الآية (٤٤).
(٣) سورة الأنعام الآية (١٠٨).
(٤) سورة النمل الآية (٦٤).
(٥) سورة القمر الآيتان (١، ٢)، وانظر: دراسات في علوم القرآن للرومي ٥٨٣.

- ولأن الاعتماد في الاستدلال على ما فطرت عليه النفس من الإيمان بما تشاهد وتحس دون عمل فكري عميق أقوى أثراً وأبلغ حجة.
- ولأن ترك الجلي من الكلام إلى الدقيق الخفي نوع من الغموض والألغاز لا يفهمه إلا الخاصة[1].

أنواع المناظرة والمحاجة الجدلية في القرآن:

لقد جادل القرآن الكريم الخصوم: فأفحم المعاندين، وألزم المنكرين، وأرشد المترددين الشاكين، وأقنعهم بالدليل القطعي بصحة ما يدعو إليه.

ويمكن القول بأن المناظرة والمحاجة الجدلية نحت منحيين هما:

الأول: ما ذكره الله سبحانه من الآيات الكونية، المقرونة بالنظر والتدبر، وذلك للاستدلال على أصول الدين كوحدانية الله، والإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر، وهذا كثير في القرآن ومن ذلك:

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾[3].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ

---

(١) انظر: مباحث في علوم القرآن للقطان ٣١٠.
(٢) سورة البقرة الآيتان (٢١، ٢٢).
(٣) سورة البقرة الآيتان (١٦٣، ١٦٤).

لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾[(١)].

وهكذا الآيات الكونية الدافعة لما في أمرها من تقرب وخضوع للمولى سبحانه.

الثانية: ما يُرَدُّ به على الخصوم، ويَلْزَم أهل العناد الفهم والاعتراف، ولهذا صور مختلفة منها:

- قَرْعُ سمع المخاطب بما سَلَّمت به العقول عن طريق الاستفهام كالاستدلال على الخالق بالخلق: كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۣيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾[(٤)].

- الاستدلال على المعاد، وهو أنواع:

أ ـ الاستدلال بالمبدأ على المعاد، كقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ

(١) سورة آل عمران الآيتان (١٩٠، ١٩١).
(٢) سورة الطور الآيات (٣٥ ـ ٤٣).
(٣) سورة البلد الآيات (٨ - ١٠).
(٤) سورة يس الآية (٨١).

مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾﴾[3].

ب ـ الاستدلال بحياة الأرض بعد موتها، على الحياة بعد الموت للحساب كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ﴾[4]

ج ـ الاستدلال بخلق السماوات والأرض على الإعادة، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾[5].

❑ قياس الخَلْف أو دليل التمانع، وهو إثبات المطلوب بإبطال نقيضه.

ومن ذلك الاستدلال على التوحيد بقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾[6].

فالمعنى: لو كان في السماوات والأرض إله غير الله لكان تدبيرهما لا يجري على نظام، ولا يتسق على إحكام، لتنازعت الإرادتان بين سلب وإيجاب، وهذا التنازع يؤدي إلى فسادهما لتناقض الإرادتين، ولكنهما صالحان غير فاسدين، فبطل ما يؤدي إلى الفساد، فكانت الوحدانية، فسبحان الله رب العرش عما يصفون.

فهنا امتنعت الوثنية لامتناع الفساد، فكانت الوحدانية.

---

(١) سورة القيامة الآيات (٣٦ ـ ٤٠).
(٢) سورة ق الآية (١٥).
(٣) سورة الطارق الآيات (٥ ـ ٨).
(٤) سورة فصلت الآية (٣٩).
(٥) سورة يس الآية (٨١).
(٦) سورة الأنبياء الآية (٢٢).

ومن ذلك إثبات أن القرآن من عند الله بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[1]، وإذا ثبت أنه ليس فيه اختلاف ولا تضارب في مقرراته ولا عباراته، فإنه يثبت النقيض وهو أنه من عند الله.

❑ السبر والتقسيم: هو حصر الأوصاف للموضوع الذي يُجَادل فيه، ثم يبين أنه ليس في أحد هذه الأوصاف خاصية تُسَوِّغ قبول الدعوى فيه، فتبطل دعوى الخصم عن طريق هذا الحصر المنطقي للموضوع، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾[2].

ومعنى هذه الآية: أن الكفار لما حرّموا ذكور الأنعام تارة، وإناثها أخرى، رد الله عليهم بذلك بطريق السبر والتقسيم، فذكر أن الخلق لله، خلق من كل زوج مما ذُكر ذكراً وأنثى، فمن أين جاء تحريم ما ذكرتم؟ وما علته؟ فلا يخلو إما أن يكون من جهة الذكورة، أو الأنوثة، أو اشتمال الرحم للذكر والأنثى، أو جاءكم هذا بتوصية من الله إما بوحي أو إرسال رسول.

فهذه وجوه التحريم لا تخرج العلة عن واحد منها:

فالأول: يلزم عليه أن يكون جميع الذكور حراماً.

والثاني: يلزم عليه أن يكون جميع الإناث حراماً.

والثالث: يلزم عليه تحريم الصنفين.

فبطل ما فعلوه من تحريم بعض في حالة، وبعض في حالة أخرى لأن العلة على ما ذكر تقتضي إطلاق التحريم.

---

(١) سورة النساء الآية (٨٢).

(٢) سورة الأنعام الآيتان (١٤٣، ١٤٤).

كما أنه لم يكن هناك نص من الرسول أو وحي من الله فثبت أنه ليس هناك علة سوى الافتراء والقول على الله بغير علم.

- ❑ إبطال دعوى الخصم بإثبات نقيضها، كقوله تعالى في شأن اليهود حيث أنكروا الوحي وبعثة محمد ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾[(١)].

فهنا ادعى اليهود نفي الوحي عن الله، فكذبهم الله بما يعترفون به وهو التوراة حيث يفتخرون بها أمام العرب بأنهم أصحاب كتاب.

- ❑ إفحام الخصم وإلزامه ببيان أن مُدعاه يلزمه القول بما لا يعترف به أحد، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾[(٢)].

فنفى التولد عنه، لامتناع التولد من شيء واحد، وأن التولد إنما يكون من اثنين، وهو سبحانه لا صاحبة له.

وأيضاً فإنه خلق كل شيء، وخلقه لكل شيء يناقض أن يتولد عنه شيء.

وأيضاً علمه بكل شيء يستلزم أن يكون فاعلاً بإرادته، فإن الشعور فارق بين الفاعل بالإرادة والفاعل بالطبع، فيمتنع مع كونه عالماً أن يكون كالأمور الطبيعية التي يتولَّد عنها الأشياء بلا شعور ـ كالحار والبارد ـ فلا يجوز إضافة الولد إليه[(٣)].

وهناك أنواع أخرى من الجدل كثيرة كمناظرة الأنبياء مع أممهم، أو فريق المؤمنين مع المنافقين، وما شابه ذلك.

❀ ❀ ❀

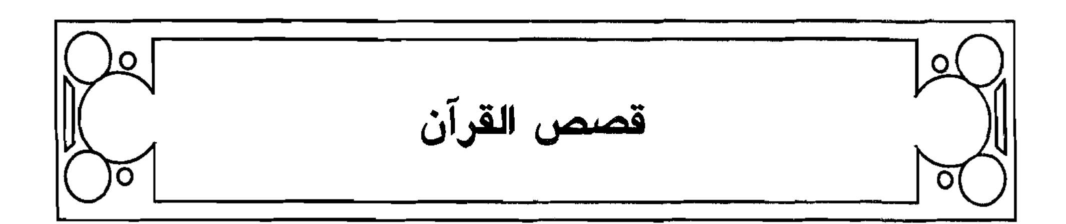
---

(١) سورة الأنعام الآية (٩١).

(٢) سورة الأنعام الآيتان (١٠٠ ـ ١٠١).

(٣) انظر: مناهج الجدل في القرآن ٦٧، ومباحث في علوم القرآن للقطان ٣١٣.

الموضوع التاسع عشر



قصص القرآن

معنى القصص:

القصص في اللغة:

من القصّ وهو تتبع الأثر، يقال: قصصت أثره أي: تتبعته، قال تعالى على لسان أم موسى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾[1]، أي: تتبعي أثره.

والقصص: مصدر قصّ، يقال: قصّ أثره قصّا وقصصا أي: خرج فلان قصّاً وقصصا في أثر فلان، قال تعالى: ﴿فَارْتَدَّا عَلَىٰ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾[2].

والقصص في الاصطلاح:

جمع قصة وهي الأمر والخبر والجملة من الكلام الذي يساق على نحو متتابع ومتسلسل في موضوع من الموضوعات.

وقصص القرآن: هي إخباره عن أحوال الأمم الماضية، والنبوات السابقة، والحوادث الواقعة.

---

(١) سورة القصص الآية (١١).

(٢) سورة الكهف الآية (٦٤)، وانظر: لسان العرب مادة «قصص».

وقد اشتمل القرآن الكريم على كثير من وقائع الماضي، وتاريخ الأمم، وذكر البلاد والديار، وتتبع آثار كل قوم، وحكى عنهم صورة ناطقة لما كانوا عليه[(١)].

عناية العلماء بقصص القرآن:

لقي هذا الموضوع عناية من العلماء فألفوا فيه كتباً من أهمها:

- قصص الأنبياء لابن كثير، وهو مأخوذ من كتابه «البداية والنهاية».
- عرائس المجالس في قصص الأنبياء للثعلبي.
- قصص الأنبياء، لعبدالوهاب النجار.
- قصص القرآن، لجار الله الخطيب.
- قصص القرآن، لعبدالكريم الخطيب.
- مع الأنبياء في القرآن، عفيف عبدالفتاح طباره.
- قصص الأنبياء في القرآن الكريم وما فيها من العبر، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، ويتميز بالاختصار وذكر الفوائد من كل قصة وهي التي تغلب عليه.

أنواع القصص في القرآن:

جاءت القصة في القرآن على ثلاثة أنواع هي:

- قصص الأنبياء والمرسلين:

وهذه تتعرض لذكر أنبياء الله ورسله، والحديث عن نبوتهم وإرسالهم إلى قومهم، والمعجزات التي أيدهم الله بها، ودعوتهم إلى أقوامهم، وموقف المعاندين منهم.

---

(١) مباحث في علوم القرآن لمناع القطان ٣١٦.

ومن هؤلاء الأنبياء: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين.

- قصص تتعلق بحوادث الأمم الماضية، وبعض الأشخاص الذين لم تثبت نبوتهم، ومن ذلك:

قصة أهل الكهف، وذي القرنين، وقصة قارون، وأصحاب السبت، وأصحاب الأخدود، وأصحاب الفيل، وابني آدم، وقصة طالوت وجالوت... ونحوهم.

- قصص تتعلق بالحوادث التي وقعت زمن النبي ﷺ مثل: الإسراء والمعراج، والهجرة، وغزوة بدر، وأحد، وحنين، وتبوك، والأحزاب.

فوائد القصص في القرآن:

للقصص في القرآن الكريم فوائد وأهداف متعددة، فهي تحكي الواقع وتصور مجتمعات الطاعة، ومجتمعات العصيان ومصير تلك المجتمعات، فهي ليست معتمدة على الخيال والأساطير، ولم تأت في القرآن عبثاً أو ترويحاً عن النفس، وإنما أتت لأهداف سامية وأخلاق رفيعة، وقد جاء التصريح في القرآن بالمغزى الذي سيقت من أجله القصص، فقال جل وعلا: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[1]، وقال: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾[2].

ومن أبرز هذه الفوائد والأهداف من القصص ما يلي:

- العبرة والعظة:

إن في ذكر قصص الأنبياء السابقين مع أقوامهم، وما لحق بالأقوام

(١) سورة يوسف الآية (١١١).

(٢) سورة هود الآية (١٢٠).

من العذاب الشديد والهلاك بسبب: تكذيبهم لرسلهم، وعدم إيمانهم بالله، وعنادهم وتجبرهم واستكبارهم على الحق فيه عبرة وعظة لمن سيأتي بعدهم وأنه قد يحصل لهم ما حصل لتلك الأقوام.

- إثبات صدق النبي ﷺ في دعوته، وأنه نبي يوحى إليه، وأن القرآن وحي يوحى من الله تعالى.

ذلك أن النبي ﷺ لبث بينهم أربعين عاماً ولم يذكر لهم شيئاً من قصص الأنبياء والأمم السابقة، كما أنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ولم يعرف عنه أنه يرتاد مجالس الأحبار والرهبان ليأخذ عنهم أخبار الأنبياء والأمم السابقة من التوراة والإنجيل، إنه ﷺ لم يشاهد تلك الحوادث، ولا التقى بشخصيات تلك الوقائع التي قصها القرآن، بل كان المعهود عنه الانعزال والخلوة بربه، بل قد تعرض للامتحان من أهل الكتاب فطرحوا عليه أسئلة بواسطة أهل مكة عن أهل الكهف والروح وذي القرنين فأجابهم عن ذلك كله بدقة وتفصيل.

فما دام هذا حاله فأنّى له هذه القصص الواقعة التي لا ينكرها أهل الكتاب، إنها قصص نزل بها جبريل عليه السلام على المصطفى ﷺ.

قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾[1].

وقال ﷻ: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾﴾[2].

فكل قصة في القرآن تثبت صدق الرسول ﷺ بما أخبر به عن الماضين عبر القرون والأجيال.

---

(١) سورة هود الآية (٤٩).

(٢) سورة يوسف الآيتان (٢، ٣).

- تثبيت قلب النبي ﷺ وتقوية قلبه في مجال الدعوة وحمله على الصبر على ما يراه من أذى قومه له، وبيان أن الله ﷻ ينصر رسله مهما نزل بهم من العذاب، وكذلك تثبيت المؤمنين وتقوية ثقتهم بالله وأن الله ناصرهم لا محالة.

قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾[2].

- إيضاح طريق الدعوة إلى الله ببيان أن دعوة الأنبياء واحدة وهي الدعوة إلى وحدانية الله تعالى وعدم إشراك معه غيره.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾[6].

- تأكيد صدق الأنبياء السابقين واستمرار ذكرهم على مر العصور والأجيال لتكون عبرة لأولي الألباب.

---

(١) سورة هود الآية (١٢٠).
(٢) سورة الأنعام الآية (٣٤).
(٣) سورة الأنبياء الآية (٢٥).
(٤) سورة الأعراف الآية (٦٥)، وسورة هود الآية (٥٠).
(٥) سورة الأعراف الآية (٧٣)، وسورة هود الآية (٦١).
(٦) سورة الأعراف الآية (٨٥)، وسورة هود الآية (٨٤).

- تفيد كثيراً من القصص مقارعة أهل الكتاب بالحجة والبرهان فيما كتبوه من البينات والهدى، وتحديه لهم بما كان في كتبهم قبل التحريف والتبديل، قال الله تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾[1].

- إن في أسلوب القصص عموماً التشويق والإثارة، وفي القصص القرآني عندما يقرؤه المسلم تشتاق إليه نفسه وتنشد إلى متابعة أحداثه وما فيه من حوار ومواعظ وحجاج يصغي لها السامع ويتابعها القارىء.

والنفس ولا شك بطبيعتها مجبولة على حب القصص فكيف بقصص القرآن الذي يعتمد على الحقيقة اعتماداً كلياً، وتحكي الواقع الذي مضى بحق وصدق، قال تعالى: ﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ﴾[2].

منهج القصة في القرآن:

إن إيراد القصة في القرآن الكريم يتميز عن غيره من القصص الأخرى، ويتسم هذا المنهج بالسمات التالية:

- الاقتصار من حوادث القصة على ما يتعلق بالغرض:

فالناظر المتأمل للقصص في القرآن يجد أن القصة في القرآن لم تسرد حوادث القصة ووقائعها سرداً تاريخياً تبعاً لسلسلة الوقائع والأحداث، لأن ذلك يبعد القصة عن مقصدها.

ومن ذلك ما قصه الله علينا في القرآن الكريم في سورة الكهف عن الفتية الذين آمنوا بالله ﷻ وهربوا بإيمانهم، فلم يُذكر فيها أسماء هؤلاء الفتية، ولا في أي بلدة كانوا يسكنون، ولا عِدَدَهم ولم يبين من هم قومهم، إنما اكتفى بالغرض من سياق هذه القصة.

---

(١) سورة آل عمران الآية (٩٣).

(٢) سورة الكهف الآية (١٣)، وانظر: مباحث في علوم القرآن للقطان ٣١٧، ٣١٨.

❏ التزام الصدق والحق في عرض وقائع القصة:

فالقصص القرآني ليس من نسج الخيال، بل هو من الواقع الذي يعيشه الناس، فإنه تنزيل من عليم حكيم.

❏ إدخال النصائح والعظات والتوجيهات في ثنايا القصة وخاتمتها:

عندما نتأمل القصص في القرآن نلحظ عدم إيرادها وسردها متسلسلة الأحداث حتى تنتهي، بل يفصل بين أجزائها بفواصل من العظات تنبه إلى المقصود منها، أو قد تختم ببعض الأحكام والمواعظ المناسبة للقصة.

فمثلاً في قصة لقمان قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾[1].

أتى البيان القرآني بتعقيب على هذه الموعظة بقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾[2].

فهذه بعد وصية لقمان الأولى ليس من كلام لقمان، بل من كلام الله تعالى يوجهه سبحانه لعباده لمناسبة وعظ لقمان مؤكداً به تلك الوصية من عدم الإشراك بالله وأنه أعظم الحقوق، وعلى حق الوالدين وأنه من أجل حقوق العباد على الإنسان ولكنه مع ذلك لا يقاوم حق الله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾[3].

ثم عاد إلى القصة والوصية فقال: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ

---

(١) سورة لقمان الآية (١٣).
(٢) سورة لقمان الآية (١٤).
(٣) سورة لقمان الآية (١٥).

مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾(١).

أنواع القصص في القرآن من حيث إيرادها في القرآن:

المتتبع للقصص في القرآن يجده على نوعين من حيث تعدد وروده:

النوع الأول: لم يذكر إلا مرة واحدة ومن ذلك:

قصة يوسف عليه السلام، وقصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح في سورة الكهف، وقصة أصحاب الكهف، وقصة لقمان، وقصة ذي القرنين، ونبأ ابني آدم، ونبأ أصحاب الجنة الذي جاء في سورة «ن».

النوع الثاني: قصص وردت أكثر من مرة:

كقصة موسى مع فرعون، وقصة خلق آدم، وقصة نوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، عليهم السلام.

تكرار القصة في القرآن:

إن إطلاق كلمة «تكرار» هنا فيها كثير من التسامح والتساهل فإنَّ تَعرُّض القرآن لما حدث مع نبي من الأنبياء مع قومه في أكثر من موضع ليس هو تكراراً بالمعنى الحقيقي. إنما هو: استشهاد بالقصة لأغراض متعددة، لذلك لا نجد القصة تعاد كما هي، وإنما يذكر الجزء المناسب للغرض، والمقصد الذي اقتضى الاستشهاد بالقصة باستعراض سريع، أما جسم القصة فلا يكرر إلا نادراً، ولاستنباط دروس وعبر جديدة منه، مما يجعله على الحقيقة غير مكرر.

فمثلاً قصة آدم وردت في ستة مواضع تثير العبر حول خطر إتباع الهوى ومخالفة أمر الله، وضعف الإنسان، أو توبته وقبول توبته... وهكذا.

كما وردت قصة إبراهيم في نحو عشرين موضعاً، تثير في كل موضع

---

(١) سورة لقمان الآيات (١٧ ـ ١٩)، وانظر: علوم القرآن لنور الدين عتر ٢٤٧، ٢٤٨.

عبرة ودرساً في التوحيد أو الإنابة، أو تأسيس البيت العتيق أو الأذان في الحج...

إلى آخر ما هنالك.

وهكذا تعدد ذكر قصة موسى مع فرعون ومع قومه، ومع نبي الله شعيب في مدين... وفي كل موضع عبرة وعظة وحكمة ودروس(١).

الحكمة من تعدد ورود بعض القصص في القرآن:

قبل أن نبين الحكمة من تعدد ورود بعض القصص في القرآن الكريم أكثر من مرة نشير إلى عدة أمور:

الأول: أن القصص الذي تعدد إيراده في القرآن الكريم ذو صلة وثيقة بقضية الدعاة والدعوة إلى الله تعالى، أما الذي ذكر مرة واحدة فمع ما فيه من مقاصد وتوجيهات إلا أنه لم يتحدث عن مجال الدعوة وعما كان بين الأنبياء وأقوامهم، وحديثه غالبا في المجالات الاجتماعية والجوانب الإنسانية والأخلاقية.

الثاني: أن القصص الذي تعدد إيراده لم نجده ذكر بطريقة واحدة بل نجد كل قصة جاء فيها ما لم يجيء في الأخرى، ففي كل قصة من المشاهد والجزئيات والأحداث ما تفردت به السورة التي ذكرت فيها القصة، صحيح أن هناك قضايا مشتركة اقتضاها السياق تكررت، ولكنها لم تأت على أسلوب واحد فاختلف من حيث الطول والقصر، والتقديم والتأخير، واللين والشدة، وذكر بعض جوانب القصة في موضع دون آخر، وضمن إطار يختلف من موقع إلى آخر حسب ما يقتضيه الحال(٢).

الثالث: أن تعدد الجملة أو الآية من القرآن: لتعدد ما يتعلق بها أو يبنى عليها.

---

(١) انظر: علوم القرآن الكريم، لنور الدين عتر ٢٤٩.

(٢) انظر: القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته ٢٣ ـ ٢٥.

الرابع: أن كل تعدد في القرآن جاء لفائدة وهدف اقتضته مناسبة ومقام وروده[١].

فمثلاً: سورة الرحمن ذَكَّرت الإنسان بجميع ألوان النعم التي أنعم الله بها على الإنسان في الدنيا والآخرة. وجمعت في تذكرها إياه بين النعم الأرضية والسماوية، وفي تكرارها إشعار باستقلال كل نعمة، فمعنى الآية: بأي نعم الله تكذبان. فالفاء هي الفصيحة التي تفصح عن شرط مقدر، والتقدير: إذا كان الأمر كما فُصِّل فبأي آلاء ربكما تكذبان.

ومن أبرز الحِكَم في هذا التعدد ما يلي:

- ❑ تحقيق الإعجاز والبلاغة القرآنية في أعلى مراتبها، فإيراد المعنى الواحد في صور متعددة مع عجز العرب الخلصاء البلغاء عن الإتيان بمثل ذلك أبلغ في التحدي وأروع في النفس من الناحية الإعجازية. كما أن من خصائص البلاغة إبراز المعنى الواحد في صور مختلفة فالقصة إذا وردت متكررة بأسلوب واحد فإن النفس تملها ولا تقبلها، بخلاف إذا وردت بأساليب مختلفة، فإن الإنسان لا يمل من تكرارها بل تشتاق نفسه إلى المزيد.
- ❑ ظهور صدق القرآن وأنه من عند الله، حيث تأتي هذه القصص متنوعة بدون تناقض.
- ❑ ترسيخ عبر القصة في النفس، فإن الشيء إذا كرر يكون أبلغ في النفس، فالتكرار من أنواع المؤكدات، وعلامة من علامات الاهتمام بالشيء.
- ❑ اختلاف الغاية والمقصد اللذين تساق من أجلهما القصة، فتذكر بعض معانيها المناسبة للغرض في مقام، ويضاف إليها أو ينقص منها في مقام آخر، فمثلاً: ما ورد من قصص الأنبياء في سورة هود، ثم تكررت تلك القصص نفسها في سورة القمر، ولكن بأسلوب وعرض

---

(١) انظر: ظاهرة التكرار في القرآن ٣١.

جديدين، مما يجعل القارىء يشعر أنه أمام قصص وأخبار لم يعلم بها من قبل[(١)].

القصص القرآني كله حقائق:

القرآن الكريم كلام الله ﷻ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، فكل ما فيه وما اشتمل عليه من قصص وغيرها حقائق ثابتة لا تقبل الشك، وما فيه من القصص إنما هي أحداث وقعت على مرور الأزمان صيغت بأسلوب بديع رائع، خالية من الخيال والأساطير، ولم تأت في القرآن عبثا ولا تسلية أو ترويحاً عن النفس.

فكل ما في القرآن حق ولا يخرج عنه، قال تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾[(٢)]، وقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾[(٣)]، كما يؤكد القرآن على أن ما قصه الله في القرآن هو الحق: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾[(٤)]، ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾[(٥)]، ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[(٦)].

وهناك شبهات أثيرت حول القصص في القرآن الكريم نذكر هنا شبهتين منها:

الأولى: القول بأن القصة في القرآن خيال لا حقيقة، وتقوم هذه الشبهة على ما يلي:

- ❑ أن القصص في القرآن عمل فني يعتمد على الخيال بحيث لا يلتزم بالصدق التاريخي.

---

(١) انظر: مباحث في علوم القرآن لمناع القطان ٣١٧، ٣١٨، ودراسات في علوم القرآن ٦١٢.
(٢) سورة الإسراء الآية (١٠٥)
(٣) سورة المائدة الآية (٤٨).
(٤) سورة الكهف الآية (١٣).
(٥) سورة المائدة الآية (٢٧).
(٦) سورة هود الآية (١٢٠).

- أن في القرآن أساطير، لأن القرآن لم ينف الأساطير عن نفسه.

والذي أداهم إلى هذا: خلطهم بين قصص القرآن والقصص الأدبية التي تعتمد على الخيال والفن فقاسوا قصص القرآن عليها.

وقالوا أيضاً إن الهدف من سياق القرآن هو العبرة والعظة، وهذا يحصل ولو لم تعتمد القصة على الحقيقة.

وقالوا: إن القصة إذا خالطها الخيال كانت أبلغ وأوقع في النفس.

وجعلوا منبَعَها مرةً إلى الأسطورة، ومرةً إلى التاريخ، ومرة إلى البيئة، ومرةً إلى الكتب السماوية السابقة من توراة وإنجيل...

ومرة إلى العقلية العربية... وهكذا.

لا شك أن هذا القول خطير، والمسلم يدرك خطره على البديهة لأنه تشكيك في كتاب الله، فكيف يعتمد المرء على تعاليم كتاب لا يعتمد على حقيقة، وكيف تطمئن إليه النفس والمرء يعلم في قرارة نفسه أن ما يقرؤه بعيد عن الحقيقة، تعالى الله وتنزه كتابه عما يقولون.

ويمكن الإجابة على هذه الشبهة بجواب عام فنقول:

إن القرآن الكريم ليس بكتاب قصص فني كما أنه لم يكن بكتاب طب أو تشريح، أو نحو، أو علوم...

إنه كتاب تشريع وعقيدة، كتاب أنزل ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم.

والقصة في القرآن إنما هي وسيلة من الوسائل الكثيرة التي استخدمها القرآن لغرضه الأصيل وهو التشريع وبناء الفرد والمجتمع ولم يكن الغرض منها سرد تواريخ الماضين، وذكر شؤونهم وأطوارهم.

ولهذا نجد القصة قد تتكرر وتعاد في كل مناسبة تستدعي الاستشهاد بها، وقد ترد غير مراعى فيها ترتيب الأحداث، وقد ترد مطنبة بعد إيجاز،

أو موجزة بعد إطناب، وقد ترد بأساليب متغايرة أو في صور متقاربة ولكل منها مغزى لا يؤديه غيره، بل يُعْرِضُ القرآن عن وقائع تاريخية لا تفيد عظة ولا تقدم فائدة.

لقد ذكر الله في سورة الأنعام قصة ثمانية عشر نبياً ثم أتبع ذكرهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾[1].

ونفهم من هذا: التعداد أولاً، ومن التعقيب بعده أن الغرض كان اقتداء محمد بهم في التبليغ، وإقامة الحجة، والصبر على التكذيب، والصبر على أهل العناد والأقارب والأباعد، والتأسي بهم، دون أن يكون الغرض عرض قصص يراد به التسلية والتلهي.

فالقصة ليست عملاً فنياً مقصوداً لذاته، وإنما هي وسيلة للإرشاد والإيمان والعظة وشرح الأوامر والنواهي الشرعية.

فالقصة وسيلة من وسائل القرآن إلى غايته.

ولو استعرضنا موضوعات القصص القرآني لوجدناها تتحدث عن: أحوال الكفار، والفجار، واللوطية، والفراعنة، والظالمين، والشرك بأنواعه، والكفر بأسبابه، وسائر ضروب الفسق، والحسد، وقطع الرحم، والعقوق، والكذب، والاحتيال، ونقض العهود، وخلف الوعود، إلى غير ذلك بما فيه ذكر معاصي الله والصد عن سبيله، والشبهات، والشهوات، والترغيب والترهيب، وبيان سوء العاقبة...

أفليست هذه الأمور جزءاً من الشرع رغّب فيه أو رغب عنه بأساليب مختلفة، وصور متباينة، وتعابير شتى؟ وكانت القصة إحدى وسائل الوعظ والتبليغ والإرشاد.

إن من يدرس القصة القرآنية كما يدرس القصة البشرية، ومن يريد

---

(١) سورة الأنعام الآية (٩٠).

تعلم التاريخ من القرآن، ومن يفتش عن المصادر التي استقى منها القرآن أخباره وقصصه فهو مخطىء[١].

أما عن القول بأن قصص القرآن أساطير، فنقول: إن القرآن الكريم ردّ هذه الفرية في مواطن كثيرة.

منها وصفه لمن يقول إن القرآن أساطير بشر الصفات حيث قال: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾[٢].

أي: ولا تطع من كان كثير الحلف بالباطل كالوليد بن المغيرة ﴿مَّهِينٍ﴾ حقير ﴿هَمَّازٍ﴾ عياب ﴿مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾ أي: مغتاب نمام ينقل الحديث على وجه الإفساد ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أي: يبخل بالمال أشد البخل ﴿مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ أي: ظالم للناس معتد على أموالهم وأنفسهم ﴿أَثِيمٍ﴾ كثير الإثم لغشيانه المحرمات ﴿عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ غليظ جاف لا أدب معه ﴿زَنِيمٍ﴾ أي: دَعِيٌّ في قريش وليس منهم، وحَمَلَهُ الشعور بالغنى على التكذيب بآيات الله ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: أكاذيب مسطرة ومكتوبة من أساطير الأولين من الأمم الماضية ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾ أي: نجعل له سمة، أي على أنفه علامة يعير بها ما عاش فخطم أنفه بالسيف يوم بدر.

ومنها رده بصراحة على الذين يقولون بهذا القول إذ قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾[٣].

وبداية هذه الشبه من حين نزول القرآن الكريم، ولكنها نمت في

(١) انظر: التعبير الفني في القرآن ٢١٦ ـ ٢١٩.
(٢) سورة القلم الآيات (١٠ ـ ١٦).
(٣) سورة النحل الآيتان (٢٤، ٢٥).

العصور المتأخرة على أيدي جماعة من المستشرقين، وتبعهم بعض أبناء جلدتنا فخرج علينا المدعو/محمد أحمد خلف الله في رسالته لنيل درجة الدكتوراه بعنوان «الفن القصصي في القرآن»(١) بإشراف أمين الخولي الذي قدم لهذه الرسالة بمقدمة أشاد فيها وأطال في إطرائها ومديحها، وأخذ يدافع عنها بكلام لا يعتمد على حقائق علمية ولا براهين مقنعة.

وأخطر ما في هذه الرسالة ـ وإن كانت كلها خطيرة ـ زعمه أن القرآن لا يخلو من الأساطير، وأن الأنبياء أبطال روايات غرامية، وأن الصحابة لم يكونوا على قدر من العلم فيرميهم بالجهل.

وقد أحدثت هذه الرسالة ضجة في مصر وفي العالم الإسلامي فقد استنكر علماء المسلمين بقوة ما جاء في هذه الرسالة، وأنكروا على كاتبها والمشرف عليها والمؤيد لها ـ علما بأن هذه الرسالة رُدَّت أكثر من مرة ولكنها نشرت بعد ذلك وطبعت أكثر من طبعة ولم يرجع كاتبها عن غيه ـ ومن الذين ردوا عليها:

- ❑ الشيخ/محمد الغزالي في كتابه «نظرات في القرآن».
- ❑ تقرير عن الرسالة مقدم من الأستاذ/أحمد أمين أحد أعضاء لجنة المناقشة(٢).
- ❑ عبدالكريم الخطيب في كتابه «القصص القرآني في منطوقه ومفهومه» حيث أفرد فصلاً خاصاً عنها بدأه بالرد على المشرف ثم على كاتب الرسالة.

الشبهة الثانية: الذين يقولون بتأويل القصص بصرفها عن ظاهرها، وسبب ذلك:

استبعادهم لما يؤديه الكلام من المعنى الظاهر، ومسايرة لما يثيره خصوم القرآن لأجل الدفاع عنه ـ كما يقولون ـ.

---

(١) في كلية الآداب جامعة فؤاد، تقدم بها سنة ١٩٤٧م.

(٢) نشر جزءاً منه محمد الخضر حسين في كتابه «بلاغة القرآن» ص ٩٤، وعلق عليه مؤيداً له.

ومن أمثلة هذا التأويل:

- تأويل الأوتاد في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾﴾[١]، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾[٢] بأنها الأهرامات الموجودة في مصر[٣].

قال الشوكاني: «وفرعون ذي الأوتاد: أي: ذو الجنود الذين لهم خيام كثيرة يشدونها بالأوتاد. أو جعل الجنود أنفسهم أوتادا لأنهم يشدون الملك كما تشد الأوتاد الخيام...»[٤].

- تأويل الطير الأبابيل في قوله تعالى: ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾[٥] بالذباب، وتأويلهم للحجارة: بما يعلق بأيدي وأرجل هذه المخلوقات من جراثيم وميكروبات[٦].

- تأويل الجن في سورتي الأحقاف والجن في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾[٧]، وقوله: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾[٨] بأن المقصود بهم الأنصار.

- تأويل النمل في قصة سليمان بأنه قبيلة ضعيفة.

---

(١) سورة ص الآية (١٢).
(٢) سورة الفجر الآيات (٦ ـ ١٤).
(٣) تفسير جزء عم محمد عبده ٧٩، وانظر: منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير ٧١٤/٢.
(٤) فتح القدير ٤٣٥/٥.
(٥) سورة الفيل الآيتان (٣، ٤).
(٦) انظر: منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير ٧١٩/٢.
(٧) سورة الأحقاف الآية (٢٩).
(٨) سورة الجن الآية (١).

❑ تأويل إحياء الموتى في قصة عيسى بأنه إحياء روحي.

ولا شك أن هذه التأويلات غير مقبولة، بل أي تأويل لكتاب الله قصصاً وغير قصص لا يصح لأنه صرف للكلام عن ظاهره إلى معنى آخر، وهذا المنهج هو من طريقة التأويل التي أسسها الباطنية في القرآن الكريم[١].

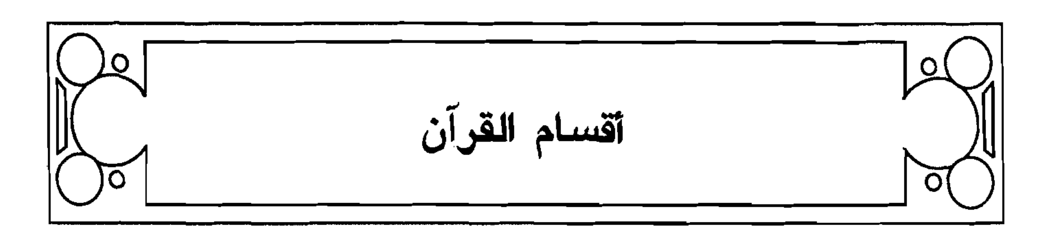
ومن الذين أَوَّلوا بعض القصص في القرآن الكريم: محمد عبده وبعض مفسري المدرسة العقلية الحديثة في التفسير[٢].



(١) انظر: القصص القرآني ايحاؤه ونفحاته ٤٣٢.

(٢) انظر: منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير ١/٤٤٢، ٢/٧١٤ ـ ٧١٩.

الموضوع العشرون



أقسام القرآن

القسم في الخطاب من الأساليب التي يحتاج إليها الإنسان في تأكيد خبر سمعه، أو وعد قطعه، والرغبة في الاطمئنان إلى كلام محدثه، أو الرغبة في اطمئنان محدثه إلى ما يقول هو.

وأسلوب التأكيد أمر شائع بين البشر أفراداً وجماعات، ولا سيما في الأمور العظيمة كالمعاهدة بين قوم وقوم، أو بين ملك ورعية، أو بين أفراد الناس ليكونوا على ثقة ببعضهم.

فحاجة الناس إلى التأكيد والاطمئنان دعتهم إلى استنباط القسم، فاستخدموا لذلك أساليب عديدة، وألفاظاً متنوعة، ودلالات مختلفة[١].

---

(١) من ذلك: التعبير عنه بمصافحة اليد اليمنى لليد اليمنى، أو: ربما وصل بعضهم حبله بحبل الآخر فصار من حلفائه. أو ربما استعملوا «لام التوكيد» دليل على قسم، فإذا قال أحدهم: لأفعلن قصد بذلك: والله لأفعلن. أو: ربما استعملوا كلمة «أقسمت» يريد بها التأكيد. أو: ربما استعملوا كلمة «الحلف» أو «أشهد» ونحو ذلك. انظر: التعبير الفني في القرآن ٢٣٧، ٢٣٨، وانظر النوع الثامن عشر في البرهان في علوم القرآن ٣/٤٠، والنوع السابع والستون في الإتقان في علوم القرآن ٤/٥٣.

الكتب المؤلفة في أقسام القرآن:

أفرد موضوع «القسم في القرآن» عدد من العلماء منهم:

- ابن قيم الجوزية، المتوفى سنة (٧٥١هـ) في كتابه «التبيان في أقسام القرآن»، وهو كتاب فريد في بابه، وهو مطبوع بمجلد واحد.
- عبدالحميد الفراهي،المتوفى سنة (١٣٤٩هـ)، في كتابه «إمعان في أقسام القرآن»، وهو مطبوع في الهند.
- أحمد كمال المهدي، في كتابه «آيات القسم في القرآن الكريم».

تعريف القسم:

القَسَم في اللغة:

بفتح القاف والسين ـ بمعنى الحلف واليمين، الذي هو عبارة عن عقد قوي به عزم الحالف.

وسمي الحلف يميناً، لأن العرب كان أحدهم يأخذ بيمين صاحبه عند التحالف.

ومن الأقسام عند العرب، أنهم أقسموا بعمرهم فقالوا: لعمرك ولعمري، وأقسموا بحياتهم فقالوا: وحياتك، وحياة أبيك، وأقسموا بالعزة والرأس والشرف.

والقسم في الاصطلاح:

«ربط النفس بالامتناع عن شيء أو الإقدام عليه، بمعنى معظم عند الحالف حقيقة أو اعتقاداً»[1].

(١) انظر: مباحث في علوم القرآن للقطان ٢٩٩.

فـائـدة الـقـسـم:

يقصد بالقسم في أساليب المخاطبة تحقيق الخبر وتوكيده، وأسلوب المخاطبة يتحدد بنوعية المخاطب، والغرض الذي قيل لأجله الكلام.

- ❑ فقد يكون المخاطب خالي الذهن من الحكم فيُلقى إليه الكلام بدون تأكيد، ويسمى هذا النوع «خبر ابتدائي».
- ❑ وقد يكون المخاطب متردداً في ثبوت الحكم وعدمه، فيحسن تقوية الحكم له بمؤكد ليزيل تردده، ويسمى هذا النوع «خبر طلبي».
- ❑ وقد يكون المخاطب منكراً للحكم، فيجب أن يؤكد له الكلام بقدر إنكاره قوة وضعفا، ويسمى هذا النوع «خبر إنكاري».

والقسم من المؤكدات المشهورة (مثل: إنّ، أن، لام الابتداء، نون التوكيد، قد، أما الشرطية، القسم) التي تمكن الشيء في النفس وتقويه، وقد نزل القرآن الكريم للناس كافة، ووقف الناس منه مواقف متباينة فمنهم: الشاك، ومنهم المنكر، ومنهم الخصم الألد.

فالقسم في كلام الله يزيل الشكوك، ويحبط الشبهات، ويقيم الحجة، ويؤكد الأخبار، ويقرر الحكم في أكمل صورة.

أجـزاء الـقـسـم:

للقسم أجزاء خاصة في تركيبه، تتكون من ثلاثة:

- ❑ أداة القسم.
- ❑ المقسم به.
- ❑ المقسم عليه.

أولاً: أداة الـقـسـم:

فالصيغة الأصلية هي «أقسم» أو «أحلف» مع تعدي الفعل بالباء إلى المقسم به.

ومثاله قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾[(١)(٢)]، وأيضاً قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾[(٣)].

ولما كان القسم يكثر في الكلام اختصر فصار فعل القسم يحذف ويكتفى بالباء، ثم عُوِّض عن الباء بـــ: «الواو» في الأسماء الظاهرة كقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١﴾[(٤)]، وبـــ: «التاء» في لفظ الجلالة كقوله تعالى: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾[(٥)]، وقوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾[(٦)]، والتاء قليل، أما الواو فوردت كثيرة[(٧)].

ثانياً: المقسم به:

هو ما يقسم به الحالف، وهو أمر جليل دائماً، والهدف من الأقسام به هو الدلالة على عظمة ما أقسم به وجلالته وما له من أهمية.

وممن ذهب إلى هذا الرازي في تفسيره، وابن القيم في التبيان، والسيوطي في الإتقان... وغيرهم.

ونلحظ أن ابن القيم في عرضه للأقسام يُفَصِّل في كل قَسَم، ويحاول أن يستنبط منه وجه العظمة وسر القَسَم بالشيء المقسم به.

وذهب عبدالحميد الفراهي إلى أنه لا يقصد بالإقسام بالشيء تعظيمه بل للدلالة على القول وعلى ما يتكلم به، فإقسام الله تعالى بالسماء والأرض والجبال والبحر، والبلد، والإنسان، والوالد، والعاديات...

---

(١) سورة النحل الآية (٣٨)،

(٢) فأداة القسم هي: «أقسموا» مع تعديتها بالباء، وفعل القسم: أقسموا، والباء: لتعدية فعل القسم إلى المقسم به، والمقسم به: الله، والمقسم عليه: لا يبعث الله من يموت.

(٣) سورة النور الآية (٥٣).

(٤) سورة الليل الآية (١).

(٥) سورة الأنبياء الآية (٥٧).

(٦) سورة النحل الآية (٥٦).

(٧) انظر: مباحث في علوم القرآن للقطان ٣٠٠.

لم يقصد تعظيمها بل للدلالة على قدرة الله تعالى لمن كان له عقل وبصيرة. وتكون للتعظيم إذا كان المقسم به هو الله تعالى أو شعائره.

واستدل على هذا بما جاء من التنبيه بعد القسم في سورة الواقعة حيث قال: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾[(١)] أي: إن فيها دلالة عظيمة وشهادة كبيرة، فصرح بعظمة القسم لا بعظمة المقسم به، وفرق كبير بينهما[(٢)].

فـــائـــدة:

عَطْفُ الصفات بالفاء فيه دلالة على تجانسها وتناسبها فهي صفات ثابتة لموصوف واحد.

فيجوز أن تكون صفات لجنس واحد، ففي قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾﴾[(٣)] صفات لموصوف واحد وهو الملائكة.

ويجوز أن تكون مختلفة الموصوفات إلا أن موصوفاتها متقاربة متجانسة مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾﴾[(٤)] على قول من جعل الذاريات: الرياح. والحاملات: السحاب. والجاريات: السفن. والمقسمات: الملائكة. وهو يقتضي اختلاف الأجناس المقسم بها.

ومن المفسرين من جَوَّز جعل هذه الصفات الأربع وصفاً للرياح كالزمخشري[(٥)].

---

(١) سورة الواقعة الآيتان (٧٥، ٧٦).
(٢) انظر: إمعان في أقسام القرآن ٣٩، وكان العرب إذا أقسموا بشيء أرادوا الاستدلال بجعل المقسم به شاهداً على أقوالهم.
(٣) سورة الصافات الآيات (١ ـ ٤).
(٤) سورة الذاريات الآيات (١ ـ ٦).
(٥) انظر الكشاف ٦٠٩/٥، والتحرير والتنوير ٨٣/٢٣، ٣٣٧/٢٦.

أنواع المقسم به في القرآن الكريم:

أتى المقسم به في القرآن الكريم على نوعين:

الأول: إقسام الله تعالى بنفسه المقدسة الموصوفة بصفاته، أو بآياته المستلزمه لذاته وصفاته، وقد أقسم الله تعالى بنفسه في القرآن في ثمانية مواضع، ثلاثة منها أمر من الله لنبيه أن يقسم به وهي:

- قوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾[1].
- وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾[2].
- وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾[3].

والقسم هنا للتأكيد والتعظيم لأنه جار على لسان النبي ﷺ.

والخمسة الباقية قسم منه تعالى بنفسه مضافاً إضافات مختلفة تدعو إلى التأمل وهي:

- قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَـٰطِينَ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾[5].

- وقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾[6].
- وقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَـٰرِقِ وَٱلْمَغَـٰرِبِ إِنَّا لَقَـٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾﴾[7].

---

(١) سورة التغابن الآية (٧).
(٢) سورة سبأ الآية (٣).
(٣) سورة يونس الآية (٥٣)
(٤) سورة مريم الآية (٦٨).
(٥) سورة الحجر الآية (٩٢).
(٦) سورة النساء الآية (٦٥).
(٧) سورة المعارج الآية (٤٠).

❏ وقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾[1].

الثاني: إقسامه ﷻ بمخلوقاته سبحانه ـ وهو الكثير في القرآن ـ ومن أمثلته:

❏ قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾﴾[2].

❏ وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾﴾[3].

❏ وقوله تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴿٥﴾﴾[4].

❏ وقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾﴾[5].

❏ وقوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾﴾[6].

❏ وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾﴾[7].

وإقسام الله تعالى بها لأنها تدل على بارئها، وهو الله سبحانه، وللإشارة إلى فضيلتها ومنفعتها ليعتبر الناس بها.

بماذا يُقسَم به؟

لله تعالى أن يحلف بما شاء، بنفسه وبما شاء من مخلوقاته، أما العباد فليس لهم أن يقسموا إلا بالله تعالى، عن ابن عمر رضي الله عنه

---

(١) سورة الذاريات الآية (٢٣).

(٢) سورة الشمس الآيتان (١، ٢)، وجواب القسم ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾.

(٣) سورة الليل الآيات (١ ـ ٣)، وجواب القسم ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾﴾.

(٤) سورة الفجر الآيات (١ ـ ٥)، وجواب القسم ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ وقيل: محذوف أي: لتعذبن يا كفار مكة.

(٥) سورة التكوير (١٥)، وجواب القسم ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾.

(٦) سورة التين الآيتان (١، ٢)، وجواب القسم ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾.

(٧) سورة الطارق الآية (١)، وجواب القسم ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾.

أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»[١]، وقال ﷺ: «من كان حالفاً فليحلف بالله وإلا فليصمت»[٢]، وقال الحسن: «إن الله يقسم بما شاء من خلقه وليس لأحد أن يقسم إلا بالله»[٣].

فـــائـــدة:

الحلف بالقرآن، والمصحف، وآيات الله، وعزة الله، وقدرة الله، وحياة الله، وعلم الله، جائز لكونها صفات من صفات الله فالقرآن مثلاً مشتمل على كلام الله وهو من صفاته فكأنه قال: وكلام الله.

والمقصود بـــ: آيات الله هي الآيات في القرآن الكريم، أما آيات الله الكونية القدرية فلا يجوز الحلف بها.

ولكن إذا كان الحلف بصفة من صفات الله تستنكره نفوس العامة فينبغي اجتناب الحلف به، فالقلوب ضعيفة والشّبَه خطافة[٤].

المقسم به من حيث الذكر والحذف:

الأصل أن يذكر المقسم به سواء ذكر فعل القسم كما في قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾[٥] أم لم يذكر الفعل كما في قوله

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه ٤/١١٠ في كتاب: النذور والأيمان، باب: ما جاء في كراهية الحلف بغير الله، وقال: هذا حديث حسن، والحاكم في المستدرك ٤/٢٩٧ وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، والمقصود بالشرك: الشرك الأصغر الذي لا يخرج من الملة، لأن المؤمن بالله لا يقصد بحلفه مساواة عظمة المخلوق بعظمة الخالق، أما إذا اعتقد المساواة فهو شرك أكبر.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٧/٩٨ في كتاب: الأدب، باب: من لم ير إكفار من قال ذلك.

(٣) أورده السيوطي في الدر المنثور ٧/٤٢ وعزاه له، وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٣/٧٩ في كتاب: الأيمان والنذور، باب: الرجل يحلف بغير الله أو بآية.

(٤) معجم المناهي اللفظية ٥٦٥.

(٥) سورة الأنعام الآية (١٠٩)، والنحل الآية (٣٨)، والنور الآية (٥٣)، وفاطر الآية (٤٢).

تعالى: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾[١] إلا أنه قد يضمر المقسم به كقوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ﴾[٢] فالمقسم به مضمر أي: والله لتبلون في أموالكم، وكقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾[٣] والتقدير: والله وإن منكم إلا واردها. وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾[٤]، فـ: ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ جواب لقسم محذوف[٥].

وقوله تعالى: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ﴾[٦]، جواب لقسم محذوف[٧].

وقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾[٨]، جواب لقسم محذوف[٩].

ثالثاً: المقسم عليه:

وهو المراد بالقسم، إذ يراد بالقسم عادة توكيد وتحقيق المقسم عليه، ولا سيما إذا كان من الأمور الغائبة والخفية إذا أُقسم على ثبوتها، ويسمى «جواب القسم».

والأصل فيه أن يذكر ـ وهو الغالب في القرآن ـ ومثاله قوله تعالى: ﴿حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣)﴾[١٠]، وجواب القسم ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾.

وقد يحذف، كما يحذف جواب ﴿لَوْ﴾ كثيراً، كقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ

---

(١) سورة الأنبياء الآية (٥٧).
(٢) سورة آل عمران الآية (١٦٨).
(٣) سورة مريم الآية (٧١).
(٤) سورة الفتح الآية (٢٧).
(٥) انظر: البحر المحيط ٨/١٠١.
(٦) سورة طه الآية (٥٨).
(٧) انظر: البحر المحيط ٦/٢٥٢.
(٨) سورة محمد الآية (٣٠).
(٩) انظر: البحر المحيط ٨/٨٥.
(١٠) سورة الزخرف الآيات (١ -٣).

﴿تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥﴾[1]، وحذف مثل هذا من أحسن الأساليب، لأنه يدل على التفخيم والتعظيم، فالتقدير: لو تعلمون ماذا سيصيبكم يوم البعث بسبب عملكم هذا، لفعلتم ما هو خير من هذا واشتغلتم عن التكاثر في الدنيا.

ومن أمثلة حذف جواب القسم «المقسم عليه»:

- قوله تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥﴾[2]، واختلف في الجواب على ثلاثة أقوال:

١ ـ فقيل: إنه لا يحتاج إلى جواب، لأن المراد تعظيم ما أقسم به من الزمان المتضمن لمثل هذه الأعمال.

٢ ـ وقيل إن الجواب محذوف والتقدير: لتعذبن يا كفار مكة.

٣ ـ وقيل: إنه مذكور وهو قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾[3].

- قوله تعالى: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِي ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾[4]، والجواب محذوف تقديره: إن القرآن لحق.

- قوله تعالى: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾[5]، والجواب محذوف لدلالة ما بعده عليه والتقدير: أي لتبعثن بعد الموت.

- قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾[6]،

---

(١) سورة التكاثر الآية (٥).
(٢) سورة الفجر الآيات (١ ـ ٥).
(٣) سورة الفجر الآية (١٤).
(٤) سورة ص الآيتان (١، ٢).
(٥) سورة ق الآيتان (١، ٢).
(٦) سورة القيامة الآيتان (١، ٢).

فالجواب محذوف، دل عليه ما بعده ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣﴾[١]، والتقدير: لتبعثن ولتحاسبن.

ومن أحوال المقسم عليه:

أنه إذا وقع فعلا ماضياً مثبتاً متصرفاً وهو الذي لم يتقدم معموله، تلزمه اللام و «قد» ومن أمثلة ذلك:

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾[٥] فجواب القسم ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾.

ولا يجوز الاقتصار على إحداهما إلا عند طول الكلام، ومثاله:

قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾[٦] فجواب القسم ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ حذفت منه اللام لطول الكلام.

---

(١) سورة القيامة الآية (٣).
(٢) سورة يوسف الآية (٧٣).
(٣) سورة يوسف الآية (٩١).
(٤) سورة البلد الآيتان (٣، ٤).
(٥) سورة التين الآيات (١ ـ ٤).
(٦) سورة الشمس الآيات (١ ـ ٩).

أما قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝٤﴾[1] فقد اختلف في جواب القسم:

أ ـ فقيل: إن هذا القسم مستغنياً عن الجواب، لأن القصد التنبيه على المقسم به وأنه من آيات الرب العظيمة.

ب ـ وقيل: الجواب محذوف دل عليه ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝٤﴾ والتقدير: أنهم ملعونون ـ أي كفار مكة ـ كما لعن أصحاب الأخدود.

جـ ـ وقيل: إن الجواب ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝٤﴾ لكن حذف صدره، والتقدير: «لقد قتل».

ومن أحواله: أنه إذا كان مضارعاً مثبتاً تجب معه اللام والنون، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾[2].

أنواع المقسم عليه في القرآن:

ورد المقسم عليه في القرآن الكريم بأنواع كثيرة منها:

- إقسامه ﷻ على التوحيد، كقوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤﴾[3].
- إقسامه سبحانه على أن القرآن حق، كقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۝٧٧﴾[4].
- إقسامه سبحانه على أن الرسول ﷺ حق، كقوله تعالى: ﴿يس ۝١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤﴾[5]،

---

(١) سورة البروج الآيات (١ ـ ٤).
(٢) سورة التغابن، الآية (٧)، وانظر: مباحث في علوم القرآن للقطان ٣٠٤ والتعبير الفني في القرآن ٢٤٥.
(٣) سورة الصافات، الآيات (١ ـ ٤).
(٤) سورة الواقعة، الآيات (٧٥ ـ ٧٧).
(٥) سورة يس، الآيات (١ ـ ٤).

وقوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[1].

- إقسامه ﷻ على الجزاء والوعد والوعيد، كقوله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝٢ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝٣ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ۝٦﴾[2]، وقوله ﷻ: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝١ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ۝٢ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ۝٣ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ۝٤ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ۝٧﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾[4].

- إقسامه على حال الإنسان، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾[5].

- إقسامه سبحانه على صفة الإنسان، كقوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ۝١ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ۝٢ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ۝٥ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧﴾[7].

والذي يتتبع الأقسام في القرآن الكريم يستخرج أنواعاً أخرى كثيرة.

---

(١) سورة النجم، الآيات (١ ـ ٤).
(٢) سورة الذاريات، الآيات (١ ـ ٦).
(٣) سورة المرسلات، الآيات (١ ـ ٧).
(٤) سورة الطور الآيات (١ ـ ٨).
(٥) سورة الليل الآيات (١ ـ ٤).
(٦) سورة التين الآيات (١ ـ ٤).
(٧) سورة العاديات الآيات ـ ١ ـ ٧)، وانظر: في أجزاء القسم مباحث في علوم القرآن للقطان ٢٩٩ ـ ٣٠٣، ودراسات في علوم القرآن للرومي ٤٢١ ـ ٤٢٧.

مواضع «لا» من القسم:

قد تدخل «لا» النافية على فعل القسم في بعض المواضع كقوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾[١]، وقوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾[٢]، فما محلها من الأقسام الواردة عليها؟

اختلف العلماء في ذلك:

- فذهب أبو عبيدة إلى أن «لا» زائدة للتوكيد[٣]، والمعنى: أقسم[٤]. وقالوا إن زيادتها جارية في كلام العرب، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾[٥] أي: أن تسجد. وقوله: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾[٦].

- وقال بعضهم هي نافية لمحذوف يناسب المقام، والتقدير مثلاً:

لا صحة لما تزعمون أنه لا حساب ولا عقاب. ثم استأنف فقال: أقسم بيوم القيامة، وأقسم بالنفس اللوامة أنكم ستبعثون.

ومثل هذا قول القائل: لا والله، وممن ذهب إلى هذا الفراء[٧] وكثير من النحويين. وضُعِّف هذا بأن حذف اسم «لا» وخبرها غير جائز.

- وقال بعضهم: إن «لا» لنفي القسم، أي: لا أقسم على هذا الأمر لأنه

---

(١) سورة القيامة، الآيتان (١، ٢).

(٢) سورة الواقعة، الآيتان (٧٥، ٧٦).

(٣) لعل مراده من الزيادة أن الكلام لا يختل معناه بحذفها لا أنه لا فائدة فيه أصلاً، فهو زائد من جهة الإعراب لا من جهة المعنى.
فليس في القرآن لفظ زائد إلا لمعنى زائد، وإن كان في ضمن ذلك التوكيد. فزيادة اللفظ لزيادة المعنى وقوة اللفظ لقوة المعنى.

(٤) انظر: مجاز القرآن ٢/٢٥٢، ٢٧٥.

(٥) سورة الأعراف، الآية (١٢).

(٦) سورة الحديد، الآية (٢٩).

(٧) انظر: معاني القرآن للفراء ٣/٢٠٧.

أوضح من أن يقسم عليه. فكأنه قال: لا أقسم عليه بذلك اليوم، وتلك النفس، ولكني أسألك غير مقسم، أتحسب أن لا نجمع عظامك إذا تفرقت بالموت، وضُعِّف هذا لأنه في قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥﴾ قال بعدها: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾ مع تعيين المقسم به والمقسم عليه فدل على وجود القسم.

- وقيل: إنها لام الابتداء، دخلت على جملة من مبتدأ وخبر وهي:

أنا أقسم، ثم حذف المبتدأ، فاتصلت اللام بخبره أي: فلأقسم. والأصل: فلأنا أقسم. وإنما قدر المبتدأ، لأن لام الابتداء لا تدخل على الجملة الفعلية.

اجتماع القسم والشرط:

قد يجتمع القسم والشرط فيدخل كلٌّ منهما على الآخر، ولا يكون هناك إلا جواب واحد، فيكون للمتقدم منهما، ويغني عن جواب الآخر.

فإن تقدم الشرط على القسم كان الجواب للشرط نحو: إن تقم والله أقم. فأقم جواب الشرط لتقدمه على القسم، وحذف جواب القسم.

وإن تقدم القسم على الشرط كان الجواب للقسم وأغنى عن جواب الشرط، ومثاله:

قوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَ﴾(١) والتقدير: والله لئن لم تنته.

واللام الداخلة على الشرط ليست بلام جواب القسم كالتي في مثل قوله: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم﴾(٢) ولكنها اللام الداخلة على أداة شرط، للإيذان بأن الجواب بعدها مبني على قسم مقدر قبلها لا على الشرط،

---

(١) سورة مريم، الآية (٤٦)، فاللام موطنه للقسم. إن: حرف شرط جازم. تنته: فعل مضارع مجزوم وعلامة جزمه حذف حرف العلة، الفاعل: أنت. اللام: لام القسم. أرجمنك: فعل مضارع مبني على الفتح في محل رفع. النون: نون التوكيد. الكاف: مفعول به، والفاعل: أنا.

(٢) سورة الأنبياء، الآية (٥٧).

وتسمى «اللام المؤذنة» أو «اللام الموطئة» أي: التي وطأت الجواب للقسم.

وأيضاً قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾[1]، «لئن أخرجتم لنخرجن» اللام: موطئة للقسم. إن: حرف شرط جازم. أخرجتم: فعل الشرط. اللام: لام القسم. نخرجن: جواب القسم، وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم.

ويعرف جواب القسم من جواب الشرط بالآتي:

- أن جواب الشرط يجب أن يكون مجزوماً، أما جواب القسم فلا يكون مجزوماً، فإما أن يكون مبنياً أو مرفوعاً.
- أن جواب القسم يكون جملة طلبية معنى أو خبرية، وعلى هذا فالجملة الشرطية لا تصلح أن تكون جواباً للقسم لأنها إنشائية.
- إذا كان جواب القسم مضارعاً مثبتاً أكدت باللام والنون معاً قال تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾»[2] أما قوله تعالى: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾[3] فإنه لم تدخل نون التوكيد على الفعل والسبب في ذلك أنه فصل بين اللام والفعل بالجار والمجرور.
- وإذا كان جواب القسم ماضياً متصرفاً اقترنت به اللام وقد، نحو ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾[4].

---

(١) سورة الحشر، الآيتان (١١، ١٢)، أخرجتم: فعل ماضي مبني للمجهول في محل جزم فعل الشرط. التاء: نائب فاعل. وإن قوتلتم لننصرنكم: اللام: لام القسم الموطأ باللام المحذوفة من «إن». «والله يشهد إنهم لكاذبون» الواو: استئنافية. اللام: لام القسم المفهوم من فعل الشهادة.

(٢) سورة مريم، الآية (٤٦).

(٣) سورة آل عمران، الآية (١٥٨).

(٤) سورة التين، الآيات (١ ـ ٤).

- وإذا كان جواب القسم جملة فعلية منفية بـ «لا» أو «ما» أو «إن» وجب تجريده من اللام كما قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾[١] فـ: ﴿يَأْتُونَ﴾ فعل مضارع مرفوع بثبوت النون.

إجراء بعض الأفعال مجرى القسم:

هناك بعض الأفعال تجري مجرى القسم في توكيد المقسم عليه بشرط أن يكون سياق الكلام في معنى القسم:

ففي «أخذ الميثاق» قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ﴾[٢] فاللام في ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ﴾ لام القسم، والجملة بعدها جواب القسم، لأن أخذ الميثاق بمعنى الاستحلاف، فكأنه قيل لهم: بالله لتبيننه للناس، وأيضا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾[٣] فقيل: إن ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ جواب لقسم مقدر دل عليه المعنى، فكأنه قيل: وحلفناهم بالله لا تعبدون إلا الله، وأيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾[٤] فقيل: إن ﴿مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾ جواب لقسم مقدر دل عليه المعنى، فكأنه قيل: وحلفناهم بالله لا تسفكون دماءكم.

وفي «الوعد» قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[٥] فقيل: إن ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ جواب لقسم مقدر دل عليه المعنى والتقدير والله ليستخلفنهم في الأرض، وأقسم بالله.

---

(١) سورة الإسراء، الآية (٨٨).
(٢) سورة آل عمران، الآية (١٨٧).
(٣) سورة البقرة، الآية (٨٣).
(٤) سورة البقرة، الآية (٨٤).
(٥) سورة النور، الآية (٥٥).

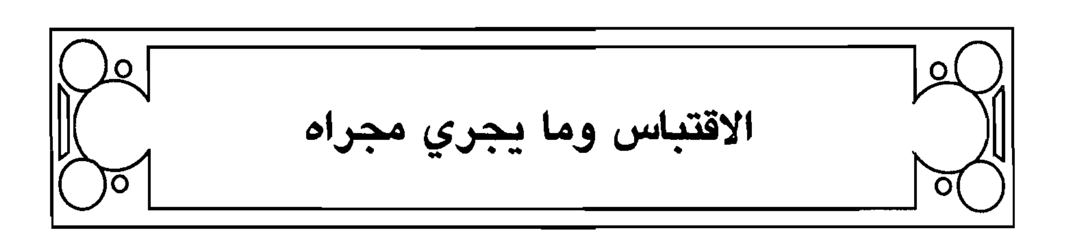
وفي «العهد» قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾[1] فـ: ﴿عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بمنزلة القسم. جوابه: ﴿لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾[2].

❁ ❁ ❁

(١) سورة الأحزاب، الآية (١٥).

(٢) انظر: مباحث في علوم القرآن للقطان ٣٠٥.

الموضوع الحادي والعشرون



الاقتباس وما يجري مجراه

معنى الاقتباس:

في اللغة:

القَبَسُ: النار، والشعلة منها، يقال قَبَسْتُ منه ناراً فأقبسني أي: أعطاني منه قبساً، واقتبستُ منه علماً أي: استفدته[١].

وفي الاصطلاح:

تضمين الشعر أو النثر بعض القرآن لا على أنه منه، بمعنى أن لا يقال فيه: قال الله تعالى ونحوه، فإن قيل ذلك فإنه لا يعد اقتباساً كقول الشاعر:

يا مَنْ عَدَى ثم اعتدى ثم اقترف ... ثم انتهى ثم ارعوى ثم اعترف

أبشر بقول الله في آياته ... إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف

أخذاً من قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾[٢] فهذا لا يعد اقتباساً لتصريحه بقول الله تعالى.

---

(١) انظر: لسان العرب مادة «قبس».

(٢) سورة الأنفال، الآية (٣٨)، وانظر: طبقات الشافعية للسبكي ١٣٦/٥.

حكم الاقتباس من القرآن:

- اشتهر عن المالكية تحريم الاقتباس من القرآن الكريم، وتشديد النكير على فاعله.
- وكرهه بعض العلماء كالنخعي الذي قال: «كانوا يكرهون أن يتلو الآية عند شيء يعرض من أمور الدنيا» ومثل لذلك أبو عبيد في فضائله كالرجل يريد لقاء صاحبه، أو يهم بالحاجة فتأتيه من غير طلب فيقول كالمازح ﴿جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾[1] وهذا من الاستخفاف بالقرآن[2].
وذكر القاضي أبو بكر الباقلاني أن تضمين القرآن في الشعر مكروه.
- وجوزه بعض العلماء للمتمكن من العربية كالشيخ عز الدين ابن عبدالسلام واستدل له بما ورد عنه ﷺ من قوله في الصلاة وغيرها: «وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين»[3] اقتباساً من قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾[4].

وقوله ﷺ: «اللهم فالق الإصباح، وجاعل الليل سكناً، والشمس والقمر حسباناً، اقض عني الدين، وأغنني من الفقر»[5] اقتباساً من قوله تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾[6].

وقول أبي بكر في سياق كلام له: «وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلب ينقلبون»[7] فقصد الكلام ولم يقصد التلاوة اقتباساً من قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[8].

---

(١) سورة طه، الآية (٤٠).
(٢) انظر: فضائل القرآن لأبي عبيد ١٢٣.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ١/٥٣٤، ٥٣٥ في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه.
(٤) سورة الأنعام، الآية (٧٩).
(٥) أخرجه مالك في الموطأ ١/٢١٢ في كتاب: القرآن، باب: ما جاء في الدعاء.
(٦) سورة الأنعام، الآية (٩٦).
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٩/٢٨٣٦.
(٨) سورة الشعراء، الآية (٢٢٧).

وقول علي رضي الله عنه: إني مبايع صاحبكم «ليقضي الله أمراً كان مفعولا» اقتباساً من قوله تعالى: ﴿لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾[1].

ومنه قول الخطيب ابن نباته: «هناك يرفع الحجاب، ويوضع الكتاب، ويجمع من له الثواب، وحق عليه العذاب، فضرب بينهم بسور له باب» اقتباساً من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾[2].

ومنه ما رواه البيهقي في شعب الإيمان عن شيخه أبي عبدالرحمن السلمي قال: أنشدنا أحمد بن محمد بن يزيد لنفسه:

سَلِ الله مِنْ فَضْلِهِ واتّقهْ فإنّ التُّقَى خيرُ مَا تَكْتَسِبْ
ومَنْ يتَّق الله يصنع لهُ ويرزقه من حيث لا يحتسِبْ[3]

اقتباساً من قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[4][5].

أقسام الاقتباس:

قسم إسماعيل بن المقرئ اليمني الاقتباس إلى ثلاثة أقسام:

الأول: مقبول وهو ما كان في الخطب والمواعظ والعهود ومدح النبي ﷺ وأصحابه وغيرهم.

الثاني: مباح وهو ما كان في القول، والرسائل، والقصص.

---

(١) سورة الأنفال، الآية (٤٢).

(٢) سورة الحديد، الآية (١٣).

(٣) شعب الإيمان ١١٣/٢.

(٤) سورة الطلاق، الآيتان (٢، ٣).

(٥) انظر: البرهان في علوم القرآن ٤٨١/١، الإتقان في علوم القرآن ٣٨٦/١، المدخل لدراسة القرآن ٤٦٨.

الثالث: مردود وهو على ضربين:

أحدهما: ما نسبه الله إلى نفسه، كما قيل عن أحد بني مروان أنه وقَّع على مطالعة فيها شكاية عماله فكتب «إن إلينا إيابهم، ثم إن علينا حسابهم» اقتباساً من الآيتين (٢٥، ٢٦) من سورة الغاشية.

والآخر: تضمين آية في معنى هزل، كقول أحد الشعراء:

أَوحى إلى عشاقه طَرْفُهُ «هيهات هيهات لما توعدون»

ورِدْفُه ينطقُ من خلفِه «لمثل هذا فليعمل العاملون»

اقتبس البيت الأول من قوله تعالى حكاية لمنكري البعث: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾[1]، والبيت الثاني من قوله تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾[2]، وقد أيد هذا التقسيم السيوطي في الإتقان بقوله: «وهذا التقسيم حسن جداً وبه أقول»[3].

والذي يظهر إن استعمال الاقتباس من القرآن في الشعر قد يوهم أن في القرآن شعراً، ولهذا عدم استعماله في الشعر أولى.

والاقتباس من القرآن الكريم ظاهرة عامة في الأدب العربي، وقد جمع الثعالبي عبدالملك بن محمد المتوفى سنة (٤٢٩هـ) نصوصاً كثيرة عن النبي ﷺ وصحابته والتابعين ثم عن الشعراء والأدباء بدءاً من عصر صدر الإسلام حتى شعراء زمانه فيها اقتباس من معاني القرآن الكريم وألفاظه ورتبها على هيئة أبواب وفصول لكل باب أو فصل موضوع معين[4].

ما يجري مجرى الاقتباس:

يقرب من الاقتباس شيئان:

أحدهما: قراءة القرآن يراد بها الكلام إجابة لسائل، أو رداً على متكلم، أو إفحاماً لخصم، أو إشارة إلى ما يراد من معانيه.

---

(١) سورة المؤمنون، الآية (٣٦).

(٢) سورة الصافات، الآية (٦١).

(٣) الإتقان في علوم القرآن ٣٨٧/١.

(٤) طبع كتابه بجزأين بمجلد واحد سنة ١٤١٢هـ وسماه «الاقتباس من القرآن الكريم».

روي عن النَّخعي أنه كان يكره أن يتأول القرآن بشيء يعرض من أمور الدنيا.

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قرأ في صلاة المغرب بمكة: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾ ثم رفع صوته وقال: ﴿وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣﴾ يريد بيان أن المراد به مكة[1].

وروي أن رجلاً من المُحَكِّمة أتى علياً وهو في صلاة الصبح فقال: «لئن أشركت ليحبطنَّ عملُكَ»[2] فأجابه في الصلاة «فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون»[3].

الثاني: التوجيه بالألفاظ القرآنية في الشعر وغيره، والتلويح بها إلى معانيها القرآنية وهو جائز بلا شك ومنه قول أحدهم:

مجازٌ حقيقتُها فاعبروا ... ولا تَعْمُرُوا هَوِّنوها تَهُنْ
وما حُسْنُ بَيتٍ له زُخْرُفٌ ... تراهُ إذا زلزلت لم يكنْ[4]

❀ ❀ ❀

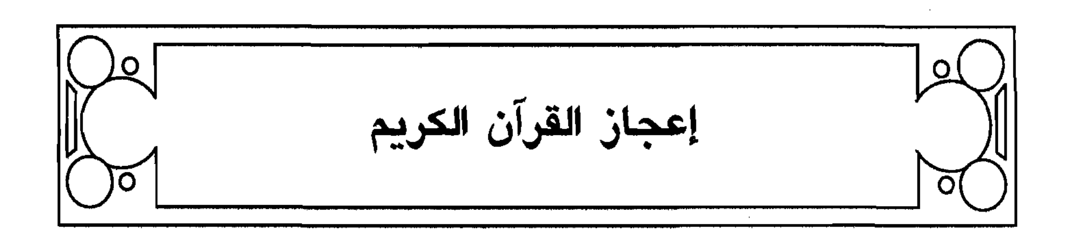
(١) انظر: الأثرين في التبيان في آداب حملة القرآن ٦٩.

(٢) من قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ سورة الزمر، الآية (٦٥).

(٣) من قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠﴾ سورة الروم، الآية (٦٠)، والأثر أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره ٥٩/٢١.

(٤) انظر: الإتقان في علوم القرآن ٣٨٩/١، والمدخل لدراسة القرآن ٤٦٨.

الموضوع الثاني والعشرون



إعجاز القرآن الكريم

القرآن هو كتاب الله الذي أنزله على نبينا محمد ﷺ ليكون المصدر الأول في التشريع الإسلامي، وقد نال هذا الكتاب من العناية والاهتمام ما لم ينله أي كتاب آخر، فلم يحدث في تاريخ البشرية أن اهتمت أمة من الأمم بكتابها السماوي كما اهتمت هذه الأمة المحمدية، ولم يسمع عن كتاب مقدس نال من الحفظ والرعاية والإجلال والإكبار كما ناله هذا الكتاب المجيد معجزة محمد البالغة.

وقد جرت حكمة الله تعالى أن يؤيد أنبياءه ورسله بالمعجزات الباهرات والدلائل الواضحات التي تدل على صدقهم وعلى أنهم أنبياء مرسلون من عند الله.

وقد كانت معجزات الأنبياء معجزات حسية تتناسب مع العصر والزمان الذي بعثوا فيه فمثلاً: **معجزة موسى** عليه السلام «اليد والعصا»، لأنه بعث في زمن كثر فيه السحرة واشتهر فيه السحر.

ومعجزة عيسى عليه السلام «إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، والإخبار عن المغيبات»(١) لأنه بعث في زمن كثر فيه الطب والحكمة.

---

(١) قال الله تعالى: ﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ سورة آل عمران الآية: (٤٩).

كما أن رسالات الأنبياء خاصة لأقوامهم فتتفق مع نوع رسالاتهم.

أما نبينا محمد ﷺ فقد خصه الله **بالمعجزة العظمى «القرآن الكريم» فهي معجزة روحية عقلية باقية ما بقي الزمن.**

ولم تمت هذه المعجزة بموت الرسول كما ماتت معجزات الرسل السابقين، بل هذا القرآن باق في هذه الدنيا ليحاج كل مكذب، كما أن رسالته عليه السلام عامة لجميع الخلق، وخاتمة لجميع الرسالات، لهذا فالمعجزات المحسوسة لا تتفق مع رسالته.

وقد يقول قائل إن الرسول ﷺ قد أوتي من المعجزات غير القرآن فنقول: إن النبي ﷺ لم يتحد بتلك المعجزات بل كان التحدي بالقرآن وحده، ولهذا كان القرآن معجزة الرسول التي تؤيد رسالته.

يقول الرسول ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إليَّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[1].

١ ـ تعريف الإعجاز:

الإعجاز في اللغة: إثبات العجز وعدم القدرة قال الله تعالى ـ على لسان ولد آدم ـ: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ﴾[2]، وإذا ثبت الإعجاز ظهرت قدرة المعجز.

٢ ـ تعريف إعجاز القرآن:

هو إظهار صدق النبي ﷺ في دعوى الرسالة بإظهار عجز العرب عن معارضته في معجزته الخالدة وعجز الأجيال بعدهم.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٩٧/٦ في كتاب: فضائل القرآن، باب: كيف نزول الوحي.

(٢) سورة المائدة الآية (٣١).

٣ ـ تعريف المعجزة:

هي: «أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم عن المعارضة، يجريه الله على يد نبي من أنبيائه، شاهداً على صدقه».

والقرآن الكريم تحدى به النبيُ ﷺ العربَ وقد عجزوا عن معارضته مع طول باعهم في الفصاحة والبلاغة، ومثل هذا لا يكون إلا معجزاً.

٤ ـ شروط المعجزة:

للمعجزة شروط عدة وهي في جملتها ما ورد في تعريف المعجزة ومنها:

- ❏ أن تكون خارقة للعادة، أي مخالفة لأحكام العادة المألوفة كحرارة النار، وبرودة الثلج، وحدود القدرة البشرية المعتادة، سواء كانت كلاماً كالقرآن الكريم، أو فعلاً كانشقاق القمر، أو ترك فعل كعدم إحراق النار لإبراهيم عليه السلام.
- ❏ أن تكون مقرونة بالتحدي عند وقوعها، أي يقصد بها تحدي القوم للإتيان بمثلها، حتى تقوم عليهم الحجة عند عجزهم، والتحدي يكون إما بلسان المقال أو بلسان الحال من غير النطق به أو التصريح بالتحدي.
- ❏ أن تكون سالمة من المعارضة بالإتيان بمثلها، أي لا يمكن لأحد أن يأتي بمثلها، ولهذا فإن معجزات الأنبياء لا تتكرر، لا يأتي أحد بمثلها حتى من إخوانه الأنبياء، فهي علامة على صدق صاحبها في أنه مرسل من ربه. قال الله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾[١].
- ❏ أن يجريها الله ﷻ على يد نبي من أنبيائه، أي إن المعجزة وإن جاء بها النبي فليست من عنده وليست في قدرته لكنها من الله،

---

(١) سورة الطور الآية (٣٤).

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْآيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾[١]، ولما قال الكفار للرسول ﷺ: «ائت بقرآن غير هذا أو بدله» أمره الله أن يقول: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾[٢].

- ❑ أن تكون شاهدة على صدق رسالة النبي، فالغرض منها إقامة الدليل على أنه مرسل من ربه، وإقامة الحجة على قومه.

٥ ـ أنواع التحدي بالقرآن:

لقد ثبت أن الرسول ﷺ تحدى العرب بالقرآن بأنواع ثلاثة من التحدي:

الأولى: تحداهم بالقرآن كله في أسلوب عام تناول جميع البشر هم وغيرهم من الإنس والجن تحدياً يظهر على طاقتهم مجتمعين وذلك بقوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾[٤] فعجزوا وولوا الأدبار مع أنهم فرسان الفصاحة والبلاغة.

الثانية: تحداهم بعشر سور منه وذلك بقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾[٥] وعجزوا أيضاً عن الإتيان بتلك العشر.

الثالثة: تحداهم بما هو أسهل وأيسر فتحداهم بسورة واحدة منه فقط بقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾[٦] وكرر هذا التحدي

(١) سورة الأنعام الآية (١٠٩).
(٢) سورة يونس الآية (١٥).
(٣) سورة الإسراء الآية (٨٨).
(٤) سورة الطور الآيتان (٣٣، ٣٤).
(٥) سورة هود الآيتان (١٣، ١٤).
(٦) سورة يونس الآية (٣٨).

في قوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾[1] حيث قرن هذا التحدي بالتعجيز في الحاضر والمستقبل. ومعنى ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ أي في الماضي، و﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾ أي لن تطيقوا ذلك في المستقبل.

ولما لم يتقدم أحد منهم ثبت عجزهم، وبالتالي ثبتت معجزة محمد ﷺ على أن هذا القرآن تنزيل من رب العالمين.

ويجب أن يعلم أن القرآن الكريم قليله وكثيره سواء في الإعجاز، فالتحدي في القرآن بالكيف لا بالكم، وبالنوع لا بالمقدار، فلا يهم إذن أن يكون التحدي بسورة جاء قبل التحدي بعشر سور أو قبل التحدي بالقرآن كله، إذن لا أثر للاختلاف في ترتيب آيات التحدي ما دام لا يترتب عليه أثر في قوة التحدي، فالعجز عن الإتيان بجنس القرآن لا عن مقداره[2].

ولا يعني هذا أن الإتيان بمثل القرآن أصعب من الإتيان بعشر سور مثله، أو أن الإتيان بعشر سور أصعب من الإتيان بسورة، لأن القرآن الكريم قليله وكثيره سواء في الإعجاز، فالتحدي في القرآن بالكيف لا بالكم، وبالنوع لا بالمقدار.

٦ ـ تاريخ ظهور علم إعجاز القرآن:

لم يرد في القرآن الكريم استعمال مصطلح «معجزة» ولا «إعجاز»، وإنما أطلق في ذلك عدة مسميات منها:

الآية، البينة، البرهان، السلطان.

وهذه المسميات هي التي كان يتداولها العلماء في القرنين الأول

---

(١) سورة البقرة الآيتان (٢٣، ٢٤).

(٢) انظر دراسات في علوم القرآن ٢٩٥، ٢٩٦.

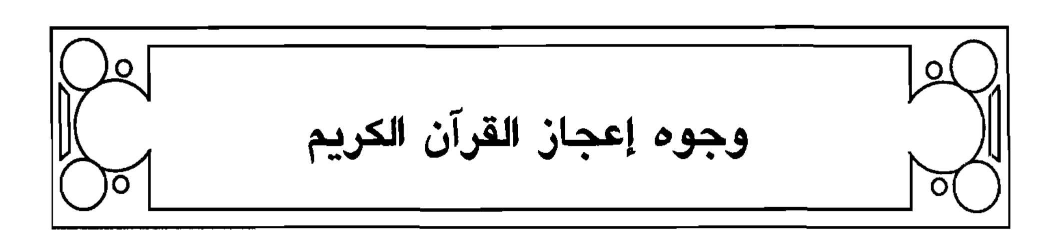
والثاني عند حديثهم عن «إعجاز القرآن»، ثم بعد ذلك بدأ يظهر هذا المصطلح وبالأخص عند المعتزلة، حيث ظهر استعماله عند النَّظّام أبو إسحاق إبراهيم بن سيار المتوفى سنة (٢٣١هـ) وهو أحد أئمة المعتزلة حين زعم أن إعجاز القرآن كان بالصَّرْفة، وقد عنوا به عناية خاصة نتيجة اعتمادهم في إثبات نبوة محمد ﷺ على القرآن الكريم فقط دون سواها من المعجزات، وكان أول كتاب حمل هذا المصطلح هو كتاب «إعجاز القرآن» لمحمد بن زيد الواسطي المتوفى سنة (٣٠٦هـ) ولا يزال مفقوداً.

أما المؤلفات التي وصلت إلينا فمن أهمها:

- النكت في إعجاز القرآن، لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني المتوفى سنة (٣٨٤هـ).
- إعجاز القرآن، لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني المتوفى سنة (٤٠٣هـ).
- دلائل الإعجاز، لعبدالقاهر الجرجاني المتوفى سنة (٤٧١هـ).
- البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، لعبدالواحد الزملكاني المتوفى سنة (٦٥١هـ).
- معترك الأقران في إعجاز القرآن، لجلال الدين السيوطي المتوفى سنة (٩١١هـ).
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، لمحمد مصطفى صادق الرافعي المتوفى سنة (١٣٥٦هـ).
- النبأ العظيم، لمحمد عبدالله دراز، المتوفى سنة (١٣٧٧هـ).
- مباحث في إعجاز القرآن، لمصطفى مسلم.



الموضوع الثالث والعشرون



وجوه إعجاز القرآن الكريم

القرآن الكريم معجز بكل ما يحمله هذا اللفظ من معنى فكل شيء منه لا نظير له، فهو معجز في ألفاظه وأسلوبه، في بيانه ونظمه، في ترابطه وتماسك جمله، في تشريعه وأحكامه، في أنبائه وأخباره، في علومه وحقائقه، في أثره وتأثيره.

وقد تعددت الأقوال وكثر الحديث عن وجوه إعجازه، حتى قال السيوطي: «أنهى بعضهم وجوه إعجازه إلى ثمانين» ثم قال: «والصواب: أنه لا نهاية لوجوه إعجازه»(١). والظاهر أن الوجوه متداخلة، ويمكن إيجاز أهمها في الوجوه التالية:

أولاً: الإعجاز اللغوي:

وهو أبرز أنواع الإعجاز، فهو المطابق لأحوال العرب وقت نزول القرآن الكريم، فالتحدي بالإتيان بمثله أو بعضه يكون بجنس ما برز به هؤلاء القوم فهم تفوقوا في البيان والبلاغة والفصاحة، وقد اعترفوا بإعجازه وتأثيره في نفوسهم بما يحمله من روعة بيان، وجمال نظم، وقوة

(١) معترك الأقران في وجوه إعجاز القرآن ١/٥.

أسلوب، مع ما كانوا عليه من عناد، وكفر، وكبر، وبطر عن الحق، فهذا الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال له: يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه، فإنك أتيت محمداً لتتعرض لما قِبَلَه قال: قد علمتْ قريشٌ أني من أكثرها مالاً.

قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له وكاره، قال: وماذا أقول؟ فو الله ما فيكم رجل أعلمُ بالشعر مني لا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته، قال: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر، يأثره عن غيره أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله ومواليه. فنزلت ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾[1] وقد وصف الله تفكيره بقوله: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾[2] فيلاحظ الفرق بين حكمه الأول المبني على البديهة العربية والفطرة السليمة وبين حكمه الثاني المتكلف المصطنع وما بذله في إصداره من تفكير واستكراه لنفسه حتى يخالف وجدانه، وأنه كان في حيرة وضيق بما يقول.

وهذا جبير بن مطعم سمع من النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا

---

(١) سورة المدثر الآيات (١١ ـ ١٧)، والأثر أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/٥٠٦، ٥٠٧، وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه.
(٢) سورة المدثر الآيات (١٨ ـ ٢٥).

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴿٣٧﴾﴾[1] قال جبير: كاد قلبي أن يطير[2].

وهؤلاء العرب لا يملكون من أنفسهم معه إرادة، وليست لهم معه مشيئة إلا أن يضع المعاند أصابعه في أذنيه ويستغشي ثيابه ويلغو فيه ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾[3] وهذا شهادة منه ومفهوم كلامهم: أنهم إن لم يلغوا فيه بل استمعوا إليه وألقوا أذهانهم أنهم لا يَغْلِبون، فإن الحق غالب غير مغلوب.

وقد وصل أمرهم إلى التخبط نحو القرآن فتارة يقولون هو شعر، وتارة هو قول كاهن، وتارة أساطير الأولين لا يثبتون على شيء، لأنهم يعلمون أنه ليس كما يقولون.

ويمكن أن نجمل وصف القرآن في ألفاظه ومعانيه بالآتي:

- القصد في اللفظ والوفاء بالمعنى: فألفاظه وافية بحق المعاني، واحتواء المعاني للألفاظ، بحيث لا يستغني معنى عن لفظة، ولا تقصر لفظة عن معنى. قال ابن عطية: «لو نزعت منه لفظه ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد»[4].

- وضوح خطابه واتساقه: فهو يدركه الجميع الكبير والصغير، العالم والعامي، فالبلغاء يرونه أوفى كلام وأبلغه، والعامة يرونه أحسن كلام وأوضحه.

- البيان والإجمال: فتجد في آيِهِ الوضوح والظهور بأسلوب محكم خال من كل غريب عن الغرض المقصود، يسبق معناها دون كد ذهن، ولا إعادة تلاوة، فإن أَعَدْتَ لاح لك منها معان جديدة، فإن

(١) سورة الطور الآيات (٣٥ ـ ٣٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٤٩/٦، في كتاب: التفسير، باب: سورة والطور.

(٣) سورة فصلت الآية (٢٦).

(٤) المحرر الوجيز ٦٠/١، ٦١.

زدت التدبر زاد العطاء وانكشف لك ما يجعلك توقن أن في الآية إجمالاً لمعان عديدة مع بيان ووضوح.

- إحكام ألفاظه وإتقان بيانه: ويأتي ذلك بتمام التقارب بين كلماته، والترابط بين جمله، حتى تتماسك وتتعانق أشد ما يكون التماسك، وأقوى ما يكون التعانق. لقد اشتملت السورة منه على وصف، وقصص، وتشريع، وجدل، وعقائد، وأمر، ونهي، ونزلت السورة في أوقات مختلفة وأزمان متباعدة، ومع ذلك نرى الآيات مترابطة مع نفسها ومع ما حولها من الآيات كأنهن سبيكة واحدة، لا تجد فرقاً ولا يستبين لك أمر في معرفة ما نزل من السورة جملة، وما نزل منها منجماً[١].

ثانياً: الإعجاز الإخباري:

وهو إعجاز القرآن فيما تضمنه من أخبار، وهو أربعة أنواع:

الأول: الإخبار عن الغيب المطلق، كالخبر عن الله ﷻ وأسمائه وصفاته، والملائكة، وصفة الجنة وصفة النار، وقد أتى القرآن في هذا الأمر بما لا يدركه البشر من تلقاء أنفسهم.

الثاني: الإخبار عن الأخبار الماضية كالحديث عن الأمم السالفة والأنبياء السابقين وهو ما يسمى بـ «غيب الماضي»، والنبي ﷺ لم يتلق هذه الأخبار عن أحد من البشر، ولم يقرأها في كتاب، ولم يبق إلا أن يكون تلقاها عن طريق الوحي، قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾[٢].

الثالث: الإخبار عما يقع في عهد النبي ﷺ وبغير حضوره، وهو ما يسمى بـــ «غيب الحاضر»، فكثيراً ما تقع بعض الأحداث والقضايا

(١) انظر النبأ العظيم ٩٢، ودراسات في علوم القرآن ٣٠٨ ـ ٣١٥.
(٢) سورة هود الآية (٤٩).

ولا يشهدها الرسول ﷺ، ومع هذا ينزل الوحي بشأنها، ومن ذلك ما في سورة التوبة من فضح للمنافقين وكشف أسرارهم، قال سعيد بن جبير: قلت لابن عباس: سورة التوبة، قال: آلتوبة؟ قال: بل هي الفاضحة، ما زالت تنزل: ﴿وَمِنْهُمْ﴾، ﴿وَمِنْهُمْ﴾ حتى ظنوا أن لا يبقى أحد إلا ذكر فيها[١].

الرابع: الإخبار عن أمور مستقبلة، وهو ما يسمى بـ «غيب المستقبل» كالإخبار عن الشيء قبل وقوعه في عهد النبي ﷺ، أو عما سيكون بعد ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤﴾[٢]، وقوله عن ظهور الإسلام وسيادته وقد تحقق ذلك فيما بعد ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٣٣﴾[٣].

ثالثاً: الإعجاز التشريعي:

وذلك فيما أودعه الله في كتابه من التشريعات التي تشهد في استقامتها وعدلها وصلاحها أنها من عند الله، وأن لا طاقة للبشر أن يوجدوا لها نظيراً مهما بلغت عقولهم.

فالتشريع في القرآن الكريم:

شامل لكل أوجه التشريع المتعلقة بجوانب الحياة: العقدية، والتعبدية، والاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية...

وكامل لاستيفائه لدقيق المسائل وجليلها، وصغيرها وكبيرها.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٥٨/٦، تفسير سورة الحشر، ومسلم في صحيحه ٢٣٢٢/٤، في كتاب: التفسير، باب: في سورة براءة والأنفال والحشر.

(٢) سورة الروم الآيات (١ ـ ٤).

(٣) سورة التوبة الآية (٣٣).

ومحكم ومتقن لا نقص فيه ولا عيب، ولا قصور ولا خلل.

وهادي للتي هي أقوم، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[١].

وخير تشريع، وأصدق حديث، وأعدل حكم، ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾[٢].

وميسر للخلق، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[٣]، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[٤][٥].

رابعاً: الإعجاز العلمي:

إذا أطلق الإعجاز العلمي فلا يراد منه أن القرآن مشتمل على علم الكيمياء أو الهندسة أو الطب أو الزراعة.. أو غيرها أو أنه مشتمل على النظريات العلمية التي تتجدد وتتبدل، وتكون ثمرة للجهد البشري في البحث والنظر.

وإنما في حثه على التفكير، والنظر في الكون. وتدبره، وإعطاء العقل حرية الاستزادة من العلوم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

ومن أمثلة ذلك:

- حث المسلم على التفكير في مخلوقات الله في السماء والأرض كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾[٦].

---

(١) سورة الإسراء الآية (٩).
(٢) سورة البقرة الآية (١٣٨).
(٣) سورة البقرة الآية (١٨٥).
(٤) سورة الحج الآية (٧٨).
(٥) انظر دراسات في علوم القرآن ٣٣٩.
(٦) سورة آل عمران الآيتان (١٩٠، ١٩١).

- وحثه على التفكير في نفسه، وفي الأرض التي يعمرها، وفي الطبيعة التي تحيط به: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١)﴾[١].

- ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠)﴾[٢].

- ويثير في نفسه الحس العلمي للتفكير والفهم والتعقل: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[٣]. ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٤]. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾[٥].

كما يرفع مكانة المسلم بفضيلة العلم:

- ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[٦].

كما أنه لا يسوي بين عالم وجاهل:

- ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٧].

ويأمر المسلم بأن يسأل ربه نعمة العلم:

- ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[٨].

وهكذا فإن إعجاز القرآن العلمي يكمن في حث المسلمين على التفكير، وفتح أبواب المعرفة لهم، والاستزادة من العلم، وقبول كل جديد راسخ من العلوم.

---

(١) سورة الذاريات الآيتان (٢٠، ٢١).
(٢) سورة الغاشية الآيات (١٧ ـ ٢٠).
(٣) سورة البقرة الآية (٢١٩).
(٤) سورة الحشر الآية (٢١).
(٥) سورة الأنعام الآية (٩٨).
(٦) سورة المجادلة الآية (١١).
(٧) سورة الزمر الآية (٩).
(٨) سورة طه الآية (١١٤).

وأي مسأله من مسائل العلم، أو قاعدة من قواعده، يثبت رسوخها، ويتبين يقينها، تكون محققه لما حث عليه القرآن من تفكير سليم، ولا تتعارض معه بحال من الأحوال.

وقد أشار القرآن الكريم إلى بعض القضايا العلمية إلا أنه ساقها في مجال الهداية، هداية الخلق إلى باريها لتؤدي الدور الذي أو كل إليها، وللعقل البشري أن يبحث فيها ويتدبر، ففي قول الله تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾[1] انصرف الجواب إلى واقع حياتهم العملي لا إلى مجرد العلم النظري، فحدثهم عن وظيفة الأهلة في حياتهم، ولم يحدثهم عن الدورة الفلكية للقمر، وكيف تتم؟ مع أن ذلك داخل في مدلول السؤال.

التفسير العلمي:

مفهومه: هو التفسير الذي يستخدم الاصطلاحات العلمية في تفسير القرآن، والربط بين الآيات ومكتشفات العلوم التجريبية والفلكية والفلسفية بوجه من الوجوه.

تاريخ التفسير العلمي:

لو تتبعنا البحوث التفسيرية للقرآن، لوجدنا أن هذه النزعة العلمية تمتد من عهد النهضة العلمية العباسية إلى يومنا هذا.

وقد كانت في أول الأمر عبارة عن محاولات يقصد منها التوفيق بين القرآن وما جَدَّ من العلوم.

ثم تركزت هذه الفكرة وظهرت صريحة على لسان أبو حامد الغزالي المتوفى سنة (٥٠٥هـ)، وابن أبي الفضل المرسي المتوفى سنة (٦٥٥هـ)، والسيوطي المتوفى سنة (٩١١هـ) وقد حاول الفخر الرازي أن يطبقها عملياً في تفسيره «مفاتيح الغيب».

---

(١) سورة البقرة الآية (١٨٩).

ثم نما الاتجاه العلمي في العصور الأخيرة نتيجة لانبهار نفر منا بالحضارة الأوربية، التي فتحنا أعيننا على مخترعاتها وثمرات علومها فظهرت تفاسير ومؤلفات مستقلة أودع فيها أصحابها كل ما توصل إليه العصر من علوم ومعارف، ومن أهمها:

- كشف الأسرار النورانية القرآنية، فيما يتعلق بالأجرام السماوية والأرضية والحيوانية، والنباتات والجواهر المعدنية، لمحمد بن أحمد الاسكندراني من علماء القرن الثالث عشر، وطبع كتابه بالقاهرة سنة ١٣١٥هـ.
- إعجاز القرآن للرافعي حيث عقد فصلاً عن القرآن والعلوم ويقرر فيه أن القرآن مشتمل على سائر العلوم.
- الجواهر لطنطاوي جوهري المتوفى سنة (١٣٥٨هـ)، ويعتبر أوسع كتب التفسير العلمية حيث بلغ خمسة وعشرين مجلداً طبع سنة ١٣٤١هـ، ١٩٥١م.

وقد فسر القرآن من أوله إلى آخره يوجز في الأمور الشرعية ويتوسع في الأمور العلمية. إنه يفسر الآيات تفسيراً لفظياً مختصراً، ثم يدخل في بحوث علمية يسميها (لطائف) أو (جواهر).

وهذه البحوث تتضمن أقوال عدد كبير من علماء الشرق والغرب في العصر الحديث، وقد جاء بها المؤلف ليبين أن القرآن قد سبق إلى هذه البحوث.

كما يضع في تفسيره كثيراً من صور النباتات والحيوانات ومناظر الطبيعة وتجارب العلوم.

والأشد غرابة أن الرجل يتحدث في غير اختصاصه[١] لذلك وقع في أخطاء علمية كبيرة ومضحكة.

---

(١) تعلم في الأزهر، ودرس الانجليزية، ثم عمل في التدريس.

يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١﴾ الأسرار الكيميائية في الحروف الهجائية للأمم الإسلامية في أوائل السور القرآنية...).

- ❑ الإسلام والطب الحديث للطبيب الدكتور عبدالعزيز إسماعيل وطبع بمصر سنة ١٣٥٧هـ.
- ❑ الإسلام في عصر العلم للدكتور محمد أحمد الغمراوي ت١٩٧٣م.
- ❑ تفسير الآيات الكونية للأستاذ حنفي أحمد.

وغيرها من الكتب والبحوث.

الرأي في التفسير العلمي:

والحقيقة: أن هذا الاتجاه في التفسير غير سديد على إطلاقه ودون وضع ضوابط تكبح جماح الفكر والخيال والسعي وراء النظريات، ذلك أن العلم في تغير دائم وتطور مستمر، ينقض اليوم ما أقره بالأمس، وأي نظرية منها تبدأ بالحدس والتخمين وتخضع للتجربة حتى يثبت يقينها، أو يتضح زيفها وخطؤها، ولهذا كانت عرضة للتبديل، وكثير من القواعد العلمية التي ظن الناس أنها أصبحت من المسلمات تتزعزع بعد ثبوت، وتتقوض بعد رسوخ، ثم يستأنف الباحثون تجاربهم فيها مرة أخرى.

فكيف يجوز أن نفسر ونحتكم في آيات الله التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها إلى تلك النظريات القلقة المعرضة للتغيير بين وقت وآخر.

وقد حشر كثير من الكتاب ـ في هذا الموضوع ـ كتبهم بمصطلحات علمية، وعلوم نظرية، وابتعدوا عن الإطار العام للاستدلال القرآني، وحالوا بينه وبين الاهتداء بنوره والاستفادة منه، وأخضعوا نصوص الآيات القرآنية لنظريات وأفكار علمية غير مستقرة. لهذا فلا بد من وضع أسس وضوابط عامة لمن أراد الخوض في هذا الجانب من التفسير.

السبب في اتجاه بعض الباحثين للتوسع في هذا الجانب:

- ❑ الهزيمة الداخلية التي تخيل لبعض الناس أن العلم هو المهيمن،

والقرآن تابع، ومن هنا يحاولون تثبيت القرآن بالعلم، أو الاستدلال له من العلم، بينما القرآن كتاب كامل في موضوعه ونهائي في حقيقته، والعلم ما يزال في موضوعه ينقض اليوم ما أثبته بالأمس.

- ❏ سوء فهم طبيعة القرآن ووظيفته وهي أنه حقيقة نهائية مطلقة تعالج بناء الإنسان.

ونتج عن هذا:

التأويل المستمر ـ مع التمحل والتكلف ـ لنصوص القرآن كي نحملها ونلهث بها وراء الفروض والنظريات التي لا تثبت ولا تستقر.

ولا يعني هذا أن لا ننتفع بما يكتشفه العلم من نظريات ومن حقائق عن الكون والحياة والإنسان في فهم القرآن كلا.

ضوابط التفسير العلمي:

لقد وضع العلماء شروطاً عامة لمن أراد أن يفسر القرآن الكريم فلا بد من توافرها فيه قبل أن يقدم على تفسير كتاب الله.

وبالتالي فلابد لمن أراد الخوض في المسائل العلمية، والأمور الكونية، والتوسع في معاني الاستدلالات القرآنية من مراعاة تلك الشروط، كما يجب أن يضع أمامه قواعد وضوابط يراعيها عند تفسيره للآيات حتى لا تزل قدمه ويخرج تفسير كلام الله عن المراد منه، **ويمكن أن أوجز هذه الضوابط بالآتي:**

- ❏ مراعاة كون القرآن الكريم كتاب هداية للناس فينبغي أن تبقى الدراسات القرآنية المتعلقة بالآيات الكونية في حدود هذا الغرض، ولا تؤثر على الهدف الأساسي للقرآن.
- ❏ مراعاة القواعد اللغوية المقررة في التفاسير والمعاجم اللغوية، بالرجوع إلى دلالة الكلمة واستعمالاتها، وعدم العدول عن الحقيقة إلى المجاز، وليّ النصوص لأجل تفسير علمي.

- ❑ لابد للمفسر من جمع جميع الآيات الواردة في الموضوع المبحوث عنه حتى يتم التوصل إلى الحقيقة دون معارضة.
- ❑ عدم تفسير القرآن الكريم إلا بالحقائق العلمية والبعد عن النظريات[١] والاحتمالات العلمية في تفسير الآيات.
- ❑ عدم الإفراط والاستطراد في البحث في الآيات الكونية، والتعمق في دقائقها، حتى لا تجعل تفاسير القرآن وكأنها كتبت لهذه العلوم المختصة. فالتفاسير ينبغي أن تكون لشرح وبيان الأساليب المستخدمة لتحقيق هداية الإنسان.
- ❑ عدم قصر دلالة الآية على الحقيقة العلمية التي تؤيد إحدى دلائل الآية، بحيث لا نحكم ببطلان الدلالات الأخرى، فقد تمتد دلالات الآية إلى حقائق أخرى إضافة إلى الحقيقة التي رجحنا كونها إحدى دلالات الآية. فالتقدم العلمي كفيل أن يميط اللثام لنا عن جوانب أخرى.

فمثلاً قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾[٢] كان إلى ما يقرب من مائة سنة ينظر إلى دلالة: تسوية البنان بنظرة تختلف عن نظرتنا الآن بعد معرفة قضية البصمات[٣]. إلا أننا لا نبطل كلام السلف في معنى الآية[٤]، فالآية تدل على ما قالوه وما فهموه.

---

(١) النظرية العلمية هي التي لم ترتفع في ثبوتها إلى مستوى الجزم واليقين أي الحقيقة. والاحتمال العلمي: أضعف من النظرية.

(٢) سورة القيامة الآية (٤).

(٣) وأن لكل إنسان رسماً خاصاً لبنانه، لا يشابهه رسم لبنان أي انسان آخر. فالمعنى إذن: أن في قدرة الله ليس جمع العظام فحسب بل وما هو أكبر منه وأدق وهو تسوية البنان أي: إعادة تلك البنان بخطوطها التي يتميز بها كل إنسان بانفراده. وما عرف الناس أن إعادة تسوية البنان كما كانت، هي أصعب من جمع العظام إلا في هذا الزمان. فما أعظم خلق الله وما أدق كلامه.

(٤) ورد في معناها: أي نجعل أصابعه كخف البعير أو حافر الفرس، فلا يقدر على العمل الذي يقدر عليه الآن مع تفرق أصابعه وقيل: إنه تأكيد على جمع العظام فالله قادر على إعادة التكوين الإنساني بأدق ما فيه وهو البنان وتركيبه في موضع كما كان.

فلا نستطيع أن نقول إن معنى الآية هو هذا فحسب بل قد يكشف لنا المستقبل عن أسرار إلهية في البنان فوق ما تصورنا ووصلت إليه مداركنا العصرية.

وينبغي أن يعلم استحالة تصادم الحقائق القرآنية بالحقائق العلمية، فالقرآن منزل من خالق السموات والأرض وواضع سننه ومدبر شؤونه، والحقائق العلمية هي من صنعه ووضعه في الكون ولا يليق بحكمه الحكيم الخبير أن يخلق شيئاً على هيئة معينة ثم يخبرنا بخلافها، حاشاه سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيرا ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾[1]، ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾[2].

وأما ما يثار من توهم وجود تناقض بينهما فهو:

إما سوء فهم للحقيقة القرآنية، كأن يتوهم أنها قطعية الدلالة وهي ليست كذلك. وإما سوء فهم للحقيقة العلمية، كأن يظن بأنها حقيقة وهي لا تزال في طور النظرية[3].

والشيء الذي نحذره هو التكلف والتمحل وتحميل آيات القرآن مالا تحتمل، وأن يتخذ هذا المنهج ذريعة لصرف الناس عن ابتغاء الهدي الكامن في ثناياه.

إن الذي يضمن لنا اقتناع الناس بكتابنا وديننا هو التزامنا نحن المسلمين بما جاء في هذا الكتاب وتطبيقه في حياتنا، وأن نكون أقوياء أعزاء متحررين من العبودية المادية والمعنوية لأعدائنا، إنَّ هذا هو الذي يقنع الناس الراغبين في الخير والحق.

---

(١) سورة الملك الآية (١٤).

(٢) سورة الفرقان الآية (٦).

(٣) انظر: مباحث في إعجاز القرآن ١٤٩-١٥٦. ودراسات في أصول تفسير القرآن ١٤٦-١٥٣.

أمثله على بعض الإشارات العلمية التي سيقت مساق الهداية:

لقد أخبر القرآن الكريم عن بعض الحقائق الكونية وأشار بآياته إلى سنن الخلق، وحقائق التكوين ومن الأمثلة على ذلك:

- أن مياه البحار والأنهار لا تمتزج مع بعضها البعض، فقد وجدوا أن مياه البحر الأبيض المتوسط لا تمتزج بمياه المحيط الأطلنطي عند جبل طارق فتغطس مياه البحر الأبيض تحت مياه المحيط، لأن البحر الأبيض أكثر ملوحة من المحيط ولم يعرف محمد ﷺ البحر ولم يشاهد ملتقى البحار والأنهار.

يقول تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠﴾[١].

فهناك التقاء ولكن هناك حاجز ويقول ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦١﴾[٢].

- قال الله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾[٣].

فبعد أن تمكن الإنسان من الطيران والصعود في السماء، والارتفاع إلى طبقات الجو العليا، عرف أنه كلما ارتفع إلى أعلى قل الأكسجين والضغط الجوي، مما يسبب ضيقاً شديداً في الصدور، وعملية التنفس وهو ما تدل عليه الآية السابقة. فالحرج: شدة الضيق. فمَثَّل الله ﷻ حال الضال عند سماع الموعظة وما يصيبه من ضيق شديد بحال الذي يتصعد في السماء.

- قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن

---

(١) سورة الرحمن الآيتان (١٩، ٢٠).
(٢) سورة النمل الآية (٦١).
(٣) سورة الأنعام الآية (١٢٥).

فَوْقِهِۦ سَحَابٌۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾[1].

فقد كشف العلم الحديث أن في قاع البحار العميقة ـ كثيرةُ الماء ـ (البحر اللجي) ظلمات شديدة حتى إن المخلوقات الحية تعيش في هذه الظلمات بدون آلات بصرية وإنما تعيش بواسطة السمع.

فهذه الظلمات هي نتيجة:

- كثرة الماء الذي هو ﴿بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ وفيه إشارة إلى المحيطات وليس الشواطىء.
- الموج الداخلي الذي يعكس الأشعة فلا يسمح لكثير منها بالنفاذ إلى أسفل.
- الموج السطحي الذي يعكس الأشعة فلا يسمح للكثير منها بالنفاذ إلى أسفل.
- السحاب الذي يحجب كثيراً من الأشعة فلا يسمح لها بالنفاذ إلى أسفل.

فهي ظلمات بعضها فوق بعض.

خامساً: الإعجاز الطبي:

في القرآن نوعان من الإعجاز الطبي:

الأول: إعجاز وصفي بمعنى: أن القرآن وصف أدوية لعلاج الأمراض البدنية والنفسية. في وقت لم يكن الناس أبداً يدركون هذا أو بعضه.

فحرم الخنزير، والدم، والميتة، والمنخنقة، والخمر، والزنا، واللواط، وإتيان النساء في الحيض... ولا شك أن مثل هذه الأشياء من مصادر الأمراض الخطيرة.

---

(١) سورة النور الآية (٤٠).

كما وصف العسل وأخبر أن فيه شفاء ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾[1][2].

فتلك أمور تجلب الأمراض البدنية، وذلك دواء بإذن الله يدفعها. وحرم اتباع الشهوات، والحسد، والحقد، والغضب، واليأس، والقنوط... وغير ذلك لما تجلبه لصاحبها من أمراض نفسية. ووصف العلاج نحو هذا ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ﴾[3].

وتلك أمور تجلب الأمراض النفسية، وذلك دواء بإذن الله يدفعها.

الثاني: أن القرآن نفسه دواء للمرض وشفاء للداء بإذن الله ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[4][5]، ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ﴾[6]، ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[7].

ويلاحظ أن الله وصف القرآن بأنه شفاء، ولم يصفه بأنه دواء، ذلكم أن الشفاء هو ثمرة الدواء والهدف منه. أما الدواء فقد يفيد وقد يضر، فكان وصف القرآن بأنه شفاء تأكيد وأي تأكيد لثمرة التداوي[8].

❋ ❋ ❋

ومع هذه الوجوه في إعجاز القرآن الكريم وغيرها مما لم نذكره فإن القرآن الكريم:

معجز في ألفاظه وأسلوبه، والحرف الواحد منه في موضعه من الإعجاز الذي لا يغني عنه غيره في تماسك الكلمة.

---

(١) سورة النحل الآية (٦٩).
(٢) التعبير بالناس يفيد أنه مفيد لكافة الناس المؤمن والكافر.
(٣) سورة البقرة الآية (٤٥).
(٤) سورة الإسراء الآية (٨٢).
(٥) قال ابن القيم: (من) هنا لبيان الجنس لا للتبعيض، فإن القرآن كله شفاء، ولكن للمؤمنين فقط.
(٦) سورة فصلت الآية (٤٤).
(٧) سورة يونس الآية (٥٧).
(٨) خصائص القرآن ١١٠-١١٧.

والكلمة في موضعها من الإعجاز في تماسك الجملة والجملة في موضعها من الإعجاز في تماسك الآية.

وهو معجز في بيانه ونظمه وأسلوبه الفريد الذي لا يشابهه فيه أسلوب لا من نثر ولا من شعر.

وهو معجز في معانيه التي كشفت الستار عن الحقيقة الإنسانية ورسالتها في الوجود.

وهو معجز بعلومه ومعارفه التي أثبت العلم الحديث كثيراً من حقائقها المغيبة.

وهو معجز فيما احتوى من علوم وحقائق كلما تقدم الزمن كشف عن دقة وصدق ما قرره القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[1].

وهو معجز في تشريعه وصيانته لحقوق الإنسان وتكوين مجتمع مثالي تسعد الدنيا على يديه.

وهو معجز فيما اشتمل عليه من أخبار غيبية حدثت في الماضي السحيق وكانت تدور في نفوس الناس وقت رسالته، وأخبار غيبية أخبر عنها ستكون في المستقبل فتحقق منها الكثير قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾[2].

وهو معجز في تأثيره على النفوس فتشعر حين تقرؤه بتأثير كبير في نفسك. قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾[3].

---

(١) سورة فصلت آية (٥٣).

(٢) سورة هود الآية (٤٩).

(٣) سورة الزمر الآية (٢٣).

القول بالصرفة:

زعم النظام المتوفى سنة (٢٣١هـ) وهو من أئمة المعتزلة في العصر العباسي أن إعجاز القرآن الكريم كان بـ «الصَّرْفة» أي: إن الله تعالى صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها، وخلق فيهم العجز عن محاكاته في أنفسهم وألسنتهم ولولا أن الله صرفهم عن ذلك لاستطاعوا أن يأتوا بمثله، ويترتب على هذا القول: أن الكلام غير معجز، إنما المعجز هو المنع فلا يتضمن فضيلة على غيره في نفسه وهذا قول باطل ويمكن الرد عليه بالآتي:

- قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾[١] فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم، ولو سلبوا القدرة لم تبق فائدة لاجتماعهم، لأنهم عندئذ يكونون كالموتى، وليس عجز الموتى مما يحتفل بذكره.
- أنه لو كانت المعارضة موجودة وإنما منع منها الصرفة، لم يكن الكلام معجزاً وإنما المعجز هو المنع والصرف، فلا يتضمن الكلام فضلاً على غيره في نفسه.
- يلزم من القول بالصرفة زوال الإعجاز بزوال زمن التحدي ويخلو القرآن عندئذ من الإعجاز.

وفي ذلك خرق لإجماع الأمة أن معجزة الرسول باقية ولا معجزة له باقية سوى القرآن.

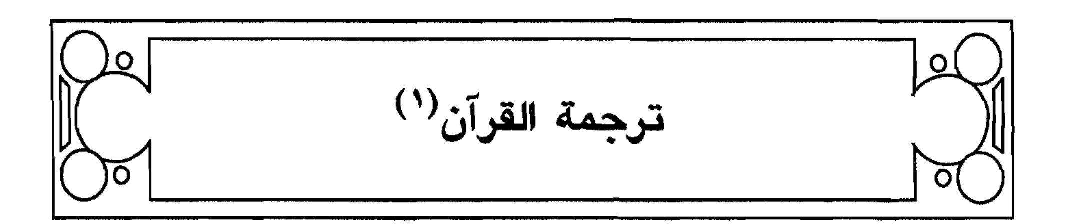
قال ابن تيمية: «الصواب المقطوع به أن الخلق كلهم عاجزون عن معارضته لا يقدرون على ذلك، ولا يقدر محمد نفسه من تلقاء نفسه على أن يبدل سورة من القرآن. بل يظهر الفرق بين القرآن وبين سائر كلامه لكل من له أدنى تدبر»[٢].



(١) سورة الإسراء الآية (٨٨).

(٢) الجواب الصحيح ٤/٧٦.

الموضوع الرابع والعشرون



ترجمة القرآن[(١)]

معنى الترجمة:

الترجمة في اللغة: بمعنى التبيين والتوضيح ومن هنا سمي ابن عباس «ترجمان القرآن»[(٢)] لبراعته وقدرته على فهم الكتاب الحكيم، وإدارك ما فيه من حقائق ومعان وأسرار.

والترجمة في الاصطلاح هي: «التعبير عن معنى الكلام في لغة بكلام آخر من لغة أخرى، مع الوفاء بجميع معانيه ومقاصده»[(٣)].

أنـــواع الـــتـــرجـــمـــة:

تتنوع ترجمة القرآن إلى أنواع ثلاثة:

- ❑ الترجمة الحرفية.
- ❑ الترجمة اللفظية.

---

(١) انظر: في هذا الموضوع «ترجمة القرآن حقيقتها وحكمها» لعلي بن سليمان العبيد.
(٢) سماه ابن مسعود ﷺ بقوله: «نعم ترجمان القرآن ابن عباس» الطبقات الكبرى لابن سعد ٣٦٦/٢.
(٣) مناهل العرفان ١١١/٢.

- ❑ الترجمة التفسيرية أو المعنوية.

أولاً: الترجمة الحرفية:

وهي نقل الكلام من لغة إلى لغة أخرى مع مراعاة الموافقة في النظم والترتيب، والمحافظة على جميع معاني الأصل المترجم من غير شرح ولا بيان.

وقد يسمي بعض الناس هذه الترجمة: ترجمة لفظية وبعضهم يسميها: مساوية.

وهذه الترجمة تقوم مقام الأصل وتسدُّ مسده لأنها مطابقة له تمام المطابقة، ولا اختلاف بينها إلا في اللغة فقط.

حكم الترجمة الحرفية للقرآن الكريم:

إن الترجمة الحرفية للقرآن الكريم بالصورة التي سبق بيانها غير ممكنة ولا جائزة بل محرمة للأسباب التالية:

- ❑ أن الترجمة الحرفية معناها أن يترجم نظم القرآن بلغة أخرى تحاكيه حذواً بحذو، بحيث تحل مفردات الترجمة محل مفرداته، وأسلوبها محل أسلوبه، حتى تتحمل الترجمة ما يحمله نظم الأصل من المعاني المقيدة بطرقها البلاغية وأحكامها التشريعية، وهذا غير ممكن بالنسبة لكتاب الله العزيز إذ من المعلوم أن القرآن الكريم في قمة العربية فصاحة وبلاغة، وله من خواص التركيب، وأسرار الأساليب، ولطائف المعاني، وسائر آيات إعجازه ما لا يستقل بأدائه لسان، وهذه لا يمكن نقلها إلى اللغات الأخرى اتفاقاً، فإن اللغات الراقية، وإن كان لها بلاغة، ولكن لكل لغة خواصها التي لا يمكن أن يشاركها فيها غيرها من اللغات. فلو ترجم القرآن ترجمة حرفية ـ وهذا محال ـ لضاعت خواص القرآن البلاغية. فمثلاً:

لو أراد إنسان أن يترجم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾[1] ترجمة حرفية لأتى بكلام

(١) سورة الإسراء، الآية (٢٩).

يدل على النهي عن ربط اليد في العنق، وعن مدها غاية المد، ومثل هذا التعبير في اللغة المترجم إليها لا يؤدي المعنى الذي قصده القرآن من أن المراد النهي عن التبذير والتقتير مصَّورين بصورة شنيعة ينفر منها الإنسان(١).

وأيضاً قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾(٢) فقد ترجم «بكتال» لفظه ﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾ بمعناها الأصلي وهو فيشج رأسه(٣)، وهو غير مراد بل المراد الغلبة والقهر.

وأيضاً قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾(٤)، وأيضاً قوله تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾(٥) فلو ترجمتا ترجمة حرفية لفسد المعنى تماماً، ولأصبح ضرباً من الهذيان بالكلام.

- إن القرآن الكريم كلام الله، المنزل على رسوله، المعجز بألفاظه ومعانيه، المتعبد بتلاوته(٦) ولا يقول أحد من الناس: إن الكلمة من القرآن إذا ترجمت يقال فيها: إنها كلام الله، فإن الله لم يتكلم إلا بما نتلوه بالعربية، ولن يتأتى الإعجاز بالترجمة، لأن الإعجاز خاص بما أنزل باللغة العربية، والذي يتعبد بتلاوته هو ذلك القرآن العربي المبين بألفاظه وحروفه وترتيب كلماته(٧).

---

(١) انظر: التفسير والمفسرون ٢٦/١، ٢٧.
(٢) سورة الأنبياء، الآية (١٨).
(٣) أصل الدمغ شج الرأس حتى يبلغ الدماغ.
(٤) سورة البقرة، الآية (١٨٧).
(٥) سورة القلم، الآية (٩).
(٦) لقد تعبدالله خلقه بتلاوة كتابه ووعدهم بالأجر والمثوبة قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ۝٢٩ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٠﴾ سورة فاطر الآيتان (٢٩، ٣٠)، وقال ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها. لا أقول الم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف» أخرجه الترمذي في سننه ١٧٥/٥ في كتاب: فضائل القرآن وقال عنه: «حديث حسن صحيح غريب».
(٧) انظر: مباحث في علوم القرآن لمناع القطان ٣٢٥.

إن القرآن هو اللفظ والمعنى، والتحدي كان بهما، وجبريل عليه السلام نزل على النبي ﷺ بلسان عربي مبين، ولقد وصف الله القرآن بأنه عربي فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾[١]، وقال: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾[٢] فالقرآن بلفظه ومعناه عربي، ولا يصح أن يقال عن كتابة بعض معانيه بغير العربية إنها قرآن.

إنه من المعلوم أن من العلماء من منع كتابة القرآن الكريم بغير الرسم العثماني فمنع كتابته بما ليس عربياً أولى.

- إن ترجمة القرآن ترجمة حرفية مِثْلٌ للقرآن، وكل مثل للقرآن مستحيل، فالقرآن تحدى العرب أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه، فعجزوا عن المعارضة والمحاكاة بالعربية فكيف بلغة غير عربية.
- إنه لا بد في تحققها من الوفاء بجميع معاني القرآن الأصلية والثانوية، وهذا غير ممكن الإحاطة دون ترجمة، فضلاً عن محاكاته في كلامٍ للبشر.
- أن الترجمة لا بد أن تفي بمقاصد القرآن الأساسية وهي: هداية الثقلين، وكونه آية معجزة دالة على صدق الرسول ﷺ، وأنه متعبد بتلاوته، وهذه المقاصد لا يمكن أن تتحقق في الترجمة الحرفية، لأن ترجمة القرآن غير القرآن.
- أنه لا بد أن يكون في اللغة المترجم إليها مفردات مساوية لمفردات القرآن الكريم، ووجود ضمائر وروابط فيها مساوية لضمائر وروابط القرآن الكريم، حتى يمكن أن يحل كل مفرد من الترجمة محل نظيره من الأصل[٣]. وهذا غير متوافر في اللغات، فكل لغة لها أسلوبها وطرائقها المنفردة بها عن غيرها.

---

(١) سورة يوسف، الآية (٢).
(٢) سورة فصلت، الآية (٣).
(٣) انظر: مناهل العرفان ٢/١١٣، ١٤٤، ١٤٦.

إذن ترجمة القرآن الحرفية مهما كان المترجم على دراية باللغات وأساليبها وتراكيبها تخرج القرآن عن أن يكون قرآناً.

ثانياً: الترجمة اللفظية:

وهي التي تكون باستحضار معنى لفظ الأصل وإبداله بما يدل عليه من اللغة الأخرى، مع التغيير في الترتيب والنظم حسبما تقتضيه أوضاع اللغة المترجم إليها وقواعدها.

وهذه الترجمة هي محل البحث والخلاف بين العلماء إذا أطلقوا عبارة: حكم ترجمة القرآن الكريم.

حكم الترجمة اللفظية:

هذه الترجمة قريبة من الترجمة الحرفية سوى في الترتيب والنظم، لذا فإن ما سبق ذكره من الأدلة والاعتبارات في عدم جواز الترجمة الحرفية ينطبق على الترجمة اللفظية.

وأود التنبيه إلى أن هذه الترجمة قد وقعت فعلاً في كثير من الترجمات المتداولة اليوم، وبخاصة الترجمات التي عملها المستشرقون ومن نحا نحوهم، وهي وإن أمكنت في بعض الألفاظ والتراكيب، فإنها غير ممكنة في ألفاظ وتراكيب أخرى، وكما هو معلوم فإن للقرآن الكريم مصطلحاته وألفاظه التي ليست في اللغات الأخرى، كما أن ألفاظه قد تكون ذات معنيين أو معانٍ تحتملها الآية فيضطر المترجم إلى أن يضع بدله من اللغة الأخرى اللفظ الموضوع لما يختاره من المعنيين أو المعاني، حيث لا يجد لفظاً يشاكل اللفظ العربي في احتمال تلك المعاني المتعددة.

وأيضاً قد يكون اللفظ الوارد في القرآن الكريم استعمل في غير معناه الحقيقي، فيأتي المترجم بلفظ يرادف اللفظ العربي في معناه الحقيقي[(١)].

ونلحظ أن المترجمين حين يتعذر عليهم ترجمة النص على ما صيغ

(١) انظر: بلاغة القرآن ١٦، ١٧.

عليه نجد أنهم يتصرفون بالنص تبديلاً للألفاظ، وتصرفاً في التراكيب، وتقديماً وتأخيراً مما يغير المعنى المراد من الآية.

ثالثاً: الترجمة التفسيرية:

ويمكن أن نقسمها إلى قسمين:

- ترجمة تفسيرية يقوم بها المترجم ابتداء ومباشرة من القرآن الكريم، بحيث يفهم معنى الأصل ثم يترجم إلى اللغة الأخرى بألفاظ وجمل من تلك اللغة تكون شرحاً لغامض الأصل، وتوضيحاً لما فيه من المعاني، وتفصيلاً لما أجمل فيه، دون أن يلتزم بالوقوف عند كل لفظة واستبدال ما يوافقها بها في اللغة المترجم إليها.
- ترجمة تفسيرية بحيث يُفَسَّر القرآن الكريم أولاً باللغة العربية، ثم يقوم المترجم بترجمة هذا التفسير.

والفرق بين القسمين أن المترجم في القسم الأول لا بد أن يكون عالماً بالتفسير وقادراً على الترجمة معاً.

أما في القسم الثاني فيكفي أن يكون قادراً على الترجمة بشروطها وضوابطها، فهو يترجم ما قام به العالم أو العلماء بالتفسير.

حكم الترجمة التفسيرية:

هذه الترجمة بقسميها ليست ترجمة للأصل، بل لمعناه وشرحه وتفسيره، فهي إذن ترجمة للتفسير لا للقرآن، فتأخذ بذلك حكم ترجمة التفسير.

ومن المعلوم أن كلمة المسلمين اتفقت على جواز تفسير القرآن الكريم لمن كان أهلاً لذلك، وعلى هذا فإن ترجمة هذا التفسير داخلة تحت هذا الاتفاق، لأن عبارة الترجمة التفسيرية محاذية لعبارة التفسير لا لعبارة الأصل القرآني، فإذا كان التفسير مشتملاً على معنى الأصل وشرحه مما يسهل فهم القرآن وتدبره، كانت الترجمة لهذا التفسير أو المعنى مشتملة أيضاً على هذا كله، لأنها ترجمة للتفسير لا للقرآن.

ولا شك أن كلاً من التفسير وترجمته بيان ناحية أو أكثر من نواحي القرآن التي لا يحيط بها إلا من أنزله بلسان عربي مبين، وليس في واحد منهما إبدال لفظ مكان لفظ القرآن، ولا إحلال نظم محل نظمه، بل لفظ القرآن ونظمه باقيان على حالهما صورة ومعنى من غير خلل ولا نقصان.

وإذا كان الأمر كذلك فإن هذه الترجمة لا بأس بها لكونها ترجمة لتفسير القرآن لا القرآن نفسه، ولما يترتب عليها من المصالح المهمة مثل:

- تبليغ معاني القرآن وإيصال هدايته إلى المسلمين وغير المسلمين ممن لا يتكلمون بالعربية، ولا يعرفون لغة العرب يقول الحافظ ابن حجر: «فمن دخل الإسلام، أو أراد الدخول فيه فقرىء عليه القرآن فلم يفهمه فلا بأس أن يعرّب له لتعريف أحكامه، أو لتقوم عليه الحجة فيدخل فيه»[١].

- حماية العقيدة الإسلامية من كيد الملحدين، والدفاع عن القرآن الكريم بالكشف عن أضاليل المبشرين الذين عمدوا إلى ترجمة القرآن ترجمة حشوها بعقائد زائفة، وتعاليم فاسدة ليظهروا القرآن لمن لا يعرف لغته في صورة تنفر منه وتصد عنه، بل قد تجب حين تكون وسيلة إلى إبلاغ القرآن والإسلام لغير الناطقين باللغة العربية، لأن إبلاغ ذلك واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

وذهب بعض العلماء إلى إنها واجبة أو فرض كفاية، لأن الله تعالى بعث محمداً ﷺ برسالة الإسلام للناس كافة على اختلاف أجناسهم وألوانهم وأمره بالبلاغ، والقرآن الذي نزل بلغة العرب صار إبلاغه للأمة العربية ملزماً لها. ولكن سائر الأمم التي لا تحسن العربية أو لا تعرفها يتوقف إبلاغها الدعوة على ترجمتها بلسانها[٢].

---

(١) فتح الباري ٤٣١/١٣ في كتاب: التوحيد، باب: ما يجوز من تفسير التوراة وكتب الله بالعربية.

(٢) انظر: التفسير والمفسرون ٢٨/١، ٢٩.

الشروط الواجب توفرها في الترجمة التفسيرية:

عندما قلنا إن الترجمة التفسيرية أو المعنوية للقرآن الكريم جائزة إنما ذلك بشروط يجب توفرها ومراعاتها حتى تكون الترجمة صحيحة ومقبولة وأهم هذه الشروط:

- ❑ أن تكون الترجمة على شريطة التفسير، لا يعوّل عليها إلا إذا كانت مستمدة من الأحاديث النبوية، وعلوم اللغة العربية، والأصول المقررة في الشريعة الإسلامية.
- ❑ أن يكون المترجم بعيداً عن الميل إلى عقيدة زائفة تخالف ما جاء به القرآن.
- ❑ أن يكون المترجم عالماً باللغتين: المترجم منها، والمترجم إليها، خبيراً بأسرارهما يعلم جهة الوضع والأسلوب والدلالة لكل منهما.
- ❑ أن يراعي في الترجمة ما يلي:

أ ـ أن ينص في مقدمتها على أنها ليست ترجمة حرفية للقرآن الكريم، وإنما هي ترجمة للمعاني التي فهمها المترجم أو غيره من القرآن، فإن كان فيها خطأ فهو منسوب إلى المترجم أو المفسر وليس منسوباً إلى الله.

ب ـ من المناسب أن يكتب النص القرآني في أعلا الصفحة ثم يكتب التفسير بعده ـ باللغة العربية ـ ثم تكتب الترجمة بعد التفسير في الصفحة نفسها، حتى لا يتوهم متوهم أن هذه الترجمة ترجمة حرفية للقرآن وحتى يكون النص القرآني وتفسيره وترجمة هذا التفسير بين يدي القاري بحيث يمكنه إن كان من أهل النظر والرأي أن يقارن بين كل ذلك ويتبين أين يقع الخطأ وأين يقع الصواب.

جـ ـ أن يطلق على هذه الترجمة ما يدل عليها صراحة مثل: (ترجمة تفسير القرآن) أو (تفسير القرآن الكريم باللغة...) أو (ترجمة معاني القرآن).

الفرق بين الترجمة التفسيرية وبين تفسير القرآن:

هناك فرق بينهما:

- ❑ أن التفسير باللغة العربية، والترجمة التفسيرية بلغة أخرى.
- ❑ أن الإنسان قد يدرك خطأ المفسر في كتاب التفسير، لأنه يتقن لغة القرآن ولغة التفسير، أما في الترجمة التفسيرية فالقارىء لا يدرك خطأ المفسر.

تـنـبـيـه:

من الملاحظ أن الترجمة تختلف باختلاف المترجم حيث إن المترجم في الأصل يقوم بعمل فني يعتمد على الاجتهاد، إذ هم بين معان ودلالات مرنة تختلف باختلاف فهم النص المراد ترجمته، وتختلف صياغة الترجمة بين مترجم وآخر، بل قد يظهر الاختلاف في الترجمة نفسها، فلو ترجم شخص نصاً ثم طلب من آخر عكس الترجمة ـ أي إعادة نص الترجمة من اللغة التي ترجم إليها إلى اللغة التي ترجم عنها ـ لا شك أنه لن يكون النص الأول المترجم نفسه.

حكم القراءة في الصلاة بغير العربية:

اختلف العلماء في القراءة بالصلاة بغير العربية إلى مذهبين:

الأول: يروى عن أبي حنيفة أنه كان يرى جواز القراءة في الصلاة باللغة الفارسية، وقد رأى ذلك حين رأى في صدر حياته طوائف من الفرس دخلوا في الإسلام وعُلِّموا العربية، لكن ألسنتهم لم تطوع للنطق بها من غير رطانة أعجمية حيث تتلوى في مخارج الحروف العربية، وقد رُوي أنه رجع عن هذا الرأي[1]، ولم يعرف عنه أنه سوغ ذلك في غير الفاتحة.

أما صاحباه أبو يوسف ومحمد بن الحسن فجعلا القراءة في الصلاة باللسان الأعجمي من قبيل ما تدعو إليه الضرورة، فأجازاها للعاجز عن العربية دون القادر على القراءة بها.

---

(١) انظر: فواتح الرحموت ٨/٢.

الثاني: ذهب جمهور العلماء المالكية والشافعية والحنابلة إلى منع القراءة بترجمة القرآن في الصلاة سواء كان المصلي قادراً على العربية أم عاجزاً، لأن ترجمة القرآن ليست قرآنا، إذ القرآن هو النظم المعجز الذي وصفه الله تعالى بكونه عربياً وبالترجمة يزول الإعجاز، والترجمة لم يتعبد بتلاوتها وليست كلام الله تعالى.

قال القاضي أبو بكر بن العربي عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾[1]، «قال علماؤنا: هذا يبطل قول أبي حنيفة رضي الله عنه: «إن ترجمة القرآن بإبدال اللغة العربية فيه بالفارسية جائز»، لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ نفى أن يكون للعجمة إليه طريق، فكيف يصرف إلى ما نفى الله عنه... ثم قال: إن التبيان والإعجاز إنما يكون بلغة العرب، فلو قلب إلى غير هذا لما كان قرآناً ولا بياناً ولا اقتضى إعجازاً»[2].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأما الإتيان بلفظ يبين المعنى كبيان لفظ القرآن فهذا غير ممكن أصلا، ولهذا كان أئمة الدين على أنه لا يجوز أن يقرأ بغير العربية، ولا مع القدرة عليها ولا مع العجز عنها، لأن ذلك يخرجه عن أن يكون هو القرآن المنزل»[3].

وقال أيضاً: «فأما القرآن فلا يقرؤه بغير العربية، سواء قدر عليها أو لم يقدر عند الجمهور، وهو الصواب الذي لا ريب فيه، بل قد قال غير واحد إنه يمتنع أن يترجم سورة أو ما يقوم به الإعجاز»[4].

وقال: «وأيضا فإن نفس اللغة العربية من الدين ومعرفتها فرض

---

(١) سورة فصلت، الآية (٤٤).

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ١٦٦٥/٤.

(٣) السبعينية وهي مطبوعة ضمن الجزء الخامس من مجموع الفتاوى الكبرى.

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم ٢٠٣.

واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض ولا يفهمان إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»[١].

وقد فصل ابن حجر في المسألة فقال: «فإن كان القارىء قادراً على التلاوة باللسان العربي: فلا يجوز له العدول عنه ولا تجزي صلاته.

وإن كان عاجزاً: وإن كان خارج الصلاة: فلا يمتنع عليه القراءة بلسانه لأنه معذور وبه حاجة إلى حفظ ما يجب عليه فعلاً وتركاً.

وإن كان داخل الصلاة: فقد جعل الشارع له بدلا وهو الذكر، وكل كلمة من الذكر لا يعجز عن النطق بها من ليس بعربي، فيقولها ويكررها فتجزيء عن الذي يجب عليه قراءته في الصلاة حتى يتعلم»[٢].

حكم ترجمة الذكر في الصلاة:

الذكر في الصلاة مختلف فيه سواء كان واجباً كتكبيرة الإحرام أم غير واجب؟ فقد منع ترجمة الأذكار الواجبة مالك وإسحاق وأحمد في أصح الروايتين. وأباحها أبو يوسف ومحمد والشافعي.

وسائر الأذكار لا يترجم عند مالك وإسحاق وبعض أصحاب الشافعي، ومتى فصل بالترجمة بطلت صلاته.

أهم تراجم معاني القرآن الكريم:

- أول ترجمة أوربية للقرآن كانت باللغة اللاتينية، وعملت لحساب أحد الأديرة في أيام الحروب الصليبية سنة (١١٤٣م)، وطبعت سنة (١٥٤٣م) ثم ترجمت إلى اللغات الإيطالية والألمانية والهولندية.
- وفي سنة (١٦٨٩م) ظهرت ترجمة أخرى باللاتينية كذلك مع النص العربي لأحد القساوسة من رجال الكنيسة (Maracci) وقد اختيرت بعناية لتعطي أسوأ انطباع عن الإسلام للأوربيين.

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ٢٠٧.

(٢) فتح الباري ٤٣١/١٣.

- ثم تتالت الترجمات بالإنجليزية التي تحمل ما يضمر أصحابها للإسلام العداء.
- وأول مسلم حاول ترجمة القرآن باللغة الإنجليزية هو د/ محمد عبدالحكيم خان سنة (١٩٠٥م).
- ثم «معاني القرآن الكريم» لـــ «محمد مرماديوك بكتال» إنجليزي كان مسيحياً وأسلم وظهرت لأول مرة سنة (١٩٣٠هـ)، ويقول عنها: «إن هذه الترجمة هي أول ترجمة للقرآن بالإنجليزية يقوم بها إنجليزي مسلم»، ومن الملاحظات عليها:

أ ـ إنه يغير في ترتيب كلمات الآية.

ب ـ ويترجم ما يفيد التقرير والتأكيد بما يفيد الاستفهام.

جـ ـ ويترجم الجمع بالمفرد.

د ـ ويترجم الماضي بالمضارع.

هـ ـ ويبدل بعض صفات الله تعالى بصفات أخرى.

- **«القرآن الكريم» نص وترجمة وشرح لعبدالله يوسف علي** هندي مسلم طبع سنة (١٣٥٨هـ/١٩٣٤م) يقول في مقدمته: «إن الذي أود أن أقدمه إليك إنما هو تفسير باللغة الإنجليزية جنباً إلى جنب مع النص العربي، ولن يكون ذلك عن طريق إبدال الكلمة العربية بما يقابلها في الإنجليزية، وإنما بإعطاء أحسن التفسيرات التي يمكنني أن أقدمها في معناها الكامل الذي استطعت أن أفهمه من النص العربي» وتعد من أشهر التراجم الموجودة حالياً.

ومن مميزات هذه الترجمة:

أ ـ أنه قام بها عالم مسلم يعرف العربية والإنجليزية.

ب ـ إنها خالية غالبا من الانحرافات التي توجد في تراجم أخرى كالتي قام بها القاديانيون.

جـ ـ أن عليها تعليقات تعين القارىء على فهم النص بطريقة صحيحة إلا أنه يوجد عليها ملاحظات من أهمها:

١ ـ تناقضه في ترجمة الحروف المقطعة في أوائل السور، فالآية الأولى من سورة البقرة كتبها هكذا (A. L. M)[1]، وفي سورة الأعراف نجد الآية الأولى (ALIF. LAM. MIM. SAD)، وفي سورة مريم: (KAF. HA. YA. AIN. SAD) وهكذا في كل ما بدى بـ ﴿حمٓ ۝١﴾، ﴿طسٓ﴾، ﴿طسٓمٓ ۝١﴾، ﴿صٓ﴾، ﴿قٓ﴾، ﴿نٓ﴾.

٢ ـ تعليقه على الآية (٦٩) من سورة الأنبياء ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾ التعليق رقم (٢٧٢٥) ذكر أن قصة إلقاء خليل الله إبراهيم في النار من قبيل القصص الرمزي دون أن يجعل لها وجود حقيقي وهذا أمر خطير يؤدي إلى إنكار جميع الحقائق في القصص القرآني.

٣ ـ أنه يترجم بعض الآيات بتعبير عام دون اعتبار لبعض الألفاظ التي حددتها الآية فمثلاً في الآية (٢٦) من سورة البقرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ تفيد ترجمته إن الله لا يستحيي أن يستعمل أمثال الأشياء الأدنى والأعلى. وهذا وإن أدى المعنى العام المقصود ـ لا يعبر عن النص بالدقة المطلوبة فإسقاط ما حدده الله في الآية ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ يجعل الترجمة ناقصة وقاصرة عن إعطاء المعنى المحدد المقصود.

٤ ـ أحياناً يترجم الكلمة بما هو بعيد عن المراد منها فمثلاً الآية (٩٢) من سورة الأنبياء ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ والآية (٥٢) من سورة المؤمنون ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ ترجم كلمة ﴿أُمَّةً﴾ أي أخوة وهذا يبعدها عن المعنى المراد والأقرب في تفسيرها أنها بمعنى الجماعة وهو ما يتفق مع معناها في اللغة. وذكر بعضهم أنها بمعنى الملة. أقول: وإن كان قد ذكر كل هذه المعاني في تعليقه إلا أنه اختار الأخوة وهو لا يستند على أساس قوي.

(١) وكذا في السور التي تبدأ بـ: ﴿الٓر﴾، ﴿الٓمٓر﴾.

- **القرآن ترجمة جديدة ن. ج. داود،** طبع في بريطانيا سنة (١٩٥١م) وفي تعبيراته ما يدل على أنه غير مسلم.
- القرآن مفسراً آر ترج أر بري، طبع في بريطانيا سنة (١٩٥٥م).
- وهناك تراجم لبعض القاديانيين[1] من أتباع «مرزا غلام أحمد» الذين يطلقون عليه «المسيح الموعود» من ذلك:

أ ـ القرآن الكريم ـ النص العربي ترجمة وشرح محمد علي، طبع سنة (١٩١٨م).
ب ـ القرآن الكريم مع ترجمة إنجليزية وشرح بإشراف غلام فريد، طبع سنة (١٩٦٩م).
ج ـ القرآن: النص العربي وترجمة إنجليزية/محمد ظفر الله خان.

فهؤلاء الثلاثة: وصفوا في تراجمهم ما يهدفون إليه مما يخالف الإسلام وتعاليمه ويوافق عقيدتهم القاديانية والتي لا وجود لها في النص، أو إلى ترجمة بعض الكلمات بما لا يساعده قانون لغوي ولا عرف ديني.

وأسلوب الأول والثاني يكاد يكون واحداً، فالنص العربي تقابله ترجمته بالإنجليزية ثم هناك تعليقات تشرح ما جاء في الترجمة.

أما الثالث فلم يكتب تعليقات على ترجمته واكتفى بمقدمة بين فيها كثيراً من معتقداته ومعتقدات جماعته، ويعد أخطر من جند لصالح القاديانية إذ كان وزيراً للخارجية في باكستان ثم تولى عدة مناصب كبرى من ضمنها أنه صار أحد قضاة محكمة العدل الدولية[2].

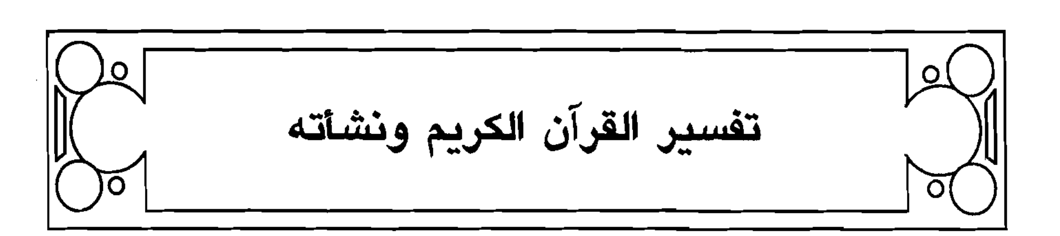
❁ ❁ ❁

---

(١) القاديانية: فرقة يدعو أصحابها إلى الإسلام ظاهراً، ويعتقدون بأن الغلام هو المسيح الموعود، وبأن الله يصوم ويصلي وينام ويصحو، ويعتقد أن إلهه إنجليزي لأنه يخاطبه بالإنجليزية وأن النبوة لم تختم بمحمد بل هي جاريه، وأن غلام أحمد هو أفضل الأنبياء جميعاً وأنه يوحى إليه، وأن «قاديان» كالمدينة ومكة بل أفضل منهما، كما يعتقدون الطاعة العمياء للحكومة الإنجليزية لأنها ولي أمرهم، ومن أحكامهم أنهم يبيحون الخمر والمخدرات.

(٢) انظر: للزيادة في التفصيل في هذا المبحث كتاب «دراسة حول ترجمة القرآن الكريم» للدكتور أحمد إبراهيم مهنا.

الموضوع الخامس والعشرون



تفسير القرآن الكريم ونشأته

أنزل الله ﷻ القرآن الكريم ليكون منهاجاً للمسلمين يسيرون عليه في حياتهم، ومصدراً أولاً للتشريع، وعلى فقه معناه، ومعرفة أسراره، والعمل بما فيه تتوقف سعادة الأمة، والناس يختلفون في فهمه وإدراك ما فيه من معان مع وضوح بيانه وتفصيل آياته، فمنهم العامي الذي يدرك من المعاني ظاهرها ومن الآيات مجملها، ومنهم الذكي المتعلم الذي يستخرج منه الكنوز والذخائر.

وتفسير القرآن هو المفتاح لما فيه من الكنوز والذخائر التي احتواها هذا الكتاب الكريم، ويعد التفسير من أشرف العلوم موضوعاً وغرضاً وحاجةً إليه، لأن موضوعه كلام الله، والغرض منه الاعتصام بالعروة الوثقى والوصول إلى السعادة الحقيقية، وإنما اشتدت الحاجة إليه، لأن كل كمال ديني أو دنيوي لابد أن يكون موافقاً للشرع، وموافقته تتوقف على العلم بكتاب الله.

التفسير في اللغة:

هو الإيضاح والتبيين، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ۝٣٣﴾[1] أي: بيانا وتفصيلاً، فقولنا: فسّر بمعنى: بيّن ووضح، وكلام مُفَسَّر: أي: واضح ظاهر[2].

(١) سورة الفرقان الآية (٣٣).

(٢) انظر: لسان العرب مادة «فسر» ٥/٥٥.

التفسير في الاصطلاح:

عرّف العلماء التفسير بعدة تعريفات قريبة المعنى من بعضها، ولعل تعريف الزركشي المتوفى سنة (٧٩٤هـ) أوضحها وأحصرها وهو: «أنه علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه»[1].

نشأة التفسير وتطوره:

التفسير في عهد النبي ﷺ:

لما كان التفسير هو توضيح نص القرآن الكريم، أو هو وضع القواعد العلمية لفهم القرآن، نستطيع أن نقول بأن التفسير نشأ مع نزول القرآن الكريم، فكان القرآن الكريم ينزل على النبي ﷺ ويبلغ ما ينزل عليه لأصحابه على مكث أي: مهل وتؤده، ليحسنوا أخذه، ويحفظوا لفظه، ويفهموا سِرّه، وكان منهج الرسول ﷺ وسلوكه وتربيته لأصحابه منهجاً عملياً لتفسير القرآن كما كان ﷺ يشرح لأصحابه ما خفي عليهم من كلمات القرآن الكريم امتثالاً لأمر الله ﷻ بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2] وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾[3]، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾[4].

وقام النبي ﷺ بهذا التكليف خير قيام، فأدى الأمانة وعلَّم الناس، وبيّن لهم ما نزل إليهم، وحكم بينهم بما أنزل الله.

---

(١) البرهان في علوم القرآن ١/١٣.

(٢) سورة النحل الآية (٤٤).

(٣) سورة النساء الآية (١٠٥).

(٤) سورة الجمعة الآية (٢).

المقدار الذي بيَّنه الرسول ﷺ من القرآن:

اختلف العلماء في المقدار الذي بينه الرسول ﷺ لأصحابه من معاني القرآن، ويمكن إرجاعه إلى ثلاثة أقوال:

الأول: أن النبي ﷺ بين لأصحابه معاني القرآن كما بيَّن لهم ألفاظه وممن ذهب إلى هذا شيخ الإسلام ابن تيمية، واستدلوا على ذلك بأدلة منها:

- ❑ قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1] فالبيان يتناول الألفاظ والمعاني، ومما لا شك فيه أن النبي ﷺ بين لهم ألفاظه كلها، فعلى هذا لابد أن يكون بين لهم معانيه وإلا كان مقصراً في البيان المكلف به، وحاشاه أن يقصر فيما كلف به.

- ❑ حديث أبي عبدالرحمن السلمي: «حدثنا الذين كانوا يقرؤننا: أنهم كانوا يستقرؤون من النبي ﷺ، فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً»[2].

- ❑ أن كل كلام المقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه، فالقرآن أولى بذلك.

الثاني: أن النبي ﷺ لم يبين لأصحابه من معاني القرآن إلا القليل، وممن ذهب إلى هذا جلال الدين السيوطي[3]، واستدلوا على ذلك بأدلة منها:

- ❑ حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «ما كان رسول الله ﷺ يفسر من كتاب الله إلا آياً بعدد علمه إياهن جبريل عليه السلام»[4].

---

(١) سورة النحل الآية (٤٤).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان ٣٦/١، وابن سعد في الطبقات الكبرى ١٧٢/٦، وذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء ٢٦٩/٤.

(٣) انظر: الإتقان في علوم القرآن ٢٠٨/٤.

(٤) أخرجه البزار كما في كشف الأستار عن زوائد البحزار ٣٩/٣، وأورده ابن كثير في تفسيره ٦/١ وقال عنه حديث منكر غريب.

- أن النبي ﷺ دعا لعبدالله بن عباس رضي الله عنهما فقال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»[1] فلو بيَّن الرسول ﷺ كل القرآن لما كان في دعائه الخاص فائدة.

الثالث: أن النبي ﷺ صح عنه الكثير من تفسيره للقرآن الكريم، وممن ذهب إلى هذا بدر الدين الزركشي[2].

التوجيه بين الأقوال:

يلاحظ من الأقوال السابقة أنه لا خلاف بينها في الواقع، فكلام شيخ الإسلام وإن كان ظاهره أن النبي ﷺ بين لأصحابه معاني القرآن وألفاظه، إلا أنه بين في موضع آخر أن هناك تفسير للصحابة والتابعين، أما القول الثاني والثالث فيعودان إلى قلة المروي وكثرته، فهذا أمر يعود إلى معرفة المفسر بالمرويات وقدرته على الاستنباط من أحاديث الرسول ﷺ على التفسير.

والخلاصة:

أن الرسول ﷺ فَسَّر ما رأى بيانه، أو سأل عنه أصحابه ولم يفسر كل معاني القرآن، لأن من الآيات ما هو واضح في نفسها، ومنه ما استأثر الله بعلمه كقيام الساعة وحقيقة الروح...، ومنه ما لا فائدة في معرفة أكثر من معناها المتبادر منها، والمناسبة التي سيقت له، كتفصيل بعض القصص والحوادث الغابرة.

التفسير في عهد الصحابة:

كان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يحرصون غاية الحرص على حفظ ما ينزل من القرآن، كما كانوا يعرفون من معاني القرآن وأسراره الشيء الكثير والسبب في ذلك:

- لكونهم عرباً خلصاً.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ١/٤٥ في كتاب الوضوء، باب وضع الماء عند الخلاء، ومسلم في صحيحه ٤/١٩٢٧ في كتاب:الفضائل، باب: فضائل ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن ٢/١٥٦.

- ولأنهم شاهدوا الوحي والتنزيل، وعلموا من الظروف والملابسات ما لم يعلمه غيرهم.
- ولأنهم سمعوا من النبي ﷺ ما لم يسمعه غيرهم.

وكانوا يتفاوتون في فهم القرآن الكريم، فلم يكونوا على مستوى واحد ودرجة واحدة بالنسبة لفهم معاني القرآن، فتفاوتت مراتبهم، وقد يشكل على البعض ما كان يظهر للبعض الآخر، وأسباب ذلك تعود إلى:

- تفاوتهم في الفهم والمدارك العقلية.
- تفاوتهم بالعلم بأسباب النزول فلم يلموا بها جميعا.
- تفاوتهم بالعلم في معاني الكلمات واللغة.
- تفاوتهم في صحبة رسول الله ﷺ، حيث إن منهم من أسلم متأخراً، أو كان كثير الأسفار، أو مجاهداً في سبيل الله، أو مشتغلاً بأرض أو تجارة ونحو ذلك[1].

ومن يتتبع سيرهم ﷺ يجد أن كل واحد منهم كان متبحراً وحجة في جانب من جوانب التفسير.

فعبدالله بن مسعود ﷺ المتوفى سنة (٣٢هـ) كان من أعلم الصحابة بأسباب النزول والمكي والمدني، روى البخاري عنه أنه قال: «والله الذي لا إله غيره ما من آية من كتاب الله إلا وأعلم أين نزلت؟ وفيم نزلت؟ ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه المطايا لركبت إليه»[2].

وأبي بن كعب المتوفى سنة (٣٠هـ) كان عالماً بالقراءات.

وعبدالله بن عباس المتوفى سنة (٦٨هـ) كان بحراً في التفسير عالماً

---

(١) انظر: التفسير والمفسرون ١/٣٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٦/١٠٢ في كتاب: فضائل القرآن، باب: القراء من أصحاب النبي ﷺ، ومسلم في صحيحه ٤/١٩١٢ في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل عبدالله بن مسعود.

بالتأويل فهو القائل: «لو أردت أن أملى وِقْر بعير على الفاتحة لفعلت»[(١)]، وقال فيه النبي ﷺ: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»[(٢)].

وقال فيه عبدالله بن مسعود: «نعم ترجمان القرآن عبدالله بن عباس»[(٣)].

وقد اشتهر من الصحابة بالتفسير عشرة:

الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبدالله بن الزبير، رضي الله عنهم جميعاً.

قال السيوطي: «أما الخلفاء فأكثر من روي عنه منهم: علي بن أبي طالب رضي الله عنه والرواية عن الثلاثة نزرة جداً، وكأن السبب في ذلك تقدم وفاتهم»[(٤)] بالإضافة إلى اشتغالهم بمهام الخلافة والفتوحات، وربما تحرجهم من الاجتهاد في تفسير القرآن الكريم، أما غيرهم فإن أكثر من روي عنه في التفسير: عبدالله بن عباس ثم ابن مسعود، ثم أبي بن كعب.

أهم سمات التفسير في عهد الصحابة:

يمتاز التفسير في هذه المرحلة بالآتي:

- ❑ أنه لم يكن في عهدهم تفسير كامل للقرآن، وإنما فسروا ما غمض فهمه، وأشكل معناه، لأنهم كانوا على إحاطة تامة بمجمل القرآن، واحتياجهم للتفسير كان أقل بكثير من احتياج من جاء بعدهم.
- ❑ أن تفسيرهم غالباً ما يكون توجيه الآية توجيهاً لحكم معين، أو ذكر غريب اللفظ في القرآن الكريم.

---

(١) ذكره المناوي في فيض القدير شرح الجامع الصغير ٥٢/١، والزركشي في البرهان في علوم القرآن حـ ١ ص ٨.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٥٣٧/٣، وصححه ووافقه الذهبي.

(٤) الإتقان في علوم القرآن ٢٣٣/٤.

- سهولة تفسيرهم وبعده عن الخلافيات.
- أنه لم يدون شيء من التفسير في هذا العصر، لأن التدوين لم يكن إلا في القرن الثاني[١].
- أن التفسير في هذه المرحلة يتناقل من طريق المشافهة والرواية، ولم يكن منفصلاً عن العلوم الإسلامية، ولهذا نجد في الروايات: التفسير، والأحكام الفقهية، وأحاديث الأخلاق والترغيب والترهيب وغيرها لأن العلوم الإسلامية لم تأخذ طابع التخصص، فلم ينفصل التفسير إلا في مراحل متأخرة من مراحل التدوين.

نشأة ما يسمى بالمدارس التفسيرية:

وبعد أن اتسعت الفتوحات الإسلامية واختلط العرب بغيرهم، واختلطت الثقافات الوافدة مع المسلمين الجدد بالثقافة الإسلامية، أصبح الناس بحاجة إلى من يعلمهم أمور دينهم ويفسر لهم كتاب ربهم، مما استدعى انتشار الصحابة رضوان الله عليهم في الأقطار ليقرؤا الناس كتاب ربهم ويعلموهم أمر دينهم.

فعمر بن الخطاب رضي الله عنه أرسل عبدالله بن مسعود إلى العراق، وعمرو بن العاص إلى مصر، وسعد بن أبي وقاص إلى العراق وبلاد الشام، ومعاذ بن جبل إلى الشام.

كما أن عثمان بن عفان رضي الله عنه أرسل مع كل نسخة من المصاحف العثمانية قارئاً يقرىء الناس القرآن، فأمر زيد بن ثابت أن يقرىء بالمصحف المدني، وبعث عبدالله بن السائب المتوفى سنة (٧٠هـ) مع المصحف المكي، والمغيرة بن شهاب المتوفى سنة (٩١هـ) مع المصحف الشامي، وأبا عبدالرحمن السلمي المتوفى سنة (٧٣هـ) مع المصحف الكوفي، وعامر بن قيس مع المصحف البصري.

---

(١) انظر: التفسير والمفسرون للذهبي ٩٧/١.

وقد حمل كل واحد من هؤلاء معه علماً وفقها لكتاب الله، وكان لكل واحد منهم إدراكه الخاص لمعاني القرآن ومراميه، وبخاصة فيما لم يتلقا بشأنه قولاً مرفوعاً.

وتتلمذ على يد كل واحد طلاب علم صبغوا بصبغة شيخهم وصاروا على منهجه في الفهم والاستنباط، وعلى أثر هذا ظهر ما سماه بعض المتأخرين المدارس التفسيرية التي برزت فيما بعد في عهد التابعين.

وأبرز شيوخ المدارس من صحابة رسول الله ﷺ ثلاثة:

عبدالله بن عباس بمكة، وعبدالله بن مسعود بالكوفة، وأبي بن كعب بالمدينة.

شيخ المفسرين بمكة: عبدالله بن عباس:

هو عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب بن هاشم القرشي، ابن عم رسول الله ﷺ، ولد بمكة قبل الهجرة بثلاث سنين فأتي به النبي ﷺ فحنكه بريقه، وأمه كانت مسلمة يوم ولادته، أما أبوه فقد تأخر إعلان إسلامه إلى قبيل فتح مكة، ولما أعلن إسلامه هاجر ومعه ابنه عبدالله وزوجه أم الفضل لبابة الكبرى بنت الحارث بن حزن الهلالية «والدة عبدالله».

ولازم النبي ﷺ في صغره لقرابته منه، ولأن خالته ميمونة كانت من أزواج رسول الله ﷺ.

وتوفي رسول الله ﷺ وله من العمر ثلاث عشرة سنة، فلازم كبار الصحابة وأخذ عنهم ما فاته من حديث رسول الله ﷺ.

توفي في الطائف سنة (٦٨هـ) وله من العمر سبعون سنة.

مبلغة من العلم:

كان ابن عباس رضي الله عنهما يلقب بـ: حبر الأمة، وبحرها، وربانيها، وترجمان القرآن، وأبي التفسير، وذلك لكثرة علمه، وبلوغه درجة عظيمة من الاجتهاد والمعرفة بمعاني كتاب الله، ولذا انتهت إليه الرياسة في الفتوى والتفسير.

وكان عمر رضي الله عنه يجلسه في مجلسه مع كبار الصحابة ويدنيه منه، وقال في شأنه: «ذاكم فتى الكهول، إن له لساناً سؤولاً، وقلباً عقولاً»(١) وكان يعتد برأيه مع حداثة سنه.

وقال عنه ابن عمر: «ابن عباس أعلم أمة محمد بما أنزل على محمد»(٢).

وقال عن تفسيره علي بن أبي طالب: «كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق»(٣).

وقال عنه ابن مسعود: «نعم ترجمان القرآن ابن عباس»(٤).

وسأل رجل عبدالله بن عمر عن تفسير آية فقال: سل ابن عباس فإنه أعلم من بقي بما أنزل الله على محمد ﷺ(٥).

أسـبـاب نـبـوغـه:

يمكن إرجاع أسباب نبوغ ابن عباس علمياً للآتي:

- ❑ نشؤوه في بيت النبوة، حيث لازم الرسول ﷺ، وكان كثيراً ما يدخل على بيت خالته أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث ويبيت عندها، فكان يسمع من النبي ﷺ الشيء الكثير، ويشهد كثيراً من الحوادث والظروف التي نزل فيها بعض آيات القرآن، ويحرص على مرافقة الرسول ﷺ والاقتداء به، وخاصة في الحالات التي لا يشاركه فيها أحد أصحابه.

- ❑ دعاء النبي ﷺ له: حيث دعا له النبي ﷺ بقوله: «اللهم فقهه في

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٣١٨/١.
(٢) ذكره ابن حجر في تهذيب التهذيب ٢٧٨/٥.
(٣) أخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ٩٦/٤٤، وذكره القرطبي في تفسيره ٣٥/١.
(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك ٥٣٧/٣.
(٥) انظر: التفسير والمفسرون ٦٥/١ ـ ٦٧، ومناهج المفسرين لمصطفى مسلم ٤٩ ـ ٦٤.

الدين وعلمه التأويل»[١]، وروى البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال: ضمني رسول الله ﷺ وقال: «اللهم علمه الكتاب»[٢]، وفي حديث آخر: «اللهم علمه الحكمة»[٣]، فلا غرابة بعد هذه الدعوات من رسول الله ﷺ أن يكون ابن عباس ترجمان القرآن وحبر الأمة.

- ❑ الاستعداد الفطري والملكات العقلية، فكان رضي الله عنه ذكياً حاضر الذهن ذا عقل راجح، ورأي صائب، وإيمان راسخ.

قال سعد بن أبي وقاص: «ما رأيت أحداً أحضرَ فهماً، ولا ألبَّ لباً، ولا أكثر علماً، ولا أوسعَ حلماً من ابن عباس، ولقد رأيت عمر يدعوه للمعضلات، فيقول: قد جاءت معضلة، ثم لا يجاوز قوله، وإنّ حَوْلَه لأَهْلِ بدرٍ»[٤].

- ❑ ملازمته لأكابر الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ يأخذ عنهم ويروي لهم، ويعرف منهم مواطن نزول القرآن، وأسباب النزول، وبهذا استعاض عما فاته من العلم بموت الرسول ﷺ.
- ❑ حفظه للغة العربية، ومعرفته لغريبها، وآدابها، وخصائصها، وأساليبها، وكثيراً ما كان يستشهد للمعنى الذي يفهمه من لفظ القرآن بالبيت والأكثر من الشعر العربي.
- ❑ بلوغه مرتبة الاجتهاد، وعدم تحرجه من التفسير، وشجاعته في بيان ما يعتقد أنه الحق.

تعليمه التفسير بمكة:

كان ابن عباس رضي الله عنهما يجلس لأصحابه من التابعين ـ في مكة المكرمة ـ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٢٧/١ في كتاب: العلم، باب: قول النبي ﷺ «اللهم علمه الكتاب».

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٢١٧/٤ في كتاب: أصحاب النبي ﷺ، باب: ذكر ابن عباس.

(٤) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٣٦٩/٢، وذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء ٣٤٧/٣.

يفسر لهم كتاب الله تعالى، ويوضح لهم ما خفي من معانيه، وكان تلاميذه يَعُون عنه ما يقول، ويروون لمن بعدهم ما سمعوه منه، وساروا على منهج شيخهم في تفسير القرآن وتوسعوا فيه، وكانوا أعلم الناس بتفسير كتاب الله.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأما التفسير فإن أعلم الناس به أهل مكة، لأنهم أصحاب ابن عباس رضي الله عنهما، كمجاهد، وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة ـ مولى ابن عباس ـ، وغيرهم من أصحاب ابن عباس كطاووس وأبي الشعثاء وسعد بن جبير وأمثالهم»[١].

وقد نشأ عن ذلك ما سماه بعض المتأخرين بـ «مدرسة التفسير بمكة».

أسباب وجود بعض التناقض فيما نسب إلى ابن عباس في التفسير:

يلمس القارىء للتفسير أن هناك أقوالاً كثيرة نسبت لابن عباس رضي الله عنهما، حتى إنه ليبدو بعض التناقض فيما نسب إليه، والسبب في ذلك يعود إلى:

- ❑ تسرب الخلل إلى ما روي عنه، وتطرق الضعف إليه، والسبب في ذلك يعود إلى ما يأتي:
- ❑ أن ابن عباس كان حجة في التفسير، وهو من بيت النبوة، فالوضع عليه يكسب الموضوع ثقة وقبولاً.
- ❑ إن ابن عباس كان من نسله الخلفاء العباسيون، وكان من الناس من يتزلف إليهم، ويتقرب منهم بما يرويه لهم عن جدهم.

تنوير المقباس من تفسير ابن عباس:

هذا الكتاب جمعه أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز أبادي المتوفى سنة (٨١٧هـ) ـ صاحب القاموس المحيط ـ وهو يبدأ من سورة الفاتحة ويختم بسورة الناس، وهو يشتمل على أقوال ابن عباس في التفسير بالإضافة إلى تفسير بعض الآيات بقوله: ويقال كذا وكذا، وربما ذكر سبب

(١) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ٦١.

نزول الآيات وليست كل الأقوال مسنده إلى ابن عباس، وما هو مسند فيه أغلبه يدور حول: محمد بن مروان السدي الصغير عن محمد بن السائب الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، والكلبي متهم بالكذب.

يقول السيوطي: «فإن انضم إلى ذلك - أي إلى طريق الكلبي - رواية محمد بن مروان السدي الصغير فهي سلسلة الكذب»[1].

وقال في الدر المنثور: «الكلبي اتهموه بالكذب، وقد مرض فقال لأصحابه في مرضه: كل شيء حدثتكم عن أبي صالح كذب، ومع ضعف الكلبي فقد روى عنه تفسيره مثله، أو أشد ضعفاً، وهو: محمد بن مروان السدي الصغير»[2].

لذا فإنه لا بد من عرض ما ورد في هذا التفسير وغيره عن ابن عباس على قواعد الجرح والتعديل. علماً بأن أشهر الطرق عنه:

- ❑ طريق الزهري، عن عبيدالله بن عبدالله بن عتبه، عن ابن عباس. وتعتبر هذه الطريق من السلاسل الذهبية.
- ❑ طريق سفيان بن عيينه، عن عمرو بن دينار، عن عطاء بن أبي رباح - وعن عكرمة أحياناً - عن ابن عباس، وهي جيدة جداً.
- ❑ طريق معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس وهذه من أجود الطرق. قال الإمام أحمد: «بمصر صحيفة في التفسير رواها علي بن أبي طلحة، لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً». وقد اعتمد عليها البخاري في صحيحه كثيراً فيما يعلقه عن ابن عباس.
- ❑ طريق عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس. وهي على شرط الشيخين.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٤/٢٣٩.
(٢) الدر المنثور ٦/٤٢٣.

- طريق محمد بن إسحاق ـ صاحب السير ـ عن محمد بن أبي محمد مولى آل زيد بن ثابت عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس. وهي جيدة وإسنادها حسن[١].

شيخ المفسرين بالكوفة: عبدالله بن مسعود:

هو عبدالله بن مسعود بن غافل الهذلي، يكنى بأبي عبدالرحمن، ويلقب بـ: «ابن أم عبد» وكان رسول الله ﷺ يلاطفه بذلك عند مناداته أو الإشارة إليه.

كان خفيف اللحم، قصيراً، شديد الأدمة[٢]، دقيق الساقين، وهو أول من جهر بالقرآن بمكة وأسمعه قريشاً بعد رسول الله ﷺ، وأوذي في الله من أجل ذلك، وكان ملازماً لرسول الله ﷺ في الحضر والسفر، ويخدمه في أكثر شؤونه، وهو صاحب سواده ـ أي سره ـ، ووساده ـ أي فراشه ـ، وسواكه ونعليه وطهوره...

وكان يدخل على رسول الله كل وقت حتى إن الغريب ليظنه أحد أفراد أسرة رسول الله ﷺ.

وفي خلافة عمر بن الخطاب أرسله إلى الكوفة لينشر الإسلام، ويفقه طلاب المعرفة، ويقرىء القرآن، كما جعله على بيت المال، وبقي على ذلك في عهد عثمان حتى قدم المدينة آخر عمره ومات بها سنة اثنتين وثلاثين، ودفن بالبقيع، وكان عمره بضعا وستين سنة[٣].

مبلغه من العلم:

كان ابن مسعود رضي الله عنه من أحفظ الناس لكتاب الله، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يسمع منه القرآن، وقد أخبر هو بنفسه عن ذلك فقال: «قال لي رسول الله ﷺ: اقرأ عليّ سورة النساء قال: قلت: أقرأ عليه وعليك أنزل؟

---

(١) انظر: حبر الأمة عبدالله بن عباس للسلقيني ١٤٧.
(٢) الأدمة: السمرة الشديدة.
(٣) انظر: سير أعلام النبلاء ٤٦١/١.

قال: إني أحب أن أسمعه من غيري، فقرأتُ عليه حتى بلغت ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾[١] قال لي: كف فرأيت عينيه تذرفان»[٢].

وكان رسول الله ﷺ يقول: «من أراد أن يسمع القرآن غضاً طريا كما أنزل فليقرأه ـ فليسمعه ـ من ابن أم عبد»[٣].

ومما يدل على ملازمته للرسول وأخذه القرآن منه قوله: «والله لقد أخذت من فِيِّ رسول الله ﷺ بضعاً وسبعين سورة...»[٤].

وكان لتقدم إسلامه وملازمته للرسول أثره في معرفة أسباب النزول والوقائع التي نزل بشأنها قرآن، كما أن هذه الصحبة أوجدت لديه ملكة لاستجلاء معاني القرآن، فهو الذي يقول: «والله الذي لا إله غيره ما من أية من كتاب الله إلا وأعلم أين نزلت؟ وفيم نزلت؟ ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه المطايا لركبت إليه»[٥].

ولما أرسله عمر إلى الكوفة كتب إلى أهلها: «إني قد بعثت إليكم عمار بن ياسر أميراً، وعبدالله بن مسعود معلماً ووزيرا، وهما من النجباء من أصحاب محمد ﷺ من أهل بدر، فاسمعوا، وقد جعلت ابن مسعود على بيت مالكم، فاسمعوا وتعلموا منهما، واقتدوا بهما، وقد آثرتكم بعبدالله على نفسي»[٦].

---

(١) سورة النساء الآية (٤١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ١١٣/٦ في كتاب: فضائل القرآن، باب: قول المقرىء للقارىء حسبك، ومسلم في صحيحه ٥٥١/١ في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل استماع القرآن.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٧/١.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ١٠٢/٦ في كتاب: فضائل القرآن، باب: القراء من أصحاب النبي ﷺ.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣٨٨/٣، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

تعليمه التفسير بالكوفة:

أقام رضي الله عنه بالكوفة وأخذ يعلم أهلها التفسير بالإضافة إلى الحديث والفقه، ومع أنه يوجد غيره من الصحابة في العراق يعلمون الناس إلا أنه يعتبر الشيخ الأول لهم، نظراً لشهرته في التفسير، وكثرة المروي عنه في ذلك، ولأن عمر رضي الله عنه كلفه بتعليم الناس.

قال مسروق: «كان عبدالله يقرأ علينا السورة ثم يحدثنا فيها ويفسرها عامة النهار»(١).

ويمتاز أهل العراق بأنهم أهل الرأي، ويكثر ذلك في مسائل الخلاف، ويقول العلماء: إن ابن مسعود هو الذي وضع الأساس لهذه الطريقة في الاستدلال، ثم توارثها عنه علماء العراق، ومن الطبيعي أن تؤثر هذه الطريقة في التفسير فيكثر تفسير القرآن بالرأي والاجتهاد، لأن استنباط مسائل الخلاف الشرعية نتيجة من نتائج إعمال الرأي في فهم نصوص القرآن والسنة.

ومن أشهر من تتلمذ عليه: علقمة بن قيس، ومسروق، والأسود بن يزيد، ومرة الهمداني، وعامر الشعبي، والحسن البصري، وقتادة بن دعامة السدوسي.

وقد نشأ عن ذلك ما سماه بعض المتأخرين مدرسة التفسير بالكوفة.

شيخ المفسرين بالمدينة: أبي بن كعب:

هو أبو المنذر أبي بن كعب الأنصاري الخزرجي، شهد العقبة وبدراً، وهو من القلة الذين تعلموا القراءة والكتابة قبل الإسلام، فلما أسلم استعان به رسول الله ﷺ في كتابة الوحي، وفي مخاطبته لزعماء القبائل، وقد أثنى عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: «أُبَيٌّ سيد المسلمين».

واختلف في سنة وفاته، والأكثر أنه مات في خلافة عمر رضي الله عنه.

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان ٣٦/١.

مبلغه من العلم:

كان أبي سيد القراء، وأحد كتاب الوحي، قال ﷺ: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في أمر الله عمر، وأقرؤهم لكتاب الله ﷻ أبي بن كعب...»[١] وعن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خذوا القرآن من أربعة: من عبدالله بن مسعود وسالم ـ مولى أبي حذيفة ـ ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب»[٢].

وليس أدل على جودة حفظه لكتاب الله تعالى من قراءة النبي ﷺ عليه، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لأبي: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك» قال: الله سماني لك؟! قال: «الله سماك لي» قال: فجعل أبي يبكي»[٣].

وكان لا يشغله شيء عن قراءة القرآن وتعليمه، وكان ﷺ يكلفه بتعليم وفود العرب، ومن دخل في الإسلام حديثا، تعليم القرآن والتفقه في الدين.

وكان من أعلم الصحابة بكتاب الله، ولعل من أهم عوامل معرفته بمعاني كتاب الله:

- أنه كان حبراً من أحبار اليهود العارفين بأسرار الكتب القديمة وما ورد فيها.
- كونه أحد كتاب الوحي لرسول الله ﷺ مما يجعله على صلة مباشرة بالقرآن ونزوله ومعرفة أسبابه وناسخه ومنسوخه.
- ملازمته للرسول ﷺ.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه ٥/٦٦٥ في كتاب: المناقب، باب: مناقب معاذ... وقال عنه: حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٦/١٠٢ في كتاب: فضائل القرآن، باب: القراء من أصحاب النبي ﷺ.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/١٩١٥ في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل أبي بن كعب.

تعليمه التفسير بالمدينة:

لم يغادر أبي بن كعب المدينة بل بقي فيها يعلم الناس القرآن قراءة وتفسيراً.

واشتهر من تلاميذه: سعيد بن المسيب، وابو العالية، وبالواسطة:

محمد بن كعب القرظي، وزيد بن اسلم.

قيمة التفسير بالمأثور عن الصحابة:

مما لا شك فيه أن صحابة رسول الله ﷺ هم أجدر الناس بعده بتفسير القرآن، فهم الذين عاصروا الوحي، وشاهدوا التنزيل، وعرفوا التأويل، والذي عليه جمهور المسلمين أن الصحابة جميعاً عدول لا يسأل عنهم ولا تطلب تزكيتهم، فقد شهد الله لهم بقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾[١]، وشهد لهم رسول الله ﷺ بقوله: «لا تسبوا أصحابي، لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه»[٢].

وحكم قولهم في التفسير:

إن الأمر لا يخلو من إحدى الحالات التالية:

- ❑ إذا كان تفسير الصحابي لا مجال للاجتهاد فيه، كبيانه لسبب نزول آية أو إخباره عن الأمور الغيبية، والفتن، والبعث، وصفة الجنة والنار... ونحو ذلك فحكمه: الرفع، ويقبل إذا صح السند فيه، والمقصود برفعه من حيث الاستدلال والاحتجاج به[٣].

---

(١) سورة الفتح الآية (٢٩).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ١٩٦٧/٤ في كتاب: فضائل الصحابة، باب: تحريم سب الصحابة.

(٣) انظر: أعلام الموقعين ٥٣/٤.

- إذا كان تفسيره من باب الإسرائيليات، فإنه يأخذ حكم الإسرائيليات قبولاً ورداً[١].
- إذا كان تفسيره محلاً للاجتهاد كبيانه لحكم شرعي، أو توضيح لفظة مفردة ونحو ذلك، فإن اتفقوا: فله حكم الرفع والقبول إذا صح السند، وإن لم يتفقوا: فلا يجزم برفعه

فيكون موقوفاً على الصحابي، لأنه لم يسنده إلى رسول الله ﷺ، لكن يترجح الاعتماد عليه في البيان[٢].

التفسير في عصر التابعين:

بدأت هذه المرحلة في تفسير القرآن على يد التابعين الذين تتلمذوا للصحابة فتلقوا غالب معلوماتهم عنهم في استجلاء بعض ما خفي من كتاب الله سبحانه وتعالى، حتى يتسنى لهم إيضاحه لمعاصريهم.

وقد اشتهر بعض أعلام التابعين بالتفسير في الأمصار الإسلامية المختلفة، فنشأ ثلاث طبقات للمفسرين هي الأشهر:

* الطبقة الأولى: طبقة المفسرين في مكة:

قامت هذه الطبقة على يد عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، فكان يجلس لأصحابه من التابعين يفسر لهم كتاب الله، ويوضح لهم ما أشكل من معانيه.

واشتهر منهم:

- سعيد بن جبير الوالبي، كان حبشي الأصل، وأحد كبار التابعين، وقد شهد له ابن عباس بالعلم والفضل عندما جاء أهل الكوفة يسألون في موسم الحج، قال لهم: أليس فيكم سعيد بن جبير؟

وكان قتادة يرى أنه أعلم التابعين بالتفسير، ولكنه كان يتورع من

(١) انظر: مقدمة في أصول التفسير ١٠٠.

(٢) انظر: تفسير القرآن أصوله وضوابطه ٦٦، وراجع البرهان ٢/١٧١، ١٧٢.

القول في التفسير برأيه، يدلنا على ذلك ما رواه ابن خلكان من أن رجلاً سأل سعيداً أن يكتب له تفسير القرآن فغضب وقال: لأن يسقط شِقِّي أحب إليّ من ذلك[١]، ولقد جمع سعيد علم أصحابه من التابعين، وألم بما عندهم مما برزوا به.

قتل في شعبان سنة (٩٥هـ) وهو ابن (٤٩) سنة، قتله الحجاج صبراً رضي الله عنه.

- مجاهد بن جبر المكي المقرىء، كان من أبرز تلاميذ ابن عباس، كان يقول: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثَ عرضات أقف عند كل آية أسأله فيم نزلت؟ وكيف كانت؟[٢]، وقال قتادة: أعلم من بقي بالتفسير مجاهد، وقال سفيان الثوري: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به، وقد اعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري، توفي سنة (١٠٣هـ).

وكان يعطي عقله حرية واسعة في فهم بعض نصوص القرآن، ولهذا كثر تفسيره.

- عكرمة البربري المدني ـ مولى ابن عباس ـ أصله من البربر بالمغرب. وقد اختلف العلماء فيه بين موثق ومجرح، والسبب في ذلك ـ والله أعلم ـ كثرة روايته عن ابن عباس بسبب ملازمته له، ومبالغة مولاه في تعليمه إلى درجة أنه كان يضع الكبل[٣] في رجله.

قال البخاري: ليس أحد من أصحابنا إلا وهو يحتج بعكرمة.

وأخرج له البخاري ومسلم وأبو داوود.

قال ابن حبان: كان من علماء زمانه بالفقه والقرآن.

توفي رحمه الله سنة (١٠٤هـ) رضي الله عنه وأرضاه.

---

(١) وفيات الأعيان ١/٣٦٥.
(٢) تهذيب التهذيب ١٠/٤٢.
(٣) الكبل: القيد.

- عطاء بن أبي رباح المكي القرشي مولاهم، ولد سنة (٢٧هـ)، وتوفي سنة (١١٤هـ) شهد له ابن عباس بالعلم حيث قال: يا أهل مكة تجتمعون عليّ وعندكم عطاء وقد برز في معرفته بمناسك الحج، ولهذا قال قتادة: «كان أعلم التابعين أربعة: كان عطاء بن أبي رباح أعلمهم بالمناسك، وكان سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير، وكان عكرمة أعلمهم بالسير، وكان الحسن أعلمهم بالحلال والحرام»[١].

ولهذا كان عطاء مقلاً بالتفسير ولعل السبب في هذا يرجع إلى تحرجه من القول بالرأي.

خصائص التفسير بمكة:

برز التفسير في مكة بجوانب معينة من أبرزها:

- كثرة الاجتهاد والاستنباط.
- التخصص في علم التفسير، وقلة اهتمام أصحابها بالعلوم الأخرى مقارنة بالتفسير.
- التوسع في الإسرائيليات، فكانت أكثر المدارس تساهلاً في رواية الإسرائيليات، حيث تعرض ابن عباس رضي الله عنهما للنقل عن كعب الأحبار، وكذا تلامذته: سعيد ومجاهد وعكرمة فتوسعوا في النقل عنهم.

  فأدخلت المدرسة (العنصر الإخباري) في مجال التفسير[٢].
- كثرة تناولها للآيات وتفسيرها، مما جعلها تسهم كثيراً في الإبانة عن كثير من المعاني التي يحتاج إليها، ولعل السبب في ذلك يعود إلى أمور منها:
- إمامة ابن عباس للمدرسة.
- الأثر المكاني للمدرسة، فمكة هي البلد الحرام ومقصد المسلمين للحج والعمرة.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥/١٧.

(٢) دراسات في التفسير وأصوله ٧٣.

- ❏ التصنيف والتدوين المبكر لآثار المدرسة، فابن جريج المتوفى سنة (١٤٩هـ) أحد الملازمين لعطاء بن أبي رباح أخذ من تفسير مجاهد وروى عنه، ثم تفرد بعد طبقة التابعين بالإمامة بمكة، فدوَّن العلم وحمله عنه الناس.

قال عبدالرزاق: أول من صنف الكتب ابن جريج[١].

- ❏ كثرة اشتغالهم بالتفسير، ويلاحظ أنهم من أكثر البلدان حديثاً عن كليات القرآن، ومبهماته، وأسباب نزوله.

*** الطبقة الثانية: طبقة المفسرين بالكوفة:**

قامت هذه الطبقة بالكوفة على يد عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، وإن كان هناك غيره من الصحابة يعلمون الناس القرآن، إلا أنه الشيخ الأول لهم.

وقد تخرج على يده جمهرة من القراء والفقهاء والمفسرين أمثال:

- ❏ أبو عبدالرحمن عبدالله بن حبيب السلمي، مقرىء الكوفة، إليه انتهت القراءة تجويداً وضبطاً، أخذ القراءة عن: عثمان، وعلي، وابن مسعود، وزيد، وأبي رضي الله عنهم، وأخذ عنه عاصم.

قال ابن مجاهد: أول من أقرأ بالكوفة القراءة التي جمع عثمان رضي الله عنه الناس عليها أبو عبدالرحمن السلمي[٢]، قال البيهقي: كان أبو عبدالرحمن يقرىء الناس في المسجد الأعظم أربعين سنة، توفي سنة (٧٤هـ).

- ❏ علقمة بن قيس الكوفي، سمع من ابن مسعود وغيره، جوّد القرآن على ابن مسعود، وكان من أنبل أصحابه، وأشهر رواته، وأعرفهم به، وأعلمهم بعلمه. قال ابن مسعود:

ما أقرأ شيئاً ولا أعلمه إلا علقمة يقرؤه ويعلمه، كان طيب الصوت

---

(١) الجرح والتعديل ٥/٣٥٧.

(٢) السبعة لابن مجاهد ٦٧.

بالقرآن، ثبتا فيما ينقل، صاحب خير وورع، مات سنة (٦٢هـ) وعمره تسعون سنة.

- مسروق بن الأجدع الهمداني الكوفي العابد، كان أبوه فارس أهل اليمن في زمانه، روى عن الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وأبي بن كعب وغيرهم، وكان أعلم أصحاب ابن مسعود وبخاصة في علم التفسير ومعرفة معاني كتاب الله تعالى.

يقول: كان عبدالله يقرأ علينا السورة ثم يحدثنا فيها ويفسرها عامة النهار، توفي سنة (٦٣هـ).

- الأسود بن يزيد النخعي، كان من كبار التابعين ومن رواة ابن مسعود، وكان ثقة صالحاً على جانب عظيم من الفهم لكتاب الله، توفي بالكوفة سنة (٧٤هـ).

خصائص التفسير بالكوفة:

برز التفسير بالكوفة بجوانب معينة منها:

- الاهتمام بتفسير آيات الأحكام، حيث كان ابن مسعود يعد من قضاة الصحابة، ومن المكثرين في الفتوى، كما أن الكوفيين يعدون من أفقه التابعين[١].
- كثرة الاشتغال بالقراءات، وقد ذكر السيوطي أن عدد القراء في الكوفة كان يزيد على عدد القراء في المدينة ومكة والشام والبصرة .
- الهيبة والورع في التفسير.
- الاهتمام بنقل آثار ابن مسعود.
- قلة الإسرائيليات في تفسيرهم، متأثرين في ذلك بمسلك شيخهم ابن مسعود، فإنه من أشد الصحابة حذراً من هذا المسلك[٢].

---

(١) انظر: المصنف لعبدالرزاق ٢٦٩/١٠.

(٢) انظر: جامع البيان ٤٦١/٧ المحققة، والدر المنثور ٤٠٢/٢.

* **الطبقة الثالثة: طبقة المفسرين بالمدينة:**

كانت المدينة دار الإسلام، وقطب رحاه في حياة النبي ﷺ - بعد الهجرة - ثم صارت بعد وفاته مركز الخلافة الراشدة، وبقيت مركزاً من مراكز العلم الأصيلة، فقد بقي بها جمهور الصحابة، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يسمح لكبار الصحابة بمغادرتها إلا لضرورة، أو لإلحاح من بعضهم.

وكانت تقام فيها الحلقات العلمية، ويقصدها الراغبون في العلم من أنحاء البلاد الإسلامية.

وكان ممن يُقصد: أبي بن كعب الذي تتلمذ على يديه كثير من التابعين من أهل المدينة وممن وفد عليها.

وأبرز من أخذ عنه مباشرة:

- أبو العالية رفيع بن مهران الرياحي الفقيه المقرىء، مولى امرأة من بني رياح بطن من بني تميم، أسلم بعد وفاة النبي ﷺ بسنتين.

روى عن: علي، وابن مسعود، وابن عباس، وابن عمر، وأبي بن كعب.

كان يحفظ القرآن ويتقنه، قال عنه ابن أبي داوود: ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقراءة من أبي العالية[1].

وقد روى عن أبي بن كعب نسخة كبيرة في التفسير، وهي متفرقة في تفسير ابن جرير وابن أبي حاتم، ومسند الإمام أحمد، ومستدرك الحاكم[2]، توفي سنة (٩٠هـ).

- سعيد بن المسيب: هو شيخ الإسلام فقيه المدينة، رأس التابعين روى عن عمر، وعلي، وعثمان، وأبي، وزيد بن ثابت وغيرهم،

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠٨/٤.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء ٢٠٧/٤، والإتقان في علوم القرآن ٢٤٠/٤.

كان واسع العلم جاهراً بالحق، وكان يتحرج في القول في القرآن، توفي سنة (٩٣هـ).

خصائص التفسير بالمدينة:

برز التفسير بالمدينة بجوانب معينة من أبرزها:

- هيبة التفسير، والإقلال من التعرض له، حيث يعتبر رجالها من أقل من تعرض له، وأشدهم ورعاً فيه، فلم ينقل عنهم إلا العدد القليل من الآثار.
- انشغالهم عن التفسير بالحديث والمغازي والسير والفقه.
- ما ورد عنهم برز فيه الاهتمام بالقراءات، والسلامة من الأهواء والفتن.

مفسرون آخرون:

ومن المفسرين من التابعين من كانوا في بلدان أخرى مثل:

البصرة: وقد اشتهر فيها:

- الحسن البصري: مولى الأنصار، كان فصيحاً، ورعاً، زاهداً، واعظاً، عالماً، فقيها، روى عن علي وابن عباس وأنس.

رُوي عنه في التفسير روايات كثيرة، تعرض لها العلماء بالنقد، وبينوا الصحيح من الضعيف، توفي سنة (١١٠هـ).

- قتادة بن دعامة السدوسي، عربي الأصل كان يسكن البصرة، روى عن بعض الصحابة والتابعين، كان واسع الاطلاع بالشعر العربي، متضلعاً باللغة العربية، ومن هنا جاءت شهرته بالتفسير، توفي سنة (١١٧هـ).
- ابن سيرين.
- الربيع بن أنس.

الشام: وقد جاءها من الصحابة: معاذ بن جبل إلى فلسطين، وعبادة بن الصامت إلى حمص، وأبو الدرداء إلى دمشق وهو من أكثرهم أتباعاً وأثراً في الشام، **واشتهر فيها من التابعين**:

- عبدالرحمن بن غنم الأشعري، شيخ أهل فلسطين وفقيه الشام، بعثه عمر إلى الشام ليفقه أهلها، توفي سنة (٧٨هـ).
- عمر بن عبدالعزيز، الخليفه الصالح، استوزره سليمان بن عبدالملك بالشام، وولي الخلافة سنة (٩٩هـ) فبويع في مسجد دمشق، توفي سنة (١٠١هـ).
- رجاء بن حيوة الكندي، شيخ أهل الشام في عصره، كان ملازماً لعمر بن عبدالعزيز، توفي سنة (١١٢هـ).
- كعب الأحبار الحميري، كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود في اليمن، أسلم في زمن أبي بكر، أخذ عنه الصحابة وغيرهم كثيراً من أخبار الأمم الغابرة، وأخذ هو من الكتاب والسنة عن الصحابة، خرج إلى الشام وسكن حمص وتوفي فيها سنة (٣٢هـ).
- مكحول أبو عبدالله الدمشقي، رُوي عنه جملة طيبة في التفسير.

مصر: وقد جاءها من الصحابة عقبة بن عامر، **واشتهر فيها من التابعين**:

- يزيد بن أبي حبيب الأزدي، مفتي أهل مصر، وأول من أظهر علوم الدين والفقه بها، وكان حجة حافظاً للحديث، توفي سنة (١٢٨هـ).
- مرثد بن عبدالله الحميري اليزني، مفتي أهل مصر، ومن ثقات أهل الحديث، توفي سنة (٩٠هـ).

اليمن: وقد اشتهر فيها من التابعين:

- طاووس بن كيسان الخولاني، من أكابر التابعين تفقهاً في الدين ورواية للحديث، مولده ومنشؤه باليمن، توفي سنة (١٠٦هـ).

- وهب بن مُنَبِّه الصنعاني، مؤرخ، كثير الإخبار عن الكتب القديمة، عالم بأساطير الأولين ولاسيما الإسرائيليات، ولاه عمر بن عبدالعزيز قضاء اليمن، توفي سنة (١١٤هـ)[١].

مصادر التفسير في عصر التابعين:

- اعتمد المفسرون من التابعين في فهمهم لكتاب الله على ما جاء في القرآن نفسه.
- وعلى ما رووه عن الصحابة عن رسول الله ﷺ.
- وعلي ما رووه عن الصحابة من تفسيرهم أنفسهم.
- وعلى ما يفتح الله به عليهم من طريق الاجتهاد والنظر في كتاب الله.

ومع أنهم أخذوا عن أهل الكتاب وتفشت أخبارهم خلال فترتهم إلا أن ذلك لا يصل إلى الحد الذي يجعلها مصدراً رئيساً إلى جانب الكتاب والسنة.

ثم إن هذه الإسرائيليات تروى موقوفة على قائليها مما لم يؤثر في وجودها على اتجاه المدارس الإسلامية في التفسير، بمعنى أنها لم تؤثر في الفكر الإسلامي ولا على عقيدته[٢].

سمات التفسير في عصر التابعين:

اتسم التفسير في عصر التابعين بالآتي:

- استمر التفسير محتفظاً بطابع التلقي والرواية.
- ظهور طابع الاختصاص، فكل أصحاب مدينة يتلقون عن أحد الصحابة، فبرزت جوانب في كل مدرسة على حساب جوانب أخرى في مدرسة أخرى.
- قلة الاستنباط، وإن كان أكثر منه في عهد الصحابة.

---

(١) انظر: الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ٦٩ ـ ٧٢.

(٢) انظر: تفسير سفيان بن عيينه (مقدمة المحقق) ٩٨.

- دخول كثير من الأخبار الإسرائيلية فيه، وذلك لكثرة من دخل من أهل الكتاب في الإسلام، وعلوق بعض الأخبار في أذهانهم مما لا يتصل بالأحكام الشرعية، كأخبار بدء الخليقة، وأسرار الوجود، وبدء الكائنات وكثير من القصص، وكانت النفوس ميالة إلى سماع التفاصيل، ثم إن التابعين تساهلوا في أخذها فزجوا في التفسير بكثير من الإسرائيليات دون تحرٍ ونقد.

وأكثر من روي عنه في ذلك من مسلمي أهل الكتاب: كعب الأحبار، ووهب بن منبه.

- ازدياد الخلاف بين التابعين في التفسير عما كان بين الصحابة رضوان الله عليهم وإن كان اختلافاً قليلا بالنسبة لما وقع بعد ذلك من متأخري المفسرين.
- اتساع دائرة التفسير في عهدهم، حتى روي عن مجاهد أنه فسر القرآن كله آية آية، كما روي ذلك عن سعيد بن جبير.
- توسع الاجتهاد في التفسير في عصرهم،وأكثر من اعتنى فيه مفسرو مكة، ثم البصرة، ثم الكوفة، ثم المدينة.

التفسير في عصور التدوين:

تبدأ هذه المرحلة من نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني، أو بعبارة أخرى تبدأ من عهد تابعي التابعين الذين جمعوا أقوال من تقدمهم في التفسير فدونوه في كتب مستقلة، وأخذ هذا التدوين اتجاهين:

الأول: إفراد التفسير في كتب مستقلة، فُسر فيها القرآن آية آية، مرتباً حسب ترتيب المصحف، وممن قام بهذا العمل جماعة من العلماء منهم:

- الحسن البصري، المتوفى سنة (١١٠هـ)، له تفسير القرآن الذي يعد أقدم التفاسير المشهورة[١].

---

(١) تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين ٧٢/١.

❑ عطاء بن أبي مسلم الخرساني، المتوفى سنة ١٣٥هـ، ويوجد من تفسيره قطعة في سبع ورقات في دار الكتب الظاهرية مجموع رقم (٩٥) من (١٢٦ إلى ١٣٢)[١].

❑ زيد بن أسلم، المتوفى سنة (١٣٦هـ)[٢].

❑ ابان بن تغلب الربعي الكوفي، المتوفى سنة (١٤١هـ)[٣].

❑ عبدالملك بن جريج المتوفى سنة، (١٥٠هـ).

❑ مقاتل بن سليمان البلخي، المتوفى سنة (١٥٠هـ)، واسم كتابه «تفسير مقاتل بن سليمان» وهو أقدم تفسير كامل للقرآن وصل إلينا، جمع فيه مقاتل بين النقل والعقل أو بين الرواية والدراية، طبع بتحقيق د. عبدالله شحاته وقد ذكر في مقدمته الطرق التي بلغته بها الآثار، مكتفياً بذلك عن عرض الطرق مع آثارها، وهو يذكر الآثار محذوفة الأسانيد مكتفيا بذلك بما ذكره في مقدمته حيث ذكر مختلف الطرق التي بلغته بها الآثار.

❑ سفيان الثوري، المتوفى سنة (١٦١هـ)، واسم كتابه «تفسير سفيان الثوري» وهو مطبوع بتعليق وتصحيح امتياز علي عرشي.

❑ وكيع بن الجراح، المتوفى سنة (١٩٧هـ)، له «تفسير القرآن».

❑ يحيى بن سلام، المتوفى سنة (٢٠٠هـ)، له «تفسير القرآن».

❑ عبدالرزاق بن همام الصنعاني، المتوفى سنة (٢١١هـ)، واسم كتابه «تفسير القرآن»، وهو مطبوع بتحقيق د. مصطفى مسلم محمد بأربعة مجلدات، الجزء الرابع خصصه للفهارس.

الثاني: جعل التفسير باباً من أبواب الحديث، دون أن يفرد في

---

(١) تاريخ الأدب العربي لفؤاد سزكين ٧٨/١.
(٢) طبقات المفسرين للداوودي ١٨٣/١.
(٣) طبقات المفسرين للداوودي ١/٣.

مؤلف خاص: فوجد من العلماء من طوّف في الأمصار المختلفة يجمع حديث رسول الله ﷺ، وما أثر عن الصحابة والتابعين، فضم إلى ذلك التفسير وممن قام بهذا العمل:

- ❑ سعيد بن منصور الخراساني، المتوفى سنة (٢٢٧هـ)، في كتابه «سنن سعيد بن منصور»(١).
- ❑ محمد بن إسماعيل البخاري، المتوفى سنة (٢٥٦هـ)، في كتابه «الجامع الصحيح»، وقد أفرد كتاب التفسير بالتصنيف في كتاب مستقل ابن حجر وسماه «تجريد التفسير من صحيح البخاري».
- ❑ محمد بن عيسى الترمذي، المتوفى سنة (٢٧٩هـ)، وسماه «كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ»، وفيه أيضاً «كتاب فضائل القرآن» و «كتاب القراءات».
- ❑ أحمد بن شعيب النسائي، المتوفى سنة (٣٠٣هـ)، وقد طبع مستقلاً باسم «تفسير النسائي».

وهؤلاء كانوا من أئمة الحديث، وكان جمعهم للتفسير جمعاً لباب من أبواب الحديث.

وكان التفسير في هذه المرحلة أغلبه منقولاً عن أسلافهم من أئمة التفسير عن الصحابة والتابعين، نقلوه مسنداً إليهم.

ثم تلا هذه المرحلة من توسع في التفسير، وفسر كل آية في القرآن وجمع كثيراً من النصوص والمأثورات عمن سبقه، ومن هؤلاء:

- ❑ ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، صاحب السنن، المتوفى سنة (٢٧٣هـ).

---

(١) طبع: فضائل القرآن وبعض التفسير من السنن بتحقيق الدكتور/سعد آل حميد في ستة مجلدات.

- بَقِيّ بن مَخْلَد الأندلسي القرطبي، المتوفى سنة (٢٧٦هـ)، قال ابن بشكوال: «له تفسير لم يؤلف مثله في الإسلام»[١].
- ابن جرير الطبري، المتوفى سنة (٣١٠هـ)، له «جامع البيان».
- أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري، المتوفى سنة (٣١٨هـ ـ ٣١٩هـ)، له: «تفسير القرآن»[٢] مخطوط كبير.
- ابن أبي حاتم عبدالرحمن بن محمد الرازي، المتوفى سنة (٣٢٧هـ)، واسم كتابه: «تفسير القرآن العظيم مسنداً عن رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين».
- أبو الشيخ عبدالله بن محمد بن جعفر بن حبان، المتوفى سنة (٣٦٩هـ).

وكل هذه التفاسير مروية بالإسناد إلى رسول الله ﷺ، وإلى الصحابة والتابعين وتابعيهم، وليس فيها شيء أكثر من التفسير بالمأثور، اللهم إلا ابن جرير الطبري، فإنه ذكر الأقوال مسندة، ثم وجهها، ورجح بعضها على بعض، وزاد على ذلك الإعراب إن دعت الحاجة، واستنبط بعض الأحكام التي يمكن أن تؤخذ من النص القرآني.

ثم تلا هذه المرحلة التوسع في التفسير فوجد من العلماء من اختصر الأسانيد، ونقل الأقوال المأثورة عن أسلافهم دون أن يسندوها لقائليها، فدخل الوضع في التفسير والتبس الصحيح بالعليل، وكان هذا مبدأ ظهور الوضع في التفسير، وتطرق الروايات الإسرائيليات إليه.

ثم تلا هذه المرحلة خطوة أوسع امتدت إلى عصرنا الحاضر، وبرز فيها اختلاط الفهم العقلي بالتفسير النقلي ويزداد هذا ويقل حسب تأثير المفسر بالمعارف المختلفة، والعلوم المتنوعة، والعقائد المتباينة، والمذاهب المختلفة.

---

(١) الصلة ص ١٢١.

(٢) يوجد منه قطعة في مكتبة جوتا في المانيا، انظر: الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط ٤١/١.

ولهذا نلحظ أن كل من برز في فن من الفنون نجد أنه يغلب على تفسيره فنه الذي برع فيه: فالنحوي، ركز على الإعراب كأبي حيان في البحر المحيط.

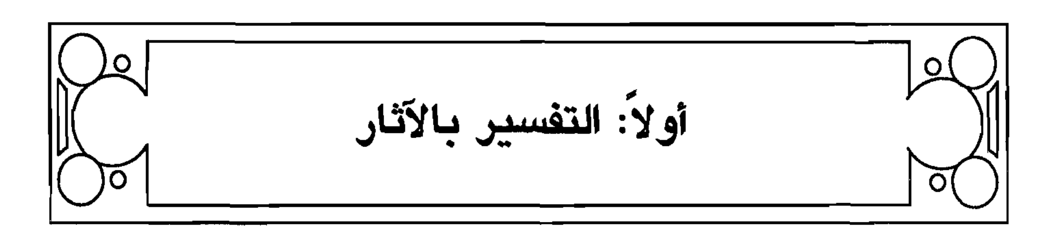
وصاحب العلوم العقلية، جل عنايته بأقوال الحكماء والفلاسفة وذكر شبههم والرد عليها، كالفخر الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب.

والفقيه، اهتم بمسائل الفقه وتفريعاتها، كالقرطبي في الجامع لأحكام القرآن.

وصاحب التاريخ، أكثر من القصص وأخبار من سلف كما في تفسير الثعلبي والخازن.

وسأتناول في المباحث التالية أشهر هذه المناهج، ونماذج من مفسريها مما يوضح اتجاهاتها.





أولاً: التفسير بالآثار

١ ـ المقصود بالتفسير بالآثار:

هو التفسير بما أثر عن الرسول ﷺ، أو عن الصحابة، أو عن التابعين[١] من كل ما هو بيان وتوضيح لكلام الله تعالى.

والذي يجب قبوله منه:

هو ما أثر عن النبي ﷺ من تفسيره القرآن، وما نقل عن الصحابة مما له حكم المرفوع ـ كأسباب النزول والمغيبات ـ وما أجمع عليه الصحابة أو التابعون، لأن الإجماع حجة، أما تفسير الصحابة مما محله الاجتهاد فهو من باب التفسير بالرأي، سواء كان معتمده اللغة أو غيرها من أدوات الاجتهاد في التفسير، وأما تفسير التابعي الذي لم يجمع عليه فهو تفسير بالرأي، وإن أجمع عليه فيلحق بالمأثور[٢].

٢ ـ هل تفسير القرآن بالقرآن ضمن التفسير بالآثار؟

تفسير القرآن بالقرآن داخل ضمن تفسير من فسّر به، فإن كان المفسر هو الرسول ﷺ فهو من التفسير النبوي، وإن كان المفسر هو الصحابي، فهو من تفسير الصحابي، وإن كان المفسر هو التابعي فهو من تفسير التابعي، وعلى هذا فتفسير هؤلاء يعد من التفسير بالآثار، وما عداهم فهو من التفسير

(١) يرى بعض الباحثين أن تفسير التابعين لا يعد من قبيل التفسير بالآثار.

(٢) فصول في أصول التفسير ٥٣.

بالرأي وإن كان تفسيراً للقرآن بالقرآن، لأن طريق الوصول إلى تفسير هذه الآية بهذه الآية هو الرأي والاجتهاد، ولذا لا يلزم أن كل من فسّر آية بآية أن تفسيره هذا يقبل، ولو قبل لما رُدّ شيء من هذا التفسير مهما كان قائله.

٣ ـ أشهر المؤلفات في التفسير بالآثار:

يعد التفسير بالآثار هو أول ما دون من التفسير على تدرج فيه من قليل، إلى كثير، إلى موسوعات، إلى جمع بينه وبين التفسير بالرأي، كما تدرج من جهة الإسناد، فالبدء كان بذكر الأسانيد، ثم جاء قوم حذفوها اختصاراً.

وأشهر المؤلفات فيه سأجعلها على قسمين:

- ما كله أو معظمه في التفسير بالآثار.
- ما اشتمل على الأثر، والرأي، والاجتهاد.

الأول: ما كله أو معظمه في التفسير بالآثار: ويمثله الكتب التالية:

- تفسير عبدالملك بن جريج المتوفى سنة (١٤٩هـ)، يقال إنه أول من ألف في التفسير، وقد أورد الأقوال في تفسير القرآن على علّاتها، وعقب كل خبر بما قيل فيه من تجريح أو تعديل[١].
- تفسير مقاتل بن سليمان المتوفى سنة (١٥٠هـ) جمع فيه بين الرواية والدراية، وهو مطبوع.
- تفسير سفيان الثوري، المتوفى سنة (١٦١هـ).
- تفسير يحيى بن سلام البصري النشأة القيرواني السكنى، ألف كتابه في التفسير في القيروان بتونس، ووصفه ابن الجزري بأنه «كان ثقة ثبتاً ذا علم بالكتاب والسنة، ومعرفة اللغة العربية»[٢] توفي سنة (٢٠٠هـ).

---

(١) انظر التفسير ورجاله لمحمد الفاضل بن عاشور ٣٢.

(٢) غاية النهاية ٢/٣٧٣.

اعتمد في تأليف كتابه على:

* إيراد الأخبار والروايات مسندة، ثم يتعقبها بالنقد والاختيار، ويبني اختياره المعنى على المعنى اللغوي، والتخريج الإعرابي، ويبدأ الاختيار بقوله: «قال يحيى...».

* إيراد القراءات وما يختاره منها بقوله: «والذي في مصحفنا».

ويعد تفسيره حلقة الوصل بين تفسير ابن جريج وتفسير الطبري، حيث يمثل منهج التفسير في القرن الثاني، ويعتبر مؤلفه مؤسس طريقة التفسير النقدي، أو الأثري النظري، التي سار عليها بعده ابن جرير الطبري واشتهر بها، ويقع في ثلاثين جزءاً من التجزئة القديمة، أي في ثلاثة مجلدات ضخمة، ويوجد منه نسخة خطية بتونس موزعة الأجزاء بين جامع الزيتونة وجامع القيروان، وبعض العلماء الأفاضل بتونس(١).

وقد طبع منه مجلدان:

الأول: يحوي عشر سور هي: النحل، الإسراء، الكهف، مريم، طه، الأنبياء، الحج، المؤمنون، النور، الفرقان.

الثاني: يحوي اثنتي عشرة سورة هي: الشعراء، النمل، القصص، العنكبوت، الروم، لقمان، السجدة، الأحزاب، سبأ، فاطر، يس، الصافات.

وطبعا بتحقيق الدكتورة/هند شلبي، الأستاذة بجامعة الزيتونة بتونس.

والعجيب أن لا يكتب عن هذا التفسير إلا القليل، فأغفله كثير من الكاتبين عن التفسير والمفسرين مع أهميته وسبقه لغيره.

❑ تفسير عبدالرزاق بن همام الصنعاني المتوفى سنة (٢١١هـ)، وهو مطبوع بتحقيق د. مصطفى مسلم.

---

(١) انظر: التفسير ورجاله لمحمد الفاضل بن عاشور، ٤٢ ـ ٤٥، والمدرسة القرآنية في المغرب ١٣٥.

- ❑ جامع البيان عن تأويل آي القرآن لمحمد بن جرير الطبري المتوفى سنة (٣١٠هـ)، يعتبر تفسيره ذروة التفسير بالآثار، كما يعتبر نقطة البدء وحجر الأساس لمنهج التفسير بالرأي، إذ أنه يضم بين جوانحه بذور الاتجاهات التي أدت إلى التفسير الزائد على مجرد الرواية والتي فتحت الباب لإعمال الرأي وبدء المرحلة الثانية في تطور التفسير(١).
- ❑ تفسير القرآن العظيم مسنداً عن الرسول ﷺ والصحابة والتابعين لأبي محمد عبدالرحمن بن أبي حاتم الرازي المتوفى سنة (٣٢٧هـ).

ومـن أبـرز سـمـاتـه:

- ❊ أنه جمع فيه ما بلغه من تفسير القرآن بالسنة وآثار الصحابة والتابعين وتابعيهم.
- ❊ اقتصر فيه على التفسير بالأثر دون غيره.
- ❊ أنه ذكر الآثار بالإسناد واختار لها كما يقول في مقدمته أصح الأسانيد.
- ❊ يعد من المصادر التي حفظت لنا مادة التفسير بالآثار، حيث نقلها من مصادر لم تصلنا حتى الآن.
- ❊ اعتمد عليه ابن كثير في تفسيره وابن حجر في الفتح، والسيوطي في الدر المنثور، وأثنى عليه ابن تيمية ونقل عنه مواضع في كتبه.

طبع هذا الكتاب بعشرة أجزاء ونشرته مكتبة نزار مصطفى الباز، علما بأنه من سورة إبراهيم إلى نهاية سورة الحج ومن أول سورة الروم إلى آخر القرآن مفقود، وقام محقق الكتاب بجمع مادته من كتب التفسير بالآثار، ولهذا لا تجد في هذه المواضع الآثار مسندة.

وكان قد طبع الجزء الأول من سورة البقرة، ومن أول التفسير إلى

(١) انظر الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير ٢٢.

نهاية الآية (١٤١) بتحقيق الدكتور أحمد عبدالله الزهراني. كما طبع جزء من سورة آل عمران من أولها إلى نهاية الآية (١٦٧) بتحقيق د. حكمت بشير ياسين.

- ❑ تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي المتوفى سنة (٧٧٤هـ).
- ❑ الدر المنثور في التفسير بالمأثور لجلال الدين السيوطي المتوفى سنة (٩١١هـ).

الثاني: ما اشتمل على الأثر والرأي والاجتهاد:

- ❑ تفسير القرآن الكريم لأبي الليث نصر بن محمد السمرقندي المتوفى سنة (٣٧٥هـ)، مطبوع في ثلاثة مجلدات.
- ❑ الكشف والبيان عن تفسير القرآن لأبي إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري المتوفى سنة (٤٢٧هـ)، جمع فيه بين المأثور وذكر الوجوه والقراءات، والعربية واللغات، والإعراب، والأحكام، والقصص، وذكر في أول الكتاب أسانيده إلى من يروي عنهم التفسير من علماء السلف، واكتفى بذلك عن ذكرها أثناء الكتاب.

ويلاحظ عليه أنه ملأ كتابه بالموضوعات والأخبار الإسرائيلية، قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية: «والثعلبي هو في نفسه كان فيه خير ودين، وكان حاطب ليل، ينقل ما وجد في كتب التفسير، من صحيح، وضعيف، وموضوع»[1]، وهو مطبوع في عشرة مجلدات.

- ❑ النكت والعيون في تأويل القرآن الكريم، لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي البصري، المتوفى سنة (٤٥٠هـ)، جمع فيه أقوال السلف والخلف.

---

(١) مقدمة في أصول التفسير ٧٦.

- «البسيط، والوسيط»[١] لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي المتوفى سنة (٤٦٨هـ)، قال عنه شيخ الإسلام: «وأما الواحدي فإنه تلميذ الثعلبي وهو أخبر منه بالعربية، لكن الثعلبي فيه سلامة من البدع، وإن ذكرها تقليداً لغيره، وتفسيره وتفسير الواحدي «البسيط» و «والوسيط» و «الوجيز» فيها فوائد جليلة، وفيها غث كثير من المنقولات الباطلة وغيرها»[٢].

- معالم التنزيل لأبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي الشافعي المتوفى سنة (٥١٦هـ)، جمع فيه بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي والاجتهاد المقبول، كما لم يذكر فيه الأسانيد اكتفاء بذكرها في أول كتابه ـ كما صنع الثعلبي في تفسيره الذي هو أصل تفسيره ومرجعه ـ.

قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية: «والبغوي تفسيره مختصر من الثعلبي، لكنه صان تفسيره عن الأحاديث الموضوعه والآثار المبتدعة»[٣]، وهو مطبوع في ثلاثة مجلدات.

- زاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزي المتوفى سنة (٥٩٧هـ)، جمع فيه بين المأثور والرأي، وذكر مشهور القراءات وأطرافاً من شواذها، ونقل توجيهها في العربية عن أئمة هذا العلم، وكان في الغالب لا يرجح بين الأقوال ولا يناقشها، ويؤخذ عليه استشهاده ببعض الأحاديث الضعيفة، والأخبار الإسرائيلية، وهو مطبوع في تسعة مجلدات.

- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية، لمحمد بن علي الشوكاني، المتوفى سنة (١٢٥٠هـ).

---

(١) (البسيط) طبعته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في خمسة وعشرين مجلداً، و(الوسيط) طبع في أربعة مجلدات

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣/٣٨٦، وانظر ١٣/٣٥٤.

(٣) المرجع السابق.

٤ ـ عرض لمناهج أشهر المفسرين في تفسير القرآن بالآثار:

* أولاً: جامع البيان عن تأويل آي القرآن:

المـؤلـف:

هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري، من أهل «آمل» عاصمة إقليم «طبرستان» ببلاد فارس ولد بها سنة (٢٢٤هـ) ورحل في طلب العلم إلى مصر والشام والعراق، إلى أن استقر ببغداد، وبقي بها إلى أن مات سنة (٣١٠هـ) رحمه الله تعالى.

مبلغه من العلم:

كان حافظاً لكتاب الله، عارفاً بالقراءات، بصيراً بالمعاني، فقيهاً بأحكام القرآن، عالماً بالسنن وطرقها، وصحيحها وسقيمها، وناسخِها ومنسوخها، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم، عارفاً بأيام الناس وأخبارهم[١].

وقد برع في علوم كثيرة منها:

- ❏ علم القراءات، وألف فيه مؤلفاً سماه «الجامع في القراءات من المشهور والشواذ» وربما سمي «القراءات وتنزيل القرآن» ذكر فيه جميع القراءات من المشهور والشواذ وعلل ذلك، واختار منها قراءة لم يخرج بها عن المشهور[٢]، ويوجد منه نسخة في المكتبة الأزهرية بمصر برقم (١١٧٨) في (١٢٨) ورقة.
- ❏ علم التفسير، وألف فيه «جامع البيان».
- ❏ علم الحديث، وألف فيه «تهذيب الآثار» إلا أنه لم يتمه.
- ❏ علم الفقه، وألف فيه «اختلاف علماء الأمصار في أحكام شرائع

---

(١) تاريخ بغداد.

(٢) قال ذلك أبو علي الحسن بن علي الأهوازي المتوفى سنة (٤٤٦هـ) في كتابه «الإقناع في القراءات الشاذة».

الإسلام» مطبوع[1]، ذكر فيه المسائل الخلافيه بين المجتهدين الثلاثة أبي حنيفة، ومالك، والشافعي.

- ❑ علم التاريخ، وألف فيه «تاريخ الأمم والملوك» مطبوع.

وله في أصول الفقه وفروعه كتب كبيرة.

وقد اعتبر الطبري أبا للتفسير، وشيخاً للمفسرين لما تميز به كتابه من الناحية العلمية العالية.

اسم الكتاب: «جامع البيان عن تأويل آي القرآن».

التعريف به وأقوال العلماء عنه:

طبع جامع البيان عدة طبعات من أشهرها:

- ❑ الطبعة الأولى بالمطبعة الأميرية ببولاق سنة (١٣٢١هـ) في ثلاثين جزءاً.
- ❑ طبعة مصطفى البابي الحلبي في ثلاثين جزءاً باثني عشر مجلداً.
- ❑ طبعة دار المعارف سنة (١٣٧٤هـ) بتحقيق المحدث محمود محمد شاكر، وتخريج أحمد محمد شاكر، وقد وصلا فيه إلى تفسير الآية (٢٧) من سورة إبراهيم، وطبع هذا في ستة عشر جزءاً، ولم يكمل التحقيق.

والواقع أن الكتاب يحتاج إلى مزيد عناية بتصحيحه، وتوثيق نصه، ودراسة أسانيده وتخريجها، ولو بإكمال عمل الشيخ محمود شاكر.

ويعتبر من أقدم التفاسير وأشهرها، كما يعتبر المرجع الأول عند المفسرين الذين عنوا بالتفسير النقلي، وإن كان في الوقت نفسه يعتبر

---

(١) طبع بمجلد واحد بتحقيق د. فردريك كيرن ـ مستشرق ألماني، وطبع بمصر سنة (١٣٢٠هـ) باسم اختلاف الفقهاء، ويعتقد أن الكتاب غير كامل.

مرجعاً مهماً من مراجع التفسير بالرأي، نظراً لما فيه من الاستنباط، وتوجيه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض، ترجيحاً يعتمد على النظر العقلي، والبحث الحر الدقيق[١].

ثناء العلماء على الكتاب:

أثنى العلماء على تفسير ابن جرير الطبري، بل أجمعوا على عظيم قيمته، وأنه مرجع مهم لا غنى عنه لطالب التفسير.

فقال ابن خزيمة المتوفى سنة (٣١١هـ) ـ أحد المعاصرين للطبري ـ بعد أن استعار تفسيره واطلع عليه ورده بعد سنين: «نظرت فيه من أوله إلى آخره فما أعلم على أديم الأرض أعلم من ابن جرير»[٢].

وقال أبو حامد الاسفراييني المتوفى سنة (٤٠٦هـ): «لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل على كتاب تفسير محمد بن جرير لم يكن ذلك كثيراً».

وقال النووي المتوفى سنة (٦٧٦هـ) أجمعت الأمة على أنه لم يصنف مثل تفسير الطبري».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية المتوفى سنة (٧٢٨هـ): «وأما التفاسير التي بأيدي الناس، فأصحها تفسير ابن جرير الطبري، فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة، وليس فيه بدعة، ولا ينقل عن المتهمين، كمقاتل بن بكير[٣] والكلبي»[٤].

وقال السيوطي المتوفى سنة (٩١١هـ): «وكتابه ـ يعني تفسير محمد بن جرير ـ أجل التفاسير وأعظمها، فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض، والإعراب، والاستنباط، فهو يفوقها بذلك»[٥].

---

(١) التفسير والمفسرون ٢٠٧/١.
(٢) لسان الميزان.
(٣) هكذا في الفتاوى، ولعله يقصد: مقاتل بن سليمان بن بشير البلخي وهو متهم بالكذب.
(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣٨٥/١٣.
(٥) الإتقان في علوم القرآن ٢٤٢/٤ (النوع الثمانون).

طريقة ابن جرير في تفسيره:

❏ بدأ ابن جرير تفسيره بخطبة بليغة حمد الله ﷻ وأثنى عليه ثم تحدث عن فضائل الأنبياء عامة ومحمد ﷺ خاصة وعن معجزته القرآن، ثم بين أنه مقبل على شرح كتاب الله وتأويله وبيان معانيه، موضحاً منهجه وطريقته.

❏ ثم ذكر عشر مقدمات لتفسيره تحدث فيها عن بعض علوم القرآن التي يرى ضرورة إلمام المفسر وقارىء التفسير بها، امتازت بعرض النصوص والأقوال مسندة ثم التوجيه بينها، والتصريح بالرأي الراجح عنده.

❏ ثم بدأ بتفسير القرآن ففسره جميعه آية آية، وطريقته في تفسير كل سورة:

❊ أنه يبدأ بذكر السورة باسمها، ويروي ما كان لها من أسماء ـ إن روي لها أكثر من اسم ـ، وغالباً ما يذكر اسم السورة بقوله: «القول في تفسير السورة التي يذكر فيها ـ البقرة ـ النساء ـ الأنفال».

❊ ثم يأخذ بتفسير آيات السورة قائلاً: «القول في تأويل قوله تعالى...».

وطريقته في ذلك:

❊ أنه يفسر الآية تفسيراً مجملاً ويورد ما قاله علماء اللغة في شرح ما في النص من مفردات وعبارات وما بينها من اختلاف، ويستشهد على ما قاله بما يرويه بسنده إلى الصحابة أو التابعين من التفسير المأثور عنهم في هذه الآية.

❊ إذا كان في الآية قولان أو أكثر، فإنه يعرض لكل ما قيل فيها، ويستشهد على كل قول بما يرويه بسنده إلى الصحابة أو التابعين.

❊ ثم يتعرض لتوجيه الأقوال، بترجيح بعضها على بعض، أو الجمع بينها.

* وأثناء تفسيره نجده يذكر القراءات، والإعراب، واستنباط الأحكام التي يمكن أن تؤخذ من الآية، مع التوجيه والترجيح.

منهج ابن جرير في تفسيره:

يعد تفسير ابن جرير الطبري من أمهات كتب التفسير التي جمعت بين المأثور والرأي المبني على القواعد والأصول الشرعية في التفسير.

ومنهجه في تفسيره يمكن إيجازه بالآتي:

تفسيره القرآن بالقرآن:

لما كان ابن جرير الطبري يعتمد في تفسيره على النصوص الشرعية جعل نصب عينيه في تفسير كتاب الله تعالى، كتاب الله تعالى، ففسر القرآن بالقرآن: بأن يستدل على معنى آية بآية أخرى[(١)]، أو يذكر آية أخرى نظيرة للآية المفسرة[(٢)]، أو يستدل بالقرآن على رجحان ما يقول أو صحة ما يعتقد[(٣)]، أو يذكر آية بقصد فائدة أو نكتة لطيفة.

ويعد عمدة في تفسير القرآن بالقرآن، وقد استفاد منه كثير من المفسرين بعده وبخاصة ابن كثير.

مثال ذلك أنه عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾[(٤)] حيث جعل الختم للقلوب والأسماع دون الأبصار، ويجعل الغشاوة للعيون وحدها، مستدلاً

---

(١) انظر تفسير الآية (٩) من سورة البقرة فاستدل لها بالآية: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝١٧٨﴾ وبقوله: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣]، جامع البيان ١١٩/١.

(٢) انظر تفسير الآية (٩٢) من آل عمران فذكر ما يناظرها بقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾ [الإنسان: ٨] وقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

(٣) انظر تفسير الآية (٣٠) من سورة الفرقان.

(٤) سورة البقرة الآية (٧).

على صحة قوله بما جاء في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾[(١)][(٢)].

ومن أراد معرفة اهتمامه بذلك فليرجع إلى التفسير، أو إلى الفهرس الذي وضعه محمود شاكر في نهاية كل جزء حققه، حيث يذكر فهرساً للآيات التي استدل بها ابن جرير.

عنايته بالقراءات:

اهتم ابن جرير في تفسيره بذكر وجوه القراءات وبيان معانيها المختلفة، ويستعين بها على: ترجيح معنى من المعاني بتعلق بفهم الآية، أو ترجيح مذهب فقهي، أو قاعدة نحوية.

وفي تناوله لها نراه ينسب كل قراءة إلى أصحابها ـ غالباً ـ فيقول: قراءة أهل الكوفة، أو وهذه قراءة عامة قراء المدينة، ونحو ذلك.

كما نجده ـ كثيراً مايَرُدّ القراءات التي لا تعتمد عنده لشذوذها من حيث الرواية، أو من حيث اللغة، مجتهداً في بيان وجه ردها.

وقد أُخِذ عليه ـ رحمه الله ـ أنه أنكر بعض القراءات الثابتة، ولعله يعذر بذلك بعدم علمه بصحة سندها، أو أنها لم تبلغ حد الشهرة في عصره، أو بلغت حد الشهرة في مكان ولكنه لم يتمكن من سماعها ومعرفة سندها على وجه يطمئن إليه، كما أن القراءات في عصره لم تكن كلها جمعت في كتاب ولم يكن علماؤها قد اشتهروا في الأمصار[(٣)].

تفسيره القرآن بالسنة وأقوال الصحابة والتابعين، وذكر ذلك بالسند:

يعد ابن جرير الطبري من أكثر المفسرين نقلاً عن رسول الله ﷺ

(١) سورة الجاثية الآية (٢٣).
(٢) انظر جامع البيان ١/١١٣، الحلبي.
(٣) انظر ابن جرير الطبري ومنهجه في التفسير ١٠١ ـ ١١٦.

وعن أصحابه، وتابعيهم في تأويل آي القرآن، يذكر كل ذلك مسنداً عنهم بكل أمانة ودقة، حتى إنه إذا نسي واحداً من سلسلة الرواة صرح بذلك بقوله: ذهب عني اسمه[١].

وقد نقل عن أشهر مفسري الصحابة والتابعين: كابن عباس، وابن مسعود، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة، والحسن البصري، وعكرمة، والضحاك.

وذكر من التفاسير: تفسير عبدالرحمن بن زيد بن أسلم، وتفسير ابن جريج، وتفسير مقاتل بن حيان.

ولم يتعرض لتفسير غير موثوق به، فلم يدخل في كتابه شيئاً من كتاب: محمد بن السائب الكلبي، ولا مقاتل بن سليمان، ولا محمد بن عمر الواقدي، لأنهم عنده أظناء[٢].

موقفه من الإسرائيليات:

المتأمل في تفسير ابن جرير يجده أتى فيه على أخبار وقصص مأخوذة من القصص الإسرائيلي وهي غير صحيحة دون أن ينبه على عدم صحتها وقد اعتذر عنه بعض الباحثين:

- فقال الزرقاني: «إن عذره في ذلك هو ذكر السند في زمن توافر الناس فيه على معرفة حال السند من غير توقف على تنبيه منه»[٣].
- وقال محمود شاكر ـ محقق تفسيره ـ: «ولما رأيت أن كثيرا من العلماء كان يعيب على الطبري أنه حشد في كتابه كثيراً من الرواية عن السالفين الذين قرؤا الكتب، وذكروا في معاني القرآن ما ذكروا من الرواية عن أهل الكتابين السالفين: التوراة والإنجيل، أحببت أن

---

(١) انظر جامع البيان ١٥/١، أو ٣٢/١ المحققه.

(٢) انظر إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب لياقوت الحموي ٦٤/١٨، ٦٥، وهو المسمى: (معجم الأدباء).

(٣) مناهل العرفان ٢٩/٢.

أكشف عن طريقة الطبري في الاستدلال بهذه الروايات رواية رواية، وأبين كيف أخطأ الناس في فهم مقصده، **وأنه لم يجعل هذه الروايات قط مهيمنة على كتاب الله** الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأحببت أن أبين عند كل رواية مقالة الطبري في إسنادها، **وأنه إسناد لا تقوم به حجة في دين الله ولا في تفسير كتابه، وأن استدلاله بها كان يقوم مقام الاستدلال بالشعر القديم على فهم معنى كلمة، أو بالدلالة على سياق جمله»**[1].

وقد اعتذر عن عدم نقده للروايات التاريخية في مقدمة تاريخه قائلاً: «فما كان في كتابي هذا مما يستنكره قارئه، أو يستشنعه سامعه، من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنه لم يؤت ذلك من قبلنا، وإنما أتى من قبل بعض ناقليه إلينا وإنما أديناه على نحو ما أُدي إلينا»[2].

ويتلخص موقفه من الإسرائيليات بالآتي:

- ذكر الأخبار الإسرائيلية والتساهل في نقدها، إذا كانت من قبيل القصص العام مع ما فيها من غرابة وخرافة.

ولهذا لا يرى حرجاً من الرواية عن: ابن إسحاق، والسدي، والضحاك، وغيرهم ممن كانوا موضع الظن والتهمة من رجال الآثار.

---

(١) انظر تفسير الطبري «المقدمة» ١٦/١، ١٧، وانظر ٤٥٣/١.

(٢) تاريخ الطبري ٧/١، ٨، وشبه محب الدين الخطيب الطبري وأمثاله من العلماء في إيرادهم للأخبار الضعيفة برجال النيابة الذين يجمعون كل الأدلة والشواهد المتصلة بالقضية مع علمهم بتفاهة بعضها أو ضعفه، اعتماداً منهم على أن كل شيء سيقدر بقدره، فالعلماء لا يفرطون في الأخبار حتى وإن كانت ضعيفة خشية أن يفوتهم شيء بإهماله شيء من العلم، إلا أنهم يروون كل خبر معزواً إلى راويه ليعرف القارىء قوة الخبر من كون رواته ثقات، أو ضعفه من كون رواته لا يوثق بهم، وبذلك يرون أنهم أدوا الأمانة ووضعوا بين أيدي القراء كل ما وصلت إليه أيديهم، انظر: الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير ٢٣٧ عن مقال نشر في مجلة الأزهر ص ٢٤ جـ ٢، سنة ١٣٧٢هـ/١٩٥٢م.

كما لم يجد حرجاً في الرواية عن كعب الأحبار، ووهب بن منبه، وعبدالله بن سلام وغيرهم ممن لهم صلة بالكتب السابقة.

فمثلاً عند قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾[١] نقل عن وهب بن منبه أن الثعبان حمل على الناس فانهزموا منه، فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً، قتل بعضهم بعضا، وقام فرعون منهزماً حتى دخل البيت»[٢].

وقد علق ابن كثير بقوله: «وفيه غرابة في سياقه»[٣].

- ❏ نقده للروايات التي تعرض لتفصيل جزئية لا ينفع في الدين العلم بها، ولا الجهل بمضمونها، ولم يرد فيها نص صريح من الكتاب أو نقل صحيح من السنة.

ومثال ذلك إنه عند قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾[٤]، قال: «إن الله تعالى ذكره، أخبر أنهم باعوه بدراهم معدودة غير موزونة، ولم يُحَدّ مبلغ ذلك بوزن ولا عدد، ولا وُضع عليه دلالة في كتاب، ولا خبر من الرسول ﷺ، وليس في العلم بمبلغ وزن ذلك فائدة تقع في دين، ولا في الجهل به دخول ضُرّ فيه، والإيمان بظاهر التنزيل فرض وما عداه فموضوعٌ عنا تكلفِ علمه»[٥].

وهو بذلك ينقد المرويات التي يحاول بعض المفسرين أن يفسروا بها ما وراء ظاهر اللفظ القرآني، ومما لا فائدة في معرفته مما أبهمه القرآن[٦].

---

(١) سورة الأعراف الآية (١٠٧).

(٢) جامع البيان ١٦/١٣، ١٧ دار المعارف.

(٣) تفسير ابن كثير ٢٣٦/٢، وانظر تفسير الطبري ٤٥/١٧، وعند تفسيره للآية (٣٤) من سورة ص.

(٤) سورة يوسف الآية (٢٠).

(٥) تفسير الطبري ١٧٤/١٢، وانظر ما قاله عند تفسيره الآية (٧٣) من سورة البقرة، والآية (١٢٧) من سورة البقرة، والآية (٢٤) من سورة يوسف، والآية (٦٩) من سورة الأحزاب.

(٦) انظر الإسرائيليات وأثرها في التفسير ص ٢٤٢، ٢٤٨.

اعتماده على التحليل اللغوي:

اعتمد ابن جرير الطبري على التحليل اللغوي للكلمة، وذكر أعراف العرب في استعمال الكلمات في مدلولاتها المختلفة، كما يذكر اشتقاقها وموقعها في الجملة وإعرابها، كما يذكر الروايات في شأنها ويرجح الراجح منها فمثلاً قال في تفسير قوله تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾[1]: «يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ﴾ وهي خالية من أهلها وسكانها، يقال من ذلك:

خوت الدار تخوى خواء وخويا، وقد يقال للقرية: خويت، والأول أعرب وأفصح، وأما في المرأة إذا كانت نفساء فإنه يقال: خويت تخوى خوى ـ منقوصا ـ وقد يقال فيها: خوت تخوى كما يقال في الدار.

وأما العروش: فإنها الأبنية والبيوت، واحدها عرش، وجمع قليله أعرش وكل بناء فإنه عرش، ويقال: عرش فلان يَعْرِش ويَعْرُش، وعرش تعريشا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾[2] يعني يبنون، ومنه قيل: عريش مكه، يُعنى به خيامها وأبنيتها[3].

استشهاده بالشعر:

يكثر الإمام الطبري من الاستشهاد بالشعر العربي الخالص عند بيان معاني الألفاظ القرآنية، فنراه يحتج به على ما يذهب إليه، أو عند ترجيحه لأحد الأقوال، كما يستدل به على لغة من لغات العرب، أو على ترجيح إعراب على آخر، وهو في ذلك يستشهد بالبيت والبيتين والثلاثة، وربما استشهد بالبيت الواحد في أكثر من موضع.

عنايته بالإعراب:

تعرض ابن جرير كثيراً لمذاهب النحويين من البصريين والكوفيين في

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٥٩).
(٢) سورة الأعراف الآية (١٣٧).
(٣) جامع البيان ٣/ ٣١.

النحو والصرف، وجعله نصب عينيه في بيان لمعنى كثير من الآيات وجعله أيضاً مقياساً للتصحيح والترجيح.

وكتابه مليء بالمسائل النحوية التي ناقش فيها أئمة النحو فيما ذهبوا إليه، فحلل وعلل وشرح.

وأهم ما يميز الطبري عن غيره من المفسرين أنه يعرض لآراء كل من البصريين والكوفيين بأمانة، ثم يحكم حكمه في المسألة بحسب ما يرتئيه، ليوفق بين الفريقين في غير تحيز لأنه ليس كوفياً ولا بصريا، وإنما هو إمام يصحح ويرجح ويحقق ويعلق، وهذا هو المنهج الصحيح لتفسير كتاب الله بأن يخضع الإعراب للتفسير لا أن يخضع التفسير للإعراب.

وله اجتهاداته لا يبالي معها بآراء النحويين الكبار ولا بمن نحا نحوهم.

ويستعين بالنحو في استخلاص الحكم الشرعي من الآيات، وفي مناقشة القضايا العقدية والتاريخية(١).

الفقه في تفسير ابن جرير:

ابن جرير كان إماماً مجتهداً، فقيها بالأصول والفروع، له مذهب يعرف به، وإن كان ينقل عن الشافعية كثيراً ويرتضي مذهبهم في الجملة.

وتفسيره جاء حافلاً بالآثار والأدلة الفقهية، ومناقشتها مناقشة علمية مبنية على أصول شرعية ولغوية، حيث يربط الحكم الشرعي بغيره من الأحكام المشابهة له، ويرده إلى أصله الذي يندرج تحته.

عقيدته:

ابن جرير الطبري من أئمة أهل السنة والجماعة، المتبعين منهج

(١) انظر ابن جرير الطبري ومنهجه في التفسير ٩٥.

وعقيدة السلف الصالح، في أنواع توحيد الله سبحانه، وبقية أصول الإيمان، وما يتبعه من مسائل، والصحابة والإمامة، وقد ألف كتابا في عقيدة أهل السنة والجماعة أسماه «صريح السنة» وهو مطبوع، أشار إليه ابن تيمية في الفتاوى واستشهد به[١] وأخذ منه اعتقاده اللالكائي في كتابه: أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة[٢] وله كتاب «التبصير في معالم الدين» أجاب فيه عن مسائل مهمة في الاعتقاد وقيام الحجة على الخلق مما يتعلق بالله وأسمائه وصفاته، ومعرفته الواجبة له، وأصول مسائل الافتراق بين فرق المسلمين وعدتها تسع، طبع في مجلد واحد بتحقيق علي الشبل سنة (١٤١٦هـ).

أما عقيدته في كتابه التفسير: فقد نصر مذهب السلف واحتج له ودافع عنه في غير ما صفة، فكان يحكي الأقوال ثم يرجح قول السلف وينتصر له ويدافع عنه. ولكنه في صفة الغضب والحياء ذكر أقوال المفسرين دون أن يرجح بينها رحمه الله وغفر له.

أهم ما يؤخذ على الكتاب:

- أنه ذكر في كتابه بعض الأقوال بعيدة الصلة عن الآية، فمثلاً عند قوله تعالى: ﴿وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا﴾[٣]، فقد ذكر في معنى المتكأ أقوالاً كثيرة مسندة إلى أصحابها، منها: يعني: مجلساً للطعام، وما يتكئن عليه من النمارق والوسائد، ومنها: الطعام، ومنها الأترج، ومنها البزماورد[٤] حيث ذكر ما يقرب من ثلاثين أثراً كلها مسندة.

- إيراده لبعض الآثار الضعيفة دون أن يقف عندها أو يمحصها.

---

(١) مجموع الفتاوى ١٨٧/١.
(٢) أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ١٨١/١ ـ ١٨٤.
(٣) سورة يوسف الآية (٣١).
(٤) هو الرقاق الملفوف مع اللحم، وقيل هو الطعام المعروف بلقمة القاضي، انظر تفسير الطبري حـ ١٢ ص ٢٠١.

- ❑ إيراده لبعض الأخبار الإسرائيلية دون أن يعقب عليها، وبخاصة الأخبار التي تتنافى مع عصمة الأنبياء عليهم السلام[١].

*** ثانياً: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير**

المـؤلـف:

هو عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، البُصْروي الأصل، الدمشقي النشأة والتربية والتعليم، الشافعي المذهب.

ولد بقرية «مَجْدِل» من أعمال «بُصْرى» بلد بالشام من أعمال دمشق في حدود سنة (٧٠٠هـ)، وقدم دمشق وله سبع سنين، وأخذ العلم عن شيوخها فحفظ القرآن الكريم، ودرس الحديث والفقه وأصوله، والنحو والتفسير والتاريخ فبرع في كل علم وألف فيه، ومن أبرز شيوخه الذين تلقى عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية المتوفى سنة (٧٢٨هـ) فقد لازمه وتخرج على يديه، وتأثر به واتبعه في كثير من آرائه، واستفاد منه ومن مؤلفاته ـ وخصوصاً التفسير ـ، كما تأثر به في عقيدته السلفية.

ومن أبرز تلاميذه: الزركشي، وابن الجزري، توفي ﷺ سنة (٧٧٤هـ).

مكانته العلمية وثناء العلماء عليه:

احتل الحافظ ابن كثير منزلة عالية في عدد من العلوم من أهمها: الحديث وعلومه، والتفسير، والتاريخ، والفقه.

قال عنه ابن حجر: «اشتغل بالحديث مطالعة في متونه ورجاله، وجمع التفسير، وشرع في كتاب كبير في الأحكام لم يكمل، وجمع

---

(١) انظر مثلا الآية (٣٧) من سورة الأحزاب حينما تحدث في أمر زينب بنت جحش وزيد بن حرثه وزعمه أن النبي ﷺ دخل على زينب ولم يكن زيد بالدار فأعجبته... وردها ابن كثير.

التاريخ الذي سماه البداية والنهاية» ثم قال: «ولم يكن على طريقة المحدثين في تحصيل العوالي وتمييز العالي من النازل، ونحو ذلك من فنونهم، وإنما هو من محدثي الفقهاء»[١].

وقال السيوطي: «له التفسير الذي لم يؤلف على نمطه مثله» ثم ذكر كلام ابن حجر السابق وأيده بقوله: «العمدة في علم الحديث معرفة صحيح الحديث وسقيمه، وعلله واختلاف رجاله جرحاً وتعديلاً، وأما العالي والنازل ونحو ذلك فهو من الفضلات لا من الأصول المهمة»[٢].

وقال العلامة العيني: «كان قدوة العلماء والحفاظ، وعمدة أهل المعاني والألفاظ، وسمع، وجمع، وصنف، ودَرَّس، وحدث، وألف، وكان له اطلاع عظيم في الحديث والتفسير والتاريخ»[٣].

ومن أهم مؤلفاته:

- ❑ تفسير القرآن العظيم.
- ❑ البداية والنهاية[٤] الذي يعد من أفضل وأوثق المراجع التاريخية.
- ❑ اختصار علوم الحديث ـ اختصر فيه مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث، وقام الأستاذ أحمد شاكر بشرحه باسم «الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث».
- ❑ الاجتهاد في طلب الجهاد، طبع بتحقيق د/ عبدالله عبدالرحيم العسيلان، (٢٣ صفحة).
- ❑ جامع المسانيد والسنن الهادي لأقوم سنن، جمع فيه بين مسند الإمام

(١) الدرر الكامنة ١/٤٤٥.
(٢) طبقات الحافظ ٥٣٠.
(٣) النجوم الزاهرة لابن تغري ١١/١٢٣.
(٤) انتزع من البداية والنهاية عدة كتب منها: قصص الأنبياء (في مجلد)، السيرة (في أربعة مجلدات)، شمائل الرسول ودلائل نبوته وفضائله وخصائصه (في مجلد)، وقد قام بانتزاعها وطبعها د. مصطفى عبدالواحد.

أحمد والبزار وأبي يعلى الموصلي والطبراني، مع الكتب الستة، وهو مطبوع في (٣٥) مجلداً ويظهر أنه لم يكمله.

- فضائل القرآن وغيرها.

التعريف بالتفسير(١):

يعتبر تفسير ابن كثير من أفضل التفاسير وأهمها، ومن أشهر ما دُوِّن في التفسير بالمأثور.

قال الشيخ أحمد شاكر ـ رحمه الله ـ: «وبعد: فإن تفسير الحافظ ابن كثير أحسنُ التفاسير التي رأينا وأجودُها وأدقها، بعد تفسير إمام المفسرين أبي جعفر الطبري، ولسنا نوازن بينهما وبين أي تفسيرٍ آخر مما بأيدينا، فما رأينا مثلهما، ولا ما يقاربهما»(٢).

وقد لقي هذا التفسير القبول لدى العلماء، فمنهم من حققه وصححه وعلق عليه، ومنهم من حاول طبعه طبعات جديدة مع تصحيح ما وقع في الطبعات القديمة من تحريف وسقط ونحو ذلك، ومنهم من اختصره.

ومن أهم طبعاته:

- طبعة دار إحياء الكتب العربية، وصور منها عدة مرات منها تصوير دار المعرفة، وهي في أربعة مجلدات، إلا أنها لم ترقم الآيات، وهي الأكثر انتشاراً بين الناس.
- طبعة دار الفكر بيروت في سبعة مجلدات.
- طبعة دار الشعب سنة (١٣٩٠هـ) بتحقيق عبدالعزيز غنيم، ومحمد أحمد عاشور، ومحمد إبراهيم البناء، في ثمانية مجلدات وتمتاز بضبط الأعلام وتخريج الكثير من النصوص.

---

(١) استفدت كثيراً في هذا الموضوع من رسالة الماجستير «منهج ابن كثير في التفسير» د/سليمان اللاحم.

(٢) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير «المقدمة».

❑ طبعة دار طيبة بالرياض سنة (١٤١٨هـ) بتحقيق سامي محمد سلامة في ثمانية مجلدات.

أما مختصراته:

١ - عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، اختصار وتحقيق الشيخ/أحمد محمد شاكر جمع فيه بين التحقيق والاختصار، والمحافظة على أصل الكتاب، من غير إخلال بمقاصد التفسير، إلا أنه رحمه الله لم يتمه فلم يخرج منه سوى خمسة أجزاء من أول التفسير حتى نهاية الكلام على قوله تعالى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾[1] وطبعت هذه الأجزاء في دار المعارف بمصر.

٢ - مختصر تفسير ابن كثير، اختصار الشيخ/محمد علي الصابوني، طبع في ثلاثة مجلدات، ويؤخذ عليه عدد من المآخذ منها:

❑ أنه ألزم نفسه بمقدمته بذكر الأحاديث الصحيحة، وحذف الضعيف منها، وما لم يثبت سنده مما نبه عليه ابن كثير، ولكنه لم يلتزم بذلك في المختصر، فأورد الأحاديث الضعيفة وبتر كلام ابن كثير عنها.

❑ أن الأحاديث التي لها صلة بالعقيدة، وبالأخص في إثبات الصفات كان يتجاوزها.

❑ عدم دقته في النقل، حتى إنه ربما يبتر القول مما يؤدي إلى تغيير معناه.

❑ التصرف بعبارات ابن كثير.

٣ - تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير: اختصار الأستاذ/ محمد نسيب الرفاعي، وطبع في أربعة مجلدات، ويعاب عليه:

❑ أنه لم يحافظ على ما جاء في التفسير من تفسير القرآن بالقرآن، الذي يعتبر الميزة الأولى لتفسير ابن كثير.

---

(١) سورة الأنفال الآية (٨).

- اكتفاؤه ببعض الأحاديث مع أن ما تركه صحيحاً، وكان عليه أن يحذف الأحاديث الضعيفة.
- إهماله لنسبة أقوال السلف من الصحابة والتابعين لهم، والتصرف اللفظي فيها.
- تصرفه بعبارات ابن كثير، وكان عليه المحافظة عليها وفاء بحقه واحتراماً لشخصيته.

وأقول: إن سلوك منهج الاختصار لا يعد اختصاراً بل اعتداء، ويخشى من التمادي به على كتب أسلافنا، فيجب أن نحترمها، وأن لا نسمح لأنفسنا بالنقص والزيادة عليها.

طريقة ابن كثير في تفسيره:

بدأ تفسيره بخطبة الكتاب فحمد الله تعالى وأثنى عليه، وبين أهمية تفسير معاني كلام الله وواجب العلماء نحو ذلك، ثم بين أحسن طرق التفسير ـ التي استفادها من شيخه ابن تيمية ـ وحُكم الأحاديث الإسرائيلية ثم تحدث عن بعض علوم القرآن بصورة مختصرة.

أما كلامه عن «فضائل القرآن» فكان له رأيان فيها:

الأول: أن يجعلها بعد التفسير اقتداء بالإمام البخاري، في جعله فضائل القرآن بعد التفسير، قال ابن كثير: «ذكر البخاري ـ يرحمه الله ـ كتاب فضائل القرآن بعد التفسير، لأن التفسير أهم فلهذا بدأ به، فجرينا على منواله وسننه مقتدين به»(١). ولهذا نجده في بعض الطبعات في نهاية التفسير.

الثاني: أن يجعلها في أول التفسير، حيث قال كما ورد في النسخة الخطية بمكتبة الحرم المكي: «وذكر البخاري ـ رحمه الله ـ كتاب فضائل القرآن بعد كتاب التفسير، لأن التفسير أهم فلهذا بدأ به، ونحن قدمنا الفضائل

(١) فضائل القرآن لابن كثير ٥.

قبل التفسير، وذكرنا فضائل كل سورة قبل تفسيرها، ليكون ذلك باعثاً على حفظ القرآن وفهمه والعمل بما فيه، والله المستعان»(١).

وهذا الرأي هو الذي ثبت عليه وهو الأخير له، ويدل له أنه في تفسيره دائماً يقول: وقد تقدم في فضائل القرآن(٢).

وقد طبع «فضائل القرآن» بمؤلف مستقل، وقد ذكر فيه ما ورد في كتاب البخاري «فضائل القرآن» من الأحاديث والآثار، أما أحاديث فضائل السور فقد ذكرها عند سورها في التفسير.

وطريقته في التفسير: أنه يذكر اسم السورة، ونزولها، وفضلها، ثم يذكر آية أو آيتين أو أكثر ـ حسب تعلق الآيات ببعضها ـ ويفسرها بعبارة سهلة موجزة، وإن أمكن توضيح الآية بآية أخرى ذكرها وقارن بين الآيتين حتى يتبين المراد، ثم يشرع بذكر الأحاديث والآثار عن الصحابة والتابعين مما له صلة بالآية.

منهجه في التفسير:

نهج ابن كثير في تفسيره المنهج الآتي:

ـ أولاً: تفسير القرآن بالقرآن:

اعتمد ابن كثير على هذه الطريقة في تفسيره اعتماداً كبيراً، واعتبرها هي أولى ما يُفسَّر به القرآن، ومنهجه في ذلك:

- ❑ أنه يذكر الآيات التي تدل على المعنى المراد أو تؤيده وتقويه.
- ❑ أنه يذكر الآيات التي تدور حول موضوع الآية المفسَّرة.
- ❑ أنه يذكر الآية أو الآيات التي تشبه الآية المفسَّرة أو نظيرة لها.

ويستعمل في ذلك كاف التشبيه ـ غالباً ـ، وهذه الطريقة التفسيرية

(١) تفسير ابن كثير النسخة الخطية بمكتبة الحرم المكي ١١.
(٢) انظر تفسيره لقوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ ص ٢٧.

تكاد تبرز عند كل آية، بل قد يستطرد ويستشهد ببعض الآيات حتى ولو كان بينها شيء قليل من التناسب، أو كان التشابه فيها من بعض الوجوه.

وهذه الطريقة هي **الميزة الأولى لهذه التفسير**، وتوسع فيها أكثر من غيره ممن سبقه من المفسرين، واستفاد منها من جاء بعده من المفسرين كالقاسمي في «محاسن التأويل»، والشنقيطي في «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن»(١).

ـ ثانيـاً: موقف ابن كثير من القراءات:

استعان ابن كثير في تفسيره بالقراءات، واهتم بها، ولكنه لم يكثر منها، واكتفى منها بالقدر الذي يساعد على فهم المعنى وإظهاره، ولذلك قال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾(٢): «وفي جبريل وميكائيل لغات وقراءات تذكر في كتب اللغة والقراءات، ولم نطول كتابنا هذا بسرد ذلك، إلا أن يدور فهم المعنى عليه، أو يرجع الحكم في ذلك إليه»(٣)، ومنهجه في إيرادها:

- ❏ حمل بعض القراءات على بعض، وتفسير بعضها ببعض.
- ❏ مناقشته لها ببيان الصحيح من غيره.
- ❏ بيانه ـ في الغالب ـ لمن أخذ بكل قراءة.

ومما يلاحظ عليه في القراءات:

- ❏ ذكره لبعض القراءات الشاذة دون التنبيه عليها(٤).
- ❏ ذكره لبعض القراءات دون أن ينبه على من قرأ بها.

---

(١) انظر منهج ابن كثير في التفسير للاحم ١٤٨، ومقدمة عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير لأحمد شاكر ٨/١، حيث اعتبرها الميزة الأولى لتفسير ابن كثير.

(٢) سورة البقرة الآية (٩٧).

(٣) تفسير ابن كثير ١٣٣/١.

(٤) انظر تفسيره للآية (١١٩) من سورة الأنعام.

ـ ثالثاً: تفسيره القرآن بالسنة:

عُرف ابن كثير بجمع الحديث ونقده وتخريجه، فهو الإمام المحدث الحافظ، فكان لمعرفته بالحديث وصحيحه من غيره أثره على تفسيره، ففاق في ذلك غيره من المفسرين.

لذا نجده اعتمد في تفسيره على أكثر كتب السنة من الصحاح والمسانيد والسنن والمعاجم... وغيرها، حتى شغلت مادة الحديث في تفسيره أكبر حيز، ويلاحظ أنه ينقل في بعض المواضع جل ما ورد فيه من الأحاديث.

ومنهجه في إيراده الأحاديث يتلخص بما يلي:

- حشده لأكبر قدر ممكن من الأحاديث في كثير من المناسبات، وقد يعقد عنواناً خاصاً لذكر الأحاديث الواردة حول الآية[١].
- اهتمامه بمناقشة الأسانيد والمتون، ببيان الصحيح والضعيف[٢].
- بيانه لأحوال كثير من الرواة، وبيان الثقة منهم من غيره[٣].
- ذكره لمن أخرج الأحاديث من أهل الصحاح والسنن والمسانيد.

ويؤخذ عليه عدم تنبيهه على بعض الأحاديث الضعيفة، وأكثر ما يورد ذلك في الفضائل وأحاديث الترغيب والترهيب مما قد يتسامح فيه.

ـ رابعاً: تفسيره القرآن بأقوال الصحابة والتابعين:

اهتم ابن كثير بأقوال الصحابة والتابعين، فأكثر من ذكر ما روي عنهم من الآثار في التفسير، ويحرص على ذكر أكبر عدد ممكن من الأقوال المروية عنهم، ومنهجه في ذلك:

- مناقشته أسانيدها ومتونها وبيان الصحيح من الضعيف منها[٤].

---

(١) انظر تفسيره ٢٧٩/١، ٢/٣، ٢٣، ١٢٣/٤.
(٢) انظر تفسيره ٣٠/١، ١٦١، ٥٣٤.
(٣) انظر تفسيره ٢٧٩/١، ٣٨٣، ٥٢١.
(٤) انظر تفسيره ١٢٧/١.

- محاولته التوفيق بين الأقوال بعضها مع بعض[١].
- بيان الراجح من غيره، معتمداً في ذلك على الدليل من الكتاب والسنة أو ظاهر الآية ونحو ذلك[٢].
- تركيزه الدائم في اختياراته وترجيحاته على أعم الأقوال وأشملها، وهذا يدل على دقته في التحري، واحترازه من الوقوع في الخطأ والقول بلا علم، كما أن فيه جمع شتات الأقوال والأخذ بها، واعتبارها جميعاً من غير اطراح لبعضها.
- توجيهه للأقوال توجيها حسناً، وحمله للأقوال التي يكون فيها احتمال على أطيب محمل[٣].

ومما يؤخذ عليه:

إيراده لبعض الآثار الضعيفة إما من جهة أسانيدها أو معناها.

ـ خامساً: موقفه من الإسرائيليات:

بين ابن كثير رأيه في الإسرائيليات في مقدمة تفسيره، حيث نقل نص عبارة شيخه ابن تيمية، فقال إنها على ثلاثة أقسام:

- ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق، فذلك صحيح.
- ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه.
- ما هو مسكوت عنه، لا من هذا القبيل، ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نكذبه، وتجوز حكايته[٤].

---

(١) انظر تفسيره ٢٨/١، ٣١١.
(٢) انظر تفسيره ١٨٥/١، ٢٨٤.
(٣) انظر تفسيره ٢٢/٢، ٢٥، ٢٦.
(٤) انظر تفسير ابن كثير ٤/١، ومقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ١٠٠.

كما أن له كلمات قوية في شأنها منتشرة في تفسيره تدل على تشدده تجاهها[١].

وعن تفسيره والأخبار الإسرائيلية فيه، فإننا نراه يسوق كثيراً منها فيه معتمداً على كثير من كتب التفسير والحديث والتاريخ، فلعله - رحمه الله - غلبه عند التطبيق ما وجد من الروايات في كثير من المواطن فأثبت طائفة منها.

ويتلخص موقفه منها بالآتي:

- أنه تارة يورد بعضاً منها ويحكم عليه بالنكارة والرد والكذب والافتراء[٢].
- أنه تارة يورد بعضاً منها ويحكم عليه بالتوقف بأن لا تصدق ولا تكذب مع جواز نقلها، وغالب ما يرويه في تفسيره من هذا القبيل[٣].
- أنه تارة ينبه على بعض الإسرائيليات التي وقع فيها بعض المفسرين دون أن يثبتها، وإنما يشير إليها فقط للتنبيه[٤].
- أنه تارة يذكر بعض الأخبار الإسرائيلية دون أن ينبه أو يعقب عليها[٥].

وكان عليه - إن كان لا بد من ذكرها - أن يبين عند كل رواية

(١) انظر تفسير الآية (١٩٠) من سورة الأعراف ٢٧٥/٢، وتفسير الآيات (٤ - ٨) من سورة الإسراء ٢٥/٣، وتفسير الآيات (٥١ - ٥٦) من سورة الأنبياء ١٨١/٣ - ١٨٢، وتفسير أول سورة ق، ٢٢١/٤.

(٢) انظر تفسير الآيتين (٢١، ٢٢) من سورة المائدة ٣٧/٢، ٣٨، والآيات (٩٢، ٩٦) من سورة الكهف ١٠٣/٣، ١٠٤، والآيات (٩٩ - ١١٣) من سورة الصافات ١٤/٤.

(٣) انظر تفسير الآية (٦٧) من سورة البقرة، ١١٠/١، والآية (١٤) من سورة سبأ، ٥٣/٣، والآية (١٢٥) من سورة النساء، ٥٥٩/١، ٥٦٠.

(٤) انظر تفسير الآية (١٤٣) من سورة الأعراف، ٢٤٥/٢، والآيات (٨٦ - ٩٦) من سورة الكهف، ١٠٤/٣.

(٥) انظر تفسير الآية (٧٨) من سورة النساء، ٥٢٦/١، والآية (١٧٥) من سورة الأعراف ٢٦٥/٢ - ٢٦٧.

المقبول منها والمردود والمتوقف فيه، أو على الأقل أن ينبه على أنها حكايات إسرائيلية لتكون خاضعة للمعيار الشرعي في الإسرائيليات.

ولا شك أن لابن كثير فضل كبير في التصدي لكثير من الإسرائيليات والتنبيه عليها، وبيان حكمها، وكشف عوارها، وبيان زيفها وبطلانها، وعدم الفائدة منها.

قال الدكتور محمد أبو شهبه: «وللإمام ابن كثير حاسيّة دقيقة، وملكة راسخة في نقد المرويات والتنبيه على منشئها ومصدرها، وكيف تدسست إلى الرواية الإسلامية، وقد تعقب ابنَ جرير ـ على جلالته وتقدمه ـ في بعض الإسرائيليات والموضوعات التي ذكرها في تفسيره، ولا عجب في هذا، فهو من مدرسة عرفت بحفظ الحديث، والعلم به رواية، ودراية، وأصالة النقد، والجمع بين المعقول والمنقول، وهي مدرسة شيخ الإسلام ابن تيمية وتلاميذه: ابن القيم، والذهبي، وابن كثير، وأمثالهم فجزاه الله على صنيعه هذا خير الجزاء»[(١)].

ـ سادساً: عنايته بالشرح الإجمالي للآيات:

امتاز تفسير ابن كثير بإيراده المعنى الإجمالي للآية أو جزء منها بأسلوبه وحسب فهمه وعبارته السهلة الموجزة، وهو في هذا يدمج معاني الألفاظ والمفردات في المعنى الإجمالي للآية ـ وهذا في غالب تفسيره ـ، ويعتمد في ذلك على ما ورد عن السلف غالباً، ولذا نجده بعد أن يذكر المعنى يتبعه بأقوالهم في الآية.

وهذه الطريقة امتاز بها ابن كثير بين كثير من المفسرين، فدلت على تعمقه في فهم معاني آيات القرآن، وجعلت تفسيره سهلاً ميسراً للناس، حيث جاء بأسلوب في غاية الوضوح، وفي متناول الجميع، فالعامي يدرك معاني القرآن من خلاله، والعالم يشبع رغبته بما فيه من علوم ومعارف. فلم يكن همه الاعتماد على الألفاظ والأساليب أكثر من المعنى، أو النزول

(١) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ١٢٩، ١٣٠.

بمستواه فيخل بقواعد اللغة ومصطلحاتها، بل إن أسلوبه جاء متوسطاً، فيه بغية العالم والمتعلم والعامي على حد سواء.

ـ سابعاً: الأحكام الفقهية في تفسير ابن كثير:

ابن كثير شافعي المذهب يعطي مذهبه اهتماماً كبيراً في تفسيره، ومع ذلك فقد اهتم بغيره من المذاهب، وخصوصاً المذاهب الثلاثة، إلا أنه مع هذا لا يتعصب لمذهبه فقد يخالفه في بعض أقواله ويصحح ويرجح قول غيره بالدليل، ولا غرو في ذلك فهو يعد من العلماء المجتهدين الذين ينظرون في الأدلة ويختارون من الأقوال ما ترجحه تلك الأدلة.

وفي عرضه للأحكام سلك منهجاً وسطاً فلم يسترسل في ذكرها وسرد أقوال الفقهاء واختلافاتهم(١)، ولم يهمل الكلام عليها والمقام يتطلبه(٢).

ويتلخص منهجه في عرض الأحكام والمسائل الفقهية بالنقاط التالية:

- أنه يذكر ما يستنبط من بعض الآيات من أحكام.
- أنه يذكر أقوال المجتهدين والفقهاء من الصحابة والتابعين وغيرهم، ويهتم بذكر المذاهب الأربعة.
- أنه ـ في الغالب ـ يناقش الأقوال، ويبين الصحيح من غيره دون تعصب لمذهبه.

قيمته العلمية:

يحتل تفسير ابن كثير منزلة عالية بين عامة المسلمين، ويعتبر مرجعاً

(١) كما في كتب التفسير التي عنيت بالجانب الفقهي: كتفسير القرطبي، وأحكام القرآن لابن العربي والجصاص والكيا الهراس.
(٢) كما في تفسير أبي السعود، والبحر المحيط.

مهماً في تفسير القرآن لدى طلاب العلم، وذلك يرجع إلى المميزات التي امتاز بها وجعلته بحق التفسير المثالي الذي يجد فيه دارس التفسير بغيته.

فمن أهم ما امتاز به:

- اختياره أحسن الطرق في تفسير القرآن، حيث اعتمد تفسير القرآن بالقرآن كمصدر أول للتفسير، وفاق غيره في هذا الجانب، ثم تفسير القرآن بالسنة، ثم بأقوال الصحابة والتابعين.
- تمسكه بعقيدة السلف الصالح في كلامه على آيات الأسماء والصفات بالأخص.
- اهتمامه بذكر أسانيد الأحاديث ونقدها، وبيان الصحيح منها والضعيف.
- نقده ـ غالباً ـ للإسرائيليات وتنبيهه على الكثير منها.
- عرض مادة تفسيره بأسلوب شيق سهل بعيد عن الحشو والإطالة، وافياً بالمقصود بأقصر عبارة وأوجزها.

ومما يلاحظ عليه:

- ذكره لبعض الآثار الضعيفة سنداً أو متناً.
- ذكره لبعض الأخبار الإسرائيلية دون تنبيه عليها.

عقيدة ابن كثير:

يعتبر الحافظ ابن كثير سلفي العقيدة، له رسالة قيمة سماها «العقائد» بين فيها عقيدته.

وفي تفسيره أثبت معظم الصفات على جهة الإجمال، وبعضها فسرها باللازم تبعاً لابن جرير كصفة الحياء والعين وغيرهما.

بين تفسير ابن جرير وتفسير ابن كثير:

لقد استفاد ابن كثير في تفسيره من تفسير ابن جرير الطبري ونقل منه

كثيراً وتأثر بطريقته، نظراً لمكانة تفسير ابن جرير بين العلماء عامة والمفسرين خاصة، ولكون تفسيره هو عمدة التفاسير بالمأثور، ومنهج ابن كثير البحث عن المأثور ممن يسند ويتحرى الدقة في النقل والبحث عن الصحيح، ومن هنا أكثر النقل منه والاعتماد عليه مما جعل بعض الباحثين يَعُدُّ تفسير ابن كثير اختصاراً لتفسير ابن جرير.

والحقيقة: وإن كان ابن كثير نقل عن ابن جرير أكثر مما نقل عن غيره، فإن له طريقته الخاصة وأسلوبه المتميز الذي جعل كتابه يختلف عن تفسير ابن جرير، وبالنظر فيهما نجد أن بينهما فروقاً واضحة منها:

- ❑ اهتمام ابن كثير في تفسير القرآن بالقرآن أكثر من ابن جرير، فصار عمدة المفسرين بهذا الباب.
- ❑ إقلال ابن كثير من ذكر الأحاديث الضعيفة، وإن أوردها فإنه يناقشها ويبين ضعفها في كثير من المواضع، بينما ابن جرير يورد الأحاديث الضعيفة دون أن يناقشها أو يضعفها في الغالب.
- ❑ اهتمام ابن كثير بالأحاديث النبوية عند المقارنة بين التفسيرين فنجد أن ابن كثير أكثر استشهاداً واستدلالاً بالأحاديث النبوية من ابن جرير.
- ❑ اقلال ابن كثير من ذكر الإسرائيليات، ويتعقبها في الغالب ببيان ضعفها وتوهينها، أما ابن جرير فإنه يذكر الكثير من الإسرائيليات دون أن يعقب عليها في الغالب.
- ❑ سهولة أسلوب ابن كثير ويسره في نظر العامة والخاصة، أما ابن جرير فكان أسلوبه رفيعاً قد يستعصي فهم عبارته وكلامه على أوساط الناس.
- ❑ نقل ابن كثير ـ من غير تفسير الطبري ـ من كتب كثيرة وفي مختلف العلوم وهذا غير متوفر في تفسير ابن جرير، وقد بلغت ما يقرب من (٢١٧) كتاب.

فمن كتب التفسير: تفسير ابن أبي حاتم، وابن مردوية، والقرطبي، والرازي، والزمخشري، والبغوي،... وغيرهم.

ومن كتب الحديث: الكتب الستة، وكثير من المسانيد والصحاح والسنن.

كما نقل عن كثير من الكتب في سائر الفنون في علوم القرآن، وعلوم الحديث، وكتب اللغة، والعقائد، والأحكام، والتاريخ، والأدب وغيرها.

❏ أن هناك آيات كثيرة لم ينقل في تفسيرها ابن كثير عن ابن جرير.

ومن هنا **كيف نقول والحال هذه أن تفسير ابن كثير مختصر لتفسير ابن جرير**، بل إن كلاً من الكتابين له منهجه وأسلوبه وطريقته ولا يغني أحدهما عن الآخر.

*** ثالثاً: الدر المنثور في التفسير بالمأثور:**

المـؤلـف:

اسمه ومولده: هو جلال الدين أبو الفضل عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد الخضيري السيوطي[1].

ولد في مدينة القاهرة سنة (٨٤٩هـ).

نـشـأتـه وعـلـمـه:

نشأ السيوطي نشأة علمية فقد كان أجداده أهل علم ورئاسة، وأبوه من فقهاء الشافعية، وقد توفي والده وعمره خمس سنوات وسبعة أشهر، وقد وصل في قراءة القرآن إلى سورة التحريم، وقد هيأ الله له أحد العلماء وهو الكمال بن الهُمَام الحنفي ـ صاحب فتح القدير ـ فأولاه عنايته، فختم القرآن وحفظ كثيراً من المتون، وأخذ من شيوخ آخرين أوصلهم الداودي إلى واحد وخمسين شيخاً، وقد بلغ درجة الإفتاء والتدريس في سن مبكرة، وكان صاحب فنون وإماماً في كثير من العلوم، قال عن نفسه: «ورزقت التبحر في

(١) السيوطي أو الأسيوطي: نسبة إلى «أسيوط» مدينة تقع غربي النيل من نواحي صعيد مصر، وترجع نسبته إليها: إلى أن والده ولد بها فنسب الجلال إليها.

سبعة علوم: التفسير، والحديث، والفقه، والنحو، والمعاني، والبيان، والبديع، على طريقة العرب والبلغاء، لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة»[(١)].

ولا أدل على ذلك ما خلفه من مؤلفات في كل علم، أوصلها تلميذه الداودي إلى خمسمائة مؤلف.

وأبرز ما ألفه في التفسير وعلوم القرآن:

❏ ترجمان القرآن.

❏ الدر المنثور في التفسير بالمأثور.

❏ مجمع البحرين ومطلع البدرين.

❏ الإتقان في علوم القرآن.

❏ لباب النقول في أسباب النزول.

❏ معترك الأقران في إعجاز القرآن.

❏ مفحمات الأقران في مبهمات القرآن.

❏ التحبير في علم التفسير.

❏ الإكليل في استنباط التنزيل.

❏ النصف الأخير من تفسير الجلالين.

ومن مؤلفاته في العلوم الأخرى:

❏ تنوير الحوالك في شرح موطأ مالك.

❏ تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي.

❏ الأشباه والنظائر في فروع الشافعية.

❏ الأشباه والنظائر في العربية.

---

(١) حسن المحاضرة ٣٣٨/١ ـ ٣٣٩.

- ❑ همع الهوامع في النحو.
- ❑ حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة.
- ❑ طبقات المفسرين.
- ❑ طبقات الحفاظ[(١)].

وفـــاتـــه:

توفي جلال الدين السيوطي سنة (٩١١هـ) في القاهرة.

التفسير:

التعريف به: يعد كتاب السيوطي «الدر المنثور في التفسير بالمأثور» اختصاراً من السيوطي نفسه لكتابه الكبير «ترجمان القرآن»[(٢)]، ويقول في مقدمة «الدر المنثور»: «وبعد فلما ألفت كتاب «ترجمان القرآن» وهو التفسير المسند عن رسول الله ﷺ، وتم بحمد الله في مجلدات، فكان ما أوردته فيه من الآثار بأسانيد الكتب المخرجة منها واردات[(٣)]، رأيت قصور أكثر الهمم عن تحصيله ورغبتهم في الاقتصار على متون الأحاديث دون الإسناد وتطويله، فلخصت منه هذا المختصر مقتصراً فيه على متن الأثر، مصدراً بالعزو والتخريج إلى كل كتاب معتبر، وسميته: «الدر المنثور في التفسير بالمأثور»[(٤)].

وطبع عدة طبعات: منها طبعة في ستة مجلدات، وطبعة أخرى في ثمانية مجلدات.

---

(١) انظر مؤلفاته في كتابه: حسن المحاضرة ٣٣٩/١ ـ ٣٤٠، وكتاب آثار السيوطي جمع وترتيب عدنان محمد سالم، وكتاب دليل مخطوطات السيوطي وأماكن وجودها، تحقيق: أحمد الخاز ندار ومحمد الشيباني.

(٢) وهو كتاب في التفسير بالمأثور جمع فيه بضعة عشر ألف حديث ما بين مرفوع وموقوف بأسانيدها، وقال عنه: إنه وضعه في أربعة مجلدات، انظر الإتقان ٢٢٢/٤ (النوع الثامن والسبعون).

(٣) أي: طرقاً كثيرة.

(٤) الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٩/١.

منهجه في تفسيره:

يعد كتاب «الدر المنثور» أحد كتب التفسير التي اقتصرت على التفسير بالمأثور فقط، فكل ما فيه هو سرد للروايات عن النبي ﷺ وعن الصحابة، والتابعين في التفسير، دون أن يعقب عليها بكلمة مُفَسِّرة، أو جملة شارحة، أو تصحيح، أو تضعيف، أو تعديل، أو تجريح.

ويمكن تلخيص منهجه بالآتي:

- ❑ أنه ذكر الروايات المأثورة عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين مجردة من أسانيدها.
- ❑ أنه ذكر من خرجها من الأئمة في كتبهم ويذكرها بأسمائها إذا كانت غير مشتهرة أو فيها لبس بكتاب آخر، وقد لا يشير إليها إذا كانت مشتهرة.
- ❑ أنه لم يبين الصحيح من الضعيف، أو درجة المروي من حيث القبول وعدمه، فجاء كتابه مشتملاً على أحاديث صحيحة وحسنة وضعيفة.
- ❑ أنه لم يعمل رأيه في التفسير، فلم يختر قولاً، أو يضعف آخر، أو يأتي بقول جديد.
- ❑ أنه لم يخل من الروايات والأخبار الإسرائيلية، ولا سيما في قصص الأنبياء، وذلك مثل: ما ذكره في قصة هاروت وماروت، وفي قصة الذبيح وأنه إسحاق، وفي بلاء أيوب عليه السلام، ومعظمه مما لا يصح ولا يثبت.

مصادر تفسيره:

استقى السيوطي الآثار التي أوردها في تفسيره من مصادر كثيرة وبخاصة من كتب السنة والتفسير، ومن أبرزها:

- ❑ صحيح البخاري.
- ❑ صحيح مسلم.

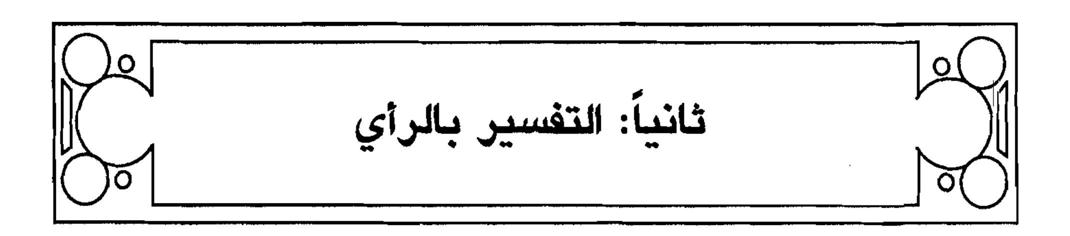
- موطأ مالك.
- مسند أحمد.
- سنن النسائي، والترمذي، وأبي داوود، وابن ماجه.
- المستدرك للحاكم.
- السنن الكبرى للبيهقي، والأسماء والصفات له.
- معجم الطبراني.
- دلائل النبوة للبيهقي، وأبي نعيم.
- المصنف لابن أبي شيبة.

ومن كتب التفسير:

- جامع البيان لابن جرير الطبري.
- تفسير عبد بن حميد.
- تفسير ابن أبي حاتم.
- الكشف والبيان للثعلبي.
- تفسير الفريابي.
- تفسير ابن المنذر.
- المصاحف لابن أبي داوود، وابن الأنبا ري.
- تفسير وكيع.
- فضائل القرآن لأبي عبيد.
- أسباب النزول للواحدي.

وغيرها كثير.

❀ ❀ ❀



ثانياً: التفسير بالرأي

المراد بالرأي:

يطلق الرأي ويراد به عدة معان منها: الاجتهاد، والقياس، والاستنباط، والعقل، والدراية.

والتفسير بالرأي: هو تفسير القرآن الكريم بالاجتهاد، والاستنباط.

أنواع التفسير بالرأي:

يمكن تقسيم التفسير بالرأي إلى قسمين:

ـ الأول: التفسير بالرأي المحمود:

وهو التفسير المبني على أصول صحيحة وقواعد سليمة متبعة، وكان موافقاً لغرض الشارع، بعيداً عن الجهالة والضلالة، متمشياً مع قواعد اللغة العربية، معتمداً على أساليبها في فهم النصوص القرآنية، وتوافرت للمفسر الشروط الواجب توافرها فيه وهي ثلاثة:

❑ شروط علمية:

بأن يكون عالماً بأحكام الشريعة من العبادات والمعاملات والسنن الواردة فيها، مطلعاً على أقوال المفسرين من السلف والخلف فاقهاً لمعانيها.

وقد صنف العلماء العلوم التي يحتاجها المفسر، وجعلوها شرطاً لازماً للمفسر، ومنها: القرآن وعلومه، والحديث وعلومه، وأصول الدين وهو علم

التوحيد، واللغة العربية وآدابها، والفقه وأصوله، والعلم بسيرة النبي ﷺ وأصحابه وما كان عليه الناس في عصر النبوة من العرب وغيرهم.

❑ شروط عقلية:

ويقصد بها قدرة المفسر الذهنية الذاتية، إذ يجب أن يكون ذكياً، موهوباً، قوي الاستدلال، حسن الاستنباط ـ قادراً على الترجيح إن تعارضت الأدلة.

❑ شروط دينية وخلقية:

ويقصد بها أن يكون صحيح المعتقد، متجرداً عن الهوى، لازماً طريق الهدى، بعيداً عن البدع والضلالات، وأن يكون مخلصاً في طلبه لله ﷻ، ويكون متصلاً بكتاب الله اتصالا وثيقاً في ليله ونهاره، وأن يكون ورعاً في دينه متقياً الله مراقباً له فيما أمره ونهاه، قال ﷻ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾[1].

فهذه شروط عامة، وإن كان يلزم في بعض الآيات ما لا يلزم في غيرها، ويلزم بعض الناس ما لا يلزم الآخرين، كالصحابة مثلا فالذي يلزمهم مثلا معرفة التفسير النبوي للآيات، ومعرفة أسباب النزول... والتابعين يلزمهم أيضاً معرفة تفسير الصحابة... وهكذا.

وقد اختلف العلماء في القول والعمل بالتفسير بالرأي عموماً، ولكل أدلته أسوقها هنا بإيجاز، ثم أوجه بينها:

الأدلة على جواز تفسير القرآن بالرأي المحمود:

دلت النصوص من القرآن والسنة وفعل الصحابة على جواز تفسير القرآن بالرأي المحمود:

❑ فمن القرآن قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ

(١) سورة البقرة الآية (٢٨٢).

(٢) سورة محمد الآية (٢٤).

﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾[1]، فقد حث ﷻ على تدبر القرآن، بل وبخ الذين لا يتدبرونه.

- ومن السنة دعاء النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما بقوله: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» فلو كان التأويل مقصوراً على السماع والنقل لما كانت فائدة في تخصيص ابن عباس بهذا الدعاء[2].

- ومن فعل الصحابة، فقد ثبت أنهم فسروا القرآن واختلفوا في تفسيره، ومعلوم أنهم لم يسمعوا كل ما قالوه في تفسير القرآن من النبي ﷺ، بل توصلوا إلى معرفة البعض بعقولهم، ومن هؤلاء: الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وأبي بن كعب، وابن عباس رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

- كما ورد تفسير القرآن عن كثير من خيار التابعين، كسعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة، وعكرمة، والحسن البصري، رحمهم الله وغيرهم.

الأدلة التي يدل ظاهرها على عدم جواز التفسير بالرأي:

استدل بعض العلماء ممن يرى عدم جواز تفسير القرآن بالرأي بعدة أدله من أهمها:

- ما ورد في السنة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا الحديث عني إلا ما علمتم، فمن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار، ومن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار»[3] قال الترمذي: حديث حسن.

---

(١) سورة ص الآية (٢٩).

(٢) انظر: الموافقات ٤٢١/٣، والتفسير والمفسرون ٢٦٢/١، والإسرائيليات والموضوعات لأبي شهبة ٨٠، وعلوم القرآن الكريم لنور الدين عتر ٨٦.

(٣) الحديث أخرجه الترمذي في سننه ١٩٩/٥، في كتاب: تفسير القرآن، باب: ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه.

وما ورد في حديث جُنْدُبَ بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»[١].

❑ ما روي عن السلف الصالح من الصحابة فمن بعدهم من التحرج من الكلام في تفسير القرآن ومن ذلك:

ما رواه ابن جرير الطبري عن أبي معمر قال: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «أي أرض تقلني وأيُ سماء تظلني، إذا قلت في القرآن برأيي أو بما لا أعلم»[٢].

ما ورد عن سعيد بن المسيب أنه كان إذا سئل عن شيء من القرآن قال: «أنا لا أقول في القرآن شيئاً»[٣].

وورد عن يزيد بن أبي يزيد قال: كنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحلال والحرام، وكان أعلم الناس، وإذا سألناه عن تفسير آية من القرآن سكت، كأن لم يسمع[٤].

ما رواه الطبري عن الشعبي أنه قال: «ثلاث لا أقول فيهن حتى أموت: القرآن، والروح، والرأي»[٥].

ما رواه أبو عبيد عن محمد بن سيرين قال سألت عَبيدة السلماني ـ تابعي جليل ـ عن شيء من القرآن، فقال: «اتق الله وعليك بالسداد، فقد ذهب الذين يعلمون فيما أُنزل القرآن»[٦].

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في سننه ٥/٢٠٠، في كتاب: تفسير القرآن، باب: ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه.
(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في جامع البيان ١/٣٥.
(٣) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ٢٢٨، والطبري في جامع البيان ١/٣٧.
(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان ١/٣٨.
(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان ١/٣٨.
(٦) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ٢٢٨، والطبري في جامع البيان ١/٣٨.

التـوجيـه:

أقول إن هذه الآثار وأمثالها الدالة على عدم جواز التفسير بالرأي تحمل على:

- ☐ من قال برأيه فيما لا يُعلم إلا عن طريق النقل.
- ☐ أو أن يقول في القرآن بمجرد رأيه، فيجعل الرأيَ أصلاً والقرآنَ تبعاً.
- ☐ أو الذي يفسر القرآن دون أهلية له.

ويحمل من أحجم من السلف عن التفسير بالرأي على ما يأتي:

- ☐ إما على أن ذلك ورعاً واحتياطاً لأنفسهم.
- ☐ أو أن إحجامهم كان مقيداً بما لم يعرفوا وجه الصواب فيه.
- ☐ أو أن الإجابة غير متعينة عليهم لوجود من يقوم عنهم في تفسير القرآن وإجابة السائل(١).

وشبه ابن جرير الطبري من أحجم عن القول في تفسير القرآن بمن أحجم عن الفتيا في النوازل والحوادث، مع علمه بكمال الدين، وأن لكل نازلة وحادثة حكما موجوداً، فالإحجام عن الفتيا هو إحجام خائف أن لا يبلغ في اجتهاده ما كلف به العلماء، والإحجام عن التفسير إنما هو الحذر في عدم صواب القول فيه، لا أن تأويل ذلك محجوب عنه(٢).

قال ابن جرير الطبري: «وأما الأخبار التي ذكرناها عمن ذكرناها عنه، من التابعين بإحجامه عن التأويل، فإنّ فِعْل مَنْ فَعَلَ ذلك منهم، كفِعْلِ من أحجم منهم عن الفتيا في النوازل والحوادث، مع إقراره بأن لله جل ثناؤه لم يقبض نبيه إليه، إلا بعد إكمال الدين به لعباده، وعلمه بأن لله في كل نازلة وحادثة حكماً موجوداً، بنص أو دلالة، فلم يكن إحجامه عن القول في ذلك إحجام جاحد أن يكون لله فيه حكم موجود بين أظهر

(١) انظر: التفسير والمفسرون ٢٦١/١.

(٢) انظر: جامع البيان ٣٩/١.

عباده، ولكن إحجام خائف، أن لا يبلغ في اجتهاده، ما كلف الله العلماء من عباده فيه، فكذلك معنى إحجام من أحجم عن القيل في تأويل القرآن وتفسيره من العلماء السلف، إنما كان إحجامه عنه حذار أن لا يبلغ أداء ما كلف من إصابة صواب القول فيه، لا على أن تأويل ذلك محجوب عن علماء الأمة غير موجود بين أظهرهم»[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف، محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً فلا حرج عليه، ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوالاً في التفسير، ولا منافاة، لأنهم تكلموا فيما علموه، وسكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل أحد، فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه، لقوله تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾[٢]، ولما جاء في الحديث المروي من طرق: «من سئل عن علم فكتمه أُلجم يوم القيامة بلجام من نار»[٣][٤].

ـ الثاني: التفسير بالرأي المذموم:

وهو التفسير المبني على الرأي المجرد ويمكن تنويعه إلى أنواع هي:

- ❑ تفسير القرآن من غير أهلية له بالعلوم التي لا بد منها للمفسر.
- ❑ تفسير القرآن بالهوى والاستحسان.
- ❑ تفسير القرآن بقصد مذهب المفسر الفاسد، ورأيه الباطل.

---

(١) جامع البيان ٣٩/١.

(٢) سورة آل عمران الآية (١٨٧).

(٣) أخرجه بهذا اللفظ الطبراني في الكبير والأوسط، وأخرجه الترمذي ـ وحسنه ـ، وأبو داوود بلفظ مقارب، انظر: سنن الترمذي ٢٩/٥، في كتاب: العلم، باب: ما جاء في كتمان العلم، وسنن أبي داوود ٣٤٥/٢، في كتاب: العلم، باب: كراهية منع العلم.

(٤) مقدمة في أصول التفسير ١١٤، وقد أورده بنصه ابن كثير في مقدمة تفسيره ٦/١.

❑ تفسير المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله[١].

وأكثر الذين تناولوا التفسير بهذا المفهوم كانوا من أهل البدع الذين اعتقدوا مذاهب باطلة، وعمدوا إلى القرآن فتأولوه على رأيهم، وليس لهم سَلَفٌ من الصحابة والتابعين لا في رأيهم ولا في تفسيرهم.

وهو الذي يرمي إليه ابن مسعود رضي الله عنه بقوله: «إنكم ستجدون أقواماً يزعمون أنهم يدعونكم إلى كتاب الله، وقد نبذوه وراء ظهورهم، فعليكم بالعلم، وإياكم والتبدع، وإياكم والتنطع»[٢]، وعمر بن الخطاب بقوله: «إنما أخاف عليكم رجلين: رجل يتأول القرآن على غير تأويله، ورجل ينافس المُلْك على أخيه»[٣]، وقوله: «ما أخاف على هذه الأمة من مؤمن ينهاه إيمانه، ولا من فاسق بَيِّن فسقه، ولكني أخاف عليها رجلاً قد قرأ القرآن حتى أذلقه بلسانه، ثم تأوله على غير تأويله»[٤].

فكل هذا ونحوه، وارد في حق من لا يراعي في تفسير القرآن قواعد اللغة ولا أدلة الشريعة، جاعلاً هواه رائده، ومذهبه قائده[٥].

الحكم على التفسير بأنه مذموم:

لاشك أن التفسير متى ما خالف الأصول المتفق عليها مذموماً، وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية إلى فئتين من المفسرين يمكن أن تكون تفاسيرهم مذمومة:

الأول: مفسرون اعتقدوا معاني، ثم أرادوا حمل ألفاظ القرآن عليها ومن هؤلاء طوائف من أهل البدع ـ اعتقدوا مذهباً، وعمدوا إلى القرآن فتأولوه على آرائهم إما أن يستدلوا بالآيات على مذهبهم ولا دلالة فيها،

---

(١) انظر: الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ٨٢.
(٢) أخرجه الدارمي في سننه ١/٥٠، باب: من هاب الفتيا وكره التنطع.
(٣) ذكره القاسمي في محاسن التأويل ١/١٨٤.
(٤) ذكره الذهبي في التفسير والمفسرون ١/٢٦٤.
(٥) انظر: التفسير والمفسرون ١/٢٦٤.

أو يتأولون ما يخالف مذهبهم ـ أمثال: فرق الخوارج، والروافض، والجهمية، والمعتزلة، والمتصوفة، والقدرية، والمرجئة، وغيرهم[(١)].

الثاني: مفسرون فسروا القرآن ـ بمجرد ما يُسَوِّغ أن يريده من كان من الناطقين بلغة العرب بكلامه ـ من غير نظر إلى المتكلم بالقرآن، والمنزل عليه، والمخاطب به[(٢)]، ومناسباته، وأسباب نزوله...

فهذان الصنفان متى ما فسروا القرآن بهذا المفهوم أمكن أن نطلق على تفسيرهم مذموماً.

وينبغي أن يلاحظ أن الحكم على تفسير ما بأنه مذموم، فإن هذا لا يعني أن كل تفسيره مذموم، بل فيه ما يوافق الحق.

---

(١) من تفاسير الخوارج من الاباضية:
١- تفسير هود من مُحَكَّم الهُوَّاري ـ من علماء القرن الثالث، وهو من تفاسير الاباضية مطبوع في أربعة مجلدات.
٢- هميان الزاد إلى دار المعاد، لمحمد بن يوسف أطفيش المتوفى سنة (١٣٣٢هـ)، مطبوع في ثلاثة عشر مجلداً. ومن تفاسير الإمامية الاثني عشرية: ١- تفسير الحسن العسكري المتوفى سنة (٢٦٠هـ)، مطبوع في مجلد صغير (٢٨٦) صفحة، وهو منسوب للحسن العسكري، ولم يكمل وإنما يتناول الفاتحة وسورة البقرة إلى قبيل خاتمتها بأربع آيات.
٢- مجمع البيان للطبرسي الفضل بن الحسن المتوفى سنة (٥٣٨هـ)، مطبوع.
٣- التبيان في تفسير القرآن للطوسي أبو جعفر محمد بن الحسن، طبع بالنجف سنة (١٣٧٦هـ).
ومن تفاسير المعتزلة: ١- تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبدالجبار الهمداني ـ شيخ المعتزلة، المتوفى سنة (٤١٥هـ)، وهو مطبوع في مجلد كبير.
٢- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري المتوفى سنة (٥٣٨هـ)، وهو مطبوع في أربعة مجلدات.
ومن تفاسير المتصوفة:
١- تفسير القرآن العظيم، لسهل بن عبدالله التستري، المتوفى سنة (٢٨٣هـ أو ٢٧٣هـ)، وهو مطبوع في مجلد صغير. ٢-حقائق التفسير لأبي عبدالرحمن بن الحسين السلمي، المتوفى سنة (٤١٢هـ) مخطوط.

(٢) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ٨١.

المنحى المذهبي والتخصصي في التفسير بالرأي:

سبق أن بينا في موضوع التفسير في عصور التدوين، وأنه بعد أن توسع التفسير واختلط فيه الفهم العقلي بالتفسير النقلي برزت تفاسير تهتم بالفن الذي برع فيه مؤلفه، فظهرت تفاسير اهتمت بالجانب الفقهي، وتفاسير بالجانب اللغوي، وتفاسير بالجانب الشامل الموسوعي... وغيرها.

وسنذكر هنا نماذج من تفاسير كل جانب:

* أولاً: التفسير الفقهي:

نعني بالتفسير الفقهي أو تفسير آيات الأحكام: التفسير الذي يجمع آيات الأحكام الشرعية من القرآن الكريم ويفسرها في كتاب مستقل.

وقد كثرت المؤلفات فيه وتنوعت بتنوع المذاهب الفقهية والعقدية.

فمن التفاسير على المذهب الحنفي:

- ❑ أحكام القرآن، للجصاص.
- ❑ أحكام القرآن، لأبي جعفر الطحاوي الحنفي.

ومن التفاسير على المذهب الشافعي:

- ❑ أحكام القرآن، للشافعي جمع وترتيب البيهقي.
- ❑ أحكام القرآن، للكيا الهراسي.
- ❑ القول الوجيز في أحكام الكتاب العزيز، للسمين الحلبي.

ومن التفاسير على المذهب المالكي:

- ❑ أحكام القرآن، لأحمد بن علي الباغائي.
- ❑ أحكام القرآن، لأبي بكر بن العربي.
- ❑ أحكام القرآن، لعبدالمنعم بن الفرس.
- ❑ الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبدالله محمد بن أحمد القرطبي.

ومن التفاسير على المذهب الحنبلي:

- أحكام القرآن، لأبي يعلى محمد بن الحسين بن الفراء البغدادي شيخ الحنابلة، المتوفى سنة (٤٥٨هـ).

ومن تفاسير الزيدية:

- الثمرات اليانعة والأحكام الواضحة القاطعة، للثلائي الزيدي.

ومن تفاسير الإمامية:

- كنز العرفان في فقه القرآن، للمقداد بن عبدالله السيوري، المتوفى سنة (٨٢٩هـ).
- قلائد الدرر في بيان آيات الأحكام بالأثر، لأحمد بن إسماعيل الجزائري، المتوفى سنة (١١٥٠هـ).

ومن تفاسير الإباضية:

- «الدراية وكنز الغناية في منتهى الغاية وبلوغ الكفاية في تفسير خمسمائة آية»، لمحمد الحواري العُماني الإباضي، أحد علماء القرن الثالث والرابع الهجريين.

دراسة عن بعض التفاسير الفقهية:

ـ أولاً: أحكام القرآن للشافعي جمع البيهقي:

ألّف هذا الكتاب الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، المتوفى سنة (٤٥٨هـ)، حيث جمع فيه نصوص الإمام محمد بن إدريس الشافعي المتوفى سنة (٢٠٤هـ)، فتتبعها غاية التتبع من كتبه وكتب أصحابه ونقلها كما هي، مع توضيحها والاستدلال عليها بالسنة المطهرة.

وقد بدأ كتابه بذكر عدة فصول وضح فيها رأي الإمام الشافعي في عدد من مسائل أصول الفقه، ثم ذكر فصلاً صغيراً فيما يؤثر عن الإمام

الشافعي في تفسير بعض آيات متفرقة من كتاب الله، ثم أخذ في بيان أحكام القرآن ورتبها حسب أبواب الفقه مبتدئاً بالطهارات ثم الصلوات، ثم الزكاة... وهكذا.

ويمتاز بإبراز آراء الإمام الشافعي في كثير من الأحكام بصورة مجملة مختصرة، لذا فهو يعد من المراجع المهمة في معرفة مذهب الشافعي في كثير من الأحكام.

ولمّا كان البيهقي جامعاً فقط فقد خلا كتابه من مسائل الخلاف واجتهادات العلماء[١].

طبع في جزأين بمجلد واحد بتحقيق عبدالغني عبدالخالق.

- ثانياً: أحكام القرآن للجصاص:

المـؤلـف:

هو أحمد بن علي الرازي المشهور بـ: «الجصاص»[٢] الإمام العلامة المفتي المجتهد، عالم العراق، الحنفي[٣] المذهب، وقد ترك عدة مؤلفات غلب عليها شرح كتب الفقه الحنفي، مثل: شرح الجامع الكبير والصغير لمحمد بن الحسن الشيباني.

وقد عده بعض المترجمين له من إحدى طبقات المعتزلة[٤]، وبعض ثان قال: إنه يميل إلى الاعتزال[٥]، وبعض ثالث سكت فلم يذكر أنه من المعتزلة، وفي كتابه «أحكام القرآن» وجدت أن له بعض الآراء يميل فيها

---

(١) انظر: تفاسير آيات الأحكام ١/١٩٩.

(٢) الجصاص: نسبة إلى العمل بالجص.

(٣) سير أعلام النبلاء ١٦/٣٤٠.

(٤) كالحاكم الجشَمي، والقاضي عبدالجبار، انظر: فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة للبلخي، وفرق وطبقات المعتزلة للقاضي عبدالجبار ١٢٥.

(٥) ذكر ذلك الذهبي في سير أعلام النبلاء ١٦/٣٤١، والدكتور الذهبي في التفسير والمفسرون ٢/٤٤١.

إلى ما تذهب إليه المعتزلة[١] وربما عن طريقها نسب إلى الاعتزال، توفي الجصاص سنة (٣٧٠هـ).

الكتاب:

ألف هذا الكتاب الجصاص في بيان آيات الأحكام على مذهب الحنفية، وقد وضع له مقدمة طويلة ضمنها عدداً من المباحث الأصولية، وأتى هذا الكتاب تطبيقاً لما ورد فيها، وقد طبع منفصلاً عنها في ثلاثة مجلدات، أما المقدمة وهي كتاب «أصول الفقه» أو «الفصول في الأصول» فلم تطبع بعد.

وهذا الكتاب رتبه حسب ترتيب المصحف، فيذكر الآية أو الآيات ذات الموضوع ويبوبها كتبويب الكتب الفقهية، ويضع لكل باب عنوانا تندرج تحته المسائل والأحكام التي يتعرض لها.

ويمكن تلخيص منهجه فيه بالآتي:

- بيانه لمعاني آية الباب، بشرح المفردات اللغوية والاستشهاد عليها من المنثور والمنظوم[٢].
- ذكره لخلاف السلف والفقهاء فيما يستنبط من الآيات من الأحكام، وبيانه الأدلة على ما اتفقوا عليه، وما اختلفوا به، ويتوسع في الاستدلال لرأي أبي حنيفة ويرجحه، ويتلمس له الأدلة التي تقويه وتعضده[٣].
- استطراده في ذكر الخلافات الفقهية بين الأئمة البعيدة عن فقه الآية، مع توسعه في الاستدلال والرد على المخالفين لمذهب أبي حنيفة[٤].

(١) انظر: رأيه في الرزق ٢٥/١ من أحكام القرآن، ورأيه في السحر ٤٢/١، ٤٩، ورأيه في الرؤية ٤/٣، ٥، وفي كل ذلك يوافق المعتزلة في رأيها.

(٢) انظر: أحكام القرآن للجصاص ٨١/١.

(٣) انظر: أحكام القرآن للجصاص ٤٥/١، ٢٤٦.

(٤) انظر: أحكام القرآن للجصاص ٣٠/١، ١٧١/٣، ١٩٢.

- تعصبه لمذهبه الحنفي، وتكلفه في الاستدلال له، مما جعله يؤول بعض الآيات ليجعلها في جانبه، أو على الأقل يجعلها غير صالحة للاستشهاد بها من جانب مخالفيه(١).
- قسوة عبارة الجصاص على من يعارضه من العلماء التي لا تليق من مثله في حق العلماء الأجلاء، فوصف الإمام الشافعي بالغفلة(٢)، ووصف غيره من طلبة العلم بالجهل والغباوة وقلة العقل(٣)، ووصف القاضي إسماعيل بن إسحاق بالإغفال والتخليط في الكلام(٤).
- شدته على الصحابي الجليل معاوية بن ابي سفيان وتحامله عليه، مما يفهم منه بغضه له(٥) عفا الله عنه.
- اهتمامه بالمسائل الأصولية والاستدلال لها.

ويعد أحكام القرآن للجصاص من أهم كتب التفسير الفقهي عند الحنفية، حيث يقوم على تركيز مذهبهم والدفاع عنه، ولا زال بحاجة إلى خدمة علمية بتحقيق نصه وتخريج أحاديثه، والتعليق على بعض قضاياه.

ـ ثالثاً: أحكام القرآن للكيا الهراسي:

المـؤلـف:

هو أبو الحسن علي بن محمد بن علي الطبري، المعروف بـــ: «الكيا الهراسي»(٦) كان من أكابر الفضلاء وسادات الفقهاء(٧)، شافعي المذهب، بلغ رتبة عالية في التدريس والإفتاء والمناظرة، له من المؤلفات: أحكام

---

(١) انظر: أحكام القرآن للجصاص ٢٣٤/١، ٤٠٠، ٥٢٤.
(٢) انظر: أحكام القرآن للجصاص ٢٩٩/١.
(٣) انظر: أحكام القرآن للجصاص ١١٦/٢ ـ ١٢٠.
(٤) انظر: أحكام القرآن للجصاص ٢٢٦/٣ ـ ٢٢٨.
(٥) انظر: أحكام القرآن للجصاص ١٠٢/٢، ٣ ص ٢٤٦، ٣٢٩، ٣٩٩.
(٦) معنى «الكيا» الكبير القدر المقدم بين الناس، و «الهراسي» الخائف.
(٧) البداية والنهاية ١٧٢/١٢.

القرآن، وشفاء المسترشدين في مباحث المجتهدين، نقض مفردات الإمام أحمد، وقال عنه الذهبي: إنه لم ينصف فيه[١]، والتعليق في أصول الفقه.

ومن أقواله التي تدل على حبه للسنة قوله: «إذا جالت فرسان الأحاديث في ميادين الكفاح، طارت رؤوس المقاييس في مهاب الرياح»[٢].

توفي سنة (٥٠٤هـ).

الكتاب:

ألف الكيا الهراسي هذا الكتاب في بيان آيات الأحكام، وما يستنبط منها، وخلافات الفقهاء مرجحاً مذهب الشافعي.

وقد بدأه بمقدمة أشاد فيها بالإمام الشافعي ومذهبه، وسبب تأليفه له، وإعجابه بما سطره، ثم شرع في بيان آيات الأحكام فرتبها حسب ترتيب المصحف، وبلغ ما تناوله ما يقرب من (٥٢٧) آية.

ويتلخص منهجه فيه بالآتي:

- بيانه لما في الآيات من حكم وأحكام مستفادة ومستنبطة منها[٣]، أحياناً يذكرها مفردة، وأحياناً يستدل لها من القرآن أو السنة أو أقوال السلف.
- إشارته إلى الخلاف بين العلماء مع تركيزه على رأي الإمام الشافعي.
- ظهور روح التعصب لمذهبه الشافعي في مقدمته وفي أثناء كتابه، فالتزم الدفاع عنه وترجحيه على سائر المذاهب والرد على المخالفين له[٤].
- شدته مع بعض العلماء وخاصة الرازي الجصاص، لوقوفه في كتابه

(١) سير أعلام النبلاء ٣٥٢/١٩.
(٢) طبقات الشافعية للسبكي ٢٣٢/٧.
(٣) انظر: أحكام القرآن للكيا الهراسي ٤٠/١، ٤٨٣/٤.
(٤) انظر: أحكام القرآن للكيا الهراسي ٢٣٤/٢، ٣٠٨، ٢٢٥/٣ ـ ٢٤٣.

أحكام القرآن موقف المعارض لمذهب الشافعي، فكأن الكيا الهراسي أراد بهذا الكتاب أن يقتص لإمامه مما رماه به الجصاص، وبعبارات أشد[1].

ويعد هذا الكتاب أحد المراجع المهمة في معرفة فقه القرآن على ضوء المذهب الشافعي، وفي صورة مختصرة مع البعد عن التعليل والتطويل إلا في القليل.

ـ رابعاً: أحكام القرآن لأبي بكر بن العربي:

المـؤلـف:

أبو بكر محمد بن عبدالله بن محمد بن العربي المعافري الأندلسي الأشبيلي ولد في أشبيلية سنة (٤٦٨هـ)، وحفظ فيها القرآن، وتعلم مباديء علوم العربية، والقراءات، ثم رحل إلى المشرق إلى مصر، والشام، وبغداد، ومكة، وكان يأخذ عن علماء كل بلد يرحل إليه، حتى أتقن: الفقه، والأصول، والحديث، والتفسير، ومسائل الخلاف والكلام، ثم عاد إلى بلده أشبيلية بعلم كثير فاستقبله العلماء والأدباء استقبالاً لا نظير له فقصده طلاب العلم، فدّرس، وأفتى، وعمل بالقضاء، وله من المؤلفات:

- ❏ أحكام القرآن.
- ❏ أنوار الفجر في تفسير القرآن.
- ❏ قانون التأويل في تفسير القرآن، ويوجد منه أجزاء خطية متفرقة في خزانة القرويين بفاس، ودار الكتب المصرية، ومكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، قال عنه ابن جزي: «وأما ابن العربي فصنف كتاب «أنوار الفجر» في غاية الاحتفال والجمع لعلوم القرآن، فلما تلف تلافاه بكتاب «قانون التأويل» إلا أنه اخترمته المنية قبل تلخيصه»[2].

---

(١) انظر: أحكام القرآن للكياالهراسي ٢/٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٥، ٢٥٣، ٢٨٦.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل ١/١٧.

- ❏ الناسخ والمنسوخ في القرآن، مطبوع.
- ❏ عارضة الأحوذي في شرح جامع الترمذي، مطبوع في ثلاثة عشر مجلداً.
- ❏ العواصم من القواصم.

توفي أبو بكر بن العربي سنة (٥٤٣هـ).

الكتاب:

ألف هذا الكتاب أبو بكر بن العربي في أحكام القرآن على مذهب المالكية بدأه بمقدمة بين فيها أنه أنجز قسمين من علوم القرآن هما: التوحيد، والناسخ والمنسوخ، ثم ذكر القسم الثالث وهو الأحكام.

ثم شرع في ذكر أحكام القرآن، فرتبها حسب ترتيب المصحف، وفي مقدمة كل سورة يذكر عدد آيات الأحكام فيها، وبلغت في كتابه (٨٣٠) آية.

ويعرض بيانه للآيات على هيئة مسائل تشتمل ـ غالباً ـ على سبب النزول، والقراءات، وشرح بعض الكلمات، وذكر الأقوال المأثورة، والأحكام المستنبطة، وبيان خلافات العلماء الفقهية والتوجيه والترجيح بين الأقوال.

ويتلخص منهجه فيه بالآتي:

- ❏ عنايته ببيان معنى الآيات بآيات مثلها، أو بما أثر عن النبي ﷺ، أو عن الصحابة والتابعين[١].
- ❏ نفرته من الأحاديث الضعيفة وتحذيره منها[٢]، وبيانه في الغالب لدرجة ما يذكره من الأحاديث ومن خرجها من الأئمة، وإذا لم يجد في المسألة أحاديث صحيحة قال: وليس في الباب حديث

---

(١) انظر: أحكام القرآن لابن العربي ٢٩١/١، ٢٢٥.

(٢) انظر: أحكام القرآن لابن العربي ٥٨٣/٢، ١٥٨٤/٣.

صحيح[١]، وقال: «وفي كتب التفسير أحاديث في هذه الآية أعرضنا عنها لضعفها»[٢]، ولا غرو في ذلك فقد كان ابن العربي محدثاً، وألف في ذلك المؤلفات الكبرى.

- ❑ عنايته بذكر الأحكام الفقهية المستنبطة من الآيات، وتوسعه في تعداد مسائلها، وبيانه للخلافات الفقهية وأقوال أئمة المذاهب وفي الغالب يوجه كل قول ثم يرجح بينها[٣].
- ❑ توسعه في ذكر مذهب المالكي وترجيحه في الغالب.
- ❑ اهتمامه بعلم أصول الفقه فأكثر من استنباط المسائل الأصولية من الآيات، و بين كثيراً من الأحكام الفقهية على ضوء القواعد الأصولية[٤].
- ❑ عنايته ببيان أسباب النزول، وذكر الروايات فيها والترجيح بينها[٥].
- ❑ اهتمامه ببيان الناسخ والمنسوخ، وإيراد القراءات وبخاصة المتواتر منها ويذكر ما يؤخذ منها من أحكام[٦].
- ❑ نفرته من الإسرائيليات وتحذيره من روايتها، وبين رأيه في أكثر من موضع، ويتلخص رأيه في أن ما وافق القرآن فهو صحيح، وما خالفه فهو باطل، وما لم يرد فيه ذكر فهو محتمل الله أعلم به[٧].
- ❑ ظهور تعصبه وانتصاره لمذهبه، وشدته على المخالفين له، ورميهم

---

(١) انظر: أحكام القرآن لابن العربي ١٢٤١/٣.
(٢) انظر: أحكام القرآن لابن العربي ١٢٥٤/٣.
(٣) انظر: أحكام القرآن لابن العربي ٣٢٤/١، ٧٤٩/٢.
(٤) انظر: أحكام القرآن لابن العربي ٢٠٥/١، ٧٤١/٢، ١٦٩٤/٤.
(٥) انظر: أحكام القرآن لابن العربي ٣٤/١، ٦١٩/٢.
(٦) انظر: أحكام القرآن لابن العربي ٣٠٠/١، ٣٤٥، ١٢٩٦/٣.
(٧) انظر: أحكام القرآن لابن العربي ١٢٦٦/٣، ٢٣/١، ٢٧، ٣٠.

ببعض العبارات التي لا تليق به وبهم، وقد تطاول بخاصة على أبي حنيفة والشافعي(١).

عـقـيـدتـه:

مع أن كتابه في آيات الأحكام وقل أن تعرف عقيدة المؤلف من خلالها إلا أنه ـ رحمه الله ـ كانت له عناية خاصة في الرد على بعض الفرق كالمبتدعة، والقدرية، والشيعة الإمامية، والفلاسفة، والطبيعيين، والملاحدة... وغيرهم(٢).

ويلاحظ عليه أنه أول بعض الصفات الثابتة لله ﷻ، كصفة الوجه والمحبة(٣).

الرأي في الكتاب:

يعد كتاب «أحكام القرآن» لابن العربي وسطاً بين كتب الأحكام المختصرة والمطولة، وجامعاً بين الرواية والدراية، ويعتبر أحد المراجع المهمة في فقه الآيات على المذهب المالكي، ويمتاز بالآتي:

- ❑ شموله على عدد كبير من آيات الأحكام.
- ❑ براعة مؤلفه في الاستنباط واستخراج الأحكام.
- ❑ التزامه بمنهج معين لا يحيد عنه، فظهر كتابه حسن الترتيب والتبويب.
- ❑ استشهاده بالأحاديث المؤيدة للحكم مع توثيقها أو جرح المحدثين بها.
- ❑ اهتمامه بما في الآيات من أسباب نزول وناسخ ومنسوخ وقراءات.

---

(١) انظر: أحكام القرآن لابن العربي ٢٨٤/١، ٥٠١، ٥٧٢/٢، ٦٠١/٢، ٦١٤، ١٣٢٥/٣، ٣٩٤/١، ٤١٨.

(٢) انظر: أحكام القرآن لابن العربي ٩٩٦/٢، ١٠٣٣، ١٢١٥/٣، ١٤٥٦، ١٧٦٣/٤.

(٣) انظر: أحكام القرآن لابن العربي ٣٥/١، ١٧٣.

ويـلاحـظ عليـه:

- ❑ تعصبه لمذهبه، ومبالغته في الاعتداد بالإمام مالك على حساب غيره من العلماء.
- ❑ قسوته في الرد على المخالفين له.
- ❑ تأويله لبعض آيات الصفات.

ـ خامساً: أحكام القرآن لابن الفرس:

المـؤلـف:

أبو محمد عبدالمنعم بن محمد بن عبدالرحيم الغرناطي المالكي المعروف بـ «ابن الفَرَس».

ولد بمدينة غرناطة سنة (٥٢٥هـ)، ونشأ في محيط بيئة علمية فاقرأه جده بحرف نافع، ودرسه أبوه الحديث والفقه والأصول وعلم الكلام، وأخذ عن شيوخ الأندلس في عصره فلازم حلقات الدرس والطلب، وكان ذكياً شديد الحفظ قوي الذاكرة، وقد تولى القضاء بعدة مدن بالأندلس، ولم يمنعه ذلك من الإقبال على العلم والتدريس والإقراء والتأليف[١]، له من المؤلفات:

- ❑ أحكام القرآن.
- ❑ المسائل التي اختلف فيها النحويون من أهل البصرة والكوفة.
- ❑ صناعة الجدل.
- ❑ عدد من المختصرات[٢].

ولم يصلنا شيء منها سوى أحكام القرآن، وقد حقق أجزاء منه كرسائل علمية في جامعة الزيتونة بتونس، والجامعة الإسلامية بالمدينة

---

(١) الذيل والتكملة السفر الخامس القسم الأول ٦٠ ـ ٦٣.
(٢) انظر: صلة الصلة لابن الزبير القسم الأخير ١٩.

المنورة، وكلية التربية للبنات بالرياض، ثم طبع في ثلاثة أجزاء بتحقيق/ د. طه بوسريح، د. منجية السوايحي، وصلاح بو عفيف.

توفي ابن الفرس سنة (٥٩٧هـ).

الـكـتـــاب:

ألف ابن الفرس كتابه هذا في بيان الأحكام الشرعية المستنبطة من القرآن الكريم، وألمّ فيه بمذاهب الفقهاء، ورجح كثيراً مذهب إمامه مالك بن أنس رَحِمَهُ اللهُ.

وقد بدأه بمقدمة بين فيها ما يجب على المفسر المجتهد الذي يريد تعرف أفعال المكلفين، ثم ذكر سبب تأليفه له وهو ولعه المبكر في معرفة الأحكام الشرعية واستنباطها من الكتاب العزيز، واطلاعه على كتب الأحكام وعدم اقتناعه بوجود كتاب يشفي نهمة الباحث العالم، ثم بين الفائدة من معرفة خلاف العلماء، وأبرزها أن الإنسان منها أدلة الشرع واحتمالاته.

ثم شرع في بيان الأحكام المستنبطة من القرآن فرتبها حسب ترتيب سور المصحف ذاكراً جميع سور القرآن، وبيّن في كل واحدة هل هي من المكي أو المدني، وما فيها من أحكام وناسخ ومنسوخ.

وطريقته في عرض الأحكام:

أنه يذكر الآية التي فيها حُكم أو أحكام فيبين ما يستنبط منها، ثم يذكر خلاف العلماء في أحكامها، ويبين ما في الآية من نسخ وسبب نزول... ونحو ذلك.

ويتلخص منهجه فيه بالآتي:

- اهتمامه بذكر خلاف السلف من الصحابة والتابعين والفقهاء في المسائل الفقهية، وذلك أحد أهم الأهداف من تأليفه لهذا الكتاب: حيث يقول: وذلك لمعرفة ما اتفق عليه من الأحكام وما اختلف فيه.

- ❑ بعده عن الميول والنزعات المذهبية فمع كونه مالكيا ويرجح مذهبه كثيراً إلا أن له ترجيحات تخالف مذهبه متى ما رأى الدليل في غير مذهبه أقوى[١].
- ❑ إنصافه وتأدبه بأدب العلماء، لا يعنف على غيره، لطيف العبارة مع من يخالفه.
- ❑ إبداؤه لرأيه، وترجيحه بين الآراء معتمداً في ذلك على عدة مرجحات منها: اللفظ القرآني ومدلوله[٢]، والسنة النبوية[٣]، والإجماع، وعلى بعض القواعد الأصولية[٤]، وعلى التخريج اللغوي والاستعمال العربي[٥].
- ❑ بيانه للناسخ والمنسوخ في جميع القرآن، وإن لم يكن في الآيات أحكام.
- ❑ استنباطه لبعض المسائل الأصولية.
- ❑ بيانه لبعض مفردات الآيات التي تحتاج إلى إيضاح ويترتب عليها خلاف، فيبين أصلها اللغوي، ويورد فيها ما قاله أهل اللغة.

عقيدته:

ليس من السهل معرفة عقيدة أي مؤلف في أحكام القرآن، لأن إشاراته لآيات العقيدة قليلة وخاصة آيات الصفات، أما ابن الفرس فكان يدافع عن مذهب أهل السنة والجماعة ويرد على المخالفين لهم من المعتزلة، والمرجئة، والجبرية، والشيعة، والخوارج... في أدنى مناسبة، أما عقيدته في الصفات فلم ألاحظ أنه تعرض لها إثباتاً أو تأويلاً في سور الفاتحة والبقرة وآل عمران.

---

(١) انظر: أحكام القرآن لابن الفرس ٤٤٣، ٦١١ «نسخة خطية».
(٢) انظر: أحكام القرآن لابن الفرس ٢٩٥، ٥٥٨.
(٣) انظر: أحكام القرآن لابن الفرس ٩٤ ـ ٩٦، ١٨٣ ـ ١٨٤.
(٤) انظر: أحكام القرآن لابن الفرس ٣٤٢.
(٥) انظر: أحكام القرآن لابن الفرس ٢٢٩.

تحقيق الكتاب:

قام بتحقيق تفسير سورتي الفاتحة والبقرة محمد الصغير بن يوسف في رسالة علمية نال بها درجة الدكتوراه الحلقة الثالثة من الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين في تونس عام (١٤٠٠هـ).

كما حقق جزءاً منه يبدأ من أول الكتاب إلى الآية العاشرة بعد المائتين الطالب بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة/عبدالله عبدالحميد ونال به درجة الماجستير عام (١٤٠٤هـ).

وحققت الطالبة/نورة بنت عبدالرحمن الخضير تفسير الآيات من (٢١٥) من سورة البقرة إلى نهاية سورة آل عمران، ونالت بها درجة الدكتوراه من كلية التربية للبنات الرياض.

الـرأي في الـكـتـاب:

يعد أحكام القرآن لابن الفرس إضافة مهمة إلى كتب تفسير آيات الأحكام في المذهب المالكي، جمع فيه خلاصة الأحكام الشرعية المستنبطة من القرآن، مبتعداً عن التعصب المذهبي والتحامل وتجريح الغير ممن يخالفه، وامتاز بعدم التوسع والتعسف بالاستدلال، وكان له ترجيحات في معظم المسائل التي تطرق إليها.

ـ سادساً: الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبدالله محمد بن أحمد القرطبي:

المـؤلـف:

أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي القرطبي.

ولد بقرطبة ونشأ بها في كنف والده، وقد تفقه وأخذ عن كثير من العلماء القرآن والقراءات والحديث والنحو والبلاغة واللغة.

ثم رحل إلى المشرق متجها إلى الإسكندرية ثم تركها إلى منية ابن خصيب[(١)] التي استقر فيها إلى أن توفي سنة (٦٧١هـ).

---

(١) مدينة تقع شمالي أسيوط بمصر تسمى الآن «المِنْيا».

وقد عرف بالانشغال بأمر نفسه، والانصراف إلى تلقي العلم ومجالسة العلماء، وتأليف الكتب والعبادة، وعدم المشاركة في أعمال القضاء والتدريس.

وقد بلغ مكانة عالية، وترك مؤلفات قيمة منها:

- ❑ الجامع لأحكام القرآن.
- ❑ التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، وهو مطبوع في جزأين بمجلد واحد.
- ❑ التذكار في أفضل الأذكار، مطبوع بمجلد واحد.
- ❑ الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته العلا.
- ❑ قمع الحرص بالزهد والقناعة ورد ذل السؤال بالكسب والصناعة، (مخطوط).
- ❑ المقْتَبَسَ في شرح موطأ مالك بن أنس. وغيرها.

الـكـتـاب:

ألف القرطبي «الجامع لأحكام القرآن» في تفسير القرآن كاملاً مع التركيز على آيات الأحكام، ولذلك سماه «الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان» والمشهور بـ «تفسير القرطبي».

ويعتبر من أوسع كتب الأحكام المطبوعة، إذ بلغ عشرين جزءاً في عشرة مجلدات، بدأه بمقدمة بين فيها الباعث له على تأليفه التفسير وهو حرصه على الاشتغال بكتاب الله مدى عمره، ثم ذكر ما اشترطه على نفسه في كتابه بإضافة الأقوال إلى قائليها، وتخريج الأحاديث وعزوها إلى مصنفيها، والإضراب عن كثير من قصص المفسرين وأخبار المؤرخين، إلا ما لا بد منه ولا غنى عنه للتبيين، ثم ذكر عدداً من الأبواب مما لا يستغني عنها متدبر أو مفسر للقرآن، وجلها في علوم القرآن، ثم شرع بتفسير القرآن ورتبه حسب السور وترتيبها في المصحف.

وطريقته في كل سورة تشمل ناحيتين:

الأولى: من ناحية كامل السورة، فإنه غالباً يتحدث عنها بالآتي:

- تسميته السورة وعدد آياتها.
- زمن نزولها ببيان ما هو مكي أو مدني.
- بيان أسباب النزول إن كانت السورة نزلت في مناسبة معينة.
- ذكر بعض الفضائل المأثورة في شأنها.

الثانية: من ناحية شرحه للآيات، فإنه يذكر الآية أو الآيتين أو مجموعة من الآيات ويتبعها بالتفسير والتحليل جاعلاً ذلك على هيئة مسائل قد تبلغ العشر أو أكثر بكثير أو أقل بقليل.

منهجه في تفسيره:

يتلخص منهج القرطبي في تفسيره بالآتي:

- اهتمامه بتفسير القرآن بالقرآن:

اهتم القرطبي بتفسير القرآن بالقرآن، وذلك إما بتفسير آية بآية أخرى تبين معناها وتوضح المراد منها[(١)]، أو بذكر ما يناظرها من الآيات[(٢)].

- عنايته بذكر القراءات وبيان المتواتر منها والشاذ، وتوجيهها، والاستفادة منها بالكشف عن أكثر من معنى للآية.
- عنايته بالحديث الشريف والاستدلال به في معاني الآيات، وقد التزم في مقدمته إضافة الأحاديث إلى مصنفيها، ليعرف بذلك الصحيح من السقيم، إلا أنه لم يوف بما وعده أثناء تفسيره فقد أورد عدداً من الأحاديث لم يخرجها، وأحاديث فيها المنكر والضعيف والموضوع[(٣)].
- اهتمامه بما أثر عن الصحابة والتابعين وتابعيهم، فنراه ينقل كثيراً من

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٢/٢٩٧.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٦/٢٩٦.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١/٤٢٧، ٦/١٧، ٧/١٩٢، ٣٠٥.

أقوالهم وآرائهم، ويقرنها بأقوال غيرهم من المفسرين، ويحاول الجمع بينها في الغالب، وقد يلجأ إلى الترجيح والمفاضلة، كما قد يكتفي بعرضها فقط دون جمع أو ترجيح بينها[١].

- اهتمامه ببيان أسباب نزول الآيات، وبيان الناسخ والمنسوخ.
- عنايته ببيان معاني الألفاظ، والكشف عن غريبها، والبحث عن أصلها واشتقاقها، مستشهداً بذلك بالقرآن والحديث وكلام العرب شعراً ونثراً[٢]، كما اهتم ببيان وجوه الإعراب وتوجيهها، وبين اختلاف النحاة في تخريج بعض التراكيب القرآنية، كما يبدي رأيه في بعض أقوالهم[٣].
- ذكر الأخبار الإسرائيلية، قال في مقدمته: «واضرب عن كثير من قصص المفسرين وأخبار المؤرخين إلا ما لا بد منه ولا غنى عنه للتبيين»، ويبدو أن هذا الاستثناء منه أوقعه بذكر روايات بينة السقوط والكذب رواها وسكت عنها[٤]، وكان الأولى به أن يعقب عليها بالرد والتنبيه على بطلانها، أو ينزه تفسيره منها وخاصة وأنه لا فائدة متوقعة على معرفتها.

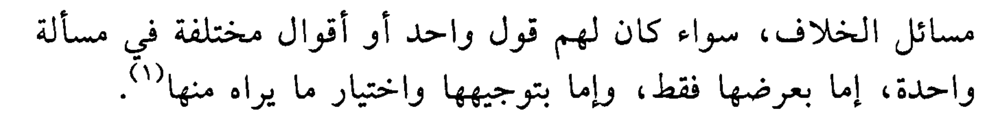
موقف القرطبي من آيات الأحكام:

اهتم القرطبي ببيان آيات الأحكام وذكر ما يستنبط منها، وبلغ الغاية في ذلك، فلم يدع آية يمكن أن يستنبط منها حكم إلا أورده وبينه على قدر ما اهتدى إليه، ولا غرو في ذلك فقد سمى كتابه «الجامع لأحكام القرآن» ووعد في مقدمته ببيان الأحكام المستنبطة من الآي، **ومنهجه في ذلك يتلخص في الآتي:**

- اهتمامه بإيراد رأي الإمام مالك، وبعض فقهاء المالكية في جميع

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١/١٣٨، ٢/١٤٤.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١/٢١١، ٢٢٠، ٣/٤٢٣.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١/٤٣٥، ٢/٣٤.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٩/٣١، ١٦٩، ١٥/١٦٦، ١٧/٢.



مسائل الخلاف، سواء كان لهم قول واحد أو أقوال مختلفة في مسألة واحدة، إما بعرضها فقط، وإما بتوجيهها واختيار ما يراه منها[1].

- ❑ إيراده إلى جانب آراء المالكية آراء الحنفية والشافعية والحنابلة، إما بذكرها فقط دون مناقشتها وترجيح أحدها، وإما بتوجيهها وترجيح ما يراه منها معضداً ذلك بالأدلة[2].
- ❑ عدم تعصبه لمذهبه المالكي، فنجده يسير مع الدليل، وما يؤيده ظاهر النص وإن أداه ذلك إلى مخالفة علماء مذهبه[3].
- ❑ عفة لسانه وعدم تطاوله على من يخالفه، بل والدفاع عن المخالفين له إذا هوجموا بأسلوب عنيف[4].

عـقـيـدتـه:

القرطبي في تفسيره رد على الفرق الضالة من أهل الزيغ والضلال كالقدرية والمعتزلة والإمامية والكرامية والمبتدعة والمتصوفة... وغيرهم[5].

وفي باب الأسماء والصفات فهو أشعري المعتقد إذ أول كثيراً

من الصفات ونقل أقوال أئمة الأشاعرة كالجويني والباقلاني، والاسفراييني، وابن عطية[6]، غفر الله له.

قـيـمـتـه الـعـلـمـيـة:

لقد أثنى العلماء الذين ترجموا للقرطبي، أو تكلموا عن التفسير على تفسيره، واعتبروه من أجل التفاسير وأكثرها شيوعاً وانتشاراً.

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٩٠/٣، ٢١٢/٥، ١٧١/١.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٣٤٦/١، ١٨٣/٢، ٢٨٠.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٧٤/٣.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١٠٩/٩، ٢١/٥، ٣٣٢/٦، ٢٨١/١٧.
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١٤٩/٢، ١٩٣، ٤٧/٤، ٧٣.
(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٨٣/٢، ٦، ٢٣٩، ٢٨٨/١٥، ١٦٥/١٧.

ومن هؤلاء شيخ الإسلام ابن تيمية، حيث قال جواباً لمن سأله عن تفاسير: الزمخشري والقرطبي والبغوي: «وتفسير القرطبي خير منه ـ أي الزمخشري ـ بكثير وأقرب إلى طريقة أهل الكتاب والسنة، وأبعد عن البدع، وإن كان كل من هذه الكتب لا بد أن يشتمل على ما ينقد، لكن يجب العدل بينها وإعطاء كل ذي حق حقه»(١).

وقال النجم الطوفي: «وأجمع ما رأيته من التفاسير لغالب علم التفسير كتاب القرطبي»(٢).

وقال الذهبي: «وقد سارت بتفسيره العظيم الشأن: الركبان وهو كامل في معناه»(٣).

ويعد الجامع لأحكام القرآن جامعاً شاملاً لجوانب متعددة، حيث اشتمل على المأثور من كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، وأقوال الصحابة والتابعين، إلى جانب حرص مؤلفه على الرأي المحمود وأقوال المفسرين، والاهتمام بعلوم القرآن المختلفة، والعناية باللغة وبيان معاني المفردات، وإعراب الكلمات واشتقاقها، بالإضافة إلى تميزه بالاستقصاء في ذكر الأحكام الشرعية عن طريق إيراد الجزئيات من المسائل الفقهية، والاستدلال عليها من النقل والعقل، والترجيح ـ غالباً ـ بين الخلافات، مع عدم التعصب لمذهبه المالكي.

إلا أنه مع ذلك فإنه يلاحظ عليه ما يلي:

- تأويله لكثير من آيات الصفات.
- إيراده لأحاديث فيها المنكر والضعيف والموضوع، خصوصاً فيما ينقله عن الثعلبي في «الكشف والبيان» والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول».

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٣٨٧/١٣.

(٢) الإكسير في علم التفسير ٢٦.

(٣) تاريخ الإسلام للذهبي «مخطوط» مجلد ٢١ ورقة ٥.

- حكايته لأقوال ضعيفة وشاذة، فهو يحكي كل قول وقع له.
- تساهله في إيراد الإخبار الإسرائيلية الظاهرة البطلان، دون أن ينبه عليها، أو يتعقبها بالرد.
- نقله من كتب المفسرين لبعض آرائهم ونقولهم عن غيرهم دون أن ينسب ذلك إليهم، وبخاصة من كتابي ابن العربي «أحكام القرآن» وابن عطية (المحرر الوجيز».

*** ثانياً: التفسير اللغوي:**

هو التفسير الذي يعنى بالجانب اللغوي والنحوي والبلاغي في تفسير القرآن الكريم، ويعتمد فيه على أقوال العرب، وما أثر عنهم من شعر ونثر.

وينبغي ملاحظة أن الاعتماد على نص كلام العرب غير كاف في تفسير القرآن الكريم الذي يجب فيه النظر في القرآن نفسه، والمنزل عليه، والمخاطب به.

وقد جعل شيخ الإسلام ابن تيمية أحد أسباب الخطأ في التفسير الاعتماد على اللغة وحدها[١]، وممن وقع في هذا كثيراً أبو عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة (٢١٠هـ) في كتابه «مجاز القرآن» حيث جعل دليله في فهم القرآن: طريقة العرب في كلامها، واستعمال كلماتها وتركيب جملها، مستخدماً علمه الواسع باللغة، ولم يحتكم في تفسير اللفظ والنص القرآني إلى التفسير الأثري أو المعاني الشرعية، ولذا قوبل من معاصريه بعدم الرضا وبكثير من النقد[٢]، فالفراء تمنى أن يضرب أبا عبيده لمسلكه في تفسير القرآن[٣]، وقال أبو عمر الجرمي: «أتيت أبا عبيدة بشيء منه ـ أي من المجاز ـ فقلت له: عمن أخذت هذا أبا عبيدة؟ فإن هذا خلاف تفسير الفقهاء. فقال: هذا تفسير الأعراب البوّالين على أعقابهم، فإن شئت فخذه،

(١) انظر: مقدمة في أصول التفسير ٨١.
(٢) انظر: النحو وكتب التفسير ١/١٥٤.
(٣) انظر: تاريخ بغداد ١٣/٢٥٥.

وإن شئت فذره»، وقال أبو حاتم السجستاني ـ تلميذ أبي عبيدة «وما يحل لأحد أن يقرأه إلا على شرط: إذا مر بالخطأ أن يبينه ويغيره»[(١)].

أهم المؤلفات في التفسير اللغوي:

لقد بدأ التأليف في معاني القرآن وغريبه وإعرابه منذ القرن الثاني الهجري، وتنوع التأليف فيه بحسب غرض المؤلف، ويمكن تصنيف هذه المؤلفات إلى أربعة أصناف وهي على النحو التالي:

الأول: المؤلفات في المعنى اللغوي:

وهي الكتب التي تتناول معاني الألفاظ الغريبة أو الغامضة:

- ❑ مجاز القرآن، لأبي عبيدة معمر بن المثنى، المتوفى سنة (٢١٠هـ).
- ❑ غريب القرآن وتفسيره، لليزيدي عبدالله بن يحيى بن المبارك، المتوفى سنة (٢٣٧هـ).
- ❑ تفسير غريب القرآن، لابن قتيبة عبدالله بن مسلم، المتوفى سنة (٢٧٦هـ).
- ❑ العمدة في غريب القرآن، للقيسي مكي بن أبي طالب، المتوفى سنة (٤٣٧هـ).
- ❑ المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني الحسين بن محمد، المتوفى سنة (٥٠٢هـ).
- ❑ تذكرة الأريب في تفسير الغريب، لابن الجوزي عبدالرحمن بن علي، المتوفى سنة (٥٩٧هـ).
- ❑ عمدة الحافظ في تفسير أشرف الألفاظ، للسمين الحلبي، المتوفى سنة (٧٥٦هـ).
- ❑ تفسير غريب القرآن، لابن الملقن عمر بن أبي الحسن أبو حفص، المتوفى سنة (٨٠٤هـ).

---

(١) طبقات النحويين للزبيدي ١٧٦ ـ ١٩٤، وإنباه الرواه ٢٧٨/٣.

الثاني: المؤلفات في الإعراب:

وهي الكتب التي تتناول الجانب النحوي فقط:

- إعراب القرآن للنحاس، أحمد بن محمد أبو جعفر، المتوفى سنة (٣٣٨هـ).
- إعراب ثلاثين سورة من القرآن العزيز، لابن خالوية، الحسين بن محمد، المتوفى سنة (٣٧٠هـ)، من أول سورة الطارق إلى آخر القرآن الكريم.
- إعراب مشكل القرآن للقيسي، مكي بن أبي طالب، المتوفى سنة (٤٣٧هـ).
- البيان في غريب إعراب القرآن، لأبي البركات الأنباري، عبدالرحمن بن محمد، المتوفى سنة (٥٧٧هـ).
- التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء، عبدالله بن الحسين العكبري، المتوفى سنة (٦١٦هـ).
- الفريد في إعراب القرآن المجيد، للمنتجب حسين بن أبي العز الهمداني، المتوفى سنة (٦٤٣هـ).
- المُجيد في إعراب القرآن المَجيد للسفاقسي، إبراهيم بن محمد أبو إسحاق، المتوفى سنة (٧٤٢هـ).

الثالث: المؤلفات في المعنى اللغوي والإعراب:

- معاني القرآن، للفراء، يحيى بن زياد، المتوفى سنة (٢٠٧هـ).
- معاني القرآن، للأخفش الأوسط، أبو الحسن سعيد بن مسعدة، المتوفى سنة (٢١٥هـ).
- معاني القرآن وإعرابه، للزجاج، إبراهيم بن السري، أبو إسحاق، المتوفى سنة (٣١١هـ).

- ❑ معاني القرآن للنحاس، أحمد بن محمد أبو جعفر، المتوفى سنة (٣٣٨هـ).
- ❑ إيجاز البيان عن معاني القرآن، للنيسابوري، محمود بن أبي الحسن، المتوفى سنة (٥٥٣هـ).
- ❑ الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي، أحمد بن يوسف بن عبدالدايم، المتوفى سنة (٧٥٦هـ).

الرابع: المؤلفات في التفسير مع الاهتمام بالمعنى اللغوي والإعراب:

- ❑ البسيط، للواحدي علي بن أحمد، المتوفى سنة (٤٦٨هـ).
- ❑ البحر المحيط، لأبي حيان محمد بن يوسف الغرناطي، المتوفى سنة (٧٥٤هـ).

وهذا بيان لمنهج اثنين منها:

الكتاب الأول: معاني القرآن لأبي زكريا الفراء:

المؤلف:

هو أبو زكريا يحيى بن زياد الديلمي المعروف بـ «الفراء»[1]، إمام مدرسة الكوفة النحوية بعد شيخه الكسائي علي بن حمزة، قال عنه الداودي: «وكان يحب الكلام ويميل إلى الاعتزال، وكان ديناً متورعاً على تيهٍ، وعُجْب وتعظّم، وكان زائد العصبية على سيبويه، وكتابه تحت رأسه[2]، وكان يتفلس في تصانيفه، ويسلك ألفاظ الفلاسفة»[3] كان يقال له: أمير المؤمنين في النحو.

---

(١) الفراء: نسبة إلى أنه كان يفري الكلام فرياً أي: يحسن تقطيعه وتفصيله، انظر: تاريخ بغداد ١٤/١٥٠، واللباب في تهذيب الأنساب لابن الأثير ٢/٤١٣.

(٢) أي: إنه كان يتتبع خطأه ويتعمد مخالفته.

(٣) طبقات المفسرين للداودي ٢/٣٦٦.

له: معاني القرآن، و «اللغات»، و «المصادر في القرآن»، و «المذكر والمؤنث» وغيرها.

توفي سنة (٢٠٧هـ)[١].

الـكـتــاب:

ألف هذا الكتاب الفراء، وقد سماه في مقدمته «تفسير مشكل إعراب القرآن ومعانيه»، وهذا التسمية هي الأقرب لمحتوى الكتاب، إلا أنه اشتهر عند المترجمين له باسم «معاني القرآن» فاستمر هذا الاسم إلى الآن.

وقد كان يمليه على تلاميذه من حفظه، وبدأه ببيان حذف الألف من البسملة، ثم ببيانه لسورة الفاتحة، ثم البقرة حتى آخر القرآن ويتناول في كل سورة الآيات التي ظاهرها الإشكال والتي تحتاج إلى بيان من وجهة نظره، ويدع ما عداها.

ويتلخص منهجه فيه في ثلاثة أمور:

- التحليل اللغوي للآيات المشكلة المعنى، حيث كان يبين معاني الكلمات واشتقاقها، ويستشهد لها من أقوال العرب نثراً ونظماً ـ وساعده على ذلك فهمه لكلام العرب ولهجاتهم وأمثالهم وأقوالهم ـ حتى أصبح كتابه مرجعاً لكل من تصدى لمفردات اللغة عموماً، وغريب القرآن خصوصاً.

- اهتمامه الكبير بالمباحث النحوية، حتى إنك لا تكاد تجد صفحة خالية عن النحو، وذكر قاعدة من قواعده، أو توجيه من توجيهاته، أو شاهد من شواهده.

---

(١) انظر: في ترجمته: تاريخ بغداد ١٤٦/١٤، معجم الأدباء ٩/٢٠، سير إعلام النبلاء ١١٨/١٠، البداية والنهاية ٢٦١/١٠، غاية النهاية ٣٧١/٢، طبقات المفسرين للداودي ٣٦٦/٢.

وركز فيه على استعمال مصطلحات الكوفيين بديلة عن مصطلحات البصريين[١]، وعلى صياغة قواعد نحوية شاملة لمسائل جزئية[٢].

- ❑ بيانه للقراءات والاحتجاج لها، فقد استعان بها في توضيح المعاني والاستشهاد بها لبعض القواعد النحوية، ولكن يلاحظ عليه نقده لبعض القراءات المتواترة، كما حصل عند بيانه لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ۝٥٩﴾[٣]، حيث قال عن قراءة حمزة وابن عامر وحفص عن عاصم «يحسبن ـ بالياء» «وما أحبها لشذوذها»[٤] لأنه كما يبدو لم يستطع تخريجها نحويا. والصحيح: أنه يمكن تخريجها[٥]ولعل وصفه لها بالشذوذ يقصد به عدم وضوح موافقتها للعربية من وجهة نظره.

عقيدته:

ذكرت بعض المصادر التي ترجمت للفراء ميله للاعتزال[٦]، وفي مصادر أخرى سكتت عن ذلك[٧]، أما الأزهري فقال عنه: «كان من أهل السنة، ومذاهبه في التفسير حسنة»[٨].

وفي كتابه «معاني القرآن» لم يتضح لي ـ من خلال تصفحي له ـ شيء مما نسب إليه، سوى أنه عند بيانه لمعنى الاستواء في قوله تعالى:

---

(١) كالبدل سماه: ترجمة، وتكريراً، وتفسيراً، انظر: معاني القرآن ١٧٨/٢، ٧/١، ٥١، ٢٧٣/٢. وضمير الفصل سماه: ضمير العماد والضمير المجهول ٤٠٩/١، ٢٧٥/٢.

(٢) انظر: النحو وكتب التفسير ١٨١/١ وما بعدها.

(٣) سورة الأنفال الآية (٥٩).

(٤) معاني القرآن للفراء ٤١٤/١ ـ ٤١٦.

(٥) انظر: البحر المحيط ٥١٠/٤.

(٦) انظر مثلاً: معجم الأدباء ١١/٢٠، وبغيه الوعاة ٣٣٣/٢، وطبقات المفسرين للداودي ٣٦٧/٢.

(٧) انظر: مثلاً: تاريخ بغداد ١٤٩/١٤، والبداية والنهاية ٢٦١/١٠، وسير أعلام النبلاء ١١٩/١٠.

(٨) تهذيب اللغة ١٨/١، ١٩.

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[١]، ذكر عدة معان ليس في أي منها ما يدل على العلو والارتفاع الذي هو مذهب السلف، وقد رد عليه الإمام الطبري في تفسيره[٢].

وينبغي أن نعلم أن موافقته للمعتزلة في بعض آرائهم لا يعني أن يكون معتزلياً ما دام أنه لم يبن كتابه على أصولهم ومعتقداتهم.

قيمة كتابه العلمية:

يعد كتاب «معاني القرآن» للفراء من أقدم كتب تفسير المعاني التي وصلت إلينا، وأحد المراجع الأساسية في بيان معاني القرآن لغوياً، ونحوياً ـ مع التركيز على بيان المذهب الكوفي في النحو ـ، كما أنه من الكتب المهمة في تبيين أوجه القراءات والاحتجاج لها.

وقد رجع إليه كثير من المفسرين واللغويين، ونقلوا منه، وبخاصة في المسائل اللغوية والنحوية.

الكتاب الثاني: البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي:

المؤلف:

هو أثير الدين محمد بن يوسف بن حَيَّان الغرناطي المولد والمنشأ، والمصري الدار والوفاة، كان نحويَّ عصره، ومفسره، ولغويَّه، ومقرئه، وأديبه، ومحدثه، كما عرف بكثرة نظمه للشعر، وترك في كل فن مؤلفاً أو أكثر تلقاها الناس بالقبول ومنها:

- البحر المحيط، ومختصره النهر الماد.
- تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب.
- التذييل والتكميل في شرح التسهيل.
- عقد اللآليء، في القراءات على وزن الشاطبية وقافيتها، وغيرها.

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٩).

(٢) انظر: معاني القرآن للفراء ٢٥/١، وجامع البيان ١٩١/١.

كان مالكي المذهب ن ثم أصبح ظاهرياً، ولما قدم مصر وجد مذهب الظاهر مهجوراً فتمذهب للشافعي.

توفي بمصر سنة (٧٤٥هـ)(١).

الـكـتـاب:

ألف هذا الكتاب أبو حيان في تفسير القرآن الكريم، وقدم له بمقدمة قَيِّمة بين فيها أسباب تأليفه لهذا التفسير، ثم أخذ يفاخر بالأندلسيين لبراعتهم في العلم بكتاب الله، ثم بين ترتيبه لتفسيره، ثم ذكر العلوم التي يحتاجها المفسر، ثم تحدث مثنياً على ابن عطية والزمخشري وعلى تفسيريهما، ثم ذكر سنده في القراءات، وبعض ما ورد في فضائل القرآن وتفسيره، ثم ذكر بعض المتكلمين في التفسير من التابعين، وأشاد فيها بكتاب سيبويه، وعَوّل عليه عند تأليفه التفسير، بل أصبح مقدساً عنده، حتى إنه يشاجر من يتكلم فيه، ومما ذكر أنه كان بينه وبين ابن تيمية مودة، ولكن ابن تيمية تكلم في «الكتاب» لسيبويه، وقال له: إن فيه أكثر من ثمانين خطأ لا تعرفها أنت ولا سيبويه، ومن ثم غضب أبو حيان وهجا شيخ الإسلام.

ثم باشر في التفسير، وتتلخص طريقته في تفسير كل آية بالآتي:

- ❑ الكلام على مفردات الآية لفظة لفظة، ويعد من أكثر التفاسير عناية بالمفردات القرآنية ومن أجلها في شرح الغريب.
- ❑ بيان سبب نزولها إذا كان لها سبب، وما فيها من نسخ أو إحكام.
- ❑ ذكر مناسبتها، وارتباطها بما قبلها.
- ❑ تناول ما فيها من القراءات متواترها وشاذها، وتوجيهها.
- ❑ ذكر أقوال السلف في معاني الآية.
- ❑ بيان ما فيها من غوامض الإعراب وبديع وبيان.

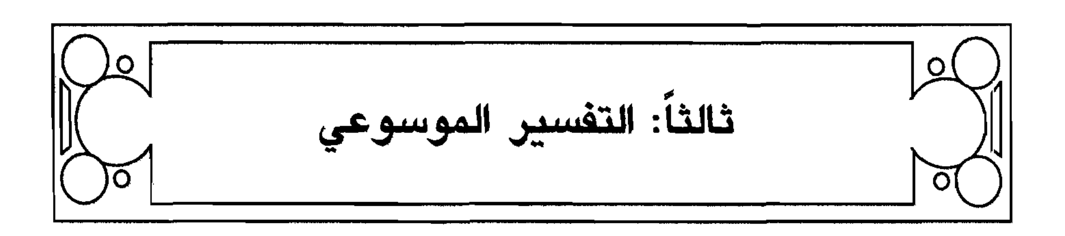
---

(١) انظر: ترجمة في: بغية الوعاة ١/٢٨٠، البدر الطالع ٢/٢٨٨، طبقات المفسرين للداودي ٢/٢٨٦.

- ❑ بيان ما فيها من أحكام شرعية متناولاً أقاويل الفقهاء الأربعة وغيرهم وأدلتهم.
- ❑ يختم الآيات بشرح موجز لها.

ويعد أبو حيان من المقلين في جانب تفسير القرآن بالقرآن، أما في جانب الحديث فنجد أنه يستشهد به، ويبين من خرجه من الأئمة، وهو مقل من ذكر الأحاديث الموضوعة والضعيفة، كما أنه يعد من أكثر كتب التفسير نقداً للإسرائيليات، ومما يلاحظ عليه تأويله لظواهر الآيات المتعلقة بالأسماء والصفات متمشياً مع ما ذهب إليه الأشاعرة في هذا الباب.





ثالثاً: التفسير الموسوعي

ويقصد به التفسير الذي يضم كثيراً من العلوم وأقوال غير المفسرين في التفسير، كأقوال الحكماء والفلاسفة وعلوم الطب والهندسة ونحوها.

ويمثل ذلك تفسير الفخر الرازي «مفاتيح الغيب» أو «التفسير الكبير».

مفاتيح الغيب للفخر الرازي:

المـــؤلـــف:

أبو عبدالله محمد بن عمر بن الحسين الطبرستاني الرازي، الملقب بـــ: «فخر الدين» ابن الخطيب، ولد سنة (٥٤٤هـ) وتوفي سنة (٦٠٦هـ).

إمام عصره في العلوم العقلية، والفقهية، والأصولية، والتفسير، له: المحصول في أصول الفقه، والمطالب العالية في علم الكلام، والمفصل في النحو، والوجيز في الفقه، وتأسيس التقديس أو أساس التقديس في التوحيد.

الـــكـــتـــاب:

ألف هذا الكتاب الفخر الرازي، وقد وقع الخلاف بين الباحثين في إكماله، وقد حقق هذه المسألة الشيخ/عبدالرحمن بن يحيى المعلمي وانتهى إلى أن التفسير الذي من تأليف الفخر الرازي ما يأتي:

- من أول الكتاب إلى آخر تفسير سورة القصص.
- ومن أول تفسير سورة الصافات إلى آخر تفسير سورة الأحقاف.
- وتفسير سورة الحديد والمجادلة والحشر.

❑ ومن أول تفسير سورة الملك إلى آخر الكتاب.

وما عدا ذلك فهو من تصنيف أحمد بن خليل الخوبي أو الخولى المتوفى سنة (٦٣٧هـ).

وذكر احتمالين وهما:

الأول: أن يكون الفخر صنف التفسير كاملاً، ولكن فقدت منه قِطَع هي التي أكملها الخوبي.

الثاني: أن لا يكون فسر تلك السور أصلاً. ويظهر أنه رجح الثاني[١].

وممن أشار إلى هذا القول ابن خلكان، وشمس الدين الذهبي، وابن حجر، وابن قاضي شهبة، وحاجي خليفة[٢]، وقد أيده محمد حسين الذهبي، ومناع القطان، وفهد الرومي[٣].

كما ذهب عدد آخر من العلماء إلى أن الرازي أكمل تفسيره، ومن هؤلاء: الصفدي، ومحمد الفاضل بن عاشور، وعبدالرحيم الطحان، وعبدالعزيز المجدوب[٤] وغيرهم.

وقد طبع الكتاب كاملاً في (٣٢) جزءاً في (١٦) مجلداً دون توضيح للأصل وتكملته، فكأن الطابع متحقق أن الكتاب كله للفخر الرازي.

ومما يذكر أنه لا يلحظ فيه تفاوتاً في المنهج والمسلك، فلا يستطيع القارىء التمييز بين الأصل والتكملة عند من يرى ذلك والله أعلم.

---

(١) انظر: مجموع فيه خمس رسائل، من ضمنها بحث حول تفسير الرازي ص ١٠١ ـ ١٣٤.

(٢) انظر: وفيات الأعيان ٢٤٩/٤، وتاريخ الإسلام ٢٣١/٤٣، والدرر الكامنة ٣٦٠/١، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة، وكشف الظنون ١٧٥٦/٢.

(٣) انظر: التفسير والمفسرون ٢٩٣/١، ومباحث في علوم القرآن ٣٦٧، ودراسات في علوم القرآن ١٧٨.

(٤) انظر: الوافي بالوفيات ١٧٩/٤، التفسير ورجاله ٩٥، مفاتيح الغيب ومنهج الرازي فيه ٥٥، والرازي من خلال تفسيره ٦١.

منهجه في تفسيره:

يمكن أن نبرز منهجه في تفسيره بالنقاط التالية:

- فسر القرآن الكريم آية آية على حسب ترتيبها في المصحف إما بطريقة المسائل، وإما بإيراد المعنى العام.
- وقوفه عند بعض الآيات وتفسيرها تفسيراً موضوعياً بجمع الآيات المرتبطة بالموضوع[(١)].
- اهتمامه بذكر المناسبات بين الآيات، ومحاولة ربطها ببعضها وأحيانا يذكر عدة أوجه لذلك، ويعد من أوائل المفسرين الذين اهتموا بهذا الجانب، واستفاد منه الكثير من المفسرين بعده.
- اهتمامه بذكر الأحكام الفقهية ومذاهب الفقهاء فيها، مع نصرته لمذهبه الشافعي، وجعل الحق في جانبه.
- استطراده بذكر بعض العلوم المختلفة مما هو بعيد عن التفسير كالعلوم الرياضية والطبيعية، والفلك، وعرض أقوال الفلاسفة ومن هنا قال أبو حيان: جمع الإمام الرازي في تفسيره أشياء كثيرة طويلة لا حاجة بها في علوم التفسير، ولذلك قال عنه بعض العلماء: فيه كل شيء إلا التفسير[(٢)]، وإن كانت هذه المقولة قد ترددت على ألسنة كثير من الناس إلا أنها محل نظر وقد لطف العبارة أبو الحسن علي السبكي فقال: «ما الأمر كذا، إنما فيه مع التفسير كل شيء»[(٣)].
- ذكره لأسباب النزول، وإن كان لا يتقيد بذكر الصحيح منها.
- ذكره لبعض النواحي اللغوية من بيان المعنى والإعراب والتصريف.

---

(١) انظر: تفسيره ٢١٣/١ تفسير الآية (٣٤) من سورة البقرة.
(٢) انظر: الإتقان ٢٤٣/٤ النوع التاسع والسبعون ولم أجده في مقدمة أبي حيان.
(٣) الرازي من خلال تفسيره ٨٠.

- ذكره للقراءات، وفي الغالب ينسبها لمن قرأ بها.
- ولعه بذكر الاستنباطات والاستطرادات في تفسيره، مما جعل الكتاب أشبه ما يكون بموسوعة في علم الكلام وفي علوم الكون والطبيعة وفي علم الفقه على اختلاف مذاهبه ومسائله، واشتماله على كثير من الأخبار واللغة والأدب.

ومما ذكره في تفسيره مدافعاً عن منهجه ومتوقعاً وجود من ينتقده حيث قال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾(١) «ربما جاء بعض الجهال والحمقى، وقال: إنك أكثرت في تفسير كتاب الله من علم الهيئة والنجوم وذلك على خلاف المعتاد، فيقال لهذا المسكين: إنك لو تأملت في كتاب الله حق التأمل لعرفت فساد ما ذكرته.... ثم يقرر ذلك»(٢).

- رده على المعتزلة، فهو يعرض لمذهبهم ثم يرد عليه، إلا أنه في بعضها لا يكون الرد فيها كافيا ولا شافياً.

الملحوظات عليه:

- تقريره لعقيدة الأشعرية ومناصرته لها، وقد وصفه شيخ الإسلام ابن تيمية بالجهمي الجبري(٣)، وذكر أنه يشكك المسلمين وغيرهم في أكثر المواضع، وأن الغالب عليه التشكيك والحيرة(٤).

وقال فيه الشيخ عبدالرحمن الوكيل: وهو من أكبر أئمة الأشاعرة الذين أوغلوا في التأويل(٥) وقد تصدى له شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه «تلبيس الجهمية» أو «نقض التأسيس» فرد على كتابه «تأسيس التقديس» وبين فيه أحواله وتناقضه وقواعده التي أسس عليها بنيانه.

---

(١) سورة الأعراف الآية (٥٤).
(٢) انظر: تفسيره ١٤/١٢٢.
(٣) الجبرية: ينفون انقسام الفعل في نفسه إلى حسن وقبيح ١٦/٢٣٦.
(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٦/٢١٣.
(٥) الصفات الإلهية بين السلف والخلف ١٨٠.

وفي التفسير اعتمد في تأويل الصفات على الزمخشري، الذي يردده ويطوره ويكثر منه الوجوه.

وإذا مر على مذهب أهل السنة للرد عليه سماه باسم المجسمة.

وقد قيل إنه رجع إلى مذهب السلف والله أعلم.

❑ ولعه بإيراد الشبه وتقصيره في حلها، قال ابن حجر:

«وكان يعاب بإيراد الشبهة، ويقصر في حلها، حتى قال بعض المغاربة: يورد الشبه نقداً ويحلها نسيئة»(١)، وفي ذلك إشارة إلى أنه يورد الشبهة ويؤجل الرد عليها في مواضع أخرى.

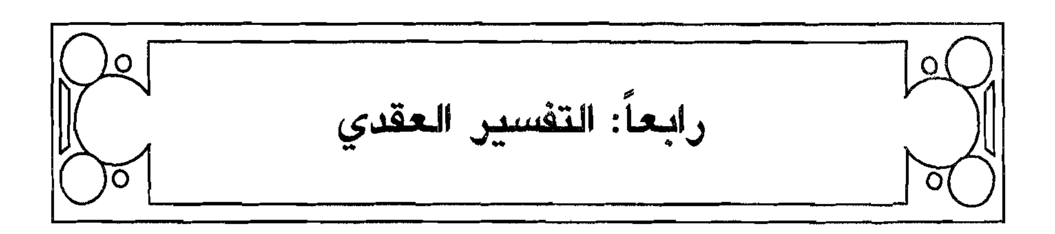
وقال الطوفي: وكتاب مفاتيح الغيب ولعمري كم فيه من زلة وعيب. وذكر أن سراج الدين السرمساحي المغربي صنف كتاباً بعنوان «المآخذ على مفاتيح الغيب» وبين ما فيه من البهرج والزيف في نحو مجلدين، وذكر أنه يورد شبه المخالفين في المذهب والدين على غاية ما يكون من القوة، وإيراد جواب أهل الحق منها على غاية ما يكون من الوهاء(٢).

❑ استطراده في مسائل وأبحاث بعيدة الصلة عن التفسير.



(١) لسان الميزان ٤/٤٢٧.

(٢) انظر: الاكسير في علم التفسير لنجم الدين الطوفي سليمان بن عبدالقوي ٢٦.



رابعاً: التفسير العقدي

ويقصد به التفسير التي قصد فيه صاحبه تقرير عقيدته من خلال التفسير.

وقد يسمى بالتفسير البدعي أو التفسير المذموم، أو تفسير الفرق التي خالفت المذهب الحق مذهب أهل السنة والجماعة.

والذين ألفوا فيه جعلوا القرآن في خدمة عقيدتهم وآرائهم الباطلة، ويمثله عموماً تفاسير المبتدعة الذي جعلوا التفسير مطية لها، لعرض آرائها ومذاهبها الباطلة.

وأبرز من يمثل هذا الاتجاه الزمخشري في تفسيره الكشاف، وهذا تعريف موجز عنه:

الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري:

المؤلف:

هو أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري،الملقب بـ «جار الله»[1] الحنفي مذهباً، المعتزلي معتقداً، ولد سنة (٤٦٧هـ) بزمخشر إحدى قرى خوارزم،ثم قام برحلات علمية إلى بغداد ومكة التي ألف فيها تفسيره، ثم عاد إلى خوارزم وتوفي فيها سنة (٥٣٨هـ).

وهو أحد أئمة اللغة البارزين، وكان عالماً بكثير من العلوم كالفقه

(١) لقب بذلك لأنه جاور مكة زمناً فعرف به.

والأصول والتفسير... ثم اعتنق مذهب الاعتزال ودعا إليه وصار من أئمة المعتزلة والمنافحين عنهم، وله مؤلفات كثيرة منها: أساس البلاغة، والفائق في غريب الحديث، والمفصل في النحو، وغيرها.

الكتاب:

ألف هذا الكتاب الزمخشري حين عرض عليه بعض أصحابه بمكة تأليف كتاب في التفسير يكشف لهم ما يشكل عليهم فأجابهم لطلبهم.

وقد اعتنى فيه ببيان وجوه إعجاز القرآن وإظهار جمال نظمه وبلاغته ويمكن إيجاز منهجه في النقاط التالية:

- ❑ اهتمامه بالنواحي البلاغية في القرآن الكريم وبيان ما في الآيات من ضروب الاستعارات والمجازات والأشكال البلاغية الأخرى، وكشف عن سر بلاغة القرآن ووجوه إعجازه، وأوضح ما في الآيات من معان دقيقة تفهم من تركيبها اللفظي.
- ❑ عرضه للتفسير بقالب أدبي رائع، وعبارة إنشائية بديعة خالية من الحشو والتطويل مما يدل على براعته وقوة ذهنه.
- ❑ ذكره لبعض المسائل الفقهية المتعلقة بالآيات مع اعتداله وعدم تعصبه لمذهبه الحنفي.
- ❑ إقلاله من ذكر الأخبار الإسرائيلية، وإن ذكرها فإنه يصدرها بلفظ: روي، أو تفويض علمها إلى الله سبحانه وتعالى، أو ينبه على ضعفها، وقد ذكر بعض الإسرائيليات دون أن ينبه عليها كما في قصة يأجوج ومأجوج في سورة الكهف.
- ❑ اعتماده في بيان المعاني على لغة العرب وأساليبهم في الخطاب وكان كثير الاستشهاد بالشعر.
- ❑ ذكره لبعض الأحاديث الموضوعة كالحديث المروي عن أبي بن كعب في فضائل السور، وما روي في قصة زينب بنت جحش وحاول تبريره.

- حشوه له بمعتقده الاعتزالي، فمال بالألفاظ القرآنية إلى المعاني التي تشهد لمعتقده، وأحياناً يتأولها بحيث لا تتنافى معه[١].
- اعتماده على الفروض المجازية، وتذرعه بالتمثيل والتخييل فيما يستبعد ظاهره[٢].
- إتباعه طريقة السؤال: إن قلتَ، ويقول في الجواب: قلتُ وهي إحدى طرق التشويق في التعليم وترسيخ المعاني في النفس.

قيمة الكتاب العلمية:

لقد بين كثير من العلماء مزايا «الكشاف» وإعجابهم به، كما نبهوا على عيوبه والمآخذ عليه.

قال السبكي: «واعلم أن الكشاف كتاب عظيم في بابه، ومُصَنِّفَه إمام في فنه إلا أنه رجل مبتدع متجاهر ببدعته، ويضع من قدر النبوة كثيراً، ويسيء أدبه على أهل السنة والجماعة، والواجب كشط ما في الكشاف من ذلك كله»[٣].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ومن هؤلاء[٤] من يكون حسن العبارة فصيحاً ويدس البدع في كلامه، وأكثر الناس لا يعلمون، كصاحب الكشاف ونحوه، حتى إنه يروج على خلق كثير ممن لا يعتقد الباطل من تفاسيرهم الباطلة ما شاء الله».

ثم قال: «وقد رأيت من العلماء المفسرين وغيرهم من يذكر في كتابه وكلامه من تفسيرهم ما يوافق أصولهم التي يعلم أو يعتقد فسادها ولا يهتدي لذلك»[٥].

---

(١) انظر: الكشاف ٢/٥٠٩.
(٢) انظر: الكشاف ٢/٢٢٣.
(٣) معيد النعم ومبيد النقم ٦٦.
(٤) أي: الذين أخطأوا في الدليل والمدلول.
(٥) مقدمة في أصول التفسير ٨٦.

وقال ابن حجر: «وأما التفسير ـ يقصد الكشاف ـ فقد أولع الناس به وبحثوا عليه، وبينوا دسائسه، وأفردوها بالتصنيف ومن رسخت قدمه في السنة وقرأ طرفاً من اختلاف المقالات انتفع بتفسيره ولم يضره ما يخشى من دسائسه»[1].

ومما يلاحظ عليه:

- ❑ تأويله للنصوص التي لا تناسب معتقده وصرفها عن ظاهرها بتكلفات غير مقبولة.
- ❑ ذكره لأهل السنة بعبارات لا تليق، فيعبر عنهم بالجبرية، وتارة ينسبهم إلى الكفر والإلحاد على سبيل التعريض[2].
- ❑ إساءة أدبه مع الرسول ﷺ، حيث قال عند تفسير قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾[3] معناه: أخطأت وبئس ما فعلت[4].
- ❑ إيراده أبياتاً وأمثالاً كثيرة أساسها الهزل والفكاهة وهذا غير مناسب في التفسير.

الدراسات حول الكشاف:

أثار الكشاف حوله نشاطاً علمياً واسعاً منذ ظهوره بين شرح واختصار، أو موافقة وانتقاد، أو تخريج لأحاديث وشرح لشواهده:

وقد ذكر حاجي خليفة قرابة خمسين مصنفاً.

ومن أبرز شروحه وحواشيه:

- ❑ حاشية قطب الدين محمود بن مسعود الشيرازي، المتوفى سنة (٧١٠هـ).

---

(١) لسان الميزان ٦/٤.

(٢) انظر: الكشاف ٣/٤٠٥، ٤٠٦.

(٣) سورة التوبة الآية (٤٣).

(٤) انظر: الكشاف ٢/١٩٢.

- فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، للحسين بن محمد الطيبي، المتوفى سنة (٧٤٣هـ).
- تحفة الأشراف في كشف غوامض الكشاف، ليحيى بن قاسم المعروف بـ «الفاضل اليمني»، المتوفى سنة (٧٥٠هـ).
- درر الأصداف في حل عقد الكشاف، للفاضل اليمني أيضاً.
- الكشاف على الكشاف، لسراج الدين عمر بن رسلان البلقيني، المتوفى سنة (٨٠٥هـ).
- حاشية علي بن محمد المعروف بـ «الشريف الجرجاني»، المتوفى سنة (٨١٦هـ)، وصل فيها إلى الآية (٢٤) من سورة البقرة وهي مطبوعة بحاشية الكشاف.

وممن اعتنى بالرد على مسائل الاعتزال فيه:

- ناصر الدين أحمد بن المنير الاسكندراني المالكي، المتوفى سنة (٦٨٣هـ)، في كتابه «الانتصاف من الكشاف»، وهو مطبوع بهامش الكشاف.
- أبو علي عمر بن محمد بن خليل السكوني المغربي، المتوفى سنة (٧١٧هـ)، في كتابه «التمييز لما أودعه الزمخشري من الاعتزالات في تفسير الكتاب العزيز».

وممن خرج أحاديثه:

- جمال الدين عبدالله بن يوسف الزيلعي الحنفي، المتوفى سنة (٧٦٢هـ)، وهو مطبوع.
- الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، المتوفى سنة (٨٥٢هـ)، لخص كتاب الزيلعي وسماه «الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف»، مطبوع في مجلد.

ومـمن اخـتـصـره:

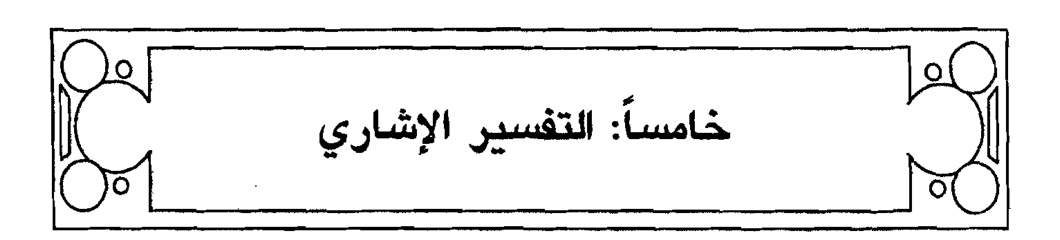
- ❑ محمد بن علي الأنصاري، المتوفى سنة (٦٦٢هـ)، اختصره وجرده من الاعتزال.
- ❑ أبو البركات عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي الحنفي، المتوفى سنة (٧٠١هـ)، في تفسيره «مدارك التنزيل وحقائق التأويل».
- ❑ القاضي ناصر الدين البيضاوي، المتوفى سنة (٦٩٢هـ)، في كتابه «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» وهو سيد المختصرات كما قال ذلك السيوطي في نواهد الأبكار، قال حاجي خليفة: «لخص الكشاف وأجاد وأزال عنه الاعتزال وحرر واستدرك»[1].

ومـمـن شـرح شـواهـده:

- ❑ خضر الموصلي، المتوفى سنة (١٠٠٧هـ) في كتابه «الإسعاف بشرح أبيات القاضي والكشاف».
- ❑ محب الدين أفندي، المتوفى سنة (١٠١٦هـ) في كتابه «تنزيل الآيات على الشواهد من الأبيات»، وهو مطبوع آخر التفسير.



(١) كشف الظنون ٢/١٤٨١.



خامساً: التفسير الإشاري

التفسير الإشاري: هو تأويل القرآن على خلاف ظاهره لإشارات خفية تظهر لأرباب السلوك والمجاهِدةِ للنفس.

وذلك بأن يرى المفسر معنى آخر غير المعنى الظاهر قد تحتمله الآية الكريمة.

ويدعي بعض المتصوفة[1] الذين انبروا إلى التفسير بالإشارة أن الرياضة الروحية التي يأخذ بها الصوفي نفسه تصل إلى درجة ينكشف له فيها ما وراء العبارات القرآنية من إشارات قدسية، وتنهل على قلبه من سحب الغيب ما تحمله الآيات من المعارف السبحانية.

أقسام التفسير الإشاري:

للمتصوفة في تفسيرهم للقرآن بالإشارة قسمان:

❑ تفسير صوفي نظري:

وهو التصوف الذي يقوم على البحث والدراسة، فينظر هؤلاء المتصوفة إلى القرآن نظرة تتمشى مع نظرياتهم، وتتفق وتعاليمهم، فهو ينبني على مقدمات علمية تنقدح في ذهن الصوفي أولاً، ثم يُنَزِّل القرآن عليها بعد ذلك.

---

(١) إذا أريد بالتصوف السلوك التعبدي المشروع الذي تصفو به النفس، وترغب عن زينة الدنيا بالزهد والتقشف والعبادة، فهذا لا إشكال فيه، ولكن التصوف أصبح فلسفة نظرية خاصة لا صلة لها بالورع والتقشف، واشتملت فلسفته على أفكار تتنافى مع الإسلام وعقيدته، ويعتبر ابن عربي زعيم التصوف الفلسفي النظري.

وليس من السهل أن يجد الصوفي في القرآن ما يتفق صراحة مع تعاليمه، ولا ما يتمشى بوضوح مع نظرياته التي يقول بها، إذ أن القرآن جاء لهداية الناس لا لإثبات نظرية من النظريات، ربما كانت في الغالب مستحدثة وبعيدة عن روح الدين وبداهة العقل.

ويعتبر ابن عربي محي الدين شيخ هذه الطريقة في التفسير فمن يقرأ شيئاً من كتبه يجده يطبق كثيراً من الآيات القرآنية على نظرياته الصوفية الفلسفية[(١)].

❑ تفسير صوفي إشاري:

وهو تأويل آيات القرآن على خلاف ما يظهر منها بمقتضى إشارات خفية تظهر لأرباب السلوك.

وهو لا يرتكز على مقدمات علمية، بل يرتكز على رياضة روحية يأخذ بها الصوفي نفسه حتى يصل إلى درجة تنكشف له فيها من سجف العبارات هذه الإشارات القدسية.

ويستند هؤلاء إلى ما ينسب إلى رسول الله ﷺ من أن القرآن له ظاهر وباطن حيث يقول الرسول ﷺ:

«ما أنزل الله ﷻ آية إلا لها ظهر وبطن، وكل حرف حدٌّ، وكل حدٍّ مُطَّلَع»[(٢)].

فالظاهر: عندهم هو الذي ينساق إليه الذهن قبل غيره، والباطن هو ما وراء ذلك من إشارات خفية تظهر لأرباب السلوك ومن صفت نفوسهم.

والصحيح: أن ظاهر القرآن: هو المفهوم العربي المجرد، وباطنه: هو مراد الله تعالى به، وغرضه: الذي يقصد إليه من وراء الألفاظ والتراكيب، وكل معنى مستنبط من القرآن غير جار على اللسان العربي ليس من تفسير القرآن في شيء.

---

(١) التفسير والمفسرون ٢/٣٣٩.

(٢) الحديث أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ٤٢، في باب: فضل علم القرآن.

ولهذا قال الزركشي: «كلام الصوفية في تفسير القرآن فقيل ليس تفسيراً، وإنما هي معانٍ ومواجيد يجدونها عند التلاوة»[(١)].

وقال ابن الصلاح عن حقائق التفسير للسلمي: «فإن كان اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر»[(٢)].

وقال النسفي: «النصوص على ظاهرها والعدول عنها إلى معانٍ يدعيها أهل الباطن إلحاد»[(٣)].

شروط قبول التفسير الإشاري:

اشترط ابن القيم في قبول التفسير بالإشارة أربعة شروط:

- أن لا يناقض معنى الآية.
- أن يكون معنى صحيحاً في نفسه.
- أن يكون في اللفظ إشعار به.
- أن يكون بينه وبين معنى الآية ارتباط وتلازم. يقول: «وإذا اجتمعت هذه الشروط كان استنباطاً حسناً»[(٤)].

وذكر د. محمد حسين الذهبي أربعة شروط يجب أن تتوفر في التفسير الإشاري حتى يكون تفسيراً مقبولاً:

- أن لا يكون التفسير الإشاري منافياً للظاهر من النظم القرآني.
- أن يكون له شاهد شرعي يؤيده.
- أن لا يكون له معرض شرعي أو عقلي.

---

(١) البرهان في علوم القرآن ٢/١٧٠.
(٢) انظر قوله في البرهان ٢/١٧١.
(٣) انظر قوله في الإتقان في علوم القرآن ٤/٢٢٤، النوع الثامن والسبعون.
(٤) مباحث في علوم القرآن ٣٥٧.

- أن لا يدعي أن التفسير الإشاري هو المراد وحده دون الظاهر، بل لا بد أن نعترف بالمعنى الظاهر أولاً[١].

ومعنى كونه مقبولاً: عدم رفضه لا وجوب الأخذ به، أما عدم رفضه، فلأنه غير مناف للظاهر ولا بالغ مبلغ التعسف، وليس له ما ينافيه أو يعارضه من الأدلة الشرعية.

وأما عدم وجوب الأخذ به: فلأنه من قبيل الوجدانيات، والوجدانيات لا تقوم على دليل ولا تستند إلى برهان، وإنما هو أمر يجده الصوفي من نفسه وسر بينه وبين ربه[٢].

ومن أمثلة التفسير الإشاري التي يقف العقل أمامها حائراً وعاجزاً عن تلمس محمل لها تحمل عليه حتى تبدو صحيحه وتصبح مقبولة:

- ما يروونه عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه فسر: ﴿الٓمٓ ①﴾ فقال: «الألف: الله، واللام: جبريل، والميم: محمد ﷺ وأن الله أقسم بنفسه وجبريل ومحمد عليهما السلام»[٣].

- وأيضاً فسر التستري البسملة بقوله: «بسم الله الرحمن الرحيم، الباء: بهاء الله عز وجل، والسين: سناء الله عز وجل، والميم: مجد الله عز وجل، والله: هو الاسم الأعظم الذي حوى الأسماء كلها وبين الألف واللام منه حرف مُكَنّى غيب من غيب إلى غيب، وسر من سر إلى سر، وحقيقة من حقيقة إلى حقيقة، لا ينال فهمه إلا الطاهر من الأدناس...»[٤].

- وأيضاً فسر أبو عبدالرحمن السلمي ـ صاحب حقائق التفسير ـ فاتحة البقرة: ﴿الٓمٓ ①﴾ بقوله: «الم: قيل: إن الألف ألف الوحدانية، واللام: لام اللطف، والميم: ميم الملك، معناه: من وجدني على

(١) التفسير والمفسرون ٢/٣٧٧، ٣٧٨.
(٢) انظر: المرجع السابق.
(٣) تفسير القرآن العظيم للتستري ١٢، التفسير والمفسرون ٢/٣٦١.
(٤) تفسير التستري ٩، والتفسير والمفسرون ٢/٣٦٢.

الحقيقة باسقاط العلائق والأغراض تلطفت له... فأخرجته من رق العبودية إلى الملك الأعلى...

وقيل: معنى الألف: أي أفردت سرك، واللام: ليت جوارحك لعبادتي، والميم: أقم معي بمحو رسومك وصفاتك[١]...

- أيضاً قال التستري عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾[٢]، أول بيت وضع للناس بيت الله ﷻ بمكة هذا هو الظاهر، وباطنها: الرسول يؤمن به:

من أثبت الله في قلبه التوحيد من الناس[٣].

- ومن ذلك أيضاً تفسير التستري لقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾[٤]، حيث يقول ـ بعد ذكره للتفسير الظاهر: «وأما باطنها: فالجار ذي القربى: هو القلب، والجار الجنب: هو الطبيعة، والصاحب بالجنب: هو العقل المقتدي بالشريعة، وابن السبيل: هو الجوارح المطيعة لله»[٥]. وغير ذلك من الأمثلة.

فهذه المعاني التي ذكروها لا تعرفها العرب، وليس في سياق الآيات ما يدل على ما ذكروه، ولم ينقل لنا عن السلف الصالح من الصحابة والتابعين تفسير للقرآن يماثل هذا التفسير أو يقاربه، ولو كان عندهم معروفاً لنقل.

---

(١) حقائق التفسير ٩، والتفسير والمفسرون ٢/٣٦٣.
(٢) سور آل عمران الآية (٩٦).
(٣) تفسير التستري ٤١ ـ ٤٥.
(٤) سورة النساء الآية (٣٦).
(٥) تفسير القرآن العظيم للتستري ٤٥، والتفسير والمفسرون ٢/٣٦٤.

ومن يحسن الظن بهؤلاء القوم يحمل هذه المعاني على أنها ليست من قبيل التفسير، وإنما هي ذكر منهم لنظير ما ورد به القرآن، وهذا أيضاً ليس هذا محله.

أشهر كتب التفسير الإشاري:

ينقسم الذين فسروا القرآن بالتفسير الإشاري إلى أربعة أقسام:

الأول: من العلماء من جعل همه في التفسير (الظاهر) وتعرض للتفسير الإشاري بقدر، مثل:

- نظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري المعروف بالنِّظام الأعرج أصله من بلدة «قم» توفي بعد سنه (٨٥٠هـ) وتفسيره اسمه «غرائب القرآن ورغائب الفرقان» وقد اختصره من التفسير الكبير للفخر الرازي وضم إليه ما جاء في الكشاف وغيره من التفاسير، وبعد أن يفرغ من تفسير الآية يتكلم عن التفسيرات الإشارية للآيات القرآنية التي يفتح الله بها على عقول أهل الحقيقة من المتصوفة!
- أبو الثناء شهاب الدين محمود أفندي الآلوسي البغدادي المتوفى سنة (١٢٧٠هـ) وتفسيره اسمه «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني» ويعد موسوعة تفسيرية قيمة جمع فيه جل ما قاله علماء التفسير الذين تقدموا عليه مع النقد والترجيح إلا أنه بعد أن يفرغ من الكلام عن كل ما يتعلق بظاهر الآيات يتكلم عن التفسير الإشاري.

الثاني: ومنهم من غلبت عليه ناحية التفسير الإشاري ومع ذلك فهو يتعرض أحياناً للتفسير الظاهر: كسهل بن عبدالله التستري في كتابه «تفسير القرآن العظيم» المتوفى سنة (٢٧٣هـ) وهو لم يتعرض لتفسير القرآن آية آية بل تكلم عن آيات محدودة ومتفرقة من كل سورة، والظاهر أنه لم يؤلف هذا الكتاب بل هي أقوال له جمعها أبو بكر البلدي، وهو مطبوع في مجلد صغير.

الثالث: ومنهم من وجه همته كلها للتفسير الإشاري ولم يحم حول المعاني الظاهرة.

- كما فعل أبو عبدالرحمن محمد بن الحسين السلمي المتوفى سنة (٤١٢هـ) وكتابه اسمه «حقائق التفسير» ولم يتعرض فيه لظاهر القرآن وإنما جرى فيه على نمط واحد وهو التفسير الإشاري.
- وأبو محمد الشيرازي المتوفى سنة (٦٦٦هـ) في كتابه «عرائس البيان في حقائق القرآن».

الرابع: ومنهم من أعرض عن الظاهر وجمع في تفسيره بين التفسير الصوفي والنظري والتفسير الصوفي الإشاري.

- كما فعل صاحب التفسير المنسوب لابن عربي.

*** خاتمة في (مناهج المفسرين):**

لدراسة التفسير ونشأته ومناهج مفسريه ظهر علم يعنى بذلك سمي بـ: «مناهج المفسرين»، وإليك نبذة يسيرة عن هذا العلم:

مناهج المفسرين:

هذه العبارة مركبة من كلمتين، ولتعريفها لا بد من تعريف كل كلمة أولاً، ثم تعريفها بعد أن صارت مصطلحاً على هذا النوع من العلم.

مناهج: جمع منهج وهو مأخوذ من النهج، يقال نهج الطريق نهجاً أي: وضح واستبان، والنهج والمنهج والمنهاج واحد بمعنى الطريق الواضح، قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[1] أي: شريعة تعملون بها، وطريقاً واضحاً في الدين تسيرون عليه.

وفي حديث العباس: «لم يمت رسولُ الله ﷺ حتى ترككم على طريق ناهجة» أي: واضحة بينة[2].

---

(١) سورة المائدة الآية (٤٨).

(٢) النهاية في غريب الحديث ٥/١٣٤.

المفسرين: جمع المفسر وهو الذي وجدت لديه أهلية فهم كتاب الله والكشف عن معانيه حسب الطاقة البشرية.

أما «مناهج المفسرين»: فمعناه بعد أن صار علماً على هذا النوع من العلم فهو: بيان الأساليب والطرق التي اتبعها المفسرون لبيان معاني القرآن الكريم فيه بدراسة خصائص وقيمة كل تفسير.

وقد أصبحت هذه الدراسات علما وفناً قائماً بذاته، وانبرى له الباحثون وطلبة العلم فكتبوا فيه، وتنوعت هذه الكتابة إلى أنواع عدة منها:

١ ـ الكتابة عن جانب واحد من جوانب تفسير واحد، ومن أمثلته:

❑ الإمام ابن جرير ودفاعه عن عقيدة السلف، لأحمد العوايشة (رسالة دكتوراه».

❑ القراءات في ابن جرير الطبري في ضوء اللغة والنحو، لأحمد خالد بابكر «رسالة دكتوراه».

٢ ـ الكتابة عن مفسر واحد والبحث في أعماق تفسيره، والكتابة عنه من جميع جوانبه، ومن أمثلة ذلك:

❑ الطبري المفسر، للسيد أحمد خليل «رسالة دكتوراه».

❑ محمد بن جرير الطبري ومنهجه في التفسير، للدكتور/ محمود محمد شبكة «رسالة دكتوراه».

❑ الإمام ابن كثير المفسر، للدكتور/مطر بن أحمد مسفر الزهراني «رسالة ماجستير».

❑ منهج ابن كثير في التفسير، للدكتور/سليمان بن إبراهيم اللاحم «رسالة ماجستير».

❑ القرطبي مفسراً، للدكتور/علي بن سليمان العبيد «رسالة ماجستير».

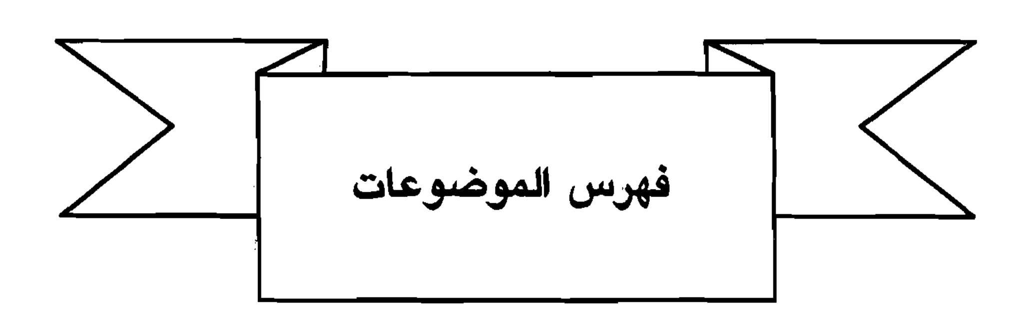
❑ القرطبي ومنهجه في التفسير، للدكتور/القصبي محمود زلط «رسالة دكتوراه».

- ❑ مكي بن أبي طالب وتفسير القرآن، للدكتور/أحمد حسن فرحات.

٣ ـ الكتابة عن عدد من المفسرين وبيان مناهجهم في تفاسيرهم، ومن أمثلة ذلك:

- ❑ التفسير والمفسرون، د. محمد حسين الذهبي.
- ❑ مناهج المفسرين، د. مساعد مسلم آل جعفر، ومحيي هلال السرحان.
- ❑ مناهج المفسرين، د. منيع عبدالحليم محمود.
- ❑ التفسير ورجاله، محمد الفاضل بن عاشور.





الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

